



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة وهران

كلية اللغات والآداب والفنون

قسم اللغة العربية وآدابها

# ظاهرة التكرار في القرآن الكريم

أغراض وأسرار ❖ ❖

بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه

تحت إشراف الأستاذ الدكتور:

بكري عبد الكريم

إعداد الطالب:

شريقن مصطفى

## السادة أعضاء لجنة المناقشة:

- |                   |                  |                 |        |
|-------------------|------------------|-----------------|--------|
| - بوعناني مختار   | أستاذ            | جامعة وهران :   | رئيس.  |
| - بكري عبد الكريم | أستاذ            | جامعة وهران :   | مقرر.  |
| - حبار مختار      | أستاذ            | جامعة وهران :   | مناقش. |
| - ساسي عمار       | أستاذ            | جامعة البليدة : | مناقش. |
| - طول محمد        | أستاذ            | جامعة تلمسان :  | مناقش. |
| - موسوني محمد     | أستاذ محاضر - أ- | جامعة تلمسان :  | مناقش. |

السنة الجامعية: 2010 - 2011



المقدمة

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام المرسلين،  
وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

وبعد:

فيتناول هذا البحث موضوع ظاهرة التكرار في القرآن الكريم، ذلك أنّ ظاهرة التكرار في الأساليب على العموم مستكرهة معيبة في العرف النقديّ، بيد أنها ظاهرة مُميّزة للأسلوب القرآني ملحوظة فيه لا يُخطئها مُتتبع للقرآن تلاوةً أو إنصاتا.

ووجود هذا الأسلوب المُستَهجن في أفصح كلامٍ وأرقى بيانٍ يدلّ بلا ريب على سوء تقديرٍ وسطحية إدراكٍ في بعض الأحكام على هذا الأسلوب.. ويستوجبُ من الباحث إعادة النظر في خصائص هذا الأسلوب، وبحثه بعمق وتؤدّة يجدد المقاييس ويغيّر الأحكام، وبالتالي يجعل لهذا الأسلوب مكانا ومنزلة في إنشاء الباحثين والكتاب في ثقة ودراية دون تحرّج من الحكم السائد على التكرار، حتّى لا يُجرم الذوّاقون للآداب الراقية والأساليب العالية من جمال التكرار ولطاقة جرسه ومُتعة بيانه وروعة أسراره. وهذا البحثُ يُركز على هذا الأسلوب في القرآن الكريم دراسة واستنباطاً، أملاً تطبيقه على اللغة العربية توخيا خدمتها، وترقية أساليبها.

وتمثّل إشكالية هذا البحث، في أنّ أسلوب التكرار لم تضبط له قواعد عمليّة، ولم تحدّد دقائق أساليبه ولا الفروق بين أنواعه فلا يستند تحليل أساليبه إلى مقاييس علمية، ولا إلى توجيهات فنية تقرب الأنظار، وإنما كل الأمر عند أكثرهم أنّ حسنّه ما لاءم المقام وطابق الحال وهذا حكم عام ينطبق على كل أبواب البلاغة؛ وإنما نريد أن يكون للتكرار أحكام خاصّة به، تلاءم خصوصية أسلوبه ...

وإنَّ المتأمل في الأحكام المختلفة على أساليب التكرار في النصوص العربية قديمها وحديثها يلمس تناقضًا بينًا:

فأقلام الأساتذة الحمراء في ما يكتب الناشئة - على الخصوص - لا تعرف هواده في كل ما بدا فيه تكرار.. حتى قيل على سبيل التندر أنَّ مُدرّسة للعربية قالت لطلابها وهي تعرض عليهم سورة الكافرون أو تلقنهم إياها، قالت لهم أشطبوا (ولا أتم عابدون ما أعبد) لأنها زائدة.<sup>1</sup>

ولم يفرّق هؤلاء فيه بين صحيحه وسقيمه، ولا ترى إشارة إلى سبب رفض ما كرر، ولا تعليل تهجينه فعيبه أنه تكرار وكفى.

بينما إذا وقّف على تكرار في آية ما من القرآن الكريم قالوا إنه البلاغة الباهرة والإعجاز الكامل. وإني أزعّم أن أكثرهم يقولها مُتابعة لما قيل، وترديدًا للحكم العام السائد على بلاغة القرآن - وهي حق - لكنه يردّد ذلك دون تبصّر، أو وُضِعَ يَدٍ على تلك الملامح الرائعة التي تنتظر من يبحثها؛ لأنّه إذا قيل له وُضِحَ ودلّل على ذلك الجمال، وبين صلته بأسلوب التكرار، تلكاً وتكلف.

ولقد وقفت على أحكام كثير من المفسّرين والباحثين بعد أن يمدح تكرارات القرآن، في موطن أظهر الاسم فيه، بدل الإضمار، أجده في موطن آخر آثر القرآن فيه الإضمار على الإظهار، يجعل العلة هي تحاشي القرآن تكرار الاسم، فأضمره، وكأنّ إظهار الاسم عيب.

ولا تجده يفرق بين الأسلوبين والمقامين في تحليل واضح منطقي مستساغ في العربية، بحيث يعتري الباحث المتفحص التباسٌ وغموض بين حدود جمال التكرار وقبحه أو بين صحيحه وسقيمه.

كما أن حدود التكرار نفسها لم تضبط، وكذلك لم تُحصَر أنواعه وأشكاله، باعتبارات البنية، والموقع والشكل والموضوع...

1- ذكر لي هذه النادرة المصرية، الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين حفظه الله.

فهناك تكرار الحروف، والكلمات، والجمل، والتكرار الخارجي، والداخلي وتكرار المطالع والخواتم ... وما إلى ذلك.

وبلا ريب ستختلف الأحكام، وتنوع القواعد، متى ضبطت الأقسام والأنواع. ومن أحوج أساليب التكرار، إلى فقه استعمال، وضبط قواعد تكرار حروف النفي في السياقات المختلفة؛ إذ لا تلمس في تناولها، في التحليل وفي الاستعمال، عناية بالفروق في الدلالات والوظائف، بين ذكرها وحذفها أو طيها. فأكثر المفسرين يفسرونها بمعنى واحد وكأنها تركيب واحد كتكرار "لا" في ﴿ ولا تستوي الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ولا الأحياء ولا الأموات ﴾.

و"ما" الموصولية وحذفها في ﴿ ما في السموات وما في الأرض ﴾ ﴿ وما في السموات والأرض ﴾.

ولولا وجود حشدٍ من النماذج التكرارية في القرآن الكريم التي لا مثيل لها، لَمَا فكرنا في بحث جمال التكرار، ورصد تصاريفه، والتأمل في أسراره وأغراضه بغية الظفر بما يخدم اللغة العربية ويثري أساليبها.

وإنّ هدي من هذا البحث متعدد الجوانب، فمنه:

- 1- التوصل إلى التفريق والتمييز بين التكرار المحمود والتكرار المعيب، بوضع الضوابط العامة، ليتمكن من استغلال هذا الأسلوب للتعبير والكتابة بلا حرج.
- 2- تقسيم التكرار في القرآن وتنسيقه وفق منظور معين.
- 3- تعيين الأغراض والأسرار لكل صورة مما أورد.
- 4- إبراز جانب من الإعجاز البياني في هذا الأسلوب الشرود، الذي قلما يسلم راكمه من السقوط.
- 5- الوقوف على مظاهر جمال التكرار ترغيباً في الإقبال على كتاب الله والعناية به حفظاً ودراسة..
- 6- ترسيخ ملكة التنبّه والتأمل في كتاب الله، والاستشعار بعظمة الخالق وجلاله، من خلال التأمل في آياته.

7- تسهيل حفظ المتشابه وتيسير ضبطه، بربطه بالمعنى وإجماعه بالغرض. مع اعتبار موقعه ليسهل استرجاعه دون تردد أو توهم في محّاله.

وإنّ السؤال الرئيس الذي يطرحه البحث هو:

ما هي مميزات التكرار السليم البليغ؟ وما شروط صحته وضوابط سلامته؟

كما أن هناك أسئلة نوعية تنبني على الإشكالية الأساسية:

- ما هي أغراض التكرار العامّة؟ - وما هي أسراره الخاصة؟ - وما أنواعه وأقسامه؟

وللإجابة عن السؤال الرئيس، ترصد نماذج من القرآن باعتباره النموذج الأرقى لهذا الأسلوب، فتدرس وتحلل، وتستخرج أبرز السمات. وعن طريق مقارنتها بمثيلاتها تستنبط الشروط والضوابط والمميزات والأغراض... وما إلى ذلك.

ويستحسن للاطمئنان إلى تلك النتائج، أن يوسّع مجال تطبيقها، فيعمد إلى بعض النصوص الراقية الفصيحة في غير القرآن الكريم: في الشعر الجاهلي والحديث الشريف، وخطب الخلفاء، والفصحاء والبلغاء، وإن لم تُتيح لنا ظروف البحث، مساحة ووقتاً، التعرّض لهذه النصوص؛ فذلك يقتضي بحثاً مستقلاً، أساسه ومنطلقه، بحثنا الذي نحن بصدده.

ثم يمكن - بعد ذلك - الحكم على ضعف التكرار وسقوطه حين يخجل بالشروط أو يخرج عنها ويشذ، على أن يستأنس ببعض الأحكام النقدية على بعض مظاهر التكرار في بعض الآيات أو القصائد كالذي ورد في الوساطة أو الموازنة أو العمدة، أو الممتع أو الصناعتين وما إلى ذلك.

وقد تكون الضوابط توجيهية عامّة تستقطب كل تكرار جميل مقبول.. بحيث ينبغي أن يكون الخارج عنها رديئاً ركيكاً بناء على معايير منطقية؛ لذلك يلزم أن تُوضَع ضوابط للرداءة أيضاً، حتى يتولّد لدينا ضابط ثالث للتكرار المقبول الذي لم يتصف بأحد الوصفين لا الجودة ولا الرداءة.

وللإجابة عن الأسئلة الفرعية نحاول التوسّع في النماذج لرصد ولحصر الأنواع وتقييد الأغراض العامّة، والتركيز على الأسرار الخاصة، التي لا تكاد تحصر. ولتبقى دليلاً

على استحالة الإحاطة بالخصوصيات فهي من باب ما لا يُرصد ولا يُوصد. ويبقى مفتوحًا يقاس عليه ويستمد منه...

وقد تناولت موضوع البحث في: مقدمة ومدخل وستة فصول وخاتمة.

أما المقدمة فتحدثت فيها عن أهمية هذا البحث وأسباب الاختيار، والهدف منه، وخطة البحث ومنهجي فيه، وطبيعة المصادر والمراجع المعتمدة.

وأما المدخل فجعلته لضبط المصطلح وتحديد المفهوم، وناقشت صلته بمصطلح المتشابه اللفظي. وعرضت أهم المصنفات في فن التكرار وتوجيهه في القرآن الكريم. وأشارت إلى بعض المصطلحات التي لها صلة بالتكرار. ووقفت عند ظاهرة التكرار بين الكون والقرآن، للتدليل على أصالة الظاهرة في الكون المنظور، والكتاب المسطور، ومظاهر جمالها فيها، لما في الظاهرة من رتبة تتجدد، وإعادة متميزة تتردد.

وتناولت في الفصل الأول: التكرار بين الدراسات الحديثة والتراثية حيث بينت فيه أن أغلب الدراسات الحديثة لها جذور في تراثنا النقدي وفي التفسير وفي الشروح المختلفة، وليست تجديداً وابتكاراً بالمعنى الدقيق، كما يتوهم ويتصور. وقدّمت نموذجاً تحليلياً للفظـة (البلد) و(الناس) في سورتيهما، للموازنة والمقارنة - لمن شاء - بين التناولين. وفي ختام هذا المبحث لخصت مسوغات تكرار اللفظة الواحدة في سياقها.

وأما الفصل الثاني: فجعلته لصور من تكرار اللفظة الواحدة مرتين أو أكثر في السياق الواحد؛ فمنه تكرار اللفظة الواحدة في السياق الواحد، كلفظة فرعون، والميزان، والكذب، والكتاب. ومنه تكرار اللفظة المبهمة في السياق الواحد، كتكرار لفظـة «إحداهما». وكالدلالات الإيجابية للاسمين المتبادلين في نصوص متشابهة، مثل لفظـة إبليس والشيطان، والولد والگلام. وققيتُ هذا المبحث بفوائد مستنبطة منه.

وتناولت في الفصل الثالث: ما تشابه نظمه واختلف في:

1- تأنيث أو تذكير.

2- في تعريف أو تنكير.

3- في تقديم أو تأخير.

حللت في كل صورة من تلك الصور، أغلب الآيات الممثلة لهذا النوع؛ غير أنني اقتصر في الصورة الأخيرة، أعني التقديم والتأخير، على تقديم الجار ومجروره اسماً وضميراً، دون التعرض إلى صور التقديم والتأخير الأخرى لكثرة صورها ونماذجها والتي أراها جديرة بأن تستقلّ ببحث كامل لا بمبحث.

واكتفيت بما عرضتُ، على أنه نموذج ممثل لصور ذلك المبحث...

وأذكر من بين تلك الآيات الكثيرة، التي اختلفت فيما بينها في تقديم وتأخير،

وأرجأها:

- ﴿وَادْخُلُوا أَبْوَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً﴾ البقرة 58.
- ﴿وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا أَبْوَابَ سُجَّدًا﴾ الأعراف 161.
- ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ البقرة 264.
- ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ إبراهيم 18.
- ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ يونس 49.
- ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ الأعراف 188.
- ﴿كُونُوا قَوْمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ النساء 135.
- ﴿كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ المائدة 8.
- ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ المومنون 83.
- ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ النمل 68.

وقد اكتفيت ببعض الصور كما أشرت آنفا؛ غير أنني أوردت بعضاً آخر منها في ثنايا البحث لمناسبة ما، أو أشرت إليه ضمن النتائج كما في تحليل آية قتل الخطأ .

هذا وإنني أشير- ما أمكن- إلى السرّ البياني، والغرض البلاغي ضمن كل تحليل. **والفصل الرابع:** خصصته لاستعمالات (لا) مكررة، وجعلتها في فصل كامل لاعتبارات علمية وأدبية، من ذلك تعدد استعمالاتها وتنوع صورها وكثرة ورودها في الكلام، ثم لقلّة من تعرّض إلى أغراضها وأسرارها، ولعدم الوقوف على قواعد استعملها، إلا ما كان من إشارات لمّا، جاءت عرّضا. ولهذا تعددت المباحث وتنوعت النماذج. وختمت مباحثها بخلاصة إلحاحا مني عليها وعناية بها.

**والفصل الخامس:** خصصته لأسرار السورة وملامح شخصيتها من خلال ما تكرر فيها، وأشرت إلى التكرار وارتباطه بالسورة، وإلى مدى تمثيله لأغراض ومضامين السورة، إيجازا وإجمالا، انطلاقا من كون التكرار ذا وقعٍ مميّزٍ بين ألفاظ السورة، فيه تنبيه وإثارة، باللفظ والعبارة، إلى مناسبة ما بين السور، اشتراكا واتفاقا، استقلالا واختلافا.

وتوسلتُ لإظهار ذلك والتدليل عليه بتحليل آية القبلة، وآية قصة آدم عليه السلام وإبليس، بين البقرة والأعراف. وقصة موسى عليه السلام بين البقرة والأعراف أيضا.

وكذلك أبرزت بعض ملامح السورة فيما تكرر من تذييلات في البقرة ، وفي تكرار وإيثار حرف المهلة " ثم " في سورة الأنعام.

**وفي الفصل السادس:** تناولت أغراض التكرار وأسراره. وأشرت فيه إلى القصص القرآني وأغراض تكراره باختصارٍ واقتضابٍ، وأفصحت عن عذري في العدول عن التفصيل والإسهاب.

**وفي الخاتمة:** لخصت البحث وذكّرت بالأغراض العامة، والأسرار الخاصة ونوهت بالنتائج المتوصل إليها، وقد أمثل - أحيانا- لذلك وأشرح، وأحلل وأوضّح.

وقد اختلفت الطرق والمنهج والوسائل التي اعتمدها في هذا البحث للوصول إلى النتائج المرجوة والمتوخاة منه وتحقيق أهدافه.

فمن ذلك المنهج الوصفي حين أعرض النصوص لتوضيح ما اشتملت عليه، والمنهج التحليلي لاستنباط الأنواع والأقسام .

واعتمدت على المنهج التاريخي عند تتبع المصطلح استقراراً أو انقساماً أو انزياحاً، وعلى المنهج المقارن بين نصين أو نوعين من أشكال التكرار وكل ذلك وفق المراحل التي تقتضيها طبيعة البحث .

كما لجأت إلى المنهج التكاملي والتقابلي أحياناً لاستخلاص الأحكام العامة والأسرار الخاصة .

والتمست ذلك في نصوص القرآن الكريم، وأقوال المفسرين والدارسين لتلك الآيات.

كما اعتمدت لاستنباط الأحكام على كتب البلاغة، وقواعد اللغة بالدرجة الأولى، وكتب علم الدلالة، وتحليل الخطاب بدرجة ثانية، لضالة ما تناولت من النصوص القرآنية.

ولذلك تعددت المصادر والمراجع فمنها كتب علوم القرآن وتوجيه المتشابه كـ "البرهان" للزرکشي، و"الإتقان" للسيوطي، و"درة التنزيل" للخطيب الإسكافي، و"أسرار التكرار" للكرماني، و"ملاك التأويل" لابن الزبير الغرناطي، و"كشف المعاني" لابن جماعة. ومنها كتب التفسير كتفسير الزمخشري و"غرائب القرآن"، و"البحر المحيط"، و"بدائع التفسير ودقائق التفسير"، وتفسير القرطبي، وتفسير ابن عاشور و"التفسير البياني" وغيرها...

وكتب علم الدلالة كـ"الفروق" لأبي هلال، و"علم الدلالة العربي" لفائز الداية (1984) و"علم الدلالة" لأحمد مختار عمر(1988)، و"علم الدلالة" لمنقور عبد الجليل(2001).

وكتب تحليل الخطاب كـ"أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية" لمحمد الشاوش (2001)، و"مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب" لمحمد محمد يونس علي (2004)، و"نظام الخطاب القرآني" لعبد المالك مرتاض.

وكتب الدراسات القرآنية اللغوية منها والبلاغية البيانية مثل: "صفاء الكلمة" لعبد الفتاح لاشين، و"الفاصلة القرآنية" له أيضا، و"بلاغة الكلمة في التعبير القرآني"، و"لمسات بيانية" و"التعبير القرآني" كلها لفاضل صالح السامرائي، و"البلاغة القرآنية" لمحمد محمد أبي موسى، و"ظواهر قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية" للبدراوي زهران، و"اجتهادات لغوية" لتمام حسان، و"جماليات المفردة القرآنية" لأحمد ياسوف.

وكتب اللغة والنحو باعتبارها أساسًا لتحليل التراكيب، منها كتاب "المغني" لابن هشام، و"رصف المباني في شرح حروف المعاني" لأحمد بن عبد النور المالقي، و"من نحو المباني إلى نحو المعاني" لمحمد طاهر الحمصي، و"معاني النحو" للسامرائي و"الجملة العربية" له أيضا.

إلى جانب كتب المعاجم العربية، وشرح مفردات القرآن الكريم كـ"لسان العرب" و"مقاييس اللغة"، و"القاموس المحيط"، و"تاج العروس"، و"مفردات الراغب الأصفهاني"، و"بصائر ذوي التمييز" للفيروز آبادي، و"المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم" لمحمد سعيد اللحام.

إلى جانب مراجع أخرى كثيرة قد ضمها ثبت المصادر والمراجع لمن شاء أن يرجع إليها.

وفي الختام أجد لزاما عليّ أن أسجل شكري للأستاذ المشرف، الأستاذ الدكتور عبد الكريم بكري - حفظه الله - لتكرمه بقبول الإشراف وتحمله أعباء القراءة والمتابعة، ولإلحاحه الشديد عليّ لمواصلة البحث كلما آنس مني انشغالا عن البحث واستسلاما للأعباء اليومية، والالتزامات الشخصية، التي تكتنفي من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ... فلولا لطف الله بي ثم مؤازرة المشرف بكريم خلقه وحثه المتواصل لما كتبت لهذا العمل أن تنجلي عنه غمرة وبلغ غايته... أجدد شكري له ولا أنسى فضله.

كما لا أنسى زملائي الأساتذة والأصدقاء، الذين كانوا كثيرًا ما يلوموني ويعاتبون،  
والعتاب بالأحبة أخلق، كما يقول شوقي، وإني لأحمد فيهم هذا الشعور النبيل، والودّ  
الصّادق، والحرص على أن استكمل وأنجز ما شرعت فيه، فجزّاهم الله جميعًا خيرًا.

وكان أحد هؤلاء كثيرًا ما يُظهر لي عدم الرضا، كلما لقيني، ويفصح عن شعورٍ  
بقلق لا ينفك، حتى أنجز عملي هذا. أسأل الله لهم جميعًا أن يكفّهم همومهم وغمومهم.

وإن نسيت فلا أنسى أن أشكر أسرتي الكبيرة أسرة شريقتين حبيب، أسرة  
إخوتي وأخواتي الذين لمست منهم الاهتمام البالغ، والحرص الصادق على توفير الوقت،  
وأسباب الراحة، وإعفائي من التزامات أسرية، لإنجاز هذا البحث، جزّاهم الله خيرًا  
جميعًا.

وأخص أسرتي: زوجي وبناتي وولدي، الذين تحملوا أعباء مضية وسهرا  
متواصلًا. أسأل الله أن يجعله في ميزانهم، وأن يهيئ لهم الحياة السعيدة الرغدة.  
وأن يكون هذا العمل، من الأثر الصالح في صحيفة والديّ، ورحمةً لهما منه  
سبحانه وتعالى. آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المدخل

## صلي بكتاب الله

لقد توطدت صلي بكتاب الله منذ عهد الصبا حيث كنت مولعا بألفاظ القرآن الكريم ومعانيه، فكثيرا ما كنت أنطلق مباشرة من ميدان اللعب والمرح مع الأتراب، إلى مسجد الحي<sup>1</sup>، لا ألوي على شيء حتى أقف على المرغوب فأدخل المسجد وأجلس بين يدي تفسير الجلالين<sup>2</sup> وأتأمل معنى اللفظة التي ملأت علي أجواء نفسي وأحسّت، فأشفي نهمي، وأصوّب فهمي.

واستمر دأبي على هذا الحال ردحا من الزمان، فتنامى هذا الإقبال والشغف، وصرت أستزيد ولا أشبع، وأرتشف منه عللا بللا ولا أنهل .

وأتيح لي تدبر آي القرآن من أبواب متفرقة، ووجوه متعددة، من نواح مختلفة، فتكشّف لي مع الوقت أن القرآن يحكم بناءه نظامّ متين، وهندسة دقيقة من الحرف إلى السورة تشكل فيما بينها صورة تامة الملامح، كاملة المعالم منسجمة؛ تم فيها القرآن وكل بها الدين<sup>3</sup>.

يتبين لك صدق هذا التصور عند كل تأمل؛ حين تقف عند لفظة أو عبارة في كتاب الله العزيز، وتحاول أن تشيّم وتسبر مدى ملاءمتها لموضعها بالتركيز على وظيفتها في السياق، وصلتها بالسباق واللحاق، ومدى مناسبتها لجوّ السورة العام، ومدى انسجام المفردة معنى ومبنى، مع مفردات السورة الواقعة فيها، وصلة البدايات بالنهايات، وارتباط الخواتم بالفواتح، وتلاحم السور فيما بينها على تباين في النزول، واختلاف في أسبابه، فسبحان من ألف بين هذه الأشتات المتفرقات، والألوان المختلفة .

1- مسجد أحمد شطة بالأغواط.

2- تفسير جلال الدين المحلي وجمال الدين السيوطي.

3- تم نزوله وكمل التشريع والبناء.

وإنه ليعتريك الدهول أحيانا كثيرة في لحظة التذوق، لِقَمَّةِ التَفَوُّقِ، في رعاية اختيار المفردات، واعتبار المواقع والمقامات، فيغشاك فيض من الخشوع يملك على الاستسلام طوعا واختيارا لجلال هذا الكلام وعظمة المتكلم.

ومن رام أن يبرِّزَ له جانب من هذا النظام الهندسي الفائق الرائق فليتدبر طاقاتٍ من باقاتِ التكرار القرآني؛ حيث أن كلَّ حرفٍ يُزاد أو يُنقص، وكلَّ كلمةٍ تذكر أو تحذف في العبارة المكررة، فإنما وقع فيها ذلك ضمن استراتيجية مناسبة، رُوِّعيت بعناية فائقة، ورعاية دقيقة لتحقيق أمر ذي بالٍ تلمس حقيقته في السياق الخاص والمقام العام.

وسنتبين حقيقة ما ذهبنا إليه، عبر هذا البحث إن شاء الله ربَّ العالمين.

## ضبط المصطلح وتحديد المفهوم

### 1- ضبط المصطلح:

أول ما يواجه الباحث - عادة - وهو يحاول ضبط المصطلح بتعريفه وتحديد مفهومه تشعب الآراء وتعدد الرؤى إلا أنّ الأمر مع التكرار يبدو في ظاهره يسيرا والعناء في ضبطه قليلا، إذ المفهوم ظاهر جلي والمراد من المصطلح قد استقر في الأذهان وتوضح للأفهام .

غير أنّ هذا لا يستقيم على إطلاقه مع مصطلح " التكرار " الذي نحن بصدد بحث ظاهرته في القرآن الكريم إذ هناك حاجة ملحة لضبط المصطلح من حيث التسمية والمفهوم.

\* فما الصحيح: تكرار بفتح التاء أم تكرار بكسرها كما هو الشائع الأعم ؟ أم هو تكرير كما هو الوارد كثيرا لدى القدماء والمتأخرين ؟.

- فما الصحيح الفصيح ؟

\* ثم هناك من يطلق على التكرار اسم المتشابه أو التشابه فهل هما حقا سواء ؟

إلى جانب مصطلحات أخرى وتسميات توحى بالتكرار وتتداخل معه، وقد تُطلق عليه أحيانا كإعادة والترديد والتعديد .. نحاول الكشف عن هذه التساؤلات وتحقيق الأمر فيها .

جاء في مقاييس اللغة:

« كر: الكاف والراء أصل صحيح يدل على جمع وترديد من ذلك كررت وذلك رجوعك إليه بعد المرة الأولى، فهو الترديد الذي ذكرناه »<sup>1</sup>.

وفي مختار الصحاح:

« كر الشيء تكريرا وتكرارا أيضا بفتح التاء وهو مصدر وبكسرها وهو اسم »<sup>2</sup>.

1- مقاييس اللغة ج 5 / 126 مادة كرر.

2- مختار الصحاح - للإمام الرازي ص 567 .

وفي اللسان:

كر يكرّ كراً وكُروراً وتكراراً: عَطَفَ

وكرر الشيء وكرّره: أعاده مرّة بعد أخرى .

ويقال: كررت عليه الحديث وكزّرتُهُ: إذ ردّدته عليه . والكرّ الرجوع على الشيء

ومنه التّكرار<sup>1</sup> .

وذكر صاحب أنوار الرّبيع الفرق بين التّكرار والتّكرير من الوجهة الصّرفية فقال:

« التّكرار وقد يقال: التّكرير، فالأول اسم، والثاني مصدر من كررت الشيء إذا أعدته مرارا، وهو عبارة عن تكرير كلمة فأكثر باللفظ والمعنى<sup>2</sup> .

فاجتمع لدينا من خلال ما أسلفنا: التّكرار والتّكرار والتّكرير كلّها بمعنى واحد.

### فَعَلَّ بَيْنَ تَفْعَالٍ وَتَفْعِيلٍ:

ورأينا للوصول إلى القول الفصل فيما نحن فيه أن نطلق من الفعل " كرر " إذ

هو الأصل المتفق عليه.

جاء في شرح لامية الأفعال: « قالوا في مصدر فعّل المضعّف تفعّلاً أيضاً للدلالة

على الكثرة كطوّف تطوّفاً<sup>3</sup> فجعل هذا الوزن مقيداً بالكثرة. كما جعل المصدر الأصلي ل:

" فعّل " هو تفعيل نحو: ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ و ﴿ صلّوا عليه وسلّموا تسليماً ﴾

وهذا إذا كان الفعل صحيح اللام. فإن كان معتلّها فمصدره على وزن " تفعّلة " نحو زكّي

تزكية وصلّى تصليّة .

وربّما شبهوا الصّحيح منه بالمعتل فقالوا في مصدر الصّحيح أيضاً تفعلة نحو بصّر

تبصرة وذكر تذكّرة<sup>4</sup> .

1- لسان العرب- مادة كرر ج 5. وذكر أنّ التّكرّة بمعنى التّكرار كالتّسرّة والتّصرّة والتّدرّة (عن ابن بزرج) .

2- أنوار الرّبيع في أنواع البديع، السيّد علي صدر الدّين بن معصوم المدني 1120/1052 هـ، ج 5. ص 345.

3- شرح العلامة بحرق اليمنى الكبير على لامية الأفعال لابن مالك ص 160 .

4- المصدر نفسه ص 159.

قلت قد يكون تشبيهه الصحيح بالمعتل هنا من باب تعويض الياء المحذوفة بالتاء المعكوفة مثلما هو الحال في بعض الجموع .

كما أنّ هذا الوزن " تفعلة " يهيئ المصدر للدلالة على الوحدة إذا دلّت عليها قرينة نحو: كبر تكبيرا وتكبرة وسلّم تسليما وتسلمة وجرب تجريبا وتجربة ...  
وكأنّ الشّارح جعل الأصل تفعيل ( تكرير ) ويُجاء بتفعال ( تكرار ) إذ أريد المبالغة والكثرة .

كما يشير إلى أنّ مصدر " فعّل " الصحيح يجيء أيضا على: " فعّال " نحو: كذّب كذّابا<sup>1</sup> .

والتّحقيق أنّ تفعال بالفتح الأصل فيه للمصادر إلّا كلمات مستثناة كالتقاء والتّبيان . قال سيبويه: « وليس في الكلام مفعّال ولا فعّال ولا تفعّال إلّا مصدرا مثل: " التّرداد والتّقتال " ».<sup>2</sup>

وقال أبو سعيد الضّرير: « قلت لأبي عمرو بن العلاء: ما بين تفعال وتفعال ؟ فقال: تفعال اسم، وتفعال بالفتح مصدر ».<sup>3</sup>

وقال ابن هشام: « التّلقاء بمعنى اللّقاء، وكل مصدر هكذا فهو مفتوح التّاء، كاللتّجوال والتّطواف، إلّا التّلقاء والتّبيان، وأما التّلقاء في قوله تعالى: ﴿ تلقاء أصحاب النّار ﴾ فظرف لا مصدر ».<sup>4</sup>

ولقد اتفق الكوفيون والبصريون على أنّ وزن " تفعال " بالفتح مصدر « ولكنهم اختلفوا في فعله، فذهب البصريون إلى أنّه من الفعل الثلاثي المجرد<sup>5</sup> ) وأما الكوفيون

1- المصدر نفسه ص 159 .

2- كتاب الأسماء والأفعال والحروف، للزبيدي ص 137.

3- لسان العرب ج 5 / \* والآية: 47 الأعراف ومثلها قوله تعالى: ﴿ ولما توجه تلقاء مدين ﴾ 22 / القصص ﴿ ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ﴾ 15 يونس

4- تخليص الشّواهد وتلخيص الفوائد - ابن هشام ص 407

5- فيقولون: جال: تجوالا وطاف: تطوفا وسأل تسألا وحنّ تحنانا .

فقد ذهبوا إلى أنه مصدر للفعل فَعَلَ بتشديد العين، وفَعَّل يدل على التّكثير والمبالغة مثل المصدر»<sup>1</sup>.

وأما " نَفَعَال " بالكسر فهو خاص بالأسماء متمخّض لها مما جعل سيبويه يعتبر التّلقاء والتّبيان المستثناة أسماء وليست مصادر لأنّها جاءت على هذا الوزن لخصوصه لأبنية الأسماء .

أشار جامع الأبنية من كتاب سيبويه إلى ما يقع في العربية على زنة نفعال بالكسر فقال: « وعلى نفعال فالاسم تجفاف وتمثال وتبيان وتلقاء ولا نعلمه جاء وصفا»<sup>2</sup>. ثمّ يَستدرِكُ على هذا الإطلاق « قد تقدّم من قولنا: أنّه قد جاء نفعال صفة نحو: تلعباة وتلقامة»<sup>3</sup>.

ويبدو لي أنّ هذا الوزن مستقل بنفسه وليس نفعال هنا وصفا للمذكر حتّى تكون تلعباة وتلقامة وصفا للمؤنث وإنّما جاء وزن تفعالة هنا للمبالغة يستوي فيه المذكر والمؤنث.

قال ابن فارس: « رجل تلقامة كثير اللقم»<sup>4</sup> « وتلعباة كثير اللّعب»<sup>5</sup>. وهذا الوزن من المثل التي لم يذكرها سيبويه.<sup>6</sup>

1- الصّرف العربي صياغة جديدة - زين كامل الخويسكي ص 88 .

2- كتاب الأسماء والأفعال والحروف - لأبي بكر الزبيدي ص 136 .

3- المصدر نفسه ص 137 .

4- مقاييس اللّغة ج 5 / 260 .

5- المصدر نفسه ج 5 / 253 .

6- أنظر لسان العرب مادة لقم ج 12 / 546 .

## فَعْلٌ بَيْنَ التَّفْعِيلِ وَالْفِعَالِ:

ومن نوافل البحث في مصدر " فَعَّلَ " أن نشير إلى أنه إن كان الأصل في مصدر " فَعَّلَ " هو التفعيل، فإن له مصدرا آخر نادر الاستعمال في الواقع اللغوي على فصاحته، ذلك أنهم قالوا عن مصدر فَعَّلَ: « وربما جاء مصدر هذا على الفِعَالِ قالوا: كَلَّمَهُ كِلَامًا، وَالْحَمَّالَ وَالْكَذَّابَ »<sup>1</sup>.

وقال الزمخشري عن هذا المصدر: « وَفَعَّلَ فِي بَابِ " فَعَّلَ " كَلَّهُ فَاشٍ فِي كَلَامِ فَصْحَاءٍ مِنَ الْعَرَبِ لَا يَقُولُونَ غَيْرَهُ »<sup>2</sup>.

قلت: وهذه اللغة " فِعَالٌ " مصدرٌ لـ " فَعَّلَ " وقد تُرِكَت اليوم فلا تُتناول في القواعد الصرفية المستعملة، يبدو أنها لم تندثر تمامًا إلى عصر متأخر؛ فهذا الزمخشري يروي عن نفسه: « سَمِعَ بَعْضُهُمْ أَفْسَرَ آيَةَ فَقَالَ: لَقَدْ فَسَّرْتُهَا فَسَّارًا مَا سُمِعَ بِمِثْلِهِ »<sup>3</sup>.

وقد سُئِلَ الْفَرَّاءُ مِنْ قَبْلِ وَهُوَ عَلَى الْمَرْوَةِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ: « لِحَلْقِ أَحَبِّ إِلَيْكَ أَمْ الْقِصَّارِ ؟ يَرِيدُ التَّقْصِيرَ »<sup>4</sup> وهي لغة يمانية فصيحة .

ولم يَرِدْ هذا المصدر في القرآن الكريم إلا مرتين في سورة النبأ في قوله تعالى:

- ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا (28) ﴾ ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا (35) ﴾ بتشديد الذال في كِذَابًا وهي قراءة الجمهور: عاصم والأعمش وأهل المدينة والحسن البصري وهي لغة يمنية فصيحة.<sup>5</sup>

وكان الكسائي يخفف الآية الثانية: ﴿ وَلَا كِذَابًا ﴾ ويشدد الأولى ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴾ لأنها مُقَيَّدَةٌ وَمُؤَكَّدَةٌ بالفعل " كَذَّبُوا " الذي يصيرها مصدرًا . 4

1- كتاب الأسماء والأفعال والحروف ص 323 و 324 .

2- الكشف - ج4/ 209 وانظر: البحر المحيط 388/10 .

3- المصدر نفسه.

4- معاني القرآن - 229/3 . والبحر المحيط 388 /10.

5- المصدر نفسه، وانظر أيضا: الحجة في القراءات السبع ص 361.

ويحاول الشيخ مصطفى الغلاييني أن يلخص القول فيما جاء عن مصدر " فَعَّل " فيقول: " وقد شدَّ مجيء التفعيل مصدرا لـ " فَعَّل " لأنَّ قياسه أن يكون على وزن " فَعَّال " بكسر أوله وزيادة ألف قبل آخره وقد جاء عليه: الكِذَّاب والكِلَّام فالوزن المستعمل قديما " فَعَّال " ثم أميت فورثه " تَفَعَّال " وقد وردت منه ألفاظ: التَّطَوَّاف والتَّجَوُّال والتَّكْرار والتَّرداد والتَّذكار والتَّحلاق ثم أميت هذا الوزن أيضا فورثه " تَفَعِيل " وقد بقي هذا قياسا شاذا لمصدر " فَعَّل " <sup>1</sup>.

وكان الأولى بالغلانيين ألا يعتبر هذا الوارث الأخير ( التَّفَعِيل ) شاذا لأنه استقرَّ عليه الاستعمال اللغوي، وجرى عليه القياس على أوسع نطاق، وصار الأصل الأوَّل (فَعَّال وتَفَعَّال ) شاذًا يحفظ ولا يقاس عليه، أو كاد.

### خلاصة ضبط المصطلح:

وبعد هذا نخلص إلى أن:

تكرار: بالفتح مصدر كَرر وهو شاذ غير مطَّرد في الباب. <sup>2</sup>

وأما التَّكْرير: فمصدر كَرر المطَّرد الذي يقاس عليه الباب.

والتَّكْرار بالكسر هو الاسم باتفاق أهل اللغة ولذلك آثرناه مصطلحا لخصوصه للاسميَّة وتمخُّص صِنْوِيهِ التَّفَعِيل والتَّفَعَّال للمصدرية والوصف.

والاسم أليق بالمصطلح وعليه ضبطنا العنوان: التَّكْرار بالكسر.

هذا وإن كان أغلب القدماء والمحدثين استخدموها جميعا بمعنى واحد فتارة يطلقون عليه تكريرا وأخرى تكرارا بالفتح أو الكسر دونما تنبيه ولا تحقيق للمصطلح .

وسَيُلاحَظ ذلك عبر البحث فيما نورد من نقول عن هؤلاء وأولئك.

1- جامع الدروس العربية: 1/ 167، 168 .

2- يحسن التنبيه إلى أن مصطلح التَّكْرير عند الكوفيين يعني ما يسمى عند البصريين بالبدل حيث أطلق الكوفيون على البدل عدَّة أسماء: الترجمة والتبيين والتكرير والمردود . أنظر المصطلح النحوي نشأته وتطوره... عوض أحمد القوزي ص 163 . والتكرير في كتاب (البديع في البديع ) لأسامة بن منقذ يقصد به المعاني المكررة تأثرا أو تواردا أو سطوا.

## 2- تحديد المفهوم:

أما عن مفهوم التكرار وتعريفه، فقد عرفه ابن عابدين وهو يتناول فصاحة الكلام وخلصه من كثرة التكرار فيقول: « هو ذكر الشيء مرة بعد أخرى وإذا أردت قلت: التكرار دلالة اللفظ على المعنى مردداً كقولك لمن تستدعيه: أسرع أسرع، فإن المعنى مردد واللفظ واحد، وكثرته أن يكون فوق الواحد»<sup>1</sup>.

وكثرة التكرار تحصل بذكر الشيء ثالثاً سواء كان المذكور ضميراً كما في قول الشاعر:

( لها منها عليها )<sup>2</sup>. أو غير ضمير كما في الحديث:

« الكريم بن الكريم بن الكريم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام »<sup>3</sup>.

والملاحظ فيما أورد ابن عابدين أن عنوان المؤلف " التكرير " وفي مظان البحث يُطلق عليه " التكرار " فهل كان يتعمد ذلك قصداً أم يجاري من ينقل عنهم أحياناً، أم هو العنوان فرض ذلك " التقرير في التكرير " ليوافق السجعة؟

ثم إن تعريفه غير دقيق، إذ يوهم أن التكرار في المعنى وليس في اللفظ فقوله في التعريف " دلالة اللفظ على المعنى مردداً " قد يفهم منه دلالة العبارة المفوظة على المعنى مردداً، وهذا لا يلزم منه تكرار اللفظ وإن تكرر المعنى، فقد يتكرر المعنى بمرادف اللفظ لا باللفظ نفسه، غير أن التمثيل الذي جاء به " أسرع أسرع " ينبئ أنه يريد تكرار اللفظ.

وعليه فمراده من خلال التمثيل ترديد اللفظ وتكريره بنفس المعنى وهو الضابط فإن المشترك اللفظي لما كان فيه المعنى مختلفاً لا يعدّ من التكرار الاصطلاحي الذي

1- التقرير في التكرير - ابن عابدين ص 51.

2- إشارة إلى بيت أبي الطيب، الديوان 327:

وتسعدني في غمرة بعد غمرة \*\*\* سبوخ لها منها عليها شواهد

3- رواه البخاري رقم: 3138 .

نَتَوَخَّاهُ . إِلَّا أَنَّ ابْنَ عَابِدِينَ - فِيمَا يَبْدُو - لَا يَشْتَرِطُ فِي التَّكْرَارِ أَنْ يَكُونَ بِنَفْسِ  
الْأَلْفَاظِ لِذَا نَجِدُهُ يَرَى فِي عِبَارَةِ التَّوْحِيدِ:

( لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ) تَكَرَّرَا . وَيَعْلَلُ هَذَا فَيَقُولُ:

« لِأَنَّ قَوْلَنَا: ( لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ) مِثْلُ قَوْلِنَا: ( وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ) وَهُمَا فِي الْمَعْنَى  
سَوَاءً، وَإِنَّمَا كَرَّرْنَا الْقَوْلَ فِيهِ لِتَقْرِيرِ الْمَعْنَى وَإِثْبَاتِهِ. وَالتَّكْرِيرُ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ أَبْلَغُ مِنَ  
الْإِجْزَاءِ وَأَحْسَنُ وَأَسَدُّ مَوْقِعًا<sup>1</sup> .»

وَفِي دَقَّةِ هَذَا التَّحْلِيلِ نَظَرٌ مِنْ حَيْثُ اخْتِلَافُ تَرْكِيبِ الْجُمْلَتَيْنِ وَتَطَابُقُ دَلَالَتِهِمَا  
فَلِظْفَةُ " وَحْدَهُ " تَابِعَةٌ لِلْجُمْلَةِ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لِلثَّانِيَةِ هَذَا مِنْ جِهَةٍ .

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فَالْجُمْلَةُ الثَّانِيَةُ لَا يَسْتَفَادُ مِنْهَا نَفْيُ الشَّرِيكِ فِي الْأُلُوْهِةِ إِلَّا  
بِضَمِّمَتِهَا الْجُمْلَةُ الْأُولَى ..

وَهَبْ أَنْ اتَّفَقَ الْمَعْنَى وَتَطَابَقَتْ قَدْ تَحَقَّقَ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ فَإِنَّمَا لَا نَعْدُهُ مِنْ بَابِ  
التَّكْرَارِ الْإِصْطِلَاحِيِّ الَّذِي نَرْمِي إِلَيْهِ، وَالَّذِي هُوَ مِيدَانُ مَعْتَرِكِ الْفَحُولِ حَوْلَ  
اسْتِحْسَانِهِ أَوْ اسْتِهْجَانِهِ .

وَيَعْرِفُهُ بَدْوِي طَبَانَةٌ: « هُوَ أَنْ يَكْرُرَ الْمُتَكَلِّمُ اللَّفْظَةَ الْوَاحِدَةَ بِاللَّفْظِ وَالْمَعْنَى .  
وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ تَأْكِيدَ الْوَصْفِ أَوْ الْمَدْحِ أَوْ الذَّمِّ أَوْ التَّهْوِيلِ أَوْ الْوَعِيدِ أَوْ الْإِنْكَارِ أَوْ التَّوْيِيخِ  
أَوْ الْإِسْتِبْعَادِ، أَوْ أَيِّ غَرَضٍ مِنَ الْأَغْرَاضِ<sup>2</sup> .»

وَعَرَفَهُ صَاحِبُ مَعْجَمِ الْمِصْطَلِحَاتِ النَّحْوِيَّةِ وَالصَّرْفِيَّةِ:

« هُوَ إِعَادَةُ اللَّفْظِ أَوْ الْجُمْلَةِ وَقَدْ يَكُونُ فِي الْحُرُوفِ نَحْوُ: إِنَّ إِنْ مُحَمَّدًا قَائِمًا... أَوْ  
فِي الْجُمْلِ نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) ﴾<sup>3</sup> »

يَشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى أَنَّ التَّكْرَارَ وَقَعَ بِإِعَادَةِ اللَّفْظِ الثَّانِي؛ إِذْ لَوْلَا إِعَادَتُهُ مَا عُدَّ بِرَ فِي  
الْجُمْلَةِ تَكَرَّرَا .. كَمَا أَنَّ الْمَكْرُرَ هُوَ اللَّفْظُ الْأَوَّلُ الَّذِي وَقَعَ لَهُ التَّكْرَارُ<sup>1</sup>

1- التقرير في التكرير، ص 84 / 85.

2- معجم البلاغة العربية بدوي طبانة مج 2 ص 750 منشورات جامعة طرابلس كلية التربية ط: 1/ 1977.

3- معجم المصطلحات النحوية والصرفية/ محمد سمير نجيب اللبدي ص 194 .

## المصطلح بين التكرار والمتشابه:

والمتتبع لمصطلح التكرار ومفهومه سيلاحظ أنه تعاورته عدة أسماء من مادته ومن غير مادته مما يؤدي معناه، وإن داخله أحيانا مصطلح آخر وشاركه فيه.

فهناك إلى جانب التكرار بالكسر، التكرار بالفتح والتكرير والمتشابه والترداد وهذا الأخير أطلقه الجاحظ وهو يشير إلى ما تردّد في القرآن من أخبار وقصص، « وكيف أن الله عزّ وجلّ ردّد قصة موسى وهود وشعيب وغيرهم من الأنبياء وكذلك ردّد ذكر الجنة والنار »<sup>2</sup>.

لكن المصطلح الذي كاد يزيح التكرار أو يزاخمه حقا هو " المتشابه " لذلك رأينا لزاما، ونحن بصدد تحديد المصطلح، أن نقف عند مصطلح المتشابه وما يراد به.

إنه إذا أطلق مصطلح المتشابه في كتاب الله، انصرف إلى ما يقابل المحكم، لاقتارانه به في آية آل عمران، والمقابلة بينهما قال تعالى: ﴿ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ آل عمران 7.

ثم اختلف في تعيين المقصود بالمتشابه فقالوا: المتشابه ما تكررت ألفاظه، والمحكم ما لم تتكرر ألفاظه<sup>3</sup>.

ويُستأنس لهذا المعنى بقوله تعالى في سورة الزمر: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَشَعَّرُ مِنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يُخْشَوْنَ رَبَّهُمْ... ﴾ الزمر 23  
قال قتادة: « يشبه بعضه بعضًا في الآي والحروف »<sup>4</sup>

1- المرجع نفسه 195 .

2- انظر: البيان والتبيين - للجاحظ 105 / 1 تحقيق عبد السلام هارون . وانظر: النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ - محمد الصغير بناني - ص 262 - ديوان المطبوعات الجامعية.

3- الإتيان في علوم القرآن - للسيوطي: 2 / 2

4- تفسير القرطبي: 249 / 15

وقالوا: « المتشابه ما غمضت دلالتة، وتوقف العلماء في العمل به مع الإيمان به، كما قالوا " المحكم ما أُجْمَع على تأويله والمتشابه ما اختلف فيه »<sup>1</sup>.

وإذا رجعنا إلى اللفظ، وجدنا لفظة المتشابه تحتل الدلالة على ما تشابه لفظه وتمثل أو تقارب، فقد ذكر الراغب الأصفهاني ونقله الفيروز آبادي في البصائر، أن الشبه حقيقة في المماثلة من جهة الكيفية كاللون والطعم، والأصل فيه أن لا يتميز أحد الشئيين عن الآخر، لما بينهما من التشابه عَيْنًا كان أو معنى.

فالمتشابه من القرآن ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره، إما من حيث اللفظ أو من حيث المعنى<sup>2</sup>.

وعلى هذا التفسير والتحليل يبقى المصطلح ينطبق على معنيين اثنين متباينين: تشابه في اللفظ واشتباة في المعنى.

والحقيقة أن مفهوم المتشابه يختلف اختلافًا بينًا تبعًا لنظر الباحث وغرضه؛ فهناك اختلاف بين النظر إلى المعاني والنظر إلى الألفاظ من جهة. وبين غرض المفسرين والفقهاء والمتكلمين، وغرض علماء اللغة والبلاغيين من جهة أخرى.

ولهذا نجد من يقول: « إن المتشابه عند الفقهاء هو: ما لا ينبئ ظاهره عن مراده »<sup>3</sup> ويُقسَّم المتشابه إلى ثلاثة أضرب: متشابه من جهة اللفظ، ومتشابه من جهة المعنى، ومتشابه من جهتهما معاً.

1- فالمتشابه من جهة اللفظ ضربان:

- ضرب يرجع إلى الألفاظ مفردة:

- إما من جهة غرابتها كالأبّ وينزفون.

- وإما من جهة إشراك في اللفظ كاليد والعين.

- وضرب يرجع إلى التركيب والتأليف:

1- بصائر ذوي التمييز - للفيروز آبادي: 3/ 296

2- أنظر مفردات ألفاظ القرآن - للراغب ص 260 وبصائر ذوي التمييز 3/ 293

3- مفردات الراغب ص 261 . وبصائر ذوي التمييز 3/ 293

- لاختصار في العبارة.

- أو لانبساط فيها وزيادة لفظ نحو: ليس كمثله شيء.

- أو لنظم الكلام كالتقديم والتأخير...

2- والتشابه من جهة المعنى مما لا تتصوره عقولنا أو تدرك كفه مثل: أوصاف الله عز وجل، وأهوال القيامة، ونعيم الجنة.

3- والمتشابه من جهة اللفظ والمعنى:

- من جهة الكمية، كالعموم والخصوص.

- من جهة الكيفية كالوجوب والندب في مثل قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ النساء: 03.

- من جهة الزمان في الناسخ والمنسوخ.

- من جهة المكان الذي نزلت فيه وارتباطها بسبب النزول ...

- من جهة الشروط، نحو صحة شروط الفعل أو فساد<sup>1</sup>

وهذه الأضرب الثلاثة ترجع إلى المعنى الأول المقابل للمُحْكَم وهو المتشابه الذي يتعلق بالفهم ومعرفة المراد منه وهو ينقسم بدوره إلى ثلاثة أضرب:

1- ضرب لا سبيل إلى الوقوف عليه كبعض الأوصاف والكيفيات .

2- وضرب يمكن معرفته.

3- وضرب متردد بين الأمرين يعلمه بعض الراسخين في العلم.<sup>2</sup>

فالأصل اللغوي واحد وعنه تفرعت المعاني الاصطلاحية بحسب المنظور وما يُعتبر؛ يقول ابن فارس: « الشين والباء والهاء أصل واحد يدل على تشابه الشيء وتشاكله لونا ووصفا ... والمشبهات من الأمور المشكّلات، واشتبه الأمران إذا أشكلا<sup>3</sup> » .

1- أنظر هذا التقسيم في المصدرين السابقين: مفردات الراغب، وبصائر ذوي التمييز.

2- أنظر المصدر نفسه.

3- مقاييس اللغة، ابن فارس، 3/ 243.

فلشدة التشابه يصعب التمييز بين المتشابهات والتفريق بينها، كالذي نراه في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهُ عَلَيْنَا ﴾ البقرة: 70.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ النساء: 157.

ويلازم شدة التشابه، مشارفة الوقوع في الخلل والزلل.

فالمتشابه في النصوص والكلام مظنة السقوط والنسيان لما حفظ، وهو خاص بالقول واللفظ، كما أنه مظنة في الزلل في الفهم، لخباء الدليل أو صعوبة التأويل، وهو خاص بالمعاني.

فما اشتبه أوقع في اللبس والغموض.

وإذا كان إطلاق المتشابه يقصد به ما يقابل المحكم مما يؤوّل - كما أشرنا - لارتباطه به في آية آل عمران، ثم لانبراء كثير من العلماء للدفاع عن كتاب الله والرد على مطاعن أتباع المتشابه، فإننا وجدنا في المقابل من يطلقه على المكرّر من القول، فهذا ابن الجوزي في كتابه (عجائب علوم القرآن) يخصص مبحثا كبيرا لما تكرر في القرآن في أكثر من موضع سماه: (باب من المتشابه)<sup>1</sup> يشير فيه إلى الآية والمواضع التي تكررت فيها دون تحليل أو تفسير أو تعليل، وكأن همّه هو إبراز محالّها لِيَتَحَرَّرَ بها حُفَاطُ كتاب الله تعالى من السقوط واشتباه الحفظ عليهم.

وخصص الفيروز آبادي في (بصائر ذوي التمييز) مبحثا للمتشابه في كل سورة من الكتاب العزيز من جهة اللفظ، ما عدا سورة النصر فإنه لم يذكر تشابها فيها مع وجوده، إذ تكررت ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ في الحجر 98 وطه 130 وغافر 55 وق 39 والطور 48 والنصر 3، ولعله وقع سهوا ونسيانا.

1- انظر عجائب علوم القرآن - ابن الجوزي - تحقيق د. عبد الفتاح عاشور، باب "من المتشابه" من صفحة 168 إلى 285، ديوان المطبوعات الجامعية.

## استخلاص:

وبعد استقراء بدا لي أن جُلَّ القدماء آثروا اسم المتشابه على اسم التكرار في القرآن الكريم، لأن إطلاق لفظ (التكرار) أحيانا على النص يوحي بالانتقاص وكأنه مَعْمَرٌ فيه، وعَيْبٌ لا يليق في كلام فصيح فضلا عن القرآن الكريم، وأكثر المتعرضين للمتشابه المكرر، نراهم يوردون آية التشابه ثم ينفون عنها صفة التكرار فيقولون مثلا: « قوله ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ ﴾ ليس بتكرار»<sup>1</sup>.

و « قوله: ﴿ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ في موضعين: هذا ليس بتكرار»<sup>2</sup> في مواطن لا تحصى.

وهم يعنون بلفظ التكرار هنا، أنه إعادة وزيادة بلا إفادة، والحقيقة أن لفظ التكرار في الأصل يعني الإعادة والترديد للشيء كما هو، بينما المتشابه يوحي معنى لفظه أن ظاهر الشيء واحد وأن حقيقته شيء آخر على غرار ما جاء في نعيم الجنة، الذي ظاهره كنعيم الدنيا ﴿ قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ وحقيقته شيء آخر لم يخطر على قلب بشر.

وأطلق القرآن على هذا الوضع المتزاج والمتداخل اسم المتشابه: ﴿ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾.

وكذلك شأن الآيات المكررة لها أسرار خفية من وجه آخر، حولها يدندن العلماء والمفسرون على مرّ الدهور وكر العصور.

فالإشارة إليها بالمتشابه في القرآن ووسمها به أقرب إلى الواقعية والدقة اللغوية، وأوفى بالمقصود في الإشادة ببلاغة هذا الأسلوب.

إذ المتبادر من التكرار هو محض إعادة... والمتبادر من المتشابه أن هناك طرفين مستقلين لكن بينهما قربا شديدا حتى كأن أحد الطرفين هو الآخر ولكن ليس إياه، وإن بلغ التشابه درجة الاشتباه الذي يعسر معه التمييز بين المتشابهين المتماثلين.

1- بصائر ذوي التمييز، ج 1. ص 266.

2- نفسه .

بيد أننا وجدنا الدكتور عبد القادر أحمد عطا وهو يحقق كتاب ( البرهان في توجيه متشابه القرآن ) لتاج القراء الكرمانى، والذي تناول فيه الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن وجدناه قد استبدل التكرار بالمتشابه فجعل عنوان الكتاب " أسرار التكرار في القرآن " .

ولعل الذي حمله على ذلك، حسب ما يستنتج من تقديمه للكتاب، أن العنوان الأصلي قد يوهم أن الكتاب يتناول المتشابه المشكل الغامض، مما يزهده في نشر الكتاب وطبعه واقتنائه.

وعلى الرغم من أن مجرد التكرار هو مظنة الضعف والزلل، فإنني آثرت مصطلح التكرار لأنه أعم وأشمل لما تطابقت ألفاظه من القول أو تقاربت.

ثم إنه يصلح أن توصف به جميع النصوص؛ بينما المتشابه ينصرف إلى القرآن فقط. فلا يقال وقع في القصيدة أو الخطبة أو الرواية متشابه.

كما أن التكرار مرشح للحكم له بالحسن والجمال، أو عليه بالقبح والسماجة، وهو جانب من الإيجاء اللفظي.

و كذلك يمكن للتكرار أن يكون موطأة لإبراز جانب من الإعجاز على نحو ما أشار إليه الدكتور عبد القادر أحمد عطا في قوله: « وإذا تفجرت القوة من مظنة الضعف، كان ذلك أدخل في باب الإعجاز، وأعلى كعبا في باب البلاغة والتحدي، ولا نعلم مظنة للضعف أظهر من التكرار، وهو الباب الذي حاوله الكرمانى تاج القراء في كتابه البرهان فأجاد بحق وأفاد <sup>1</sup> .

ثم إن إطلاق " التكرار " على ما تشابه لفظه، تسمية جري عليها بعض علماء السلف كابن قتيبة الذي تناول في كتابه ( تأويل مُشكل القرآن )، المتشابه والتكرار وفصل بينهما فصلا بينا؛ فهناك:

---

1- أسرار التكرار في القرآن - الكرمانى ص 11 دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا - دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع - تونس.

باب المتشابه ويتعلق بما خفي من المعاني ودق، مما لا يظهر عليه إلا التثقف اللقن<sup>1</sup>، وباب تكرار الكلام والزيادة فيه<sup>2</sup> فهما مبحثان مختلفان.

وإذا كان الهدف من رصد المتشابه اللفظي وحصره، هو إجادة الحفظ وإحكام الضبط، العاصم من السقوط والإخلال بالحفظ، طمعا في تبوء منزلة البررة الكرام المشار إليها في قوله عليه الصلاة والسلام:

- « الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة »<sup>3</sup>.

- « مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة »

- « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة »<sup>4</sup>

فإن هذا الهدف لا ينطبق على بعض المكررات، وهي التي لا يحدث الاشتباه فيها عادة لتجاورها وتتابعها نحو قوله تعالى:

- ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ المؤمنون: 36.

- ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا \* إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ الشرح: 5 و6.

- ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ \* ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ النبأ 4 و5.

- ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ \* ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ التكاثر 3 و4.

فمثل هذه النماذج هي أولى وأليق أن تؤسم بالتكرار من المتشابه.

وأما ما كان من التكرار متباعدا أو كان خارج السورة مما هو مدعاة قوية للتفقت واضطراب الحفظ، فهو أخرى باسم المتشابه. ولقد كان القراء الأوائل يسمونه المُشكِل، فحاولوا رصده فجمعه ثم نظمته.

1- أنظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة - باب المتشابه: ص 86 - 102.

2- أنظر نفس المصدر باب تكرار الكلام: ص 232 - 255.

3- متفق عليه وهذه رواية البخاري.

4- متفق عليه وهذه رواية مسلم.

ثم نشأ بعد ذلك نوع من التفسير يُعنى بتوجيه المتشابه اللفظي في القرآن، يحاول تعليل وجوده، وبيان أسرارهِ، ودقائق إعجازهِ.

وإن من أغراض هذا البحث، المساهمة في بسط جانب من جوانب هذا اللون من التفسير الذي هو وجه من وجوه علوم القرآن.

### **أهم المصنفات في هذا الفن وتوجيهه:**

ونعرض الآن أهمَّ المصنفات في هذا الباب مما يتعلق بضبط المتشابه وحفظه، وكشف أسرارهِ وحِكْمِهِ.

قيل إن أول من ألف في المتشابه هو الكسائي (ت 189) وسماه المتشابه في القرآن.

ثم ابن المنادى: أبو الحسين أحمد بن جعفر بن المنادى (336) الذي ألف متشابه القرآن العظيم .

ويذكر في مؤلفه هذا أن من سبقه في التأليف في المشابه ثلاثة:

خلف بن هشام (229) وصاحبه بن عبدان وصاحب أبي موسى الزرقي ولم يشر إلى كتاب الكسائي الذي ذكره السيوطي في الإتيان.

طبع كتاب ابن المنادى بتحقيق الشيخ عبد الله الغنيان سنة 1408 هـ .

وألف ابن الجوزي (ت 597هـ) " فنون الألفان في عيون علوم القرآن " و "عجائب علوم القرآن " وقد اقتصر فيه على ذكر الآيات المتشابهات في القرآن دون تفسير أو توجيه لها وحسبه أنه جمعها وقسمها ووضعها بين يدي الناشئة من طالبي حفظ كتاب الله تعالى تعينهم على قوة الحفظ وسهولة الاسترجاع والتذكر؛ لأن المتشابه مناط الوقوع والاضطراب، وكذلك خصص في كتابه المدهش في الباب الأول في علوم القرآن فصولا في عيون المتشابه.

وقد أفاد عَلمُ الدين السخاوي المتوفَّى سنة (643هـ) من كتاب ابن الجوزي ونظم خلاصة ذلك في أرجوزة سماها "هداية المرتاب وغاية الحفاظ والطلاب في تبين متشابه الكتاب" ولعلها أول منظومة في هذا الباب.

ونظم الإمام عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة (ت 665هـ) شارحُ الشاطبية، منظومةً على غرار منظومة شيخه السخاوي أورد فيها ما أغفله السخاوي من المتشابه أطلق عليها: "تمة البيان لما أشكل من متشابه القرآن".

ونظم الشيخ محمد بن مصطفى الخضري الدمياطي (ت 1287هـ) على من والي منظومة السخاوي مع بعض الزيادة.

كما ظهرت مؤلفات مستقلة في توجيه المتشابه وبيان إعجازه أشهرها:

(1) درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز. لأبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الإسكافي (ت 420 هـ). توجيه الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة والمختلفة وبعد أول مؤلف في بابه وقد صرح الإسكافي في كتابه أنه لم يقف على مؤلف سبقه إلى هنا الفن..

(2) البرهان في توجيه متشابه القرآن تاج القراء محمود بن حمزة الكرمانى (ت 505هـ) وهو كتاب وجيز استوعب فيه أكثر متشابهات القرآن. حققه عبد القادر أحمد عطا تحت عنوان "أسرار التكرار في القرآن".

(3) "ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل". لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي (ت 708هـ). وهو أوفى من الكتابين السابقين ويذكر صاحبه أنه وقف على درة التنزيل واستدرك عليه ما أغفله من الآيات أو ما فاتته منها، ويشير إلى ما أغفله بعلامة (غ) غين.

(4) كشف المعاني في متشابه المثاني، للإمام بدر الدين بن جماعة (ت 733هـ) قاضي القضاة بالقدس ثم بمصر ثم بالشام ثم عاد إلى مصر وفيها توفي .

5) وأفرد الفيروز آبادي في كتاب بصائر ذوي التميز بحثاً حول المكرر المتشابه وتوجيهه (ت 817هـ).

6) التقرير في التكرير للعلامة السيد محمد أبو الخير عابدين (ت 1344هـ).

بحث فيها الحكمة من تكرير القصص الواردة في القرآن الكريم وتطرق إلى المتشابه اللفظي وتكرار الألفاظ والمعاني.

7) ظاهرة التكرار في القرآن الكريم للدكتور عبد المنعم السيد حسن.

8) أسرار التكرار في لغة القرآن لدكتور محمود السيد شيخون.

9) التكرار الأسلوبي في اللغة العربية للدكتور السيد خضر.

10) ظاهرة التكرار بين النحاة والبلاغيين للدكتور السيد خضر وقد اشتمل الكتابان الأخيران على طائفة معتبرة من الشواهد القرآنية، وإن كانت الدراسة أصالة في اللغة العربية.

وهناك من تناول المتشابه ضمن قضايا في علوم القرآن نذكر منهم:

11) كشف المشكلات وإيضاح المعضلات لجامع العلوم أبي الحسين الأصهباني الباقولي (ت 543هـ).

12) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري (ت 926هـ).

13) فتاوى الشيخ زكريا المسماة بـ"الإعلام والاهتمام لجمع فتاوى شيخ الإسلام" فصل فيها في مسائل تتعلق بعلوم القرآن، منها توجيه المتشابه.

14) قطف الأزهار في كشف الأسرار للسيوطي (ت 911هـ). جمع فيه السيوطي مباحث أربعة عشر علماً من علوم القرآن تناول في الأخير منها (14): بيان وجه تفاوت الآيات بالتقديم والتأخير وإبدال لفظ بآخر.

15) إرشاد الرحمن لأسباب النزول والنسخ والمتشابه وتجويد القرآن، للشيخ عطية الله بن العطية الأجهوري (ت 1190هـ). رتبته على السور، وفي كل سورة يتناول: سبب النزول والناسخ والمنسوخ والمتشابه وجعل آخره خاتمة في التجويد.

16) أضواء على متشابهات القرآن للشيخ خليل ياسين.

17) لطائف المئان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن للدكتور فضل حسين عباس.

وفي كتب التفاسير لا نجد عناية خاصة بهذا النوع من التفسير أي توجيه المتشابه اللفظي على العموم؛ لأن هذا النوع من مباحث التفسير لم ينضج إلا عندما صنفت الكتب في الردّ على الطاعنين في القرآن وتآلف نظمه.

غير أن هناك بعض التفاسير تعرضت للمتشابه وتوجيهه ومن هذه التفاسير:

1. الكشاف وأفاد منه البيضاوي والنسفي وابوالسعود وغيرهم....
2. مفاتيح الغيب للرازي 606هـ.
3. أنوار التنزيل وأسرار التأويل - لناصر الدين البيضاوي 690هـ.
4. مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام عبد الله بن أحمد النسفي 701هـ.
5. البحر المحيط - لأبي حيان 754هـ.
6. السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض المعاني كلام ربنا الحكيم الخبير (تفسير الخطيب) للإمام محمد بن محمد الخطيب الشربيني 977هـ ويظهر اعتماده كثيرا على تفسير الرازي .
7. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام المفسر برهان الدين بن عمر البقاعي 885هـ.
8. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم - المشهور بتفسير أبي السعود لمحمد بن محمد أبي السعود العمادي 982هـ.

9. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني \_ لشهاب الدين الألواصي 1270هـ وهو من أعزرت التفاسير في توجيه الآيات المتشابهة.
10. تفسير المنار لشيخ محمد رشيد رضا المتوفى سنة 1354هـ.
11. تفسير التحرير والتنوير لشيخ محمد الطاهر بن عاشور المتوفى سنة 1973هـ ولاسم الكامل لتفسيره: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد.
- هذا وإن هناك تفاسير آخر نفيسة تحتوى على فوائد بلاغية ولغوية في مظاهرها لتقل أهمية عما أسلفنا وذكرنا منها:
12. غرائب القرآن و رغائب الفرقان لنظام الدين القمي 728هـ.
13. التفسير الكبير لشيخ الإسلام ابن تيمية 728هـ.
14. بدائع التفسير لابن القيم الجوزية 751هـ.
15. تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن 671هـ.
- بالإضافة إلى كتب علوم القرآن وعلى رأسها البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي المتوفى 794هـ.
- والإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي المتوفى سنة 911هـ.

## مصطلحات لها صلة بالتكرار:

وحتى يميّز التكرار عن بعض المصطلحات التي تتداخل معه أو توحى به رأينا لزما أن نشير إليها لنتبين صلتها بالتكرار.

أول هذه المصطلحات " التّرديد"؛ الذي يُوهم ظاهرُ لفظه أنّه التّكرار بعينه . غير أنّ التّرديد وُضع مصطلحا لفن بلاغي آخر؛ عرّفه ابن الزملاكي: "التّرديد" هو أن تُعلّق لفظةً بمعنى ثم تَرُدّها بعينها وتعلّقها بمعنى آخر كقول أبي نواس:

"صفراء لا تنزلُ الأحزانُ ساحتها لومسّها حَجْرٌ مَسَّتُهُ سَرَاءٌ"<sup>1</sup>  
وعرّفه ابن جزي:

« هو رد الكلام على آخره ويسمى في الشعر ردّ العجز على الصدر»<sup>2</sup>

وربما هذه التسمية الأخيرة غالبية على الشعر حيث تحمل التسمية هذا الأصل (العجز والصدر) التي هي خاصة بالبيت الشعري ثم أطلقت على النثر تجوزا فأوائل العبارة صدور وأواخرها أعجاز.. وقد وجدنا القزويني 739هـ يشير إلى ردّ الأعجاز على الصدور في النثر فيقول:

« وهو في النثر أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين<sup>3</sup> بهما في أول الفقرة والآخر في آخرها كقوله تعالى: ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾

وكقوله تعالى: ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) ﴾

وكقوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (168) ﴾<sup>4</sup>

1- التبيان في علم البيان - لابن الزملاكي (651هـ) ص 186. والبيت في: ديوان أبي نواس - شرح محمود واصف - المطبعة العمومية بمصر - ط 1 - 1898م ص 234، وانظر: ديوان أبي نواس. دار بيروت للطباعة والنشر. 1978. ص: 7.

2- البلاغة في التفسير القرآني الأندلسي في القرنين السابع والثامن (7 و 8) خلدون سعيد صبح ص 289 .

3- انظر الإيضاح - القزويني ص 542 .

4- الإيضاح في علوم البلاغة - القزويني - ج 2 / 543 .

وهذا كله من باب ردّ الأعجاز على الصدور ويُمَثَلُ له أيضا في النثر بقولهم: القتل  
أنفى للقتل، والحيلة ترك الحيلة، وقوله عزّ وجلّ:

- ﴿فَمَا كَانَ لَشُرْكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَصِلَ إِلَى شُرْكَائِهِمْ﴾<sup>1</sup>

- ﴿تَوَلَّجَ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَتَوَلَّجَ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾.

وارتباط باب رد الأعجاز على الصدور بالشعر ملحوظ في تعريف أغلب من  
تعرض له من القدماء والمتأخرين والمحدثين .. كالذي نجده في تعريف صفي الدين الحلبي  
(750 هـ) له بأنّه هو أن يأتي الشاعر « بكلمة في صدر البيت متقدّمة أو متأخرة ثم  
يأتي بها بلفظها ومعناها، أو بما تَصَرَّفَ من لفظها في عجزه وأحسنه ما كانت اللفظة  
افتتاحا للبيت، والأخرى ختاما له »<sup>2</sup>

وربّما أطلق على هذا الفنّ اسم " التصدير " الذي عرّفوه بأنّه: « ما كان أحد  
اللفظين في صدر البيت والآخر في عجزه »<sup>3</sup>

بينما التريديد يتعلق غالبا بالنثر من جهة ثم لا يشترط في اللفظة التي تتردد فيه أن  
تكون في أول البيت أو في آخره .

يعرفه الحلبي: « هو أن يعلّق المتكلم ( أو الشاعر ) لفظة من الكلام بمعنى ثم  
يردها بعينها ويعلّقها بمعنى آخر كقوله تعالى:

- ﴿حَتَّى نُؤْتِيَ مَثَلَ مَا أَوْتِيَ رَسُولُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ الأنعام 124.  
و كقوله تعالى:

- ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ الحشر 20.

- ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ القدر 2، 3.

ومن النظم قول أبي نواس:

1- أنظر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن - ابن القيم - ص 239 .

2- شرح الكافية البديعية - صفي الدين الحلبي - ص 82 .

3- جوهر الكنز - نجم الدين ابن الأثير - ص 260 .

"صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسّها حجر مسّته سراء"

وإن اتّفق للشاعر توجيه اللفظة أو اشتراكها بمعنى آخر كان أبلغ<sup>1</sup> «

ويعرفه بدوي طبانة:

التّرديد هو: « أن يأتي الشاعر بلفظة متعلقة بمعنى، ثم يردّها بعينها متعلقة بمعنى آخر في البيت نفسه أو في قسم منه، وذلك نحو قول زهير:

"مَنْ يَلِقَ يَوْمًا عَلَى عِلَاتِهِ هَرَمًا يَلِقُ السَّمَاةَ مِنْهُ وَالتَّدَى خُلُقًا"

فعلق " يلق " بهرم، ثم علّقها بالسّماحة، وكذلك قوله أيضا:

ومن هاب أسباب المنايا يتلنّهُ ولو رام أسباب السّماء بسلم

فردّد " أسباب " وعلّقها بالمنايا، ثم علّقها بالسّماء<sup>2</sup> «

وشبيه التّرديد في إعادة اللفظة بعينها في البيت مصطلح " التّعطف "، لا يفرق بينهما إلا بالموضع واختلاف التردّد، إذ شرط " التّعطف " « أن تكون إحدى كلمتيه في أحد مصراعي البيت والأخرى في الآخر، ليشبّه مصراعا البيت في انعطاف أحدهما على الآخر بالعطفين في كون كل عطفٍ منهما يميل إلى الجانب الذي يميل إليه الآخر.»<sup>3</sup>

ولا يشترط فيه أن تعاد اللفظة بصيغتها بل بما يتصرّف منها أيضا<sup>4</sup>

وهو كما نلاحظ نفس ما أطلق على التّصدير ورد العجز على الصّدر، إلا إذا فرّق بينها بموقع اللفظة من الصّدر والعجز، وتكريرها بعينها أو بما اشتقّ منها أو بغير معناها وهذا لم يحصل بعد فيما أعلم .

ويظهر هذا التّداخل في بعض مصنفات المتأخرين ففي باب التّرديد مثلا نجد التّصدير والتّعطف والمُشاكلة ورد الأعجاز على الصّدر، حتّى قال عنها نجم الدّين ابن

1- شرح الكافية ص 148 و149 .

2- معجم البلاغة د/ بدوي طبانة ج 1/ 298 وانظر أيضا: المعجم المفصل. في الأدب - محمد التونجي، ص 243 .

3- شرح الكافية - ص 285 .

4- المصدر نفسه ص 285 .

الأثير: « وحاصل الأمر أنّ هذه الأنواع كلّها مادة واحدة وشواهدا متقاربة، وهي باب واحد<sup>1</sup> »

ذلك أنّه يجمع بينها تكرر اللفظة وإعادتها وترديدها بعينها أو بما اشتق منها أو اشتقت منه .

غير أنّ المشاكلة متميّزة، وإنّ انبثت أساسا على تكرر لفظة بعينها أو بأصل مادّتها في العبارة، ذلك أنّ الثانية منها تُحمَلُ على المجاز، ومسوّغ التكرار في المشاكلة هو المجاورة .

وكذلك فمن الأبواب التي تنبني على مبدأ التكرير إلا أنّها متميّزة لا تشتبه بالأبواب السابقة "بابُ التّجنيس" بأنواعه لأنّه تشابه في اللفظ مع اختلاف المعنى.

وكذلك فنّ " التّرجيع " في الشعر وهو تكرر البيت الأخير من الدّور الأوّل في كلّ نهاية دور شعري وهو شائع في الموشّحات والمُسَمَّطات، وقيل هو في الشعر الفرنسي أثر من آثار الأشكال الشعرية الأندلسية في الأدب الفرنسي.

إذ تتألف الأدوار فيه من ثمانية مقاطع تتفق القافية في كل بيتين منها.<sup>2</sup>

أما فنّ " التّعيد " فظاهره أنّ لا صلة له بالتكرار، وقد عرّفه الحلّي بقوله:

« هو إيقاع أسماء مفردة على سياق واحد، فإن روعي في ذلك ازدواج، أو مطابقة أو تجنيس، أو مقابلة فذلك الغاية في الحسن ومثاله قوله تعالى:

- ﴿وَلَتَنْبُلُوَكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾. [البقرة: 155]

ومن الشعر قول المتنبي:

الْحَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالضَّرْبُ وَالطَّعْنُ وَالْقِرطَاسُ وَالْقَلَمُ<sup>1</sup>»

1- جواهر الكنز ص 261 .

2- أنظر المعجم المفصل في الأدب - محمد التونجي ص 242 .

وهو نفس التعريف الذي أورده صاحب الفوائد المشوّق، غير أنّه مثَّل له بقوله تعالى:

- ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾. الحشر: 23  
وبقوله عزَّ وجلَّ:

- ﴿وَإِنِّي إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى وَأَنْتَ هُوَ أَضْحَكُ وَأَبْكِي وَأَنْتَ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا وَأَنْتَ خَلَقَ الزَّوْجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى مِنْ نَظْفَةٍ إِذَا تَمَنَّى وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْآخِرَى وَأَنْتَ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى وَأَنْتَ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى وَأَنْتَ أَهْلَكَ عَادَا الْأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ أَنْهُمْ كَانُوا أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾<sup>2</sup> «

فأساس التعديد يدور حول تعدد الأسماء المفردة في السياق الواحد مع اختلاف فيما بينها ولذلك يسمى أيضا " سياق الأعداد " .

غير أننا وجدنا الدكتور عز الدين علي السيد يمثل للتعديد بأمثلة هي من صلب التكرار وذلك حين يقول: « قد تأتي الأسماء على الوجه الذي سمّاه البديعيون " التعديد " وهي مختلفة المرامي من حيث الدلالة، فيكون كلّ منها في موضعه على أحكم ما يقتضيه المقام، مما يظهر سرّه أحيانا ويدقُّ أخرى، إلّا عن البصير الملمهم والتّاظر بنور الله، ولعل أقرب الأمثلة لهذا الطراز قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ فإنّ هنا ثلاثة أسماء كلّ منها يعبر عن ذات الحقّ جلّ علاه، ويختصّ به عن طريق الإضافة لعموم الناس، فإنّه لا يتّصف بذلك غيره سبحانه<sup>3</sup> «

1- شرح الكافية ص 306 . والبيت في ديوان المتنبي يُروى مع اختلاف، فعوض (فالخيل) نجد (الخيل)، وعوض (والضربُ والطعنُ) نجد (والسيف والرمح). أنظر: شرح ديوان المتنبي، وضعه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي- بيروت، 1407هـ-1986م ج 4 ص 85.

2- الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن - ابن القيم ص 164 و 165 .

3- من روائع الإعجاز ( تعبير الحق عن ذاته ) - د.عز الدين علي السيّد - ط: 2 / 1997 عالم الكتب - بيروت. ص 58 .

فالتّعدد في تلك النّماذج يتمثل في اختلاف الأسماء في النّسق الواحد وتعدّها:

ربّ النّاس

ملك النّاس

إله النّاس

أو في اختلاف الأسماء في السياقات المتشابهة كقوله تعالى:

- ﴿ ما يأتّهم من ذكر من ربهم محدث إلاّ استمعوه وهم يلعبون ﴾ الأنبياء / 3.
  - ﴿ وما يأتّهم من ذكر من الرّحمن محدث إلاّ كانوا عنه معرضين ﴾ الشعراء / 5.
- و قوله تعالى:

- ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإنّ ربك غفور رحيم ﴾ الأنعام / 145 .
- ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإنّ الله غفور رحيم ﴾ النّحل / 115 .
- ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إنّ الله غفور رحيم ﴾ البقرة / 173.

فالتّعدد في هذه الأمثلة يبحث عن سر التمايز بين تلك الأسماء ؟

بينما التّكرار ينظر إلى مدى التّشابه الواقع بين تلك النّماذج ويحاول أن يتبيّن مناسبتها، ولعلّ جانباً من ذلك السّر يكمن في التّعدد والاختلاف، إذ يكاد يكون ذلك مفتاحاً لكل تكرار ورد على هذا التّمط . ولهذا فإنّني أقترح أن يسمّى هذا النوع من التّشابه ( التّكرار التّعديدي )

فالملاحظ في هذه الأبواب جميعها أن معنى التّكرار والتّريد أجمع لها غير أنّ التّريد يخالف التّكرار في أنّ إعادة اللفظة مع تعليقها بمعنى آخر فهي لمعنيين أو لمتعلقين بها مختلفين. ومن خلال هذه الأبواب ذات الصّلة بالتّكرار وإن كانت لا تدخل تحت التّكرار الاصطلاحي، فهي تشير ضمناً إلى مدى جمال التّكرار وأثره في تلوين الأسلوب وتصريف القول .. وهناك أبواب أخرى تبني أساساً على مبدأ التّكرير كالجناس بأنواعه، وتشابه الأطراف وهو إعادة لفظ القافية في الجملة التي تليها كقوله تعالى: ﴿ مثل نوره كشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجه كأنها كوكب دري ﴾ النور: 35

## ظاهرة التكرار بين الكون والقرآن

### تأمل في سورة الرحمن

لقد لفت انتباهي أنّ الكتاب الحكيم قرّن بين تعليم القرآن وتعليم البيان للإنسان مع الإشارة إلى بعض الخلق في السموات والأرض، والإشادة بسجودها المتضمّن تسبيحها<sup>1</sup>.

وأنها جميعا وفق تقديرٍ وتدبيرٍ حُسبانًا وميزانا<sup>2</sup>. قال تعالى:

﴿الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (6)﴾... إلخ الآية.

وإذا كانت رعاية التناسب والتلاؤم على العموم من سمة البلاغة وشيعة البلغاء فإنّ ملاءمة الأساليب للمعاني التي تحملها، وانسجام المعاني مع الأساليب التي تصاغ فيها في الكلام المعجز أمر ثابت وحق، وإن خفي ودقّ.

فإنّ المعاني الواردة في سورة (الرحمن) عُرضت في جوّ تكراري فريد تتردّد ترجيعات أصدائه في حنايا السورة وأرجائها بدرجة لا تعادلها سورة أخرى فقد سيطر على إيقاع فواصلها، صوتان خيشوميان النون والميم.

كما اصطبغت بأسلوب التثنية الذي يوحي بالازدواج والامتزاج بين المتقابلين، مع التمايز إبقاءً على خصائص الممتزجين على نحو ما جاء في السورة:

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20)﴾

وتجلت ملامح التكرار في السورة فيما له علاقة بالفواصل:

أ- في حروف الفواصل: النون تكررت 69 مرة والميم 7 مرات.

1- كما هو معلوم في الصلاة الشرعية: يُسَبَّحُ في السجود .. وهناك الصلاة الكونية والسجود الكوني والتسبيح الكوني كما سنشير قريباً.

2- بالإضافة إلى ما في السورة من إشارة إلى ذلك، هناك إشارات إلى هذه الحقيقة وأنها تحكم الخلق جميعاً: ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ 8/الرعد ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ 2/الفرقان ﴿من كل شيء موزون﴾ 19/الحجر ﴿والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم﴾ 96/الأنعام.

ب- في صيغ التثنية وضمائها ( الأفعال والأسماء والضمائر ) تكررت عشرات المرات.

ج- المفردات: تكررت لفظة " الميزان " ثلاث مرات متواليات وهن فواصل.

وتكررت لفظة "المرجان " مرتين الآية 21 و58.

وتكررت لفظة " جنتان " مرتين الآية 46 و62.

د- جزء من جملة: الجلال والإكرام تكررت مرتين الآية 26 و78.

إنس ولا جان: تكررت ثلاث مرات في الآيات 39- 56- 74.

هـ - جملة أو آية: تكررت جملة ﴿ لَمْ يَطْمِئِنُّوْا إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ مرتين مرة آية 74.

ومرة جزءا من آية: 56.

- ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ آية تكررت 31 مرة وهو تكرر بلغ حدا قياسيا

حيث بلغ 40 % من عدد آي السورة البالغ 77 أو 78 والشأن اللطيف هنا أن يجمع بين الكتاب المسطور والكتاب المنظور في سورة أبرز سمة أسلوبية فيها على الإطلاق هي التكرار.

وكأنّ التكرار في هذه السورة إيحاء إلى أنه أبرز الروابط الجامعة بين الآيات الكونية والآيات القرآنية وعليه ترسي دعائمها.

وأوقفني التأمل في هذه العلاقات التكرارية على بعض الصّلات بين الكون والقرآن وتنبأ لي أنّ ظاهرة التكرار نبضات الكون، وترجيحات فنّ القول.

ذلك أنّ أحدث نظرية تفسّر وحدة الكون هي نظرية الوتر<sup>1</sup> التي ترى أنّ أصغر وحدة في الكون جسم على شكل حلقة وترية تتقبض وتتبسط كأنّها قلب نابض في

---

1- وربما عبّروا عن امتداد لها " بالنظرية الخيطية " التي هي عبارة عن أسلاك من الطاقة متذبذبة على شكل خيوط، في قلب كل جزء من المادة. يطلق على كل سلك طاقة وهو أصغر من الذرة بحوالي مائة مليار مليار مرة، نسبته إلى الذرة كشجرة على الأرض بالنسبة إلى المجموعة الشمسية. ولهذه الشمولية أطلق على هذه النظرية: نظرية كل شيء .

يراجع شريط علمي بعنوان: النظرية الوترية، عرضته قناة العربية يوم الأربعاء 18 أوت

2004. على الساعة 21 بتوقيت غرينيتش. والجزء الثاني بعنوان النظرية الخيطية يوم 25 أوت.

حركة دائبة مستمرة، وباهتزازها وانقباضها وانبساطها تتشكل الكائنات وتتلون تبعاً لتلك الذبذبات والتشكلات ... فَتُشَكَّلُ نَبْضَاتُ تِلْكَ الْأُوتَارِ بِتَلَوِّنَاتٍ أَشْكَالَهَا وَتَنَوُّعَاتٍ أَنْعَامَهَا، واختلافها فيما بينها، سيمفونية كونية متكاملة متوائمة يتماهى بعضها في بعض ليصنع لحن الحياة .

وإني لا أستبعد صحة هذه النظرية فإني أجد شيئاً منها يستوطن في كياني حين أتأمل خلق الرحمن وأمثله تفكراً وتدبراً من الذرات إلى المجزآت في حركة دائبة لا تبي ولا تفتر فكلُّ يجري لأجل مسمى ومستقرِّ له معلوم، في أفلاك معبّدة لا تحيد عنها قيد أملة ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ . في حركة خاشعة تمثل الخضوع والانقياد، فيها ارتفاع وانخفاض، وانبساط وانقباض، انحناء واستواء .. فهي قائمة ساجدة؛

﴿ وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾<sup>1</sup>، حيث تشير الآية إلى الخضوع الكوني الكامل وتكشف عن خنوع قسريٍّ وسجود جبريٍّ لبعض العقلاء فمن لا يسجد طوعاً يسجد كرها بطريقة أخرى لا فضل له فيها ولا مزية فدراته خاضعة وأجهزته داخرة ونبضات قلبه ونياط عروقه، وظل شخصه في تطاوله وتضاؤله بالغدو والآصال والعشي والإبكار "وظلالهم بالغدو والآصال" وقد صرح القرآن بأن تمايل الظل صورة من صور السجود على الرغم من إنكار وجود بعض أصحاب تلك الظلال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾<sup>2</sup> وقد وقع هذا على رؤوس الآيات التي خصت بالسجودات القرآنية التي يختر لها المصلي والتالي

ومن جهة أخرى يصحب تلك الحركة السجودية تسبيح هو ترديد الكائنات وترجيئها الذي به ينتظم لحن الكون، ويتبدد السكون، فكل الكائنات تلهج به وتعج في حذاء منسجم مع وقع حركة الكون .

1- الرعد، 15.

2- النحل، 48.

فكما أنبا سبحانه وتعالى عن حركة كل شيء وسجوده، أخبر عن تسبيح كل شيء بحمد ربه وتنزيهه:

﴿ تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾<sup>1</sup>.

وتلك ثنائية رائعة حركة وصوت، فعل وقول، سجود وتسبيح. وهو تلازم بديع يصادفك في آيات من قلب القرآن بين الحزب 18 و42 على مراحل متساوية<sup>2</sup>:

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَهُوَ يَسْجُدُونَ ﴾ الأعراف: 206

- ﴿ يَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ الإسراء: 107 / 108.

- ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾<sup>3</sup>.

ويعيشه المسلم مظهرًا فعليًا وقوليا في الصلوات الخمس وتوابعها .. التي هي عينة من سجود الكون وتسبيحه على الحقيقة وإن كنا لا نفقه كلها وحقيقتها ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ لا شك أن هذا التزاوج بين السجود والتسبيح، كما يتحقق في الصلاة الشرعية، يتحقق في الصلاة الكونية التي يشير إليها قوله عز وجل:

- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ 41 / النور.

1- الإسراء، 44.

2- الأولى في سورة الأعراف من الحزب 18 والثانية في الإسراء من الحزب 30 والثالثة في السجدة من الحزب 45 فأنت ترى أنها وقعت بعد 18 حزبا وقبل 18 حزبا ويفصل بين الآيات المذكورة 12 حزبا. الحزب 18 والحزب 30 والحزب 42 آية الإسراء في قلب القرآن قبلها آية الأعراف حوالي 12 حزبا وبعدها آية السجدة حوالي 12 حزبا كذلك .

3- السجدة/ 15.

وقد يتجلى بين الحين والآخر شيء من تلك الحقائق المستورة، لمن جباهم الله واصطفاهم فيشهدونها مرأى ومسمعا كالذي ذكر في القرآن عن داوود عليه السلام:

- ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ الأنبياء 79.

- ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَآلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ سبأ 10.

- ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (18) وَالطَّيْرَ مَخْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ ص 19.

- وجاء في الحديث الشريف أن نقيق الضفادع تسبيح<sup>1</sup> وأن النمل يسبح بحمد ربّه فقد عاتب الله نبيا من الأنبياء لما أحرق قرية نمل: « أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح »<sup>2</sup>، وربما هذا التسبيح هو نبيه ﷺ عن قتل هذه الأصناف من الحيوان، فقد روي " أن طبيبا سأل النبي ﷺ عن ضفدع يجعلها في دواء، فنهاه النبي ﷺ عن قتلها"<sup>3</sup>

- وكذا عظام الصائم تسبح فقد قال ﷺ لبلال: «أشعرت يا بلال أن الصائم تسبح عظامه وتستغفر له الملائكة ما أكل عنده»<sup>4</sup>.

- وإنّ العنب والرطب ليسبحان ؛ ذكر عياض أنّ النبي ﷺ لما مرض « أتاه جبريل بطبق فيه عنب ورطب فأكل منه فسبح »<sup>5</sup>.

وإنّ الطعام يسبح أيضا، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: « لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل »<sup>6</sup>.

1- فيض القدير شرح الجامع الصغير: للعلامة المناوي، ج 6، ص 316، رقم 9843، ط 2، 1391هـ-1972م. دار المعرفة بيروت لبنان. ضعفه الدار قطني، والألباني.

2- رواه البخاري ورواه مسلم والنسائي وأبو داوود وابن ماجه، لفظ " أهلكت أمة " بدل "أحرقت".

3- سسن أبي داوود ضمن الكتب الستة، الحديث رقم: 5269. ص 1605.

4- ابن ماجه الحديث رقم: 1739.

5- فتح الباري في شرح البخاري، في شرح الحديث رقم: 3314.

6- صحيح البخاري الحديث رقم: 3314 ورواه الترمذي وأحمد الدارمي.

وعنه أيضا: « كُتِبَ نَاقِلٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الطَّعَامُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ تَسْبِيحَهُ »<sup>1</sup>.  
ووقع مثل هذا لأبي الدرداء وسلمان رضي الله عنهما « وذلك أنّهما بينما هما  
يأكلان في صحفة إذ سبّحت وما فيها »<sup>2</sup>.  
حتى صار هذا الحدث العجيب المبارك علامةً بينهما إذا كتب أحدهما إلى الآخر  
قال له: بآية الصّحفة<sup>3</sup>.

وهذه الأخبار تدل على أن التّسبيح عام في كل شيء حتى قال النخعي رحمه  
الله:- « هو عامّ فيما فيه روح، وفيما لا روح فيه، حتى صرير الباب »<sup>4</sup>.  
وهذا حق يشهد له إطلاق القرآن ذلك وتعميمه « وإن من شيء إلا يسبح  
بحمده » وتسبيح الحصى في يده ﷺ، فعن أبي ذرّ الغفاري رضي الله عنه - قال:  
« تناول رسول الله ﷺ سبع حصيات فسبّحن في يده حتى سمعتُ لهن حنينا، ثم  
وضعهن في يد أبي بكر فسبّحن ثم وضعهن في يد عمر فسبّحن ثم وضعهن في يد عثمان  
فسبّحن »<sup>5</sup>

بل إنّ كثيرا ممن وقف على بعض تلك الآيات التي تشير إلى تسبيح الكون  
وعاش في رحابها برهة، شعّت في كيانه قبسا نورانيا حوّل الكون حوله لوحة فنيّة رائعة  
تنبض بالحياة فرأى في الكائنات ما لم يره من قبل قط.  
فانظر مثلا أثر مشهد آية الإسراء<sup>6</sup> في نفس سيد قطب - رحمه الله - حين يقول  
عن هذه الآية: « وهو تعبير تنبض به كلُّ ذرّة في هذا الكون الكبير، وتنتفض روحا

1- أنظر تفسير القرطبي ج 10/268 .

2- أورده البيهقي في الدلائل .

3- المصدر نفسه.

4- القرطبي ج 10/268.

5- الأوسط للطبراني

6- في قوله تعالى: ﴿ تَسْبِحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ... ﴾  
الإسراء 44.

حيّة تسبح الله. فإذا الكون كله حركة وحياة، وإذا الوجود كله تسيحة واحدة شجية رحية، ترتفع في جلال إلى الخالق الواحد الكبير المتعال .

وإنه لمشهد كوني فريد، حين يتصوّر القلب كلّ حصة وكل حجر. كل حبة وكل ورقة . كل زهرة وكل ثمرة . كل نبتة وكل شجرة . كل حشرة وكل زاحفة، وكل حيوان وكل إنسان، كل دابة على الأرض وكل ساجدة في الماء والهواء .. ومع سكان السماء.. كلها تسبح الله وتتوجه إليه في علاه.

وإنّ الوجدان ليرتعث وهو يستشعر الحياة تدب في كل ما حوله مما يراه ومما لا يراه وكلما همّت يده أن تلمس شيئاً، وكلما همّت رجليه أن تطأ شيئاً ..سمعه يسبح لله وينبض بالحياة ...

وحين تشفّ الروح وتصفو فتستمع لكل متحرك أو ساكن وهو ينبض بالروح، ويتوجه بالتسيح، فإنّها تتهيأ للاتصال بالملأ الأعلى وتدرّك عن أسرار هذا الوجود ما لا يدركه الغافلون <sup>1</sup> .

وحينها يغمرك انشراح وتهزك أريجيّة وتسري فيك قشعريرة مصدرها هذا التناغم الكوني في سعيه وهمسه، وحركته وصوته .

والأمر الهام هنا هو أنّ هذه الحركية المتناغمة تتكرر ظاهرياً لتجدّد الحياة لأنها تعيش بلحظة تكرارها، وتثبت وجودها في البرهة التي تعاد فيها وهكذا دواليك ومما يكرّس فكرة تجدد التسيح وإحيائه في تكراره تكراراً لا يكاد ينقطع، أنك تجده يُتعبّد بترديده وتكراره في الصلوات وأدبارها؛ إذ يتكرر فيها في كل يوم مئات <sup>2</sup>المرات.

1- في ظلال القرآن ج 4 / 2230 و 2231 .

2- يتكرر التسيح في الركوع والسجود في الصلوات الخمس حوالي 198 تسيحة إذا لم يزد الساجد أو الراكع على ثلاث تسيحات ويتكرر دبر الصلوات 165 تسيحة [فضلاً عن تسيحات الرواتب 90 أو 108 تسيحات] فيجتمع لدى المصلي المؤدي لتسيحات الصلوات وأدبارها 363، وهي بعدد أيام السنة.

ولوفرة التسبيح في الصلاة وإحاطته بها، نشأ تلازم بينهما فلا تخلو لحظة من زمان لا يُسجد فيها لله ويسبح بحمده ولشدة هذا التلازم ربما أطلق التسبيح على الصلاة كالذي نجده في قوله تعالى:

- ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18) ﴾ الرّوم.

فقد قيل إن هذه الآية تشير إلى الصلوات المفروضة<sup>1</sup>

ومن هنا فالتكرار ظاهرة أصيلة في الكون كما أنها أصيلة في الخلق على العموم تسيير مع التنوع جنبا إلى جنب فمُنظر الزروع والثمار يبدو لك ﴿ متشابهها وغير متشابه ﴾<sup>2</sup>. ومنها ﴿ صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾<sup>3</sup>.

وهو مُشاهد بين الأمكنة ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ.. ﴾ الرعد /4.

وملاحظ في الأزمنة حيث تتكرر الأيام والشهور والفصول والأعوام والمواسم والأعياد حتى قيل: " ما أشبه الليلة بالبارحة " <sup>4</sup> " والتاريخ يعيد نفسه " كما يبدو التشابه في الأمم والأجناس من حيوان وطيور وأسماك وحشرات وجراثيم ..

وكذلك الأمر في الأحداث وفي أفعال الناس وحركاتهم وأقوالهم... ولكن مع ظاهر هذا التجانس والتشابه، والتكرار والتشابه، فإن هناك تنوعا واختلافا يميز المتشابهات ويفرق بين المتجانسات لا يستبين ذلك إلا المدقق التّبيه، والمتفحص الفقيه، كالذي تبه إليه العليم الخبير:

1- أنظر تفسير القرطبي ج 14/ ص 14 .

2- وردت مرتين في سورة الأنعام ﴿ مشتبهها وغير متشابه ﴾ الآية 99 والآية 141

3- سورة الرعد الآية: 4 .

4- فرائد الخرائد في الأمثال، أبو يعقوب الخويّي، تحقيق د. عبد الرزاق حسين، دار النفائس - الأردن ص:

502، رقم المثل: 1459.

- ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ فاطر 12.
- ﴿ .. وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَايِبُ سُودٌ ﴾ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ﴾ 28 فاطر .

ولعل في التعبير عن المتشابه المتطابق بأسلوب فيه تصرف لطيف واختلاف طفيف إيماءً إلى حقيقة التمايز والاستقلال في الخلق مهما تكرر وتجانس ومهما بلغ التشابه من تماثل واتحاد .

### ما يميز بعض الآي من المتشابه:

فتأمل ما يميز المتشابه في الآيات الآتية:

- 1- ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ 147 البقرة
- ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ 60 آل عمران — إختفى التوكيد
- 2- ﴿...وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ..﴾ 27 آل عمران — الخطاب + الفعل المضارع.
- ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾ 95 الأنعام — الغيبة + اسم الفاعل .
- 3- ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ 99 الأنعام — من الفعل: اشتبه
- ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ 141 الأنعام — من الفعل: تشابه
- 4- ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ آل عمران 126 .
- ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ الأنفال 10 . هنا حذف ( لكم ) وتقديم ( به ) .
- 5- ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ .
- ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ الأنفال (33) من الفعل إلى اسم الفاعل.

6- ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيرَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾  
﴿التوبة 32 .

- ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِيرٌ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ 08 الصف  
7- ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ  
الْمُشْرِكُونَ﴾، في التوبة 33 وفي الصف 09 تطابق تام بين الآيتين يميز ما بينهما  
بالنداء الذي بعدهما ففي التوبة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ  
وَالرُّهْبَانِ...﴾، وفي الصف ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ﴾.

وفي سورة الفتح يميز عنهما بالتدليل ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ  
الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ الفتح 28.

8- ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (4) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ النبا 4 و5  
- ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ التكاثر 3 و4

نلاحظ أن ما يميز آية النبا هو:

- حرف التراخي (ثم) + حرف التنفيس (س) + ضمير الغائبين (يعلمون)  
يتعلق الشأن بأمر الدنيا.

بينما تتميز سورة التكاثر بـ:

- حرف التراخي (ثم) + حرف التسوييف (سوف) + ضمير المخاطبين (تعلمون)  
ويتعلق الأمر بالآخرة.

9- ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (5) الشرح — اتصالها بالفاء الرابطة  
- ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (6) — خلوها من الفاء .

فإن المتشابهات وإن تشابهت من جهة، فإنها متباينة من وجوه أخرى .. فمن  
المتكرر المتشابه مثلا، في جسم الإنسان العينان والأذنان واليدان والرجلان والشديان  
والأسنان والأضراس... ولكن مع ذلك فهناك ما يميز الواحدة عن الأخرى كاتجاه كل

منهما: يبنى ويسرى كزُوج الحذاء يُمَيِّزُ بينهما بالاتجاه، بالإضافة إلى قوة الجارحة، ودقة تقديرها ويسر استعمالها ومطاوعتها ودرجة فعاليتها وما إلى ذلك من فروق. ويكاد هذا ينسحب على فن القول فيه المكرر المعاد المتشابه، ولكنه متميز من وجه آخر خفي .

وإنّ ما يعيشه الإنسان من تكرار في كيانه ومنّ حواليه تنشأ عنه رتابة يألفها في الحياة وهي في حقيقتها رتابة متغيرة متحركة متجدّدة تصنع الحياة، من ذلك: دقات القلوب، وحركة الشروق والغروب، ووقع الخطى على الحصى، واختلاف الليل والنهار: أشاب الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الكَبِيرِ رَكَرُ الغَدَاةِ وَمَرُّ العَشِيِّ<sup>1</sup>

وهذا المنطلق العام الملحوظ في جدّة ما يتكرر في الخلق، واستقلاله بنفسه في لحظته وموقعه، فإنّه يصلح أنّ يعلل به كثير من التكرار البياني، إذ لا محالة من تغيرّ المقام وتجدد السياق اللذين يلقيان بظلالهما على المكرر فيلوّثانه بصبغة الحال والمحالّ .

وشأن هذا المكرر شأن الجملة أو البيت أو الآية الواحدة تستخدم في مقامات مختلفة ومناسبات متباينة ولا تشعر بسماجة الإعادة فكأنّك تصادف منها معنى جديداً، فربّ آية استشهدَ بها مئات المرّات في سياقات عديدة، لها في كل موقع مذاق أصابت فيه المعنى في الكلّي والمفاصل .

فالآية المكررة في حقيقتها هي واحدة، ولكن الموقف الوليد، والمقام الجديد بعث فيها ظلاً دلالياً كان من قبل عن العقول مستورا.

1- البيت هو مطلع مقطوعة للصّلتان العبدي: قثم بن خبيئة بن عبد القيس، حكّم بين جرير والفرزدق في قصيدة عينية. أنظر الشعر والشعراء ص 252 و 253 والإيضاح الشاهد رقم: 2 21 ص 99 .

## اللازمة المتكررة في بعض السور: الرحمن - المرسلات - الشعراء

وهذا المنطلق يمكن أن نسترشد به -أيضاً- في تفسير جانب مما يتكرر كثيرا في السورة الواحدة<sup>1</sup> كالذي ورد في سورة (الرحمن) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إحدى وثلاثين مرة. أو الذي نلاحظه في سورة المرسلات حيث تكررت الآية البليغة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مرات.

أو نلمسه في سورة " الشعراء " إذ تكررت فيها سبع آيات، تكررت 5 آيات منها 5 مرات بينما تكررت آيتان منها ثماني مرات وهما قوله عز وجل:

- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (8) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (9)﴾.

والمأمل لهذه الثنائية المتكررة يجد نفسه في حيرة منها: أهي خاتمة لفقرة سابقة أم هي فاتحة لفقرة لاحقة ؟ ! لشدة ارتباط المعاني واتصالها.

ثم يكتشف أنها حلقة وثيقة بين طرفين بين مخاطبة النبي ﷺ في شأن تكذيب قومه بالآيات، وبين ما وقع لبعض الرسل عليهم السلام مع أقوامهم مما يضيق له الصدر الرحيب<sup>2</sup>.

كما هي في آخر المطاف - أيضا - حلقة رابطة بين الحديث عن الأمم السالفة وبين رجوع الخطاب إلى النبي ﷺ ، حيث التماثل في أعلى درجاته بين أولئك الأقسام وهؤلاء من قومك ليطمئن قلبه وينشرح صدره بالركون إلى كنف العزيز الرحيم مستأنسا بهذين الاسمين المباركين اللذين تردد ذكرهما مع كل إشارة سبقت لأمة من تلك الأمم الغابرة مقتديا مهتديا بذلك كله ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ 217 الشعراء.

1- أعني ما وقع ضمن السورة الواحدة وتكرر كثيرا في سورة الرحمن والمرسلات والشعراء والقمر كما سنبينه.

2- أنظر مثلا قول موسى عليه السلام: ﴿رب إني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطق لساني﴾. 13 / الشعراء.

كما أن هذه الثنائية بمجموعها مكررة ثماني مرات على مدى 180 آية من الآية 8 و9 إلى الآية: 190 إلى 191، بمثابة جملة اعتراضية بين الخطابين الشريفين تهيئاً بها جميل التخلص ولطيف الانتقال .

وهذا التكرار الذي تردد مع الأقوام وتدحرج عبر الأزمان ينبئ عن مدى وحدة دعوة الأنبياء فكلهم يدعون إلى دين واحد وإن اختلفت أممهم وشرائعهم ففي الحديث الشريف:

« ... الأنبياء إخوة، أبناء علات أمماتهم شتى ودينهم واحد »<sup>1</sup>

### اللازمة المتكررة في سورة: القمر

ومثل هذا التكرار المتجدد في السورة الواحدة ما نجده أيضاً في سورة القمر حيث تكررت:

- ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ ست (6) مرات

- ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ أربع (4) مرات

- ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ أربع (4) مرات

والملاحظ أنه خولف المكرر المعتاد مع قوم لوط فبدل: ﴿ فكيف كان عذابي ونذري ﴾ جاءت ﴿ فذوقوا عذابي ونذري ﴾.

وقع ذلك مرتين مع القوم وذلك ليناسب خصوصية هؤلاء القوم الذين جاءوا بفاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين.

والملاحظ أن هذه المقاطع الثلاثة المكررة افتتحت بها مجتمعة:

- ﴿ ... فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (15) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي (16) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (17) ﴾ .

ثم توزعت وفق نظام معين لغرض مقصود يتجدد أو يختلف من موقع إلى آخر

1- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي، تحقيق أ. عبد العليم الطحاوي، المكتبة العلمية بيروت، ص: 113 . ج 6 (د.ط.).

فاللازمة الأولى: ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (15) ﴾ وقعت خاتمة لقصة نوح عليه السلام فهي للتأسي والاعتبار .

بينما وقعت في الآيات: 17 و28 و32 و41 في محل التشويق والترغيب، وهي أخيرا في الآية 51 ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ للاعتبار والانزجار.

واللازمة الثانية: " ولقد يسرنا القرآن للذكر.. فهل من مدكر " تخللت ما بين القصة والقصة ترغيبا في الرجوع إلى القرآن الميسر وتذكيرا به أربع مرات مما يوجب العودة إليه في كل حادث يجد وفي كل واقع يحدث.

وأما اللازمة الثالثة: " فكيف كان عذابي ونذري " فهي للتدبر والاستبصار والاعتبار بعد وقوع العقاب ونزول العذاب كالذي نراه في قصة نوح عليه السلام وقصة عاد بعد نزول العذاب .

وهي للاستخبار والاستفسار بعد التكذيب وفعل الشنيع وقبل العقاب ونزول العذاب كالذي نجده مع ثمود وعاد قبل أن يحيط بهم العذاب .

ويلاحظ في هذه اللازمة أنها تكررت في موطن مرتين وافتقدت في موطن كذا نتوقعها فيه، وتُصَرَّفُ فيها مرّتين كلّ ذلك لدواع ملحة .

أ- تكررت ﴿ فكيف كان عذابي ونذري ﴾ مع قوم عاد مرّتين الآية: 18 و21 .

- قال أبو حيان عن هذا التكرار: « وتكرر التّهويل بالاستفهام قبل ذكر ما حلّ بهم وبعده، لغرابة ما عذبوا به من الريح، وانفرادهم بهذا النوع من العذاب »<sup>1</sup> .

- وهناك من فرّق بين دلالة الآيتين فجعل الأولى إشارة إلى عذاب الدنيا والثانية إشارة إلى عذاب الآخرة<sup>2</sup> .

- ويراه المراغي قد تكرر تعظيما لشأن المكرر وفق قاعدة عامة ترى أنّ هذا الغرض « سنّة في بليغ الكلام، في باب النصّح والإرشاد، وباب التّهديد والوعيد »<sup>1</sup> .

1- البحر المحيط ج 10 / 41 .

2- أنظر تفسير المراغي ج 27 / ص 88 .

- ويظهر لي أنّ السّياق قد فرّق بينهما فقد وردت الأولى بعد تكذيب القوم مباشرة وقبل أن يكشف ما حلّ بهم: ﴿كذّبت عاد فكيف كان عذابي ونذري﴾ (18) وعليه فالاستفهام للاستخبار والاستفسار.

بينما وردت الثانية بعد إرسال الريح العاتية عليهم والتي استأصلتهم جميعاً:

﴿تنزع النَّاسَ كأنّهم أعجاز نخل منقعر (20) فكيف كان عذابي ونذري (21)﴾

ومن ثمّ فالاستفهام للاعتبار والازدجار المشار إليه في مطلع السورة:

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ<sup>2</sup>﴾

ب- وأخفيت هذه اللازمة مع قصّة فرعون وهي التي صحبتنا مع قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط، مع تصرف قليل سنشير إليه قريباً.

- ولعل من أسباب ذلك أنّ العذاب حاق بفرعون وجنده، ونُجّي به بنو إسرائيل ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (30) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنْ الْمُسْرِفِينَ (31)﴾ .

- بخلاف الأقسام الذين وردوا في السّورة فمنهم من غمرهم الطوفان ومنهم من استأصلتهم الرّيح العقيم، ومنهم من أخذتهم الصّيحة الطاغية عن بكرة أبيهم، ومنهم من أهلكوا بمطر السّوء والرجز الحاصب. فكان عذاب استئصال للقوم، ولم يكن ذلك مع بني إسرائيل والله أعلم .

ج- وتصرّف في هذه اللازمة مع قوم لوط فاستبدل فعل الأمر " فذوقوا " بالاستفهام " فكيف ؟ " .

فأصبحت تلك اللازمة مع هؤلاء القوم:

- ﴿فذوقوا عذابي ونذري﴾ (37) وكررت مع هؤلاء مرّة أخرى في الآية (39).

1- المصدر نفسه ص 87 و88 .

2- القمر الآية 04.

قال الإمام القرطبي: « والمراد من هذا الأمر الخبر: أي فأذقتهم عذابي الذي أنذرهم به لوط »<sup>1</sup>.

وفرق بين العذابين حين تكررت الآية وجعل هذا الفرق مسوعاً لذلك التكرار فقال: « العذاب الذي نزل بهم من طمس الأعين غير العذاب الذي أهلكوا به، فذلك حسن التكرير »<sup>2</sup>. قلت إن كان التعبير في اللازمة الأصلية الاستفهامية ينبئ أن العذاب لم يقع بعد أو قد وقع وانقضى، فإن اللازمة الأمرية هنا تشعر أن العذاب قائم مستمر إيغالا في الإشعار باليم العذاب فكأنه لا يزال واقعا معيشا يزاولونه لشناعة جرمهم

ثم لما كان هؤلاء عبّاد شهوات ذواقين لها عاكفين عليها لا يرعون عنها خوطبوا بما يناسب شراحتهم في إشباع النزوات " ذوقوا عذابي " .

كما أهلكوا بحاصب من السماء ليناسب عقوبة من يأتي عمل قوم لوط وهو الرجم حتى الموت<sup>3</sup>

### استخلاص:

وهكذا يتبين لنا، بعدما أشرنا إليه من تكرار، أن للموقع أثره البالغ في توجيه معاني المكررات، فهو أصل التميّز والتّجدد والاستقلال الدلالي، فلكل موقع أثر في خصوصية المعنى تماما كما هو ملحوظ في الكون المرئي، فكما جعل الله للشمس في السماء بروجاً، وللقمر منازل، وللنجوم مواقع؛ لكل موقع منها أثر في تجديد الحياة وتمييزها، فكذا جعل للكلم مواضع يجب أن تعتبر وتقدر وإلا كان الزلل والانحراف وقد ذمّ الله قوما ﴿يحرّفون الكلم عن مواضعه﴾ النساء 46 والمائدة 13 وفي آية أخرى ﴿يحرّفون الكلم من بعد مواضعه﴾ المائدة 41، 43.

1- تفسير القرطبي ج 17 / 144 .

2- المصدر نفسه.

3- استدل الإمام مالك بقوله تعالى: ﴿ وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ هود / على أن من فعل فعل قوم لوط حكمه الرجم، المحصن وغير المحصن فيه سواء .. أنظر تفسير القرطبي ج 7 / 243 وج 81 / 9.

على أنّ تكرار المقطع الواحد في السّورة الواحدة مرّات عديدة له مفعول سحري  
وأثر فنيّ. فنظرًا لكثرة تردده مع قرب العهد به تظلّ تذكره وتستحضره فلا تكاد تنتهي  
من تكرار مقاطعه، وتتجاوز إيقاعاته حتّى يعاودك صداه ويصاحبك خيال منه مرتسم  
بذهنك لا يبارحه، لطول المعاشرة وكأنّه خلاصة ما يبقى في النّفس من السّورة، فما  
أروع من تكرار ! وأجمله من تذكّار !! .

# الفصل الأول

التكرار بين الدراسات الحديثة والتراثية

## التكرار بين الدراسات الحديثة والتراثية

اعتمدت الدراسات الحديثة في دراسة النصوص وتحليل الخطاب على مناهج مختلفة بديلة عن المنهج التأثري الانطباعي أو المعياري، حيث ينطلق الدارس من داخل النص دون أن يفرض عليه أي قانون خارجي أو حكم مسبق ويتخلص من الأحكام المعيارية والذوقية غير المعللة التي لا تستند إلى برهان.

و لقد وقفت أثناء تباعي لبعض الدراسات المعاصرة وتحليل النصوص وفق المناهج الغربية الحديثة: وقفت على دراسات حول ظاهرة أسلوب التكرار ضمن تحليل الخطاب الشعري والنثري.

فلاحظت أن التحليل الألسني يعطي أهمية قصوى للفظ المكرر في النصوص ويسمي تلك: « بالكلمات المفاتيح » وهي تخص الكلمات التي يصل معدل تكرارها في العمل الأدبي إلى نسبة أعلى مما هي عليه في اللغة العادية: أي أنها تتمتع بمعدل تكراري لدى الكاتب تفوق نسبتها لدى غيره من معاصريه، فتصبح تلك الكلمات ذات طابع شخصي يميز صاحب النص.

و لا يعني هذا الكلمات التي لها علاقة مباشرة بموضوع النص والتي بطبيعة الحال تكثر في موضوع وتقل في آخر حسب صلتها بالمضمون.

كما اعتبر بعض علماء الدلالة هذا الصنف من الألفاظ المكررة عناصر معجمية ذات قيمة تعبيرية عن مُثل المجتمع وقيمه.

و بذلك يصبح التكرار عندهم وسيلة تُحدِّدُ بها خصائص الأساليب والأنماط المميزة لها، إذ يركز الناقد على الملامح التي تتكرر في أسلوب الكاتب بالدرجة الأولى.

و من بين النماذج التطبيقية التي تعرضت للتكرار كظاهرة أسلوبية ضمن مكونات الخطاب الشعري مقال بعنوان « تحليل الخطاب الشعري رثاء صخر نموذجاً »<sup>(1)</sup> للدكتور نور الدين السد.

1- أنظر التحليل الألسني للأدب - محمد عزام ص 145، 146.

و لقد حاول فيه الباحث إبراز القيمة الأسلوبية للتكرار مسترشداً بالتحليل الألسني للأدب فيقول: « يُعد التكرار ظاهرة لغوية ذات قيمة أسلوبية متنوعة وهو يقوم على العلاقات التركيبية بين الألفاظ والجمل، وتُقاس معدلات التكرار بنسبة إيراده في النص »<sup>(1)</sup>.

ومعدلات نسبة التكرار في النص لا بد أن تراعى فيها طبيعة الموضوع ومدى علاقة المكرر بالموضوع وبالكاتب وبالبيئة والمجتمع.

ثم يشير إلى نوعين من التكرار: التكرار البسيط، والتكرار المركب، وأن القيمة الأسلوبية في النوعين تعود أساساً إلى طبيعة تركيب كل منهما:

فالتكرار البسيط يتناول تكرار الكلمة سواء كانت اسماً أو فعلاً أو حرفاً، وقيمة التكرار فيه تتركز في إبراز قيمة هذه الكلمة المكررة التي تشكل أحياناً المركز الذي يدور حوله مجموع القيم التي ينتجها النص.

وقد تتجاوز ذلك « إلى إظهار الحالة الشعورية المسيطرة على النص وتعميقها لتصوير الانفعال الحاد بها »<sup>2</sup>.

كما يلعب التكرار دوراً دلاليًا على مستوى الصيغة<sup>3</sup> والتركيب، بالإضافة إلى كونه خصيصة أساسية في بنية النص الشعري<sup>4</sup>.

فالتكرار الكلمة أبعاد أسلوبية ودلالية « فالكلمة الثانية لا تحمل بمعنى الأولى وإلا كان ذلك تحصيل حاصل ... ولكن الكلمة الثانية تحمل معنى إضافياً هو مبرر وجودها وهو معنى التأكيد أو التعجب أو التركيز وما إلى ذلك من المعاني المقدرة في ذلك ذهن المتلقي »<sup>5</sup>.

1- تحليل الخطاب الشعري، د. نور الدين السد، مجلة اللغة والأدب- الجزائر، ع 8، س 1996م، ص: 107.

2- المرجع نفسه.

3- تكرار الصيغة يشمل اللواحق (الضمائر) والخوالب (التعجب والاستغاثة) كما يشمل تكرار الأسماء والأفعال والدواخل: حروف الجر وأدوات الشرط والنداء.

4- المرجع نفسه.

5- المرجع نفسه 108.

هذا إلى جانب وظيفة ربط عناصر الخطاب بعضها إلى بعض، بالإضافة إلى الوظيفة الإيقاعية التي يحدثها جرس التكرار.

وأما التكرار المركب فيكون بتكرار الجملة أو العبارة بذاتها مع تغيير معين فيها.

فالجملة المكررة بذاتها « ليست زائدة عن الحاجة لأنها ليست هي الجملة الأولى نفسها، على الرغم من أنها هي نفسها في القواعد ليست هي في المعنى، فإذا كانت الأولى مجرد الإخبار فالجملة الثانية وسيلة أسلوبية للتأكيد وهي أبلغ من أي وسيلة نحوية أخرى»<sup>1</sup>.

و كذلك الحال عندما لا تتكرر الجملة بذاتها حرفيا « ويتم ذلك بإعادة صياغتها مرة أخرى عن طريق التغيير في العلاقات التركيبية من عناصر الجملة بالتقديم والتأخير أو الحذف أو الإضافة، وملاحظة هذا التغيير على مستوى الوظيفة النحوية والوظيفة الدلالية، وفي تغيير الجملة المكررة يحدث تغيير على مستوى الشعور بالانفعال أو الصفات أو الأحوال أو سوى ذلك وقد يتضمن ذلك قيمة أسلوبية سلبية أو إيجابية»<sup>2</sup>.

وحاول الكاتب أن يبرز قيمة التكرار في الخطاب الشعري، ويثبت أنه ليس مجرد إعادة لفظية فالجملة الثانية المكررة ليست الجملة الأولى في المعنى وكان منطلقه في تناوله لأسلوب التكرار في نص الخنساء من حكم لـ يوري لوتمان Y.LOTMAN حول التكرار يقول فيه: « الخطاب الشعري – بخلاف الحديث اليومي – لا يعرف التكرار الدلالي المطلق ما دامت الوحدة المعجمية – في حالة التكرار – توجد في موقع بنائي آخر وتكسب نتيجة لذلك معنى جديدا... أن التكرار الكلي للمعنى في نص فني مستحيل»<sup>3</sup>.

1- المرجع نفسه 108، 109.

2- المرجع نفسه 109.

3- Lotmane, la structure du texte artistique P186، عن: تحليل الخطاب الشعري، نور الدين السد، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، ص107.

يستوقفنا هذا الحكم ملياً، وهو نفي للتكرار في السياق على العموم، إذ يستفاد من عبارته أن التكرار السياقي المحض مستحيل، لأن اللفظ الثاني لا يفيد نفس ما أفاد الأول البتة، كما يُوهم أن كل تكرار ورد في نص فني هو في محله اللائق وليس بمعيب ما دمنا رفعنا عنه مذمة التكرار المحض حتى كأن تحقيق هذا النوع من التكرار المحض غير ممكن الوقوع.

فهذا الحكم يجعل كل تكرار، واقعا في محله المناسب ولا يُعاب صاحبه وليس في مضمون هذا الحكم ما يُبتدى به للتمييز بين المحمود من التكرار والمذموم اللهم إلا وصفه للنص بالفنية، وهو تعميم لا يغني في هذا المقام، إذ شتان ما بين النصوص الفنية، ففيها الجيد الطريف، وفيها الغث السخيف.

نعم قد يحملُ التكرارُ السخيف معنى إضافيا باعتبار الموقع الجديد لأنه قطعاً غير الموقع الأول وهو الحكم الذي يصدر عنه (لوتمان LOTMAN) فيما يتراءى لي.

وعليه فهذا الحكم يُسترشد به عند الدراسة والتحليل، ولا يصلح عند الإنشاء والتعبير، بخلاف ما ألفينا عند علمائنا الأقدمين فهم ينظرون للتكرار من خلال تحليل الأساليب المشتملة عليه في نصوص مختلفة.

والمعتبر في التكرار عندهم، في اللطيف منه والسخيف، إنما مرده إلى الاعتبارات المرشحة لهذا التكرار، وللمسوغات العلمية وللمبررات الموضوعية والفنية التي هيأت هذا الاختيار.

وعلى قدر الاحتجاب والخفاء والعمق ولطافة المآخذ تكون الطلاوة والجمال والحلاوة والجلال.

ولقد تهيأ لي وأنا أتبع هذا الأسلوب وألاحظ مواقعه وأثرها في الدلالة، أن التكرار على العموم ليس بمستحسن ابتداءً وأصلاً حتى يستند إلى برهان ويَشهد له بيان يرتقى به مكاناً علياً، فتتقلب تلك المبررات والمسوغات من مجرد رفع الملام وبسط الأعدار، إلى اعتبار هذا التكرار هو المسلك الأمثل والاختيار الأفضل والصورة التي لا يُعدلُ بها سواها.

و بتعبير آخر إنه يُتَحاشى التكرار على العموم في التعبير، حتى إذا دعت إليه الحاجة صار لازبا ويصبح العدول عنه جفاءً في العبارة وقصورا في البلاغة، ويكفيك شاهداً أنه كُرِّرَ الاسم الظاهر خمس مرات متواليات في سورة « الناس » من أولها إلى آخرها ولم يعدل السياق إلى الإضمار ولم يأنف القرآن من ذلك مع كون اللفظة المكررة فاصلة للسورة وهو محل بروز اللفظ وظهوره وتضخيم وقعه.

ذلك لأن إعادة لفظ « الناس » وتكراره أمر اقتضاه السطح والمبنى والعمق والمعنى فناسب ذلك اللفظ الجوّ الإيقاعيّ العام للسورة حيث الجرس الصفيري المهموس المنبعث من تردد صوت السين في جنبات السورة كوسواس الحلي والذهب: الناس - الوسواس - الحناس - يوسوس - صدور الناس ...

مع تأدية المعنى المقصود، وتحقيق الغرض المنشود وسنتبين جزءاً من ذلك قريباً. إن كثيراً من الأحكام والانطباعات المعاصرة التي اطلعت عليها حول هذه الظاهرة الأسلوبية والتي استقاها أصحابها من الدراسات الغربية، وجدت أن جلها قد تفتن له علماء اللغة والبلاغة والأصول منذ قرون، وأنه بضاعتنا وفدت إلينا من الغرب في قناع جديد لا يلبث أن يتكشف لك ما تحته.

بل إن في تراثنا نظراتٍ بلغت دقائق لم تبلغها كثير من التحليلات المعاصرة عمقا وجمالا، لكن لأمرٍ ما عُفِلَ عنها ولم يُحتَفَ بها.

فمن ذلك ما يلهج به بعض المحدثين والمعاصرين من أن التكرار الفني ليس إعادة بتاتا، وكأنهم ظفروا بدرة من القول وجاؤوا قوهم بما لم يأت آباءهم الأولين.

### **تكرار (البلد) في سورة البلد**

و لقد وجدت هذه الدرة ضمن إشارات سديدة وتحليلات رشيدة لدى بعض السابقين كانت وليدة النظر في كتاب الله، فمن ذلك وقوفهم عند تكرار لفظة « البلد » في سورة البلد:

- ﴿ لا أقسم بهذا البلد (1) وأنت حل بهذا البلد (2) ﴾

جاء في درة التنزيل للخطيب الإسكافي: 420 هـ:

« إذا عُنِيَ بالثاني غيرُ المقصود بالأول من وصفٍ يوجب له حكماً غير حكم الأول كان من مختار الكلام »<sup>1</sup>.

هذه مقدمة عامة في الحكم على ما كرر بلفظه، ليتبوا منزلة المختار من الكلام البليغ الفصيح، ثم يفحص هذا الحكم ويُشخصه في الآية الكريمة فيقول: « فالبلد الأول قصد به وصفٌ لم يحصل في الثاني وهو مكة، لأن المعنى: أقسم بالبلد المحرم الذي جُبلت على تعظيمه قلوبُ العرب، فلا يجزئ فيه لأحد ما أحل للنبي ﷺ فقوله: ﴿وأنت حل﴾ أي: محلُّ أحلِّ لك فيه ما حرّم على غيرك، فصار المعنى: أقسم بالبلد المحرم تعظيماً له، وهو مع أنه محرم على غيرك محل لك إكراماً لمنزلك - فالبلد في الأول محرم وفي الثاني محلل »<sup>2</sup>.

وهذا المعنى هو الذي اعتمده الكرمانى بعده وعليه قدر المحذوفات فتراه يقول: « إن التقدير: لا أقسم بهذا البلد وهو حرام وأنت حل بهذا البلد وهو حلال، لأنه أحلت له مكة حتى قتل فيها من شاء وقاتل، فلما اختلف معناه صار كأنه غير الأول »<sup>3</sup>.

حتى بلغ بالكرمانى الأمر وحملته ضرورة التفريق بين المكررين أن يجعل اللفظين من باب المشترك اللفظي المتباين المعنى فقال بعد ذلك عن المكررين:

« ودخل في القسم الذي يختلف معناه ويتفق لفظه »<sup>4</sup>.

وهو تعشّق في التخرّيج ياباه السياق والاشتقاق.

و تخرّج الخطيب الإسكافي تبناه أغلب من جاء بعده فتراه مختصراً عند زكريا الأنصاري (926 هـ):

« فالمراد بالبلد الأول الباقي على تحريمه، وبالثاني الذي أحل للنبي ﷺ إكراماً له، وتعظيماً لمنزلته »<sup>1</sup>.

1- درة التنزيل وغرة التأويل - الخطيب الإسكافي ص 530

2- المرجع نفسه 530 - دار الأفاق الجديدة بيروت - الطبعة الثانية 1977م.

3- أسرار التكرار - الكرمانى ص 219.

4- المصدر نفسه 219.

و هناك من استغل هذا المعنى وأحسن عرضه فكان تعديلا جميلا لتكرار لفظة  
البلد فقال:

« وقيل إن التكرار جيء به لفائدة أخرى وهي أن هذا البلد حرام لا تُستحل  
حرمته، ولا يسفك فيه دم، ولا يُرَوَّع فيه آمن، ولكن الله أحل لبنته يوم فتح مكة  
مالم يُحله لغيره من قتل وأسر، فكأن هذا البلد في هذا اليوم غيره في سائر الأيام وأنه  
أصبحت له صفة أخرى، وهي صفة الحِلِّ، فجمع صفتي الحرم والحل فتكرَّر لتكرُّرِ  
الوصفين، وكأنه أصبح بلدين لا بلدا واحدا<sup>2</sup>. »

و لقد أجاد أحمد بن إبراهيم بن الزبير (708 هـ) في عرض القضية والاحتجاج  
لتكرار لفظة «البلد» حيث بدأ بالتفريق بين صورتين من صور تكرار الاسم الظاهر  
بدل إضماره من خلال بيت سواده بن عدي

لا أرى الموتَ يسبقُ الموتَ شيءٌ      نَعَصَ الموتُ ذا الغنى والفقيراً<sup>3</sup>  
وهو شاهد يُردَّد كثيرا في هذا الموطن، فيقول:

« فجاءوا به ظاهرا تهويلا لأمر الموت فقال "يسبق الموت" وهو يريد يسبقه،  
وهو ضمير لازم جعل موضعه الظاهر تعظيما له، والكلام واحد حصل فيه الربط بإعادة  
الاسم ظاهرا... وهذا فيما وقع في جملة واحدة، وأما ما يقع من تكرار المكرر في جملتين  
إذا كرر اعتناءً أو تهويلا فأفصح عندهم من الواقع في جملة واحدة لحصول مناسبة  
تحسن كقوله في عجز البيت المتقدم:

---

1- فتح الرحمان بكشف ما يلتبس في القرآن- لشيخ الإسلام الأنصاري- مكتبة رحاب - الجزائر- الطبعة  
الثانية 1988م - ص 612.

2- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل - د فاضل صالح السامرائي - دار عمار - عمان الأردن ط:  
3: 2003/1423 - ص 250

3- خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر البغدادي، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون،  
مكتبة الخانجي- القاهرة ط: 4. 1418هـ- 1997م (الشاهد: 60) ج 1 ص 379. قال البغدادي:  
« وهذا البيت من قصيدة لعدي بن زيد، وقيل لابنه سواده بن عدي. والصحيح الأول» المرجع نفسه:  
381 / 1.

نَعَّصَ المَوْتُ ذَا الغِنَى والفَقِيرَا .....

فتكرير الموت هنا أوسع في التهويل من تكراره في قوله صدر البيت:  
" يسبق الموت شيء " <sup>1</sup>.

ثم يفسر سرّ التمييز بين التكرار في قوة البلاغة وعلو الفصاحة فيجعل السبب يرجع إلى أن إعادة الظاهر في صدر البيت يقصد به التهويل والتعظيم لا غير، بينما إعادته في عجز البيت لمسوغين اثنين:

- أولهما: قصد التهويل والتعظيم، وهو ما تحقق في المكرر الأول أيضا.

- وثانيهما: وقوع الكلام في جملتين فحسّن فيها ما لا يحسن في الجملة الواحدة <sup>2</sup>.

وهذا أرسخُ قدما في البيان واثبتُ حجة.

يقرر ابن الزبير في كلامه هذا أنه كلما تضافرت القرائن وتعددت المسوغات في الموقع الواحد كان أجل في البلاغة وأمكن.

يستحضر ابن الزبير هذا الضابط وهو يلتمس المسوغات التي دعت على تكرار لفظ « البلد » في الآية ﴿ لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ﴾ فيشخصها في المظاهر الآتية:

(1) إن هذا البلد معظّم بلا خلاف، وهذا مبررٌ كافٍ لإعادة ذكر الاسم تهويلا وتعظيما أو تلذذا بترديده.

(2) وقوع التكرار في جملتين وهو مسوّغ ثان.

(3) كون الجملة الواقعة فيها التكرار جملة اعتراضية و« لكون جمل الاعتراض أجنبية في الأصل حسّن فيها ما لا يحسن في غيرها فساغ التكرير وحسن في الآية من هذه الأوجه الثلاثة » <sup>1</sup>.

1- ملاك التأويل - أحمد بن الزبير الغرناطي - دار الغرب الإسلامي بيروت ط (1): 1403 / 1983 - ح 2 / 1144.

2- ينظر: المصدر نفسه 2 / 1144.

ثم يخلص إلى نتيجة أسلوبية تتعلق بتكرار الاسم الظاهر حين تكون إعادته أولى من إضماره فيقول « وإذا اعتُبرَ تبايُنُ الكلامِ بجهة ما، لم يستثقلوا فيه إعادة، إذ هو بمثابة ما الثاني فيه غير الأول، فوضَّحَ أن الآية واردة على أعلى وجوه البلاغة وأفصح الكلام، وإنه لو جيء هنا بالمُضَمَّر مكان الظاهر لم يكن بوجه»  
وأضيف هنا أن إضمار الاسم الظاهر قد يحدث خلافاً في المعنى النحوي المراد، فيمتنع الإضمار ويجب الإظهار.

ومن أقرب الأمثلة والنماذج على ذلك بيت ابن عدي السابق حيث تكرر لفظ « الموت » ثلاث مرات فيه، فلو أضمرنا ثلاثة الألفاظ الواقعة في عجز البيت: "نَغَّصَ الموتُ ذا الغنى والفقيراً".

وهي هنا فاعل - وقلنا: نغصه، لوقع الضمير مفعولاً به وهو معنى فاسد غير مراد..  
فمثل هذا الموقع يُوجب تكرارَ الاسم الظاهر ويمنع إضماره.  
وهذا مسوغ آخر لتكرار اللفظ يضاف إلى المسوغات السابقة.

و نلمح في إضمار لفظة « البلد » في ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ جوراً على المعنى وانتقاصاً لبعض جوانبه ولواحقه، ففي طيِّ الاسم الظاهر في صورة ضمير: « وأنت حل به » إهمال وإجحاف لاسم الإشارة الذي يؤكد أن البلد المراد هنا هو مكة المكرمة، إذ الضمير هنا لا يحتمل أن ينوب عن الاسم الظاهر والإشارة معاً، ف(به) هي إضمار لـ ( بالبلد ) لا ( بهذا البلد ) وبالتالي فالإضمار لا يُعبرُّ بدقة عن المضمّر مما يستوجب الإظهار للإحاطة بالمعنى.

كما يحدث الإضمار اختلالاً في الفاصلة، ويُضعف ارتباط تسمية السورة بسورة البلد، لأنَّ الإظهارَ سَنَدٌ لهذه التسمية، واجتماع تلك المكررات تنويه وتشهير وإشعار بهذا الاسم المبارك. ولعل مثل هذا التكرار في مثل هذا الموقع من مرشحات تسمية السور وتلقيبها.

فجاء التكرار في المطلع وفي لفظ الفاصلة وبه سميت السورة.

ولما كان الإضمار يُبعد اسم الإشارة لأنه لا ينوب عنه، فقد يحمل الضمير اسم بلد آخر بتأويل ما، كالذي ذهب إليه الواسطي في أن البلد هو المدينة المنورة لأنها محل إقامته ﷺ حين قال عن الآية: ﴿ وَأنت حل بهذا البلد ﴾:

« نحلف لك بهذا البلد الذي شرفته بمكانك فيه حيًّا، وبركتك ميِّتًا »<sup>1</sup>.

ففي الإظهار ردُّ لمثل هذا التأويل، لأن فيه الإشارة إلى المكان عند النزول، والسورة نزلت بمكة باتفاق. فاسم الإشارة (بهذا البلد) مرتبط بالمقام ومحل النزول فلا يصح صرفه إلى غيره. وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتفاعل مع مثل هذه الإشارة إلى البيت والبلد الأمين.

جاء في الدر المنثور في التفسير بالمأثور أن عمر رضي الله عنه صلى « بالناس بمكة عند البيت فقراً ﴿ لإيلاف قريش ﴾ قال: ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ وجعل يومئ بأصبغه إلى الكعبة وهو في الصلاة »<sup>2</sup>.

وعن عمرو بن ميمون قال: صليت خلف عمر بن الخطاب المغرب فقراً في الركعة الأولى ﴿ والتين والزيتون وطور سنين ﴾ ... وقرأ في الركعة الثانية ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ و﴿ لإيلاف قريش ﴾ جمع بينهما ورفع صوته، فقدرته أنه رفع صوته تعظيماً للبيت<sup>3</sup> فكان رضي الله عنه يحقق معنى الإشارة برفع صوته بـ ( هذا البلد الأمين ) و( رب هذا البيت ) مشيراً به ومشعراً إلى أنهم حالون الساعة بهذا المقام الكريم الذي أقسم به رب العالمين.

فلو أضمر الاسم الظاهر لغاضت هذه المعاني.

1- تفسير القرطبي 10/ ص 60.

2- الدر المنثور في التفسير بالمأثور - للسيوطي 6/ 397

3- المصدر نفسه: 6/ 365. وانظر التفسير المأثور عن عمر بن الخطاب - جمعه وعلق عليه إبراهيم بن حسن - الدار العربية للكتاب 1985م. ص 815.

## التكرار في سورة النَّاس:

و لما كانت البلاغة تستوجب من اللفظ المكرّر لفظاً ومعنى أن تكون له دلالة خاصة حتى لا يكون لغواً في القول وسقوطاً في العبارة، وكان القرآن في المحلّ الأعظم منها، حاولتِ الأفهام والأذهان الوقوف على تلك المعاني الخاصة بالتوسّم في السياق، فترى جُلّ من تأمل سورة الناس يجزم أن لفظ ( الناس ) تكرر فيها لمسوّغات، وأنها ليست تكراراً مَحْضاً وعللوا وروده بما يأتي:<sup>1</sup>

1- كرر "الناس" تبجيلاً وتعظيماً لشأنهم.

2- أو لانفصال كل آية عن الأخرى لعدم العاطف.

3- أو المراد بلفظ الناس الأول: الأطفال بقريئة معنى « الرُّبُوبِيَّة » وبالثاني: الشبان بقريئة ذكر « الملك » الدال على السياسة، والثالث: الشيوخ بقريئة ذكر « الإله » الدال على العبادة، والرابع الصالحون بقريئة وسوسة الخناس، وهو الشيطان المولع باغوائهم، والخامس المفسدون بقريئة عطفه على الجِنَّة المتعوذ منهم.

وقد أوقفني التأمل في أسرار التكرار في هذه السورة على جملة من المعاني أخصها في النقاط الآتية:

1- إن تكرير لفظ الناس في السورة جاء على صورتين:

- الأولى تكريره في المطلع ثلاث مرات، وكان مُقتضى الظاهر أن يُضَمَّر الاسم هكذا: برب الناس مَلِكهم، إلههم.

- والثانية تكراره في الختام مرتين، ولا يمكن أن يُضَمَّر لعدم تعيّن عودة الضمير. ومن هنا تفرق الصورتان في التحليل والتعليل.

والمُسْتَشْعَرُ للإظهار الواقع في المطلع لا يخفى عليه ما فيه من معاني التشريف والتبجيل والتعظيم الناشئ من الإضافة إلى الأسماء الحسنى، ومعنى التخصيص، إذ

---

1- ينظر: أسرار التكرار للكرماني ص 228 وفتح الرحمان لذكريا الأنصاري ص 634 وكشف المشكلات وإيضاح المعضلات لأبي الحسن الباقولي 2/ 1497.

التنبيه هنا على أمر يخصُّ الناس، لأنهم هم محلُّ وسوسة الشيطان وهم المستهدفون أولاً وأخيراً، لأن العداوة أصيلة بين إبليس وآدم وذريتهما ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو﴾ الكهف.

ومما يؤكد العناية بشأن الناس هنا - فضلاً عن التكرار - تسمية السورة بالناس وجعل هذا اللفظ علماً عليها. ويكاد يكون هذا المقصد مُطرداً فيما تكرر لفظه في مطالع السور أن يكون عنواناً لها:

- لفظه الناس - تكررت في السورة خمس مرات - وسميت سورة الناس.
- ولفظة الحاقة - تكررت في المطالع ثلاث مرات - وسميت سورة الحاقة.
- ولفظة القارعة - تكررت في المطالع ثلاث مرات - وسميت سورة القارعة.
- ولفظة القدر - تكررت في المطالع ثلاث مرات - وسميت سورة القدر.
- ولفظة البلد - تكررت في المطالع مرتين - وسميت سورة البلد.

إلى جانب اعتبارات أخرى في تسمية السور.

2- وبالنظر إلى سورة الفلق المرتبطة بسورة الناس في النزول والتسمية (المعوذتان) والغرض والترتيب .. نلاحظ تفرُّد المُستعاذ به ( ربِّ الفلق) وتعدُّد المُستعاذ منه، في حين تعدَّدت في سورة الناس أوصاف المُستعاذ به وهو الواحد الأحد ولم يتعدد المُستعاذ منه على كثرة التنوُّع وشدة التَّبائُن.

وكان المناسب لدفع تلك الشرور الخفية، أن يُتعوَّذ برَبِّ الفلق ولم يرد: برَبِّ الناس ولا برَبِّ العالمين التي لها مواطن أخرى أنسب.

وعلى أساس هذا الاعتبار فإنه تُلمس المعاني الإضافية والخاصة بالموقع، للتمييز بين ما تشابه من الألفاظ وتكرر، بالنظر إلى ما أضيفت إليه اللفظة أو أضيف إليها، أو تعلق بها أو تعلق به، وإلى ما عُطِفَ عليها أو عطفت عليه...

فلا شك أن المُستعاذ به في سورة الناس ( رب الناس، ملك الناس، إله الناس) مناسب للمُستعاذ منه.

فصفات الربوبية والملكية والألوهية، وإن ادّعاها بعض الناس، فإنه لا تصحُّ نسبتها إليهم مع إطلاق لفظ الناس المضاف إليها وإلحاقها على إظهاره. و بهذا يصبح لفظ الناس بهذا الإطلاق مُخَصَّصًا لكل صفة من تلك الصفات، وَيَقْصُرُهَا على الله عز وجل، وَيُخَلِّصُهَا من التعلق بأي شريك سواه، فلا تتصرف إلا إليه سبحانه شرعا وعرفا وعقلا.

وهذا المعنى لا يشعرك به الضمير لو ناب عن الاسم الظاهر. وأما لفظ الناس الرابع فيتعلق بالفئة الموسوسة. والخامس يتعلق بالفئة الموسوسة. وعليه فلفظ الناس فيهما لا يُعَمُّ جميع الناس.

و هكذا شيئاً فشيئاً تتبين لك الفروق الدقيقة بين المواقع الخمسة للفظ واحد. لا يأنف القرآن الكريم أن تتكرر لفظة الفاصلة عدة مرات متوالية بمعناها الأصلي المعجمي وليس على وجه الاشتراك اللفظي كالتجنيس، وهو نهج لا يُبَايِن الفصاحة ولا يُجَانِب البلاغة إذا وقع في محالّه.

والظاهر في علاقة المضاف بالمضاف إليه في هذه التراكيب:

( رب الناس، ملك الناس، إله الناس ) أن هناك تدرُّجًا في الشمول والعموم من حيث حاجة الناس وتعلُّقهم بتلك الصفات، وتدرُّجًا في الترقُّي من حيث خصوصية المضاف والتمكُّن من تلك الصفات والتفرد بها.

3- وبالنظر إلى التركيب والوظيفة فيما وقع فيه التكرار، نلاحظ أن هناك مَنْ جعل من مسوِّغات تكرار لفظة « الناس » استقلاليةً التراكيب بعضها عن بعض فكأن كل تركيب إضافي منفصل عن الآخر لعدم وجود حرف عطف يربط بينهما: رب الناس، ملك الناس، إله الناس.

وهذا الرأي أورده الكرمانى، إلا أنه استدلالٌ غير راجح، إذ قد يستغني عن حرف العطف لكمال الاتصال بين الجمل وأشباهاها.

كما أن إعادة اللفظ أيضا تُعدُّ من الروابط اللفظية، فليس في ترك العطف ما يجزم بالانفصال بينها، وبالتالي يصبح التكرار واقعًا بين جملتين منفصلتين وهو المسوِّغ حينئذ.

غير أنَّ تَرَكَ العطف مع تكرار اللفظ قد يشعر باستقلال اللفظ عن سابقه وأنه مستغن بنفسه.

وعليه - إن صحَّ - تُصبح الاستعاذة من الوسواس وشروحه بألفاظ الربوبية والملكية والإلهوية على الترتيب بالجمع بينها أو مستقلة منفردة. كأن يقول:

أعوذ برب الناس  
أعوذ بملك الناس  
أعوذ بإله الناس

كما يقول أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس.

و كذلك يُستعاذ بالضمير العائد إليها أو إلى الأوصاف التابعة لها فقد جاء في القرآن:

- ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾

- ﴿فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾ الأعراف 200

- ﴿فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾ فصلت 36

4- وبالنظر أيضا إلى التركيب، على أن التكرار وقع في جمل متتابعة على عطف البيان أو البدل مما يوجب بينها مزيدا من الكشف والتوضيح ولذلك فإنه يحسن هنا وضع المظهر مقام المضمّر، مع رعاية فواصل الآيات<sup>1</sup>.

بل يرى ابن الزبير الغرناطي أن مثل هذا الموقع لا تحسن فيه الإضافة إلى الضمير على الإطلاق، لأن ذلك يؤدي إلى تعرّف الاسمين بضمير الأول الذي عليه

1- أنظر غرائب القرآن - 231/30.

حملها وهو أمر يجعل الأول في حكم الأعرف من اللفظ التابع له وذلك عكس ما عليه عطف البيان، حيث يكون الثاني أعرف وأبين من الأول.

وأما إذا أضيف التابع لما أضيف إليه متبوعه كما هو الحال في سورة الناس، فإنه يكون في الأغلب الكثير مساويا للأول أو أعرف، فلهذا جاء مضافا إلى الظاهر هنا.<sup>1</sup>

ثم إن اختيار المستعاذ به في سورة الناس بهذه الأسماء والصفات المضافة إلى الناس هو اختيار جامع لمعاني الأسماء الحسنی والصفات العلی<sup>2</sup> فهي بمثابة الأصول لها:

- فالرب: جامع لصفات الجمال والرحمة والتدبير واللفظ...

- والملك: جامع لصفات القوة والقدرة والقهر والعزة والكبرياء...

- والإله: جامع لصفات الكمال ونعوت الجلال كالتفرد والصدمة...

يقول ابن القيم عن هذه الأسماء: « فقد تضمنت هذه الأسماء الثلاثة جميع معاني أسمائه الحسنی فكان

المستعید بها جديرا بأن يُعَاذ ويحفظ ويمنع من الوسواس الخناس ولا يسلط عليه»<sup>3</sup>.

---

1- أنظر ملاك التأويل - 1166/2.

2- فهذه الثلاثة جامعة بمجموعها - أما الاسم الجامع لها بمفرده فهو (الله) جل جلاله.

3- بدائع التفسير - للإمام ابن قيم الجوزية - جمعه ووثق نصوصه وخرَّج أحاديثه: يسري السيد محمد - دار ابن الجوزي - م.ع السعودية ط (1): 1414 هـ / 1993 م. 5 / 442.

## أسرار تكرار اللفظة ومسوغاته:

ومن خلال التأمل في تلك الأسرار التي وقفنا عليها في سورتي البلد والناس نحاول تفحص بعض مسوغات تكرار اللفظة عن قرب لضبطها وإحكامها.

1 - إن انفصال الجمل يسوغ تكرار اللفظ بدل إضماره، حيث يبدو التكرار فيه كأنه وقع في موضعين متباعدين، وذلك كأن يقع اللفظ المكرر في جملتين إحداهما جملة اعتراضية، والتي كأنها جملة أجنبية معترضة في الكلام جيء بها لغرض ما، كالذي وقع في تكرار « البلد » في سورة البلد.

﴿ لا أقسم بهذا البلد - وأنت حل بهذا البلد - ووالد وما ولد ﴾ فقد قال القمي

عنه:

« اعتراض بين القسمين، كأنه تعالى عَظَّمَ مَكَّةَ من جهة أنه ﷺ حَلَّ بها وأقام فيها. وقيل الحِلُّ بمعنى الحلال، كأنه سبحانه وتعالى عَجَبَ من اعتقاد أهل مكة كيف يؤذون أشرف الخلق في موضع محرم<sup>1</sup> .

ويُعَجَبُ ابنُ القيم بموقع هذا الاعتراض أيًا إعجاب فيقول:

« وعلى كل حال فهي جملة اعتراض في أثناء القسم، موقعها من أحسن موقع وألطفه<sup>2</sup> .

و ذلك للإقسام بأشرف بلاده المشتملة على خير عباده، وقد جعل بيته هدى للناس، ونبيّه إماما لهم وهاديا<sup>3</sup>.

هذا وإن كان أبو حيان يستبعد حَمَلَ الجملة (وأنت حل بهذا البلد) على الاعتراض، ويحملها على الحال جاءت لتعظيم المقسم به وهي حال مقارنة، لا مقدرة ولا محكية، فليست من الإخبار بالمستقبل، وليس المعنى عندئذ أنك تستحل بهذا البلد

1- غرائب القرآن - للقمي 98/10.

2- بدائع التفسير 217/5.

3- أنظر المرجع نفسه: 217 / 5.

أشياء وإنما الظاهر أن المعنى وأنت مقيم بهذا البلد وهو وقت النزول حيث كان مقياً بمكة فأقسم الله بها لما جمعت من الشرفين<sup>1</sup>.

قلت إن ظاهر اللفظ يحتمل أوجهًا ثلاثة الجمع بينها أنسب وأليق:

حِلٌّ ← حَالٌ ومقيم  
مُسْتَحَلُّ الدَّم والعِرْض ←  
حَلَالٌ، والأمر إليك.

وجميعها توحى بمعان جلييلة:

أ- شرف المكان بشرف مَنْ حل به وأقام فيه فكان أهلاً لأن يُقسم به.

ب- شرف مكة ثابت حتى في حالٍ لم يراعِ أهلها فيها تلك الحرمة التي خصها الله بها فاستحلُّوا عرضك ودمك، وهو تنبيه وإيقاظ لأهل مكة من غفلتهم وتقرير على حط منزلة بلدهم<sup>2</sup>.

ج- وحلالٌ بهذا البلد الحرام، فيه إشارة وبشارة، إشارة إلى أنك ستُمكن من رقاب القوم الذين يستضعفونك اليوم، وتُحَكِّم في مصيرهم، وقد سيقت هذه البشارة في سياق القسم، بين القسم وجوابه تأكيداً وتحقيقاً وتوثيقاً، فأعظم بقسم العظيم! فكم في هذا الاعتراض من إيناس وتثبيت وتأيد، وتقوية الصبر لتحمل كيد القوم ومكابرتهم وهو ﷺ في المراحل الأولى من الدعوة.

2- أو يقع التكرار بين جملتين ليس بينهما شابكة لفظية من حروف العطف وإن كانت بينهما صلة عطف البيان، فتكون اللفظة المكررة جاءت بناء على استقلالية الجملة وتحررها، أو لتحقيق رباط لفظي بتكرير اللفظ: لأنه عامل مشترك بين الجملتين.

وكلا الأمرين مسوِّغ لتكرار اللفظ، وقد سبق شرحه في سورة الناس.

1- أنظر البحر المحيط- لأبي حيان- ط: 1412هـ/ 1992م- دار الفكر بيروت ج 10 / 480.

2- أنظر تفسير المراغي- أحمد مصطفى المراعي - دار التراث العربي بيروت - مج 10 - ج 30 ص

3- كما أن مجرد تكرير لفظة في جملتين مبرر يجيز تكرارها، فهذا سيبويه يستحسن وضع الظاهر موضع المضمَر، إذا كان في جملة أخرى غير الجملة المذكور فيها الاسم السابق، ولا يَسْتَحْسِنُ وضع الظاهر موضع المضمَر إذا كان في جملة واحدة، إذ لا مبرر يدعو إلى هذا العدول<sup>1</sup>.

فالمختار عند سيبويه في قولنا:

( ما زيد ذاهبا ولا محسنا زيد ) أن تقول:

( ما زيد ذاهبا ولا محسنا هو ) بالإضمار لأنها جملة واحدة ولك أن تقول:

( ما زيد ذاهبا ولا محسن زيد ) بالرفع لتصبح عندنا جملتان وقد وقف عند هذا

أبو الحسن السيرافي<sup>2</sup> وهو أحد شراح كتاب سيبويه.

وهذا الضابط أو المسوغ علل تكرار لفظ الجلالة (الله) في قوله تعالى:

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتِيَنَا مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ الأنعام:

124. لوقوع ذلك في جملتين.

وهناك من يُرجع علة استقباح تكرار اللفظة في الجملة الواحدة إلى أنه قد يوهّم

السامع أن المراد باللفظ غيره.

وهذا التعليل يصح في سياق ولا يصح تعليلا لكل سياق كما سنتبين ذلك في

أن ترك تكرار اللفظ والاستعاضة عنه بالضمير قد يوهّم أيضا أن عودة الضمير على

غير المراد، وهو موقع تصبح إعادة اللفظ فيه أوجب، لإزالة اللبس ولتمكين المعنى في

نفس السامع وهذا أدعى إلى التأكيد أو التفضيم<sup>3</sup>.

---

1- أنظر: الكتاب لسبويه - تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون - دار الكتب العلمية بيروت - مطبعة المدني - القاهرة- ج1/ 62 وانظر: أثر النحاة في البحث البلاغي - د عبد القادر حسين - ص 108.

2- أنظر: هامش الكتاب لسبويه ج1/ 62.

3- أنظر: أثر النحاة في البحث البلاغي ص 108.

4- ولتكرار اللفظ مزية أخرى، إذ يحلُّ الاسمُ محلَّ الضمير -الذي يربط بين الجمل ربطاً مُحكماً لا يحتمل الانفصال- فيجيء اللفظ المكررُ ويحلُّ مكانَ الضمير فيعطي للجمل ثبته انفصال واستقلالية تحرُّر المعاني من الانغمار في غيرها، والافتقار إلى ما قبلها. وهذا الاعتناق يسوِّغ تكرار ذلك اللفظ ويكسر من سَوْرَة إعادته ويُخفِّف من عبء تحمله، وهو أمر تنبَّه إليه حازم القرطاجني فأشار إلى هذه الصلة وهو بصدد الحديث عما يجب في القوافي من جهة كونها مستقلة منفصلة عما بعدها أو متصلة به، فيبيِّن ما للإظهار من اثر في الاتصال والانفصال فيقول: « ولكون إظهار المضمير يصير الكلام مستقلاً غير مفتقر إلى ما قبله قد يحتملون ما في التكرار من ثقل، وذلك مثل قول الخنساء:

وإنَّ صَخْرًا لوالينَا وسَيِّدُنَا      وإنَّ صَخْرًا إذا نَشْتُو لَنَحَّارٍ  
وإنَّ صَخْرًا لتَأْتُمُّ الهُدَاةُ بِهِ      كأنَّهُ عَلمٌ في رَأْسِهِ نَارٌ<sup>1</sup>

ولو قالت وأنه لتأتّم الهداة به فأضمرت لكان البيت ناقصاً مفتقراً، وإنما أظهرت لفظ صخر ثانياً وثالثاً تباعداً بالكلام عن الافتقار، وقصدت لتعديل أقطاره وحسن تفصيله وتقديره<sup>2</sup>.

بيد أن حازماً لا يرى هذا التعديل لازماً في الكلام، ولا يرى فيه تحسیناً للتكرار، وإنما هو مجرد بسط العذر بين يدي اللفظ المكرر فنراه يقول: « وهذان أمران<sup>3</sup> لا يحسنان التكرار وإنما يبسطان العذر فيه فقط<sup>4</sup> ».

وفي هذه الإشارة من حازم إيماء لاستقباح التكرار إن لم يكن هناك عذر يسوِّغ إيراده ويرشِّح قبوله.

1- ديوان الخنساء، دار بيروت- بيروت، 1398هـ - 1978م ص: 48، 49.

2- منهاج البلغاء وسراج الأدباء - حازم القرطاجني (684 هـ) تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة - ط 2: 1981 - دار الغرب الإسلامي بيروت- ص 277، 278.

3- يقصد بالأمرين هنا: تكرار اللفظ ليتحرر البيت عن سابقه، وترديد الاسم استعداداً له كما سنتبين قريباً.

4- منهاج البلغاء ص 278.

وكأنه لا يبلغ به درجة الحسن على الإطلاق.

وهذا الحكم من حازم على التكرار فيه شيء من الإجحاف حتى لو قصر حكمه على الشعر لما فيه من قيود الوزن والقافية إلى جانب اختيار اللفظ لتحقيق الانسجام الصوتي وإصابة محزّ المعنى .. وذلك أننا نرى أن هذه المسوغات تكسب التكرار حسنا وجمالا حين تكشف لك عما في التكرار من أسرار وتبرز وظائفه البيانية حسب السياقات المختلفة. وقد وردت نماذج منه في أفصح كلام وأعلى بيان، لأن تكرار اللفظ في جملتين بينهما ترابط قد يكسب المعاني نوعا من الاستقلال مع شدة الاتصال وبهيء للمتأمل المتذوق أطيافا جمالية كالذي وقفنا عليه عند الدكتور عبد القادر حسين حين جعل من إشارة القرطاجني السابقة مُجتلى للتنعم بجميل التعبير ورائع المعاني .. فأنصت إليه وهو يقول منطلقا من عبارة القرطاجني:

« احتمال ما في التكرار من ثقل لا بد له من مقابل جمالي يخفيه حتى لا نشعر به تقول الخنساء:

وإنَّ صَخْرًا لَوَالَيْنَا وَسَيِّدُنَا      وَإِنَّ صَخْرًا إِذَا نَشْتُو لَنَحَّارُ  
وإنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُّ الْهُدَاةُ بِهِ      كَأَنَّهُ عَالَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

فلو قالت: وإنه لتأتّم الهداة به، فأضمرت، لكان البيت مفتقرا إلى ما قبله وغير مستغن بنفسه، ولكنها لما أظهرت كان البيت مستقلا عما قبله، وكأنه معنى جديد لا صلة له بمعنى البيت السابق، فتتوهم أن صخرًا ليس واحدا فحسب، وإنما هو متعدد فتعدد لذلك المعاني وتكثر، وإن كانت في واقعها شيئا واحدا، ولشخص واحد. هذا الوهم الذي يترأى لنا بفعل تكرار اللفظ، هو عندي سبب جمال التكرار والعدول عن الضمير إلى الظاهر»<sup>1</sup>.

وفي هذا التحليل تجد لمسة جمالية لطيفة تبعث فيك نشوة هي وليدة تكرار لفظة (صخر) وهي أغوار لم يبلغها التحليل الألسني لقصيدة الخنساء فيما أشرنا، وغفل عنها الأستاذ الناقد وهو يُبرز القيمة الفنية للتكرار في القصيدة.

1- أنظر أثر النحاة في البحث البلاغي ص 109.

5- غير أن إعادة اللفظ تجوز بل تحسن على الإطلاق في مقام التفخيم والتعظيم والشاهد القوي على هذا قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ و﴿ الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ و﴿ الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ وعليه اعتمد ابن جني في تعليل إعادة اللفظ في بيت ذي الرمة:

ولا الخَرْقَ منه يُرْهَبُونَ وَلَا الخَنَا عَلَيْهِمْ وَلَكِنْ هَيْبَةٌ هِيَ مَا هِيَ<sup>1</sup>  
فراه يقول: « لأنه إنما يعاد لفظ الأول في مواضع التعظيم والتفخيم، وهذا من مظانه، لأنه في مدحه وتعظيم أمره »<sup>2</sup> أي في مدح بلال بن أبي بردة.

---

1- في الديوان: (وَلَا الْفُحْشَ) بدل (وَلَا الْخَرْقَ)، أنظر: ديوان شعر ذي الرمة، عني بتصحيحه وتنقيحه:

كارليل هنري هيس مكارتنى، مطبعة كلية كامبريدج 1337هـ - 1919م ص 655.

2- الخصائص - ابن جني - تحقيق محمد علي النجار - دار الكتاب العربي - بيروت - 3 / 54

## ( قل يا أيها الكافرون ) في دراسة القدمات والمحدثين

أول ما يستوقف المتدبر المتأمل في سورة (الكافرون) هو ظاهرة التكرار تفرع السمع ابتداءً، ذلك أن أغلب ألفاظ السورة تتألف من مادة (عبد)، فالآيات الأربع المحصورة بين المفتوح والمختتم (5.4.3.2) جُمَلها جميعاً من نسيج هذه المادة، وهي كما يأتي على الترتيب:

...لا أعبد- ما تعبدون- عابدون- ما أعبد- عابد- ما عبدتم- عابدون- ما أعبد...

- وتكررت (لا) النافية أربع مرات.

- كما تكررت (ما) الموصولية أربع مرات أيضاً.

- وتكررت الآية الثالثة ﴿وَلَا أَتَمُّ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ مرتين يفصل بينهما الآية الرابعة.

على قصر السورة وهو ما يجعل الإنسان يتوقع بدهشة - لتكرّر جمل الألفاظ وبعض الجمل - أن يكون مضمون السورة ومعانيها أقل بكثير من ألفاظها ومبانيها، غير أن الأمر على العكس من هذا تماماً مما يجعلك تقف مشدوها حائراً قبالة أسلوب أصيل في مباحث الإطناب - أعني أسلوب التكرار - يرد في غاية الإيجاز، إنه لقمة الإعجاز.

ذلك أن مجرد الوقوف على هذا التكرار، ومحاولة تبين أغراضه وكشف أسرارها يفتح للدارسين - وقد فتح - ألواناً من التحليل اللغوي والبلاغي بغية الوصول إلى دقائق اللغة في السورة، وعميق المعاني فيها.

فمن ذلك أنه ملهم ذلك الوقوف على ضرورة تحديد معاني النفي في (لا).

\* مع الجمل الاسمية في موقعين من السورة:

- ولا أتم عابدون

- ولا أنا عابد

\* وفي (لا) مع الجمل الفعلية في موقع واحد فقط: (لا أعبد)

وحتى تتميز معاني النفي في (لا) وتُسَبَّر أغوارها، حاولوا إبراز الفروق بينها وبين أخواتها ذوات النفي ما تشاكل منه وما تباين، وهن:

لم - لن - لما - لات - ليس - ما - إن .

وأول ما يميز (لا) عنهن جميعاً أنها أوسع في الاستعمال منهن. فهن يختصن بالدخول على الجمل دون المفردات: بينما (لا) تدخل على الجمل والمفردات، كما تمتاز هذه الأدوات فيما بينها، وإن اختلفت في الدلالة على النفي وتشابهت في الاستعمال، كاشتراك (لا) و(لن) في نفي المستقبل، غير أنها يفترقان - على الأرجح - في كون (لن) تفيد توكيد النفي<sup>1</sup> في المستقبل، بينما (لا) ليس فيها شيء من التوكيد بيد أن (لا) أدل على امتداد النفي وطوله ودوامه، وبناءً على هذا قال ابن القيم عن النفي الوارد في سورة (الكافرون).

" إن النفي بـ (لا) أبلغ منه بـ (لن) " <sup>2</sup>.

وقال بعض النحاة بينهم سيويوه والمبرد وابن فارس وابن يعيش. إن (لا) هي أقوى أداة في النفي.

والأصل عند جمهور النحاة أن (لا) لنفي المستقبل، وقد تنفي الحال إذا توفرت القرائن اللفظية أو العقلية... إلا أن أحمد ماهر محمود البكري يرى أن العكس هو الصحيح، أي أن الدلالة على الحال هي الأصل، والدلالة على المستقبل تُستفاد بالقرائن<sup>3</sup>.

وقيل في الفرق بينهما أيضاً، إن النفي بـ(لا) يبدأ من لحظة التكلم ويمتد إلى المستقبل، بخلاف (لن). فالنفي بها لا يبدأ من زمن الحال وإنما يباشر المستقبل. فالنفي بـ (لا) أدل على الاستطالة والامتداد، وقد استمد ابن قيم الجوزية هذا المعنى من لفظ (لا) من نسج مقطعها المتوسط المفتوح فقال عنها: " وأنها - للطول والمد الذي في لفظها - طال النفي بها واشتد<sup>4</sup> ".

1- المغني - ابن هشام ص 374.

2- بدائع التفسير - لابن القيم 5 / 351 وانظر أيضاً بدائع الفوائد 1 / 138.

3- أنظر: أساليب النفي في القرآن - أحمد ماهر محمود فهمي البكري - دار النشر والثقافة - الإسكندرية. 1970م. ص 253.

4- هذا رأي الزمخشري، وتبناه الدكتور محمد طاهر الحمصي في (من نحو المباني إلى نحو المعاني) ص: 234 و 240.

وهذا لا يقوّضه الرأي المشهور في كون (لن) تقيّد النفي المؤبد، وبالتالي فهي أشمل من (لا) وأدل على الاستمرار والدوام.. كلا إن الأمر ليس كذلك فإن هذا القول للزمخشري صرّح به في أنموذجه، ولمّح إليه في تفسيره في بعض المواضع، في نحو قوله تعالى:

﴿..ولن تفعلوا﴾ و﴿ولن يتمنوه أبدا﴾ في البقرة 24، 95.

﴿قال لن تراني﴾ في الأعراف / 143.

واتبعه فيه ابن يعيش في شرح المفصل. ولم يُتلقَ ذلك بالقبول، فراه أكثرهم دعوى بلا دليل، وأنكره رضي الدين الاستراباذي وابن هشام من بعده فيقول في المغني: " ولو كانت للتأييد لم يقيد منفيها باليوم في قوله تعالى: ﴿فلن أكلم اليوم إنسيا﴾، ولكان ذكر الأبد في ﴿ولن يتمنوه أبدا﴾ تكرارًا، والأصل عليه"<sup>1</sup>.

والذي يبدو أن التأيد في تلك المواضع مستفاد من القرائن وليس من (لن)

مجردة.

كما يحملك التأمل على ضرورة تحديد الدلالة الزمنية لاسم الفاعل (عابدون-عابد) ومقابلتها بدلالة المضارع (أعبد) والماضي (عبدتم) حين ضمها سياق واحد.

ويدعوك التأمل أيضا إلى الموازنة بين (ما) و(من) الموصولتين من جهة خصوصية الدلالة وصحة الاستعمال، لَمَّا عبّر عن المعبود بـ (ما) دون (من): ما تعبدون- ما أعبد- ما عبدتم.

على غرار ﴿وما رب العالمين﴾

وسنزيد هذه الملاحظات بيانا وتحقيقا ضمن ما عرضه لأشهر من تناول التكرار

في هذه السورة متوخيا التسلسل التاريخي ما أمكن، ليُعرف فضل السبق لأهله.

1- بدائع الفوائد- ابن القيم: 1 / 137.

## ( قل يا أيها الكافرون ) في دراسات القدمات

وليكن أول من نفق عنده ابن قتيبة 276 هـ لنجده يجعل هذه السورة هي أولى المواضع التي يظهر فيها غرض التكرار على وجه العموم وهو التوكيد، مستدلاً على هذا الحكم بالسبب الذي أنزلت فيه السورة. وهو أن رؤوس الكفر في مكة أرادوا من الرسول ﷺ أن يعبد ما يعبدون، ليعبدوا ما يعبد، وأبدأوا في ذلك وأعادوا.. فأراد الله أن يجيبهم على حسب إلحاحهم لحسم أطماعهم فأبدأ وأعاد في الجواب<sup>1</sup>.

فيرى ابن قتيبة أن أول ما نزل كان رداً على طلبهم:

﴿قل يا أيها الكافرون ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ ولا أتم عابدون ما أعبد﴾

"ثم غبروا مدة من المدد وقالوا: تعبد آلهتنا يوماً أو شهراً أو حولا ونعبد إلهك يوماً أو شهراً أو حولا فأنزل الله تعالى:

﴿ولا أنا عابد ما عبدتم ﴿ لا أعبد ما تعبدون ما أعبد﴾"<sup>2</sup>.

أي أن السورة نزلت على قسمين، فكان التكرار لتكرر الموقف مرتين.

ونجد أبا العباس ثعلب (291 هـ) يعلل ورود هذا التكرار فيقول: "إنما حسن التكرار، لأن تحت كل لفظة معنى ليس هو تحت الأخرى وتلخيص الكلام.

﴿قل يا أيها الكافرون ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ الساعة، وفي هذه الحال.

﴿ولا أتم عابدون ما أعبد﴾ في هذه الحال أيضاً. واختص الفعلان منه ومنهم بالحال، وقال من بعد: ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ في المستقبل.

﴿ولا أتم عابدون ما أعبد﴾ فيما تستقبلون، فاختلفت المعاني، وحسن التكرار

في اختلافه.

ويجب أن تكون السورة على هذا مختصة بمن المعلوم أنه لا يؤمن.

1- أنظر: تأويل مشكل القرآن - لابن قتيبة ص 237.

2- المصدر نفسه ص 238. وانظر: تفسير الطبري: 30 / 213، 214.

وقد ذكر مقاتل وغيره: أنها نزلت في أبي جهل والمستهزئين ولم يؤمن من الذين نزلت فيهم أحد"<sup>1</sup>.

ولم يصرِّح الزمخشري (538 هـ) بظاهرة التكرار في هذه السورة، غير أنه فرق بين الجمل من حيث الدلالة الزمانية فقال: ( لا أعبد) أريد به العبادة فيما يستقبل، لأن (لا) لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال، كما أن (ما) لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال... والمعنى: لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه ني من عبادة آلهتكم، ولا أتم فاعلون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهي.

﴿ولا أتم عابدون ما أعبد﴾ أي ما كنت قط عابدا فيما سلف ما عبدتم فيه: يعني لم تُعْهَدْ مني عبادة صنم في الجاهلية فكيف تُرجى في الإسلام.

﴿ولا أتم عابدون ما أعبد﴾ أي وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته)<sup>2</sup>. حيث جعل دلالة الجملتين الأوليتين على الاستقبال، ودلالة الأخرين على الماضي، كما أشار إلى معنى (ما) وأنه جيء بها دون (من) لأن المراد الصفة. كأنه قال: لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق. وقيل: إن (ما) مصدرية: أي لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي<sup>3</sup>.

ويلخص نظام الدين القمي (728 هـ) بعض أقوال السابقين في تفسيره، حول التكرار في هذه السورة على النحو الآتي:

1- إنه للتوكيد، وأي موضع أحوج إلى التأكيد من هذا المقام؟ فإن الكفار رجعوا إلى النبي ﷺ فيما طلبوا منه مرتين، ( فأجيئوا مكرراً على وفق قولهم، وهو نوع من التهم، فإن من كرر الكلمة الواحدة لغرض فاسد، قد يجاب عنه بنفيه مكرراً للاستخفاف وحسم مادة الطمع)<sup>4</sup>.

1- أمالي المرتضي 1/ 83، 84. والمستهزئون هم: العاص بن وائل، والوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد المطلب، والأسود بن عبد يغوث، وعدي بن قيس.

2- الكشف 4/ 292، 293.

3- أنظر المصدر نفسه.

4- غرائب القرآن ورغائب الفرقان- نظام الدين القمي مج 10 ج 30 / 203.

هذا التعليل نفسه رأيناه من قبل عند ابن قتيبة، غير أن القمي أضاف إليه الاستخفاف والاستهانة والتهكم.

2- وإن دلالة الجزء الأول على المستقبل بدليل (لا) التي هي الاستقبال: ﴿لا أعبد... ولا أتم عابدون﴾ في المستقبل.

والجزء الثاني ﴿ولا أنا عابد... ولا أتم عابدون...﴾ يدل على الحال، وهذا التعليل - بأن تحت كل لفظة معنى ليس هو تحت الأخرى- هو ما لحظه أبو العباس ثعلب من قبل، غير أنهما اختلفا في تعيين أيهما للحال، وأيها للاستقبال، فما رآه هذا للاستقبال جعله الآخر للحال، فضلا عما ذهب إليه الزمخشري حين جعل دلالة الجزء الثاني على الماضي وهو معنى ثالث.

3- وهذا الوجه الثالث يُفَرَّق فيه بين المراد في النفي بين الجزأين، حيث حمل الجزء الأول «على نفي الالتماس الصادر عنهم، والآخر على النفي المطلق العام المتناول لجميع الجهات»<sup>1</sup>.

4- أورد القمي فيه قولاً لأبي مسلم يفرق بين (ما) في الجزء الأول و(ما) في الجزء الثاني، حيث جعلها في الآيتين الأوليين موصولة بمعنى الذي. وفي الآيتين الأخيرتين مصدرية، أي: «ولا أنا عابد عبادتكم المبنية على الإشراك، ولا أتم عابدون عبادتي المبنية على اليقين»<sup>2</sup> وهو قول أشار إليه الزمخشري أيضا.

5- وهذا القول يحاول أن يجيب عن إشكال يتبادر إلى الأذهان وهو أن (ما) الموصولة والتي هي لغير العاقل من الذوات، لا إشكال في نسبتها للكفار في (ما تعبدون)؛ لأنهم يعبدون باطلا، أصناما لا تعقل: (إفكاً آلهة)، وإنما الإشكال في نسبتها إليه ﷺ (ما أعبد)، وهو يعبد الإله الحق.

وأجيب لرفع الإشكال، أن المراد بـ (ما) الصفة، كأنه قال لا أعبد الباطل ولكن أعبد الحق.

1- غرائب القرآن ورغائب الفرقان - نظام الدين القمي النيسابوري مج 10 ج 30 / 203.

2- المصدر نفسه.

أو هي (ما) المصدرية وهو رأي الزمخشري كما سبقت الإشارة.  
أو هي على وجه المطابقة والمشكلة جريا على اللفظ<sup>1</sup>.

ويقف شيخ الإسلام ابن تيمية 728 معاصر القمي طويلا عند هذه السورة فحظيت بما يزيد على الخمسين صفحة من تفسيره<sup>2</sup>، وينطلق ابن تيمية في تفسيره هذه السورة من تلخيص أبي الفرج بن الجوزي لقولين مشهورين ذكرهما كثير من المفسرين وهما: هل كرر الكلام للتوكيد، أم لنفي الحال والاستقبال؟

(قال أبو الفرج: في تكرير الكلام قولان؛ أحدهما أنه لتأكيد الأمر وحسم أطماعهم فيه، قاله الفراء)<sup>3</sup>.

والقول الثاني (أن المعنى: ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ في حالي هذه، ﴿ولا أنتم﴾ في حالكم هذه ﴿عابدون ما أعبد﴾ ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ في ما أستقبل، وكذلك (أنتم)، فنفي (عنه)<sup>4</sup> وعنهم في الحال والاستقبال، وهذا في قوم بأعيانهم أعلمه أنهم لا يؤمنون، كما ذكرناه عن مقاتل، فلا يكون حينئذ تكرارا، قال: وهذا قول ثعلب والزجاج<sup>5</sup>

وهذا التخرج بتعيين الزمان لا يدل عليه اللفظ ولا يوحيه، وأجود منه قول ابن عطية 541 هـ، حين يشير إلى أن ﴿لا أعبد﴾ يحتمل أن يراد به الآن، ويبقى السامع منتظرا ما يكون فيه من عبادته فيما يستقبل: فيجيء البيان بقوله: ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ أي أبدا ما حييت، ثم جاء: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ الثاني حتما عليهم أنهم لا يؤمنون أبدا<sup>6</sup> وهو خطاب لمُعَيَّنِينَ.

1- أنظر: المصدر السابق.

2- أنظر: التفسير الكبير، لابن تيمية ج 8 / 51 - 108.

3- المصدر السابق 7 / 51. ومجموع الفتاوى الكبرى مج 16 / 536.

4- هذه الزيادة من: تفسير زاد المسير لابن الجوزي.

5- مجموع الفتاوى الكبرى ج 16 / 538 والتفسير الكبير ج 7 / 539.

6- أنظر التفسير الكبير 7 / 55 ومجموع الفتاوى الكبرى 16 / 539.

ويعلق ابن تيمية على قول ابن عطية هذا:

( هذا القول أجود من الذي قبله من جهة بيانهم لمعنى زائد على التكرير، لكن فيه نقصا من جهة أخرى، وهو جعلهم هذا خطابا لمُعَيَّنِينَ، فنقضوا معنى السورة من هذا الوجه.

وهذا غلط فإن قوله ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ خطاب لكل كافر، وكان يُقْرَأُ بها في المدينة بعد موت أولئك المعينين، ويأمر بها، ويقول هي براءة من الشرك...وأيضاً فأولئك المعينون -إن صحَّ أنه إنما خاطبهم- فلم يكن إذ ذاك عُلِمَ أنهم يموتون على الكفر)<sup>1</sup>. والقول بأنه إنما خاطب بها معيَّنِينَ قول لم يقله من يعتمد عليه...ذلك أن هذه الرواية ثبتت عن مقاتل بن سليمان 150 هـ وهو ممن لا يعتمد على نقله وحده باتفاق أهل الحديث، كنقل الكلبي 146 هـ.<sup>2</sup>

ولهذا كان يتحاشى النقل عنها بعض أهل التفسير والحديث كابن حريز وعبد الرحمن بن أبي حاتم 327 هـ وأبي بكر بن المنذر 319 هـ بله أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه.

فسورة (الكافرون) براءة من الشرك مطلقاً، وليست براءة من هذا التَّقرُّرِ المعدود.

فقد وجه صلى الله عليه وسلم من سأله عما يقوله عند منامه فقال:

( إنَّك لنا ظئرٌ، اقرأ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ عند منامك، فإنها براءة من الشرك)<sup>3</sup>.

قلت: تخصيص الخطاب يقتضيه المعنى وتخريج التكرار، فتيئيس الكفار من عبادة الله وحده في المستقبل لا يستقيم إلا مع فئة معينة معلومة على وجه التعجيز والإعجاز بالإطلاع على الغيب.. ويبقى هذا الخطاب من جهة أخرى لكل من لا يُرْجى

1- التفسير الكبير 7/ 55، 56.

2- المصدر نفسه ص 56.

3- المصدر نفسه ص 58.

إسلامه، وغلب فيه هذا الظن، ويتقى أمره في ذلك إلى الله عز وجل، إذ معنى البراءة من الشرك وأهله تحمله السورة بكلا التصورين خصوص المناسبة وعموم اللفظ، ولا يستند في هذا التخصيص على سبب النزول وحده، لأن خصوص السبب لا ينفي عموم اللفظ كما هو معلوم في علم الأصول.

( وتكرير ما كرر فيها ليس بتكرير في المعنى، ولا في اللفظ سوى موضع واحد منها، فإنه تكرير في اللفظ دون المعنى)<sup>1</sup> وقد فصل لكنه بين المكررين بجملة.

يعني الآية الثالثة والخامسة من "سورة الكافرون" وهي قوله تعالى:

﴿ولا أتم عابدون ما أعبد﴾ حيث تكررت ألفاظها، وفرق بينهما في المعنى فقيل: إن معنى الأولى:

﴿ولا أتم عابدون ما أعبد﴾ حيث تكررت ألفاظها، وفرق بينهما في المعنى فقيل: إن معنى الأولى:

﴿ولا أتم عابدون ما أعبد﴾ في الحال. ومعنى الثانية في الاستقبال.

وقيل أيضا إن معنى الأولى ( ولا أنتم عابدون ما عبدت) لكنه عدل عن عبدت إلى (أعبد) إشعارا بأن ما عُبد في الماضي هو الذي يُعبد في المستقبل<sup>2</sup> وعليه يصبح قوله (ما أعبد) تعني المعنيين: (ما عبدت) و(ما أعبد) في آن واحد. وذلك ليطابق القولين السابقين.

(ما تعبدون) و(ما عبدتم) من الآية الثانية والرابعة.

وقوله ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾

يعني: ( لا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم في الماضي، فيكون قد نفى عن نفسه في المستقبل عبادة ما عبده في الماضي دون ما يعبدونه في المستقبل)<sup>3</sup> تغايرا ملحوظا.

1- أنظر: التفسير الكبير 7 / 58.

2- مجموع الفتاوى الكبرى 16 / 545. 546. والتفسير الكبير: 7 / 61.

3- أنظر: المصدر نفسه 16 / 547. وانظر التفسير الكبير 7 / 62، 63.

ففي ما نسبه إلى نفسه (ما أعبد) وما نسبه إليهم (ما عبدتم) وهذا إشعار ببراءته من كل ما عبده في الأزمنة الماضية، كما تبرأ أولاً مما عبده في الحال والاستقبال، فتضمنت الجملتان البراءة من كل ما يعبده المشركون والكافرون في كل زمان ماض وحاضر ومستقبل.

ثم التعبير بالجملة الاسمية (ولا أنا عابد) بعد التعبير بالجملة الفعلية (لا أعبد) فيه زيادة معنى، فنفي صدور الفعل عن الذات أبلغ من نفي الفعل مجرداً، لأنه لا ينفي إمكانية الفعل وجواز الوقوع منه، ولا يدل على أنه لا يصلح له ولا ينبغي له كالذي نشعر به في الآيات الآتية:<sup>1</sup>

- ﴿ ما أنا بمصرخكم وما أتم بمصرخي ﴾ 22 إبراهيم.

- ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ 85 البقرة.

- ﴿ وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ 22 فاطر.

فهو ينفي جوازه شرعاً ووقوعاً، فإن مثل هذا الكلام لا يقال إلا فيما يستتبع من الأفعال، كمن دُعي إلى ظلم أو فاحشة فقال:

( أنا أفعل هذا؟ ما أنا بفاعل هذا أبداً ). فهو أبلغ من قوله: لا افعله أبداً.. فهو يتضمن نفي الفعل بغضاً فيه وكرهية له. بخلاف قوله: لا أفعل، فقد يتركه الإنسان وهو يجبه لغرض آخر<sup>2</sup>.

( ولم يحتج أن يقول فيهم ﴿ ولا أنتم عابدون ما عبدت ﴾ كما قال في نفسه ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ لوجهين:

أحدهما: أن كل مؤمن مأمور بقراءة هذه السورة، ومنهم من كان معبوده غير الله<sup>3</sup> كالمشركين والمجوس الذين أسلموا فيما بعد.

ولم يشر إلى الوجه الثاني ولم يصرح به ولعله أراد في قوله:

1- أنظر: المصدر نفسه 16 / 553.

2- المصدر نفسه ص 555. وأنظر: التفسير الكبير 7 / 68.

3- المصدر نفسه ص 557. وأنظر: التفسير الكبير 7 / 69.

(وهم لم يختلف حالهم في الحالين، بل هم فيهما سواء لا يعبدون ما يعبد، فلم يكن في تغيير العبارة فائدة، وإنما غيرت العبارة في حقه وحق المؤمنين لتغيير المعنيين... فالمقصود بالسورة أن المؤمن يتبرأ منهم، ويخبرهم ببراءة منه، وتبريه منهم إنشاء ينشئه، كما ينشئ المتكلم بالشهادتين، وهذا يزيد وينقص ويقوى ويضعف.

وأما هم فهو يخبر ببراءتهم منه في هذه الحال، لا ينشئ شيئاً لم يكن فيهم... فلم يكن في الإخبار عن حالهم زيادة - فيما هم عليه - ولا نقص، فلم يغير لفظ الخبر في الحالين بلفظ واحد، وأما المؤمن نفسه فهو مأمور بأن ينشئ قوة الإخلاص لله وحده<sup>1</sup>. أي أن إعلانه عن موقفه إنشاء، والإعلان عن موقف الكفار خبر. وعلى هذا الاعتبار اختلف التعبير والتفسير.

وكان الحامل لابن تيمية على إطالة الوقوف عند هذه السورة القصيرة جداً، هو اختلاف العبارة وتنوع تصاريف القول؛ إذ كانت قناعته التي ينطلق منها «لو أن رجلاً من بني آدم له علم، أو حكمة، أو خطبة أو قصيدة، أو مصنف، فهذب ألفاظ ذلك وأتى فيه بمثل هذا التغير لعلم أنه قصد في ذلك حكمة، وأنه لم يخالف بين الألفاظ مع اتحاد المعنى سدى، فكيف بكلام رب العالمين، وأحكام الحاكمين، لاسيما وقد قال فيه: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ الإسراء / 88.

ولعلَّ أبرز من توسع في تحليل أسلوب هذه السورة بعد ابن تيمية ابن قيم الجوزية (751 هـ) الذي استفاد من نظرات شيخه، فتناول سورة (الكافرون) في إحدى عشرة صفحة من (345-355)<sup>2</sup>، لإحدى عشرة قضية:

1- وأول ما وقع عليه نظره ولفت انتباهه وشغل اهتمامه، هو لفظة (ما) التي استأثرت بالسورة دون (من)، فحملت جملة من المعاني نجملها فيما يأتي:

ما : مصدرية لا موصولية أي: عبادتهم

1- التفسير الكبير 7/ ص 70، 71.

2- أنظر: بدائع الفوائد. ابن قيم الجوزية. ج 5/ ص 345-355.

: موصولية (معبودهم)

: للوصف: كراهية اتباع النبي ﷺ وحرصا على مخالفته في العبادة. لا كراهية المعبود

: قصد ازدواج الكلام مشاكلة، فاستوى اللفظان واختلف المعنيان

: ذكر المعبود الموصوف المستحق العبادة، وهذا لا يكون إلا بـ (ما)؛ لأن (من) تدل على الذات فقط. و(ما) تجمع بين المعبود والعبادة معا.

2- ثم ينتقل إلى فائدة تكرير الأفعال في حقه وحقهم.

3- ثم فائدة تكرير الفعل في حق نفسه بلفظ المستقبل في الموضعين وفي حقهم بالماضي.

4- ثم فائدة الاختلاف في طريقة النفي بلفظ الفعل تارة، وباسم الفاعل أخرى.

5- وفائدة إيراد النفي في السورة بـ (لا) دون (لن).

6- طريقة القرآن، أنه لا توحيد إلا بالجمع بين النفي والإثبات فلا مناص من القرآن بينهما وهو المتمثل في حقيقة كلمة التوحيد (لا إله إلا الله). وظاهر سورة (الكافرون) أنها جاءت بالنفي المحض. فما حقيقة ذلك؟!.

7- ما الحكمة في تقديم براءته من معبودهم على براءتهم من معبوده؟

8- ما وجه الخطاب بـ (يا أيها الكافرون) دون (يا أيها الذين كفروا)؟

9- ما هو المعنى الزائد في قوله (لكم دينكم ولي دين) على النفي المتقدم في السورة؟ فيجعل ذلك في أن النفي في أول السورة أفاد براءته مما لا يتصور منه، ولا ينبغي له.. وأفاد آخرها إثبات ما تضمنه المنفي من جهمتهم من الشرك والكفر، وهو حظهم وقسمتهم ونصيبهم.

10- تقديم قسمهم ونصيبهم على قسمه ونصيبه في آخر السورة، وتقديم شأنه وفعله في أول السورة.

11- اشتغال السورة على جنسين من الأخبار:

1- براءته من معبودهم وبراءتهم من معبوده.

2- وإخبار بأن له دينه ولهم دينهم.

تلك جملة العناصر التي تناولها ابن القيم في السورة وفق ذلك الترتيب.

وسنشير إلى جزء من تحليله عند تحليله عند تلخيص أسلوب السورة وأسراره، بعد الوقوف عند أبي حيان الأندلسي (654-754 هـ) المعاصر لابن تيمية ثم لتلميذه ابن القيم، الذي نجده يجمل أقوال المفسرين في دلالات الجمل التي تردت في السورة في أنها:

1- للتأكيد لقطع الأطماع، وقد مات على الكفر المخاطبون مباشرة.

2- إنها ليست للتأكيد واختلفوا. فرأى الأخصش أن كل جملة تقيدت بزمان مغاير للأخرى. ورأى أبو مسلم أن (ما) في الآيتين الثانية والثالثة موصولة بمعنى الذي والمقصود المعبود. وفي الآيتين الرابعة والخامسة بعدهما مصدرية والمقصود العبادة.

بينما يرى ابن عطية أن الآية الثانية (لا أعبد) تحتل الدلالة على الحال وعلى المستقبل فجاءت الآية الرابعة (ولا أنا عابد ما عبدتم) بيانا وقطعا للاحتمال أي أنه باق على الموقف ما حيي.

وجاء الآية الخامسة المكررة للآية الثالثة حسما وحتما بأنهم لا يؤمنون به أبدا. «فهذا معنى التريد الذي في السورة وهو بارع في الفصاحة، وليس بتكرار فقط بل فيه ما ذكرته»<sup>1</sup>.

ويرى الزمخشري أن الفرق بين النفي بـ (لا) و(ما) حين تدخلان على المضارع ينحصر في أن (لا) «لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال، كم أن (ما) لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال»<sup>2</sup>.

وذلك ليثبت أن النفي في (لا أعبد ما تعبدون) أريد به العبادة فيما يستقبل.

1- البحر المحيط. أبو حيان 10 / 559.

2- المصدر نفسه.

لكن أبا حيان يخطئ الزمخشري حين حصر هذا الحكم، وهو غالب فيهما لا متحتم ويدفعه أن النحاة ذكروا «دخول (لا) على المضارع يراد به الحال، ودخول ما على المضارع يراد به الاستقبال»<sup>1</sup>.

وربما ساق الزمخشري إلى الجزم بذاك الحكم قول سيبويه: «وتكون (لا) نفيًا لقوله: يفعل ولم يقع الفعل.. وأما (ما) فهي نفي لقوله: هو يفعل إذا كان في حال الفعل»<sup>2</sup> وسيبويه لم يورد ذلك بأداة الحصر، وإنما ذكر الغالب فيهما. وهذا الرد غير قاطع في المسألة.

وكذلك يخطئ أبو حيان الزمخشري في حمله دلالة اسم الفاعل في (ولا أنا عابد ما عبدتم) على الماضي، أي وما كنت قط عابدا فيما سلف ما عبدتم فيه. فهذا لا يستقيم له؛ «لأن عابدا اسم فاعل قد عمل في (ما عبدتم)، فلا يفسر بالماضي، إنما يفسر بالحال أو الاستقبال»<sup>3</sup>.

ويختم أبو حيان تفسيره السورة بالكشف عن الموقف الذي اختاره والذي يتمثل في أنه نفي أولا عبادته في المستقبل (لا أعبد ما تعبدون).

ثم عطف عليه (ولا أتم عابدون ما أعبد) نفيًا للمستقبل أيضا على سبيل التقابل. ثم قال (ولا أنا عابد ما عبدتم) نفيًا بالحال؛ ثم عطف عليه (ولا أنتم عابدون ما أعبد) نفيًا للحال على سبيل التقابل أيضا. «فانتظم المعنى أنه ﷺ لا يعبد ما يعبدون، لا حالا ولا مستقبلا، وهم كذلك؛ إذ قد حتم الله موافاتهم على الكفر»<sup>4</sup>.

وكذلك فسر بالتقابل معنى (ما) الموصولية بين معبوده ومعبودهم، أو هي مصدرية في قوله (ما أعبد) أو فيها جميعها.

1- المصدر نفسه: 560.

2- المصدر نفسه.

3- المصدر نفسه.

4- المصدر السابق 10/ 560.

أو المراد بها الصفة كما قال الزمخشري: «كأنه قلل: لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق»<sup>1</sup>.

وجاءت خاتمة السورة: (لكم دينكم ولي دين) غاية في التبرؤ؛ لكم شرككم ولي توحيد<sup>2</sup>.

وحسبنا هذا القدر من دراسة القدماء لهذه السورة، ففيه الصورة الوافية المٌطلّعة على منهجهم في التحليل والتعليل وفضلهم على اللاحقين ومنتقل إلى بعض الدراسات الحديثة التي تناولت سورة الكافرون لنقف على حظ هذه السورة منها.

---

1- الكشاف 4 / 293.

2- انظر: البحر المحيط 10 / 561.

## ( قل يا أيها الكافرون ) في بعض الدراسات الحديثة:

لقد تأثرت الدراسات اللغوية العربية الحديثة بمنهج الدراسات اللسانية العربية التي تعني بدراسة مكونات اللغة والكلام من أصغر وحدة فيها إلى أكبر وحدة فتناولوا الوحدة الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية والدلالية وأثر كل أولئك في العملية الإبلابية التواصلية.

غير أن تناول المحدثين والمعاصرين لأسلوب التكرار في سورة (الكافرون) لا نجد فيه أمرا ذا بال، أو جديدا لم يسبقوا إليه؛ إلا فيما يتعلق بالبنية المقطعية التي تنتظم السورة وما عداه - فيما نعلم - أشار السابقون إلى أسسه وإن اختلف منهج تناول أحيانا. فنجد الدكتور عبد المنعم السيد حسن يركز في تفسيره السورة على الجانب التركيبي فيتخذ من التمييز بين الجملة الاسمية والجملة الفعلية من جهة الدلالة، منطلقا لإبراز سر التكرار في السورة.

وذلك أنه نفى عن نفسه ﷺ بالجملة الفعلية أولا: (لا أعبد ما تعبدون).2.

ثم نفى عن نفسه ثانية بالجملة الاسمية؛ (ولا أنا عابد ما عبدتم).4.

ونفى عن الكفار بالجملة الاسمية في كلتا المراتين في الآية الثالثة والخامسة؛ (ولا

اتم عابدون ما أعبد) 5، 3.

لأن النفي بالجملة الاسمية « أكد فكأنه نفى الفعل وكونه قابلا لذلك ومعناه نفى الوقوع ونفي الإمكان الشرعي»<sup>1</sup>.

وعبر الجملة الاسمية في جانب الكفار مرتين ليلائم عناد الكفار ومجاہبتهم، أو الخطاب بالإنكار فهم كما أخبر الله عن اليهود ﴿وليزیدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا﴾.

وحتى تُرَّه هذه العبارة عن مجرد التكرار ونسبتها إليه روعيت عند التفسير الاعتبارات الآتية:

1- ظاهرة التكرار في القرآن الكريم. د. عبد المنعم السيد حسن ص 135.

- 1- تقييد كل آية تكررت بزمن معين.
- 2- إن الآية التي تكررت مرتين وهي (ولا أتم عابدون ما أعبد) 3 و5 تختلف دلالتها بين الموضوعين: ففي الموضوع الأول تقييد نفي « اعتراف المشركين بالمعبود الحق »<sup>1</sup>. وفي الموضوع الثاني تقييد نفي « سلوكهم الطريقة التي يعبد المسلمون ربهم عليها وعلى هذا القول فلا تكرار بين آيات السورة »<sup>2</sup>.
- 3- وهناك من حمل التكرار في هذه السورة على التأكيد لا التأسيس «على معنى أن قوله (ولا أنا عابد ما عبدتم) مؤكد لما فهم من قوله (لا أعبد ما تعبدون)، وأن قوله (ولا أتم عابدون ما أعبد) في المرة الثانية مؤكد لما فهم في المرة الأولى، وقد قاس أصحاب هذا القول ما وقع في سورتنا على قوله ﴿فإن مع العسر يسرا﴾<sup>3</sup> إن مع العسر يسرا...»<sup>3</sup>.

وهذا الاعتبار الأخير لا نقره عليه؛ لأن قصر التكرار على التأكيد هو إقرار على اعتبار الآية تكرارا محضا؛ لأن التأكيد من أغراض التكرار العامة، ونحن بصدد الأسرار الخاصة وليدة السياق.

وكذلك اعتبار آية سورة الشرح ﴿إن مع العسر يسرا﴾ لمجرد التأكيد، حكم غير متفق عليه، حتى يقاس عليه. وسنشير إليه إن شاء الله، في إبانة ومحله من البحث. ولم أجد لآيات سورة (الكافرون) أثرا فيما تناول الدكتور السيد علي محمد خضر من آيات القرآن الكريم التي اشتملت على التكرار في رسالته التي تخص التكرار الأسلوبية في اللغة العربية<sup>4</sup> اللهم أن يكون تناول ذلك في رسالته: ظاهرة التكرار بين النحاة والبلاغيين والذي لم نظفر به بعد.

1- المرجع السابق ص 133.

2- المرجع نفسه.

3- المرجع نفسه ص 134.

4- راجع كتابه: التكرار الأسلوبية في اللغة العربية -د/السيد خضر. ط 1/ 2003م.

وهناك من تناول أسلوب السورة من وجهة صرفية؛ إذ زاوجت السورة بين التعبير بالفعل مرة، وباسم الفاعل مرات: لا أعبد...2 ولا انتم عابدون...3 ولا أنا عابد...4 ولا انتم عابدون...5.

وهو عدول عن الفعل إلى اسم الفاعل يقتضي بيان مناسبته في هذا السياق. وهذا الجانب تعرض له السابقون ضمن تفسيرهم للسورة، غير أنهم لم يتناولوه تحت منهج معين كالذي صنعه الدكتور عبد الحميد هنداي في كتابه الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم حين خصص مبحثاً للعدول في الصيغ ومنها العدول إلى اسم الفاعل ويقف عند موضعين منه في القرآن الكريم:

- الموضع الأول في سورة البقرة عند قوله تعالى:

- ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم﴾ البقرة .145

«حيث عدلت الآية عن التعبير بصيغة الفعل التي عبرت في حق أهل الكتاب إلى صيغة الاسم في حق النبي ﷺ منفيًا لينفي عن النبي ﷺ»<sup>1</sup> أدنى احتمال لاتباعهم أو الانتساب إليهم، ويستشهد بما قاله الزمخشري: «وما أنت بتابع قبلتهم حسم لأطماعهم»<sup>2</sup> وبما قاله الألوسي: ﴿وما أنت بتابع قبلته﴾ أي «لا يكون ذلك منك، ومحال أن يكون»<sup>3</sup>. ليلخص إلى القول أن العدول عن صيغة إلى صيغة لشمول الزمان واستيعابه وإن اختلف العلماء في أي الصيغتين للماضي أو الحال أو الاستقبال.

- الموضع الثاني ما اشتملت عليه سورة الكافرون التي ينسحب عليها ما سبقت الإشارة إليه في آية البقرة.

1- الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم- د/عبد الحميد يوسف هنداي- المكتبة العصرية لبنان ط: 2002م ص 169.

2- المرجع نفسه ص 169.

3- المرجع نفسه.

وكان اعتماد الدكتور هنداوي في هدي السورة على تفسير ابن تيمية لها مسددا رأيه ومرجحا.

فمن ذلك ترجيح ابن تيمية دلالة اسم الفاعل في هذا الموضع من السورة (ولا أنا عابد ما عبدتم) أنها تشمل الأزمنة الثلاثة، مع أن المشتهر دلالة «اسم الفاعل المنون على الاستقبال، ولكن يجوز صرفه إلى غيره بدلالة القرائن وقد دل لفظ (عبدتم) على صرفه إلى معنى الماضي، فضلا عن أن الكسائي وابن هشام جوازا إعماله ماضيا.. بأنه على حكاية الحال كقوله تعالى: ﴿وكلهم باسط ذراعيه﴾<sup>1</sup>.

وعندي حمل (ولا أنا عابد) على المستقبل، وهو الأصل المشتهر، أولى وأبلغ في المعنى من الاقتصار على الماضي؛ لأنه يحقق استمراره ﷺ على حال واحدة.. ثم يوغل في ذلك ويتعمق حين ينتقل إلى حالهم وموقفهم هم في المستقبل فبدل أن يتحولوا في المستقبل ويتغيروا كما يوحى (عبدتم)؛ إذ هي صريحة في الماضي، وكأن تغيرا ما سيقع.. وإذ بالآية بعدها تؤكد حالهم في المستقبل.

(ولا اتم عابدون ما اعبد) بدلالة اسم الفاعل العامل على المستقبل على الأصل الراجح، أما موقفه هو ﷺ فمعلوم مشهور قد سبق إعلانه، والتنبيه عليه مؤكداً. ثم مجيء تبرئتهم من عبادة الله بلفظ واحد تكرر، بجملة اسمية المسند فيها اسم فاعل.. ليدل على أن البراءة ليست بنفي الفعل عنهم فقط، وإنما ببراءة ذواتهم من عبادة الله أيضا.<sup>2</sup>

ذلك أن دلالة اسم الفاعل دلالة مزدوجة «تدل على وصف الفاعل بالحدث منقطعا متجددا<sup>3</sup> يجمع بين دلالة الاسم على الثبوت واللزوم، ودلالة الفعل على التجدد.

1- المرجع السابق ص 171.

2- أنظر: المرجع السابق 173.

3- اللغة العربية معناها ومبناها - تمام حسان - طبعة الهيئة المصرية للكتاب ص 99.

ومن ثم - يقول هندراوي- « فإن دلالة التعبير باسم الفاعل في هذا الموضع شبيهة بدلالته في الموضع السابق، إذ أن المعنى والله أعلم هو نفي صحة انتسابه إلى عبادة الله تعالى ماداموا مُلابسين لما هم عليه من الشرك والكفر»<sup>1</sup>.

ولقد شد انتباه كثير من الباحثين، وأثار إعجابهم، تلك المزاوجة في التعبير بين الاسم والفعل في سورة الكافرون والتي بلغت حد الإعجاز استقصاء للمعنى واستيفاء.

فهذا الدكتور فاضل صالح السامرائي يعلن عن سرّ ذهوله وإعجابه فيقول: « ومن جميل التعبير بالفعل والاسم ما جاء في سورة الكافرون وهو قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الكافرون ﴿١﴾ لا أعبد ما تعبدون ﴿٢﴾ ولا أتم عابدون ما أعبد ﴿٣﴾ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴿٤﴾ ولا أتم عابدون ما أعبد ﴿٥﴾ لكم دينكم ولي دين ﴾. »

فأنت ترى أن الرسول ﷺ نفي عبادة الأصنام عن نفسه بالصيغتين: الفعلية والاسمية ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ و﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ وبالفعلين: المضارع والماضي: (تعبدون) و(عبدتم). ونفى عن الكافرين العبادة الحقّة بصيغة واحدة مرتين هي الصيغة الاسمية: (و لا أتم عابدون ما أعبد).

و معنى ذلك انه نفي عبادة الأصنام عن نفسه في الحالتين الثابتة والمتجددة في جميع الأزمنة وهذا غاية الكمال . إذ لو اقتصر على الفعل لقيّل: إن هذا أمر حادث » قد يزول. ولو اقتصر على الاسم لقيّل: صحيح أن هذه صفة ثابتة ولكن ليس معناه أنه مستمر على هذا الوصف لا يفارقه «<sup>2</sup> وإنما هو وصف له في غالب أحواله.

و عليه « فإصراره هو على طريقة أقوى من إصرارهم، وحاله أكمل من حالهم والنفي عنه أدوم وأبقى من النفي عنهم »<sup>3</sup>.

1- الإعجاز الصرفي ص 173.

2- التعبير القرآني - الدكتور فاضل صالح السامرائي. ط 3. 1425هـ - 2004م دار عمار - عمان الأردن. ص 28، 29.

3- المرجع نفسه ص 29.

و هذا الإصرار والثبات هو أظهر ما يَشْعُ من السورة، حتى رأينا الدكتور محمود السيد شيخون يقصر السورة على إيجائها باليأس ولا يزيد عليه فيقول: « فان التكرار فيها، يوحي باليأس إلى قلوب من كفر من أن ينصرف الرسول ﷺ ، عن دينه إلى ما كان يعبد هؤلاء الكفرة، فليتدبروا أمرهم بينهم مليا»<sup>1</sup>.

### التحليل المقطعي لألفاظ السورة:

و في نهاية تطوافنا حول هذه السورة نقف عند الدكتور البدرابي زهران الذي حاول تطبيق المنهج التركيبي على المستوى الصوتي بالأخص. ذلك أن المنهج التركيبي يحلل الظاهرة اللغوية تحليلا علميا يحيل العناصر اللغوية إلى جزئيات يبرز من خلالها كل ما في المادة من مقومات الإبداع والإتيقان أو التفكيك والضعف.

و يكشف البدرابي عن عرضه من دراسة ظاهرة التكرار وفق المنهج التركيبي فيقول: « و قد أردت أن أعرض هذه الظاهرة على المنهج التركيبي في الدرس اللغوي لأستجلي من خلال تسليط مناهج الدراسة اللغوية على هذه الظاهرة ملامح العظمة القرآنية التي يدركها الحس اللغوي ولا تبصرها العين المجردة .. وذلك باستخدام منظار علمي جديد في مقدوره توضيح الدقائق، وإبراز أخص الخصائص وأدلها على دقائق عظمة الإعجاز اللغوي»<sup>2</sup>.

و من مبادئ المنهج التركيبي التدرج في التحليل ابتداء من جزئيات المادة التي لها دور وتؤدي وظيفة، وانتهاء إلى دور الدلالة التي لا تبين إلا من بعد تمام البناء اللغوي والعلم بجميع أجزائه وأوجهه والعناصر التي لها صلة بالسياق<sup>3</sup>. ويحاول البدرابي تطبيق هذا المنهج على ظاهرة التكرار في القرآن الكريم ويتخذ من سورة "الكافرون" نموذجا لذلك.

1- أسرار التكرار في لغة القرآن - د/ محمود السيد شيخون (د.ط، د ت) دار الهداية. ص 56.

2- ظواهر قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية بين القدماء والمحدثين. د/البدرابي زهران. ط 2. 1993م.

دار المعارف ص 38.

3- أنظر: المرجع نفسه. ص 39، 40.

- فيعرض أولاً كلمات السورة وحروفها عرضاً يمكّن من مشاهدة التشابه والتكرار على النحو الآتي<sup>1</sup> وفق ترتيب الآيات:

قل يا أيها الكافرون				(1)
تعبدون	ما	أعبد	لا	(2)
أعبد	ما	عابدون	ولا أتم	(3)
عبدتم	ما	عابد	ولا أنا	(4)
اعبد	ما	عابدون	ولا اتم	(5)
		دينكم ولي دين	لكم	(6)

- ثم يقرأ لنا جدول السورة قراءة تحليلية فيقول:

« أماننا عنصراً لتكرار أو التجانس كما يسمى وتطالعنا الواو التي يتكرر ورودها أربع مرات وهي تمثل (فونياً) أصلية. و(مورفياً) معاً لها وظيفة. فهي عنصر من عناصر ربط الكلام والتعليق بينه فلها دورها الوظيفي في هذا المجال، وهي في حد ذاتها صيغة ووحدة صرفية قائمة بناتها. ومثلها (لا) و(ما) يتكرر ورود كل واحدة منها أربع مرات، وكل واحدة منها تمثل مقطعاً صوتياً قائماً بذاته، وكل واحدة تعد صيغة لها دورها الوظيفي في البناء والدلالة معاً..

و أماننا ضمير المخاطب الذي يتكرر وروده مرتين بينها ضمير المتكلم المفرد وهذه الضمائر معاً تعتمد في بنيتها على أصوات أساسية متّحدة يحدث تكرارها نوعاً من التجانس الذي يسمى تجانساً صوتياً بحتاً ويسمى تجانساً استهلالياً (Alliteration) أما مادة (عبد) فيتكرر ورودها ثماني مرات في صيغ مختلفة: (أعبد) ثلاث مرات.

1- انظر: المرجع نفسه ص 41.

و(عابدون) مرتين. و(عابد) مرة واحدة. أي بصيغة اسم الفاعل ثلاث مرات أيضا. وتعبدون مرة واحدة. وهنا تجانس صوتيا أيضا من أنواع مختلفة.<sup>1</sup> «

وتتكرر كلمة (لكم) مع (لي)، وكل واحدة منها عنصر له وظيفته على المستوى الصرفي وبناء التركيب، وفيها تجانس استهلاكي ويتفاعل أساسهما الصوتي (لكم - لي) مع (لا) التي تكررت أربع مرات حيث يتكرر حرف اللام ويتجانس تجانسا استهلاليا وكذلك تجانس استهلاكي بين (دينكم وديني).

وعلى هذا يصبح لدينا تجانس استهلاكي صوتي صرفي معا وتجانس صرفي بحت يعتمد على اللواصق (أعبد - تعبدون - عبدتم) وتجانس مبعثه الحركات من خلال المقاطع كما سنتبين<sup>2</sup>.

ويلح الدكتور عليك في التأمل لتنتبه إلى ما قد يفوتك سهوا أو غفلة فيقول « والشيء الذي يلفت النظرة العابرة أن كل ما تراه قد جاء في تعاقب وترتيب وفق تتابع عددي وتناسق على أبعاد تكاد تكون متساوية تبرزها كتابة السورة على النحو الذي مرَّ أمامنا<sup>3</sup> ».

---

1- المرجع السابق ص 41، 42.

2- أنظر: المرجع نفسه ص 42.

3- المرجع نفسه .

ثم ينتقل إلى تحليل آيات السورة آية آية، تحليلاً صوتياً دقيقاً وذلك حسب أداء الآية في الوقف وفي الوصل، فمقاطع الآية الأولى يتم تقسيمها كما يأتي:

<p>في حالة الوقف: النغمة هابطة تنتهي الآية بمقطع طويل مغلق</p> <p>في حالة الوقف</p> <p>في حالة الوصل: النغمة مسطحة تنتهي بمقطعين: - مفتوح متوسط - ومفتوح قصير</p>	1- قل: مغلق ← متوسط
	2- يا: مفتوح ← متوسط
	3- أي: مغلق ← متوسط
	4- ي: مفتوح ← قصير
	5- هل: مغلق ← متوسط
	6- كا: مفتوح ← متوسط
	7- ف: مفتوح ← قصير
	8- رون: مغلق ← طويل
	9- رو: مفتوح ← متوسط
	10- ن: مفتوح ← قصير

يلاحظ المتأمل في الجدول السابق أن:

- بين المقطع الأول والخامس تجانسا من حيث النوع (مغلق) والكم (متوسط) وفي ختم كل منها بصوت واحد هو اللام (قل: هل) ولهذا التماثل تأثير صوتي ولاشك، كما أن هناك تأثيراً أيضاً نتيجة التخالف بينهما الناشئ من التباعد (الأول والخامس)

- و أما المقاطع التي بينهما (2-3-4) فقد اعتمدت في صلبها على صوت أساسي واحد هو الياء وهو شبه علة Semi vowel [يا-أي-ي] هذا وجه التماثل. أما التخالف فجاء من الحركة وكما: فالمقطع الثاني يعتمد على الحركة الأمامية الطويلة المتسعة والمقطع الرابع يعتمد على الحركة الخلفية الضيقة القصيرة. على حين أن المقطع الثالث المتوسط بينها مقطع

مغلق. وينشأ من التخالف وذاك التماثل تأثير قوي نحسُّه ولا نراه.<sup>1</sup> « ولو أعدنا النظر على المقاطع الستة الأولى من زاوية أخرى لوجدنا بينها نوعاً من التقابل على التوالي مقطع مغلق يعقبه مقطع مفتوح فالستة منها ثلاثة مغلقة، وثلاثة مفتوحة بين كل واحد مخالف لسابقه، ومن هنا يحدث بين كل مقطع وتاليه تخالف وبين كل مقطعين بينهما مقطع تخالف آخر فيشكل النسيج المقطعي هنا أنواعاً من التخالف في تناسق. أي أن التخالف (Dissimilation) جاء نتيجة للمخالفة في الترتيب والتراوح بين المقاطع<sup>2</sup> »

ثم يشير إلى اختيار العبارة ودلالاتها وأثرها على القوم:

(قل يا أيها الكافرون) حين يفجأ القوم بهذا الحكم الذي ينزل مدوياً كالصاعقة، ومن يجروء على مواجهتهم به سافراً (قل) حكاية القول، لا تحتمل التعبير عنها.

ثم يحاول أن يكشف أبعاد تلك الآية وسرّ قوتها فيقول:

لم يكن ذلك « لمجرد انسجام صوتي أو تفاعل نسيج مقطعي فحسب، وإنما هو كذلك لتنبثق عنه دلالة ولينتواءم مع موقف، ويتفاعل مع سلوك جماعة معينة، ذات خلفية ثقافية معينة، وهو فوق هاذ ذاك كله جاء على سننهم في كلامهم بل هو من مألوف كلامهم. ثم بعد هنا وذاك كله من الخصوص الذي أريد به العموم<sup>3</sup> ».

ثم ينتقل إلى تحليل الآية الثانية وهي قوله تعالى:

﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ (2) وهي مرتبطة بما قبلها إذ تعود إلى أول كلمة (قل)

وهي أمر الرسول ﷺ أن يقول لهم هذه الآية والآيات التي بعدها إلى آخر السورة. فتأمل أجزاءها المقطعية:

1- أنظر: المرجع السابق. ص 45 .

2- المرجع نفسه ص 46.

3- المرجع السابق ص 51.

- (1) - فهناك تجانس صوتي في تعاقب المقاطع بين المقطع: - الأول والخامس - والثاني والسادس - والثالث والسابع - والرابع والتاسع في الوصل
- (2) وهناك تجانس آخر بين المقطع الأول والخامس في اعتماد الأول على اللام والخامس على الميم فكلاهما صوت متوسط مجهور - ذولقي. واعتماد كل منها على الحركة الطويلة الأمامية المتسعة المفتوحة
- (3) وهناك تجانس آخر أيضا بين المقطع الثاني والسادس حيث اعتمد كل منها عن صوت العين مسبقا بسابقة صرفية (من حروف المضارع) أع، تَع.
- (4) أما بين الثالث والسابع فتطابق تام (ب)
- (5) وكذلك اعتمد المقطع الرابع والثامن على صوت مشترك هو الدال المضمومة.
- فكان بين المقاطع كلها، على هذا النحو، تجانس استهلاكي من ناحية وتخالف مبعثه المراوحة بين المقاطع على نحو ما رأينا وهذا هو سر التأثير الذي نحسه ولا تدركه العين المجردة<sup>1</sup>.

- 1- لا ← مفتوح متوسط
- 2- أَع ← مغلق متوسط
- 3- بُ ← مفتوح قصير
- 4- دُ ← مفتوح قصير
- 5- مَا ← مفتوح متوسط
- 6- تَع ← مغلق متوسط
- 7- ب ← مفتوح قصير
- 8- دُون ← مغلق طويل
- 8- دُو ← مفتوح متوسط
- 9- ن ← مفتوح قصير

1- أنظر: المرجع السابق ص 53، 52.

هذا بالإضافة إلى ما نجده بين النسيج المقطعي للآية من تداخل في تناسق من حيث الكم والنوع، والكيف: كم المقطع ونوعه وكم الصامت ونوعه ونوع المقطع ما بين منغلق ومنفتح.

فمن حيث كم المقطع نجد أن الآية تشمل على مقطعين متوسطين يليهما مقطعان قصيران، فمقطعان متوسطان فيتحقق اتساق في التقابل العددي، وتخالف في التعاقب، ثم يلي ذلك مقطع قصير فطويل تختم به الآية ذات النغمة التقريرية الهابطة.

أما نوع المقطع من حيث الانغلاق والانفتاح فنجد أن الآية تبدأ بمقطع مفتوح يعقبه مقطع مغلق كما تختم بنفس النوع الذي بدت به مفتوح فمغلق.

و من ناحية أخرى نجد أن عدد المقاطع التي اعتمدت على الحركة الخلفية الضيقة ( أي الضمة) أربعة وهي على التوالي: بـ- دُ- بـ- دُ .

وأنت تلاحظ اتحادا في تخالف بين الترتيب والنوع، فبالإضافة للتراوح بين الكم والنوع والكيف هو نفس الصوت.

أما عدد المقاطع المعتمدة على الحركة الأمامية المتسعة (و هي الفتحة بنوعها) ما بين قصيرة وطويلة، فهي ثلاثة على التوالي: لآ- ما- ن .

فمع اتحاد الحركة فإن هناك تقاربا في الصوت الأساسي في المقاطع الثلاثة وهو: اللام والميم والنون .

أما عدد المقاطع المغلقة فاثنتان هما: أع- تع وهما متحدان في الكم ونوع الصوت الأساسي.<sup>1</sup>

ويواصل على نفس المنوال مع بقية الآيات الثالثة والرابعة والخامسة فالآية الثالثة: (وهي الآية الخامسة أيضا).

1- أنظر: السابق ص 53- 55 .

- |                                  |                      |
|----------------------------------|----------------------|
| 9- مَا ← متوسط مفتوح             | 1- و ← قصير مفتوح    |
| 10- أَغ ← متوسط مغلق             | 2- لَا ← متوسط مفتوح |
| 11- بُ ← قصير مفتوح              | 3- أَنْ ← متوسط مغلق |
| 12- دُ ← قصير مفتوح في الوصل فقط | 4- تُم ← متوسط مغلق  |
| 11- بُد ← متوسط مغلق (في الوقف)  | 5- عَا ← متوسط مفتوح |
|                                  | 6- ب ← قصير مفتوح    |
|                                  | 7- دو ← متوسط مفتوح  |
|                                  | 8- ن ← قصير مفتوح    |

والآية السادسة وهي الأخيرة:

- |                              |                      |
|------------------------------|----------------------|
| 1- ل ← قصير مفتوح            | 1- و ← قصير مفتوح    |
| 2- كُم ← متوسط مغلق          | 2- لَا ← متوسط مفتوح |
| 3- دِي ← متوسط مفتوح         | 3- أ ← قصير مفتوح    |
| 4- نُ ← قصير مفتوح           | 4- نَا ← متوسط مفتوح |
| 5- كُم ← متوسط مغلق          | 5- عَا ← متوسط مفتوح |
| 6- و ← قصير مفتوح            | 6- ب ← قصير مفتوح    |
| 7- ل ← قصير مفتوح            | 7- دُن ← متوسط مغلق  |
| 8- ي ← قصير مفتوح            | 8- مَا ← متوسط مفتوح |
| 9- دِي ← متوسط مفتوح         | 9- عَا ← قصير مفتوح  |
| 10- ن ← قصير متوسط           | 10- بَد ← متوسط مغلق |
| 9- دِين ← طويل مغلق في الوقف | 11- تُم ← متوسط مغلق |

والآية الرابعة:

وهو في كل مرة يشير إلى قوة الانسجام والترابط بين مقاطع كل آية والمنبثق من التراوح بين التجانس والتخالف.

كما يعلق على التركيب والبناء وطرح البدائل في كل آية مستشرفاً قمة الإعجاز وعظمة القرآن فنراه يقول مثلاً: « وتتجلى عظمة البناء القرآني هنا من طرح البدائل الكثيرة التي يكشف عنها النظام التحويلي التوليدي من اللغة، والتي يمكن أن تتلاءم مع طبيعة الموقف في هذه الحالة. ومع هؤلاء النفر الذين هم سادة قريش ...

و البناء القرآني هنا يفوق كلَّ بديل من حيث تحقيقه ما هدف إليه. يتضح ذلك في عناصر البناء المختلفة ما بين عنصر اختيار، وموقعية ومطابقة وإصاق وكل ما يتصل بالأصل الاشتقائي سواء في الصوائت أو الصوامت ونوع الحركة عامة، والحركة الإعرابية .. واتساقها مع بقية العناصر المختلفة للبناء الذي لا تبين الدلالة إلا من بعد تمامه.<sup>1</sup>»

فمثلاً اختيار الوحدة اللغوية (قل) وهي صيغة مورفولوجية ذات دَوْرٍ صرفيٍّ مؤلفة من مقطع صوتي متوسط مغلق، لها أثرها على امتداد التراكيب حتى نهاية النص القرآني، لارتباطها الوثيق بالقول (قل).

و يستمر على هذا النحو حتى يبلغ آخر آية في السورة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَدِينُ اللَّهِ﴾ التي هي امتداد لـ (قل) في مطلع السورة.

فالبناء القرآني فيها يفوق كل بديل في إيجاز شديد، في أقل وحدات لغوية ودقة موقعية ليبلغ ما هدف إليه في قرار حاسم خلاصته ومؤداه « أن لهم دينهم الذي ارتضوه، وأن للرسول دينه الذي بعثه الله به »<sup>2</sup>.

كما يشير إليك نظام ترتيب الآية إلى وجهٍ من الأدب الرباني للمؤمنين « حيث يعلمنا الله في آداب الحديث كيف نقدم غيرنا علينا حتى وإن كان عدونا، ولن يتَّبَع ديننا أبداً، فالقرآن يختم السورة بِـ ( لَكُمْ ) ويقدمها على ( لي )، فإنه يقدمهم ولهم ما

1- ظواهر قرآنية. ص 48، 49 .

2- المرجع نفسه. ص 66.

يشاءون من دين ﴿ ولن يضرؤا الله شيئاً ﴾ ويؤخر (ولي يدين ) وهو الحق والنور ..  
ففي لغة التأديب الاجتماعي الرباني .. يأتي البناء على هذه الصورة:

( لكم دينكم ولي دين ) حاسماً منه قاطعاً معهم حوارهم الذي عرضوه وبدأوا  
الرسول به <sup>1</sup> «

و بعد هذه الوقوف على أسلوب السورة وما يحمل من مضامين بصحبة نخبة  
من القدماء والمحدثين، لا يسعنا إلا تقديم خلاصة لتلك الوقفات وشيء من النظر في  
الآيات .

### خلاصة حول سورة الكافرون

إن لوقع التكرار الذي يتردد صداه في أرجاء السورة، أثراً واضحاً في تلوين جوها  
العام، حتى إنك لتشعر وكأن السورة تكرر لأصوات، وترديد لكلمات، وإعادة  
لعبارات، ولا تُتَجَاوَزُ. فيتناغم هذا الترديد مع صلابة الموقف الذي تحكيه السورة وتجهر  
به: من إصرار لا يلين، وثبات لا يريم، وحسم لكل مطمع فيه، وتأسيس لهم مما أرادوه  
منه . وهذا الجو الذي أثاره ما تكرر من أصوات وألفاظ حتى اصطبغت به السورة،  
ترديد متواصل يحاكي حال المصرّ على المبدأ أو الفكرة . فجميع ما تكرر من الملفوظ فيها  
موصول بقطب المعنى المتمثل في التمسك بالتوحيد ونبد الكفر والبراءة من الشرك، وهو  
سرُّ تَبَوُّءِ هذه السورة المقام الأسنى، والسنام الأعلى بين السور فسميت سورة البراءة  
الصغرى . فقد أوصى رسول الله ﷺ ذلك الذي جاءه يسأله أن يعلمه شيئاً يقوله عند  
منامه فقال له: « إذا أخذت مضجعتك فاقراً ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ثم نم على خاتمتها،  
براءة من الشرك <sup>2</sup> « حيث الإصرار يبلغ آخر مطاف كل يوم إلى غاية إطباق الأجفان  
عليه.

1- المرجع نفسه. ص 67.

2- التفسير الكبير - ابن تيمية 7 / 58 وانظر: القرطبي 20 / 225.

وقال عنها ابن عباس رضي الله عنهما: « ليس في القرآن أشد غيظاً لإبليس منها، لأنها توحيد وبراءة من الشرك »<sup>1</sup>.

وهي إحدى المُشَقِّشَتَيْن؛ إذ روى قتادة أنها كانت تسمى "المُشَقِّشَةُ" لأنها تبرئ صاحبها من الشرك والنفاق<sup>2</sup>.

وتعدل ربع القرآن وقيل ثلثه، وهي تتلى كل يوم في مفتتح الصلاة في رغبة الفجر وفي محتمتها في سنة الوتر.. وقيل من أسماؤها أيضاً سورة "الإخلاص" ولا عجب فهما المُشَقِّشَتَان، وجمع بينهما في القراءة في الفجر وسنة الوتر وركعتي الطواف والضحي وسنة المغرب وصبح المسافر ومغرب ليلة الجمعة<sup>3</sup>.

وذاك الإصرار والثبات يتجلى أيضاً في تكرار نفي العبادة عنه وعنهم، كل حسب وجهته، إلا أن نفي العبادة الحققة عنهم في الماضي ونفيها عنهم في الحال ظاهر وجيه، وموقفه منهم يدل على تشبث وثبات وهو شبيه ببراءة إبراهيم عليه السلام مما يعبد قومه ومما عبدوه هم وآباؤهم الأقدمون:

- ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ الشعراء .77

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ أَتُمُّوا مَا يَعْبُدُونَ﴾ الزخرف 36.

- ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَتُمِّبُونَ بَرِيءًا مِمَّا تَشْرِكُونَ﴾ الأنعام 78.

لكن أن يتبرأ مما سيعبدونه في المستقبل أيضاً على إطلاقه فأمر غيبي لا تقتحم أسواره، فما يدرية أن يسلم هؤلاء في المستقبل؟ فيعبدون ما يعبد، ويكون حينها هو أيضاً يعبد ما يعبدون، وهو الذي خاطبه الله: ﴿قُلْ لَا أَدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾؟

1- القرطبي 20 / 225 (المصدر نفسه).

2- أنظر: التفسير الكبير 7 / 57، والقرطبي 20 / 225.

3- أنظر: المطالب العالية في زوائد المسانيد الثمانية. ابن حجر 3 / 399. وانظر: هامش أسرار ترتيب القرآن للسيوطي 172.

ولكنه مع كل ذلك قد قصد هذا المعنى الحرج على وجه التحدي والتعجيز ثقة بربه، وتصديقا لكتابه الذي أمره أن يبلغ: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ وعندئذ يصبح الخطاب خاصا بالموجه إليهم<sup>1</sup> مباشرة، على اعتبار "ال" في (الكافرون) عهدية مثلما ذكر المهدي عن قال: «الألف واللام ترجع إلى معهود وإن كانت للجنس حيث كانت صفة لأنّ لاهما مخاطبة لمن سبق في علم الله أن يموت كافرا، فهي من الخصوص الذي جاء بلفظ العموم»<sup>2</sup>.

واعتبار العموم في اللفظ هنا، بِجَمَلِ "أل" على الجنس لا يَنْقُضُ المعنى السالف ولا يُفْسِدُهُ، إذ يَصْبِحُ الْخَطَابُ «لجنس الكفار وإن أسلموا فيما بعد، فهو خطاب لهم ما داموا كُفَّارًا، فإذا أسلموا لم يتناولهم ذَلِكَ، فَإِنَّهُمْ حِينَئِذٍ مُؤْمِنُونَ، لا كَافِرُونَ»<sup>3</sup> فهو خطاب لهم ما داموا مُتَّصِفِينَ بهذه الصفة فكل كافر لا يعبد ما يعبده محمدٌ، ما دام كافرًا قطعًا.. غير أن هذا التفسير باعتبار اللام جنسية لا يحمل تحديًا لهم بأنهم لا يسلمون في المستقبل. فيبقى ذلك رَهِينِ المشيئة الربانية.

وبدا لي بعد التأمل في النفي الذي تكرر في السورة أن هناك تغيرا بين النفيين: نَفْيِ تَحْوُلِهِ إِلَى عِبَادَتِهِمْ، وَنَفْيِ تَحْوُلِهِمْ إِلَى عِبَادَتِهِ.

حيث نفي تحوُّله هو عن عبادته إلى عبادتهم مرتين:

- ﴿لا أعبد ما تعبدون (2)﴾

- ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم (4)﴾.

كما نفي تحوُّلهم هم عن عبادتهم إلى عبادته مرتين أيضا:

- ﴿ولا اتم عابدون ما أعبد (3) و(5)﴾

ولكنه غير بين صور النفي في العبارة، مما ترتبت عليه فروق في اللقط والمعنى

1- ذكر من هؤلاء: أبو جهل وعتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب وأمّية بن خلف وأبي بن خلف. أنظر: التفسير الكبير 60/7. والبحر المحيط 10/558.

2- التفسير الكبير 61/7.

3- المصدر نفسه ص 68.

- فتأمل نفيه عن نفسه في الآية الثانية والرابعة:

﴿ لا أعبد ما تعبدون (2) ﴾ و ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم (4) ﴾

فظاهرهما أنهما بمعنى واحد مع تقارب في المبنى .

لكن أنظر تجد الآية الأولى فيها النفي بالجملة الفعلية، بينما تجده في الثانية بالجملة الاسمية .

و كذلك صلة الموصول في الأولى فعلها مضارع ( ما تعبدون )، بينما الثانية فعلها ماض ( ما عبدتم ) .

وعلى هذا يكون المعنى في العبارة الأولى: ( لا أعبد ما تعبدون ) أنه نفي عن نفسه أن يعبد في المستقبل ما يعبدونه الآن ..

و في العبارة الثانية ( ولا أنا عابد ما عبدتم ) نفي عن نفسه نفيًا ثابتًا بالجملة الاسمية، أن يعبد في المستقبل ما عبدوه في الماضي، حيث يُوحى ظاهر اللفظ أن هؤلاء الكافرين قد تخلَّوا عما كانوا يعبدون فأصبحت عبادتهم في حكاية الماضي ( ما عبدتم ) وأنه وَصِفَ زال عنهم وتحولوا عنه، وإن لم يحضُلْ هذا الأمر، فقد حسمته الآية التي قبله ( ولا أتم عابدون ما عبدتم ) والآية التي بعده ( ولا أتم عابدون ما أعبد ) التي أكدت أنهم ليسوا بفاعلين .

وفي هذا التعبير إيغال « في ثبات الموقف وصلابته، وحسم » للإطماع في التحلل عن الموقف:

ذلك أن ( ما عبدتم ) توحى أن القوم المخاطبين تحولوا عن عبادتهم وباينوها وصارت ماضيا، فهم وإن تُصَوِّرَ انتقالهم إلى عبادته، أو قُدِّرَ ذلك منهم ..فهو لا يُتَّصَرَّفُ مِنْهُ أن يعبد ما عبدوه مجاملة أو مصانعة حتى وإن استجابوا لعبادته التي يدعو إليها، لأن الأمر مختلف فليأسوا منه في هذه القضية، وكذلك توحى الآية ( ولا أنا عابد ما عبدتم ) أنه لا يشاركهم في ما عبدوه .. أمَّا إن تحوَّلوا إلى ما يعبد هو فإن منطوق الآية لا يَنْفِي أن يعبد ما يعبدون في المستقبل، لأنهم إن أذعنوا وآمنوا فسيعبد هو ما يعبدون حتما. وإن كانوا حينئذ في الحقيقة تَبَعًا له لا تابعا لهم.

فالأية بهذا المعنى يَصِحُّ تعميمها ومخاطبة سائر الكفار بها، بخلاف الآية التي قبلها، والتي بعدها فهي خاصة في نفر معيّن قد استئيس منهم على غرار قول الله عز وجل لنوح عليه السلام:

﴿ إِنَّهُ لَن يُؤْمِنُ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَد آمَنَ ﴾ هود / 36.

أما نفيه لتحويلهم عن عبادتهم إلى ما يعبد هو فتكرر لفظًا ومعنىً تفصل بينهما الآية السابقة وترتبط بهما كما ألمعنا آنفًا.

وإذا كان الموقف الأول يبرز مدى الإصرار على المبدأ، فإن في تكرار ما يتعلق بموقفهم في المستقبل تحديًا كبيرًا جريئًا يعكس مدى ثقته ﷺ بما يلقي عليه من آيات ربه الصريحة المصدّرة هنا بـ (قُل) حيث بادروهم متحديًا بما يستفز الخصم، وكرره مؤكدًا، ومع ذلك لم يجرؤ احد منهم على المخالفة والتحدي وتكذيب الآيات، والله غالب على أمره، وله الأمر من قبل ومن بعد.

وكان لتكرار الآية الثالثة وقعًا بالغًا في ذلك الموقف حتى عدَّ ما كُرِّرَ هو الحاسم في مصير أولئك، قال ابن عطية: « ثم جاء قوله تعالى ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ الثاني حتمًا عليهم إنهم لا يؤمنون به أبدًا، كالذي يكشف الغيب <sup>1</sup> »

ففرق بين الجملتين المكررتين بزيادة معنى هو هنا إفادة الأخبار عن الغيب وتوكيده .

وهناك من ذهب إلى أن كلّ جملة تقيّد بزمان مغاير لزمان سابقتها، وفرق أبو مسلم بين الجملتين بالتفريق بين معنى (ما) فيها، فجعله في الأولى والثانية بمعنى (الذي)، وفي الثالثة والرابعة من باب (ما) المصدرية <sup>2</sup>.

ومما يلاحظ من اختلاف في العبارة وتنوع في الخطاب فضلًا عما سبق بيانه، تقديم قسمهم ونصيبهم على قسمه ونصيبه في آخر السورة:

1- البحر المحيط 10 / 559.

2- أنظر: المصدر نفسه.

(لكم دينكم ولي دين) ؛ بينما قدم ما يختص به على ما يختص بهم في أول السورة (لا أعبد ما تعبدون) أولا ثم (و لا أتم عابدون ما أعبد) ثانيا .

و لقد أحسن ابن القيم في بيان سر هذا التقديم والتأخير، والذي لخصه في: « أن مقصودَ السورة براءته ﷺ من دينهم ومعبودهم، هذا هو لبها ومغزاها، وجاء ذكر براءتهم من دينه ومعبوده بالقصد الثاني، مكملًا لبراءته ومحققًا لها، فلما كان المقصود براءته من دينهم بدا به في أول السورة، ثم جاء قوله (لكم دينكم) مطابقًا لهذا المعنى، أي لا أشارككم في دينكم ولا أوافقكم عليه ... فطابق آخر السورة أولها »<sup>1</sup>.

ولعل هذا من أسرار المناسبة في إيراد النفي في حقهم باسم الفاعل وفي جهته جاء بالفعل تارة وباسم الفاعل أخرى . فجاء النفي في حقه بصيغة الفعل الدالة على الحدث والتجدد، وبصيغة اسم الفاعل الدالة على الوصف واللزوم ؛ فكأنه قال: عبادة غير الله لا تكون فعلا لي ولا وصفا لي . وأما في حقهم فأتى بالاسم الدال على الوصف والثبوت دون الفعل فنفي عنهم الوصف الثابت اللازم، ولم ينف عنهم الفعل لوقوعه منهم في بعض الأحيان، ونفي الوصف ؛ لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتا على عبادة الله موصوفا بها ؛ ذلك أنه لا يوصف بأنه عابد لله حقا إلا من انقطع بكليته إليه ولم يلتفت إلى غيره فلم يشرك به أحدا.

وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة الجليلة، التي هي إحدى سورتي الإخلاص<sup>2</sup>

ويتفرع عن هذا المعنى أنه أثبت الكفر في حقهم بلفظ (يا أيها الكافرون) دون (يا أيها الذين كفروا) للدلالة على الوصف الثابت اللازم الذي لا يفارق أصحابه. ويكون إثبات الوصف لهم بـ (الكافرون) ونفي الوصف عنهم بـ (و لا أتم عابدون) في غاية المناسبة.

1- بدائع التفسير. لابن القيم 5/ 353، 354.

2- أنظر: بدائع التفسير 5/ 350، 351 .

و هذا التناسب بين المفتوح وواسطة السورة نجده يتوثق ويتوغل حتى يبلغ نهاية السورة فنشهد تعاقب المفتوح والمختتم حتى ليُخَيَّلُ إليك أن وصلهما إجمالاً للسورة، و خلاصة للغاية التي آل إليها الحوار فتأمل:

﴿ قل يا أيها الكافرون (1) .. لكم دينكم ولي دين (6) ﴾ وأن ما بينهما تفصيل وبيان ؛ بمثابة الجملة الاعتراضية التي جاءت لتفسير وتوكيد ما أجمل في المطلع والختام. والملاحظ بعد ذلك كله أنه على الرغم من تأسس السورة على عبارات وألفاظ مكررة أنشئت من مادة واحدة: أعبد - تعبدون - عابدون - اعبد - عابد - عبدتم - عابدون - اعبد . جاءت في غاية التنوع والتصرف.

فهل هناك بعد هذا، إعجاز أبلغ من هذا الإعجاز في البيان وثبات المواقف وتعاقب المطالع والأوساط والختام فضلاً عن الكشف عن حجب الغيب . وإخراج التكرار في ثوب الإيجاز الذي لا يدرك إلا بعمق الفهم ودقة الفقه، وأنه ليصدق عليه ما أورده تاج القراء الكرمانى حول هذه السورة ؛ حين يقول:

« هذا التكرار اختصار، وهو إعجاز؛ لأن الله نفى عن نبيه عبادة الأصنام في الماضي والحال والاستقبال، ونفى عن الكفار المذكورين عبادة الله في الأزمنة الثلاثة أيضاً، فاقضى القياس تكرار هذه اللفظة ست مرات»<sup>1</sup>.

ويتجلى في التقديم والتأخير في أول السورة وفي آخرها أدب الخطاب وفن الحوار، حين قدم موقفه على موقفهم في المنطلق ليكشف لهم عن نفسه سافرة كوضوح الشمس في راد الضحى، لا مؤاربة ولا التواء.

وفي ختام الحوار سجّل موقفهم أولاً ثم، موقفه ثانياً، إنصافاً لهم في الخطاب. كما أن هذا الترتيب يتناغم من جهة أخرى مع ثبات المبدأ، فهذا هو موقفه أولاً و آخراً ؛ فأولُهُ (لا أعبد ما تعبدون) و آخره (ولي دين).

1- أسرار التكرار في القرآن. الكرمانى. ص 226.

إننا إذا رجعنا إلى تلك الدراسات الحديثة متأملين أثرها في دراسة النص القرآني من خلال تناول سورة الكافرون وجدناها لا تُغني عن الدراسات القديمة تفسيراً وتأويلاً، فضلاً عن أن تكون عنها بديلاً.

فإذا رجعنا مثلاً إلى ما أفاض فيه الدكتور البدراوي في تحليل المركب الصوتي في السورة الذي يجعله سر تأثير القرآن الكريم على السامعين وإن لم يدركوا كنهه، ويرجعه إلى المراوحة بين التجانس والتخالف في المقاطع الصوتية، وكأني به يكشف اللثام عن مَكْمَنِ سِحْرِ البَيَانِ وَطُلَاوَتِهِ التي عبر عنها الوليد بن المغيرة ولم يدر مصدر انْبِعَاثِهَا في مقاله المشهورة: « وَإِنَّ لَهُ لِحَلَاوَةً وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطُلَاوَةٌ ».

لكن هذا جانب واحد من جوانب كثيرة في السورة، لا يغني كثيراً في بلوغ مرامي السورة وأغراضها؛ إذ هو أمر يتعلق بالألفاظ وجرسها، ووقع أصواتها، وإيقاع مقاطعها أكثر من ارتباطه بالدلالات والمضامين.

فنحن إذا نظرنا - مثلاً - إلى المكوّنات الصوتية لآيات السورة، فإننا نجد كما يأتي حسب ورودها فيها:

الأصوات الصامتة خمسة عشر حرفاً هي: ق - ل - ي - أ - ه - ك - ف - ر - ع - ب - د - م - ت - و - ن .

- أما الأصوات الصائتة ( الساكنة ) فعدد ورودها في السورة كالآتي:

- الضمة الطويلة والقصيرة: (15+04)

- الفتحة الطويلة والقصيرة: (21+14)

- الكسرة الطويلة والقصيرة: (04+02)

وقد تكررت الحروف (الصوامت) حسب الترتيب الآتي:

- د: 10 مرات.

- ن: 09 مرات + نون تنوين واحدة. ← - الفتحة الطويلة: 14 مرة

- م: 09 مرات. - الفتحة القصيرة: 21 مرة

- ل: 08 مرات.

- ع: 08 مرات. ← الضمة الطويلة: 04 مرات

- ب: 08 مرات. - الضمة القصيرة: 15 مرة

- أ: 07 مرات.

- و: 04 مرات. ← الكسرة الطويلة: 02 مرتين

- ت: 04 مرات. - الكسرة القصيرة: 04 مرات

- الياء: 03 مرات.

- ك: 03 مرات.

- ق: 01

- هـ: 01

- ف: 01

- ر: 01

مجموع المجهورات 128 {  
- تكررت المجهورات من الصوامت: 68 مرة  
وتكررت الصوائت وهي مجهورة: 60 مرة

بينما تكرر المهموس من الصوامت: 09 مرات فقط.

- وتكررت الأصوات الشديدة: 33 مرة، بينما الرخوة تكررت مرتين فقط (2).

وتكررت المتوسطة 35 مرة وهي من صفات القوة.

- وتكررت أصوات الذلاقة 36 مرة.

وليس للمتدبر في هذا الجانب من السورة إلا أن يردد معي:

ما أعدلها من سورة فقد اشتملت على جملة من أصوات العربية ذات الصفات القوية إلى جانب أصوات ضعيفة والمجهورة إلى جانب أخرى مهموسة، والشديدة والمتوسطة إلى الرخوة ...

وتنوعت المخارج فيها واعتدلت ؛ من أقصى الحلق ووسطه (أ. هـ. ع) فأقصى التجويف الفموي إلى وسطه وأدناه (ق. ك. ل. ن. ر. د ت) فأسناني شفوي إلى شفوي (ف. م. ب.) فهي تمثل جميع أجزاء جهاز النطق.

واشتملت على الصوائت كلها طويلاً وقصيراً وهي من القوة بمكان.

غير أن صفات القوة التي سيطرت على أجواء السورة تُناسِبُ قوة الموقف والجره به. فليس في السورة من الأصوات المهموسة إلا ثلاثة (ك. ف. ت).

إلى جانب أصوات الذلاقة الستة وهن أكثر الأصوات دوراناً في العربية لأنها أخف الأصوات نطقاً، وأجراها على اللسان، وأكثرها في الكلام وأحسنها في البناء وبخاصة في المزيد منه.

وردت هذه الحروف في السورة في تعادل عجيب وتناسق لطيف وهي التي تخرج من مدرجتين: من لسان وشفيتين، فثلاثة منها لثوي من طرف اللسان (ن. ل. ر) وثلاثة منها شفوي (م. ب. ف) تكررت أصوات كل مجموعة منها 18 مرة، وبتعادل في جزئيات هذا العدد أيضاً، على هذه الصورة:

الحروف المذلقة (الذلاقة)	}	النون: 9 مرات صوت أغن.	} اللثوي اللساني
		اللام: 8 مرات.	
		الراء: 1 مرّة واحدة.	
		المجموع: 18 مرة	
		الميم: 9 مرات صوت أغن.	} الشفوي
		الياء: 8 مرات.	
الفاء: 1 مرّة واحدة.			
		المجموع: 18 مرة	

وهو تناسب آخر يسفر عن مدى إنصاف الآخر ولو كان عدوًّا لُدودًا والله أعلم.

وسيجد المتبع في الفصل الموالي مجالاً فسيحاً في تطبيق تلك المسوغات على ألفاظ عديدة وبصور مختلفة.

# الفصل الثاني

إيحاءات بعض الألفاظ

فيما تكرر من العبارات

## 1- إبليس والشيطان:

يلاحظ المتأمل في قصة خلق آدم وإخراجه من الجنة تردد اسم إبليس والشيطان. فينشأ تساؤل عفوي في قرارة نفس المتدبر عن الفرق بين الاسمين إذ لكل لفظ إبحاؤه الدلالي وإشعاعه المعنوي .

وما مناسبة كل من اللفظين لموقعه ؟ علما بأن القرآن يقينا يُراعي مواقع الألفاظ ومواضع الكلم مما يتناسب والمعاني ويلائم المقام .

حملني هذا التدبر على محاولة الوقوف على الفرق بين ذينك الاسمين وتبين مناسبة كل منهما للمحال التي آثرها السياق .

بما أنّ القرآن الكريم فصّلت آياته قرآنا عربيا، بلسان عربي مبين فإنه لا يوصل إلى فقه ألفاظه وأسرار معانيه إلا بالرجوع إلى أصول اللسان العربي الذي هو أساس بنيانه.

كذلك فإن استجلاء الفرق لا يمكن إلا بالرجوع إلى الأصل اللغوي للمادة التي يتألف منها هذان الاسمان: إبليس والشيطان .

و لنبدأ بتحليل الاسم الأول: إبليس .

### إبليس:

وردت هذه اللفظة في القرآن إحدى عشرة مرة في تسع سور<sup>1</sup> جاء في غريب القرآن للسجستاني عن لفظ إبليس: وقال أبو إسحاق: لم ينصرف « ويقال هو اسم أعجمي لا ينصرف »<sup>2</sup> وفي اللسان « لأنه أعجمي معرفة »<sup>3</sup> .

وفي تاج العروس « ... أو هو أعجمي معرفة ولذلك لم ينصرف. قاله أبو إسحاق. قلت ولذا قيل: إنه لا يصح أن يشتق إبليس وإن وافق معنى أبلس لفظا ومعنى »<sup>4</sup>

1- وردت في البقرة: 34 والأعراف: 11 والحجر: 31 و32 والإسراء: 61 والكهف: 50 وطه: 116 والشعراء: 55 وسبأ: 20 وص: 74 و75.

2- كتاب غريب القرآن للسجستاني تحقيق وتقديم محمد أديب عبد الواحد جمران دار قتيبة ط/1، 1995، ص97.

3- لسان العرب- ابن منظور ج 6 / 29 .

4- تاج العروس: للسيد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق مصطفى الحجازي، ط (1) ج 15، ص 464 .

وقال محمد أديب جمران « الجمهور على أن إبليس أعجمي، لذا هو لا ينصرف للعلمية والعجمة » ثم يردُّ على من قال بعربيته فيقول: « لو كان عربياً لانصرف كما ينصرف نظائره نحو: إجفيل وإخريط »<sup>1</sup>.

وقيل لفظ إبليس أعجمي يوناني الأصل من "ديابولس"<sup>2</sup>.

والجزم بأن اسم إبليس أعجمي وأنه قول الجمهور فيه شيء من المبالغة ونقص في التحري.

ففي كتاب المقاييس لابن فارس: بلس أصل واحد: « فالأصل اليأس. تقول: أبلس إذا يئس .. قالوا: ومن ذلك اشتق اسم إبليس، لأنه يئس من رحمة الله »<sup>3</sup>.

وفي غريب السجستاني: « إبليس: إفعال من أبلس أي يئس »<sup>4</sup>

و في مختار الصحاح: « أبلس من رحمة الله أي يئس ومنه سمي إبليس وكان اسمه عزازيل »<sup>5</sup>

وفي لسان العرب: « وأبلس من رحمة الله أي يئس وندم ومنه سمي إبليس وكان اسمه عزازيل .. وإبليس لعنه الله مشتق منه لأنه أبلس من رحمة الله أي أوبس »<sup>6</sup>

وفي تاج العروس: « وقيل أبلس: إذا دهش وتحير قاله ابن عرفة. ومنه اشتق إبليس لعنه الله »<sup>7</sup>.

وفي عدم الإشارة إلى أعجمية هذا الاسم عند التطرق إلى مادته الاشتقاقية في بعض المصادر دليل ضمني على عربيته عندهم كالذي نجد في مقاييس اللغة ومفردات الراغب ومختار الصحاح ومعجم ألفاظ القرآن الكريم وغيرها .

1- كتاب غريب القرآن للسجستاني - هامش ص 97 . [ وهو محقق الكتاب ] .

2- أنظر شواهد في إعجاز القرآن - د/ عودة أبو عودة ط (1) 1998 ص 228 .

3- مقاييس اللغة - ابن فارس - ج 1 ص 300 .

4- كتاب غريب القرآن - للسجستاني ص 97 .

5- مختار الصحاح- للرازي ص 63 .

6- لسان العرب - ابن منظور ج 6 / 29 .

7- تاج العروس للسيد مرتضي - ج 15 / 464 .

وكذلك كثيرا ما نجد المؤلف حينما لا يريد أن يتبنى رأيا قد أورده نجده يعزوه إلى صاحبه كالذي لاحظناه عند ابن منظور.

فإذا نظرنا إلى هذه الأقوال وإلى معاني المادة الاشتقاقية للفظ إبليس وجدنا فيها تلاؤما وتناسبا مع المسمى وجزمنا بعربيته .

و إذا نظرنا إلى الأقوال الأخرى وعلة المنع من الصرف وهي العَلَمِيَّة والعُجْمَة ؛ إذ ورد لفظ إبليس في القرآن الكريم إحدى عشرة مرة ولم يصرف في واحدة منهن .  
حكمتنا بأنه أعجمي غير عربي .

أعجمي وعربي ؟ !

بدا لي - والله أعلم - أن أصل هذه التسمية ليست من وضع العرب ولا اليونان وهي علة مسوَّغة للمنع من الصرف، وإنما سماه الله تعالى إبليس قبل أن تنشأ اللغات فهو موسوم بهذا اللفظ منذ أمر بالسجود لآدم ولم يسجد.

ولهذا فليس من الضروري أن يكون العرب هم الذين أطلقوا هذا الاسم على ذلك المخلوق الذي أبى واستكبر وفسق عن أمر ربه وهم لم يكونوا بعد .

غير أن الله قضى أن يسميه بهذا الاسم ذي الأصول العربية قبل أن تنشأ العربية ليُلائم هذا الاسم لغة كتابه العربي المبين . فكأن المنع من الصرف مع عربية مادته الاشتقاقية في آن واحد، إشارة إلى هذين الأصلين: تاريخ التسمية وأصلها من جهة، وموافقتها للسان العربي من جهة أخرى .

وقد قال ابن عباس رضي الله عنه: « والقرآن ليس فيه لغة غير لغة العرب . وربما وافقت اللغة اللغات . فأما الأصل والجنس فعربي لا يخالطه شيء والقرآن عربي»<sup>1</sup>

1- كتاب غريب القرآن - لعبد الله بن عباس رضي الله عنه - حققه وقدم له الدكتور أحمد بولوط -  
مكتبة الزهراء القاهرة ط (1) 1413 - 1993 - ص 38

بل يروح إلى أكثر من ذلك فيقول: « وما أنزل الله عز وجل من السماء كتابا إلا بالعربية، فكان جبريل عليه السلام يترجم لكل نبي بلسان قومه ليبين لهم . وذلك أن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾<sup>1</sup> .  
و مما يدل على أصالة مادة " بلس " التي يرجع إليها لفظ ( إبليس ) ورودها في القرآن الكريم:

- ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ الأنعام الآية 44 .

- ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ الروم الآية 12 .

- ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ الروم الآية 49 .

- ﴿ لَا يُقْتَرُّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ الزخرف الآية 75 .

قال الراغب: « الإبلاس: شدة الحزن المعترض من شدة اليأس »<sup>2</sup> .

« قيل: أبلس فلان إذا سكت وإذا انقطعت حجته »<sup>3</sup> .

وفي تاج العروس: « أبلس الرجل من رحمة الله يئس، وفي حجته: انقطع وقيل: أبلس: إذا دهش وتحير قاله ابن عرفة »<sup>4</sup> ، وجاء في معجم ألفاظ القرآن الكريم عن مادة " ألبس " .

« تأتي المادة لمعاني متقاربة متلازمة منها: حزن وتحير، ويئس وسكت غما وانقطع في حجته »<sup>5</sup> .

1- المصدر نفسه ص 37 .

2- معجم مفردات ألفاظ القرآن - للراغب الأصفهاني ص 58 .

3- المصدر نفسه .

4- تاج العروس ج4/15 .

5- معجم ألفاظ القرآن الكريم- مجمع اللغة العربية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر: ط 1390 - 1970 المجلد الأول ص: 123 .

فالمعاني التي تدور حولها مادة أبلس هي القنوط وقطع الرجاء والحزن والوجوم غما وغيظا، ودهشة وتحيرا وتلك الأوصاف كلها ملازمة لإبليس يرتديها شعارا لا يفارقه فهو اليأس من رحمة الله، الواجم الذي ضلت حجته وتحير دليله وانقطع بيانه.

و بهذا يكون اسم " إبليس " اسما على مسمى وهو الاسم الحقيقي الذي يُعرَف به بين المخلوقات ويُنادى به: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ الحجر الآية 32.

وهذه الصفات الإبلسية هي الباعث له على الانتقام وإبرار قسمه ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

### الشيطان:

أما اسم الشيطان فهو إما على وزن فَعْلان ممن جعل نونه غير أصلية من الفعل: شاط - يشيط - إذا احترق غضبا قاله الزهري .

و إما على وزن فَيَعَال فيمن جعل النون أصلية لثبوتها في الجمع، من الفعل: شَطَنَ، وهو أولى الأصلين إذ هو أوسعها تصرفا في الدلالة والاشتقاق وأنسبها للمعاني الشيطانية، حيث يلاحظ المتأمل فيها المعاني الآتية:

« شطن (صاحبه) يشطنه شطنا: خالفه عن نيته ووجهه، وشطن ( في الأرض) شطونا: دخل إما راسخا وإما واغلا. وبئر شَطُون: بعيدة القعر.. »<sup>1</sup>

و الشَّاطِن: الخبيث . قال أمية بن أبي الصلت:

أَيُّمَا شَاطِنٍ عَصَاهُ عَكَاهُ      ثم يُلقَى في السِّجْنِ بالأغلالِ

والشيطان معروف فيقال: من شَطَن: إذا بَعُد<sup>2</sup> .

وذلك أنهم يقولون: « الشَّاطِن بعيدٌ عن الحق »<sup>3</sup> .

1- تاج العروس - ج 35 ص 277 .

2- المصدر نفسه- ج 35 ص 278 .

3- المصدر نفسه- ج 35 ص 280 .

وقال أبو عبيدة: « الشيطان كلُّ عاتٍ متمرد من جنٍّ أو إنسٍ أو دابة...»<sup>1</sup> .  
قال الشاعر: « لو أن شيطان الذئب العسل »<sup>2</sup> .

وأطلق لفظ الشيطان على كلٍ بشعٍ قبيحٍ متناهي البشاعة فقالوا:  
ما ليلة الفقير إلا شيطان  
وشيطانُ الفلا: العطش<sup>3</sup> .

و وصف الله عز وجل شجرة الزقوم:

- ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ الصافات الآية 65 .

كما سمي كلُّ خلقٍ ذميمٍ شيطانا . قال عليه الصلاة والسلام: « الحسدُ شيطان  
والغضب شيطان »<sup>4</sup> .

و توسعوا فأطلقوا هذا الاسم على كلٍ قبيحٍ مستبشعٍ لا يحتمل .

فهذه الصفات وتلك المعاني تجدها مجتمعة في شخص الشيطان حتى صار  
الشيطان كالأصل لها فقالوا: « شيطان وتشتيطن أي صار كالشيطان وفَعَلَ فِعْلَهُ »<sup>5</sup> .  
ونراهم إذا خصصوا هذا الاسم أرادوا به إبليس وذريته فقالوا: « الشيطان  
مخلوق خبيث لا يرى، يغري بالفساد والشر »<sup>6</sup> .

وإذا عمّموه أطلقوه على « كلِّ عاتٍ متمرد من الإنس والجن والحيوان »<sup>7</sup> .

يظهر لي أن أسماء هذا المخلوق الذي اقترن ذكره بخلق آدم ومصير ذريته، قد  
رُوعي فيها التناسب مع المواضع التي وردت فيها هذه الأسماء وفق الأحداث

1- المصدر نفسه- ج 35 ص 278 وانظر: معجم مفردات القرآن - للراغب ص 268.

2- مفردات الراغب ص 268 .

3- تاج العروس ج35 / 280 قاله الصاغاني .

4- معجم مفردات القرآن - الراغب ص 268 .

5- تاج العروس ج 35 ص 279 .

6- معجم ألفاظ القرآن الكريم ج2 ص 20 .

7- المصدر نفسه ج 2 ص 20 وأنظر مفردات الراغب ص 268 .

والتحولات في حياة إبليس . فمن مخلوق طائع تبوأ مكانة عالية حين كان يرافق الملائكة ويشهد معهم المشاهد الجليلة في شرف وعز فقد قيل كان اسمه قبل الابتلاء بالسجود عزازيل<sup>1</sup> ... ثم إلى خلق آخر يطلق عليه اسم إبليس حين امتنع عن السجود لآدم تكبرا واحتقارا وحسدا، لتكريم آدم وتفضيله عليه:

- ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ البقرة الآية 34 .

- ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ الإسراء الآية 61 .

- ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لِنِ اسْخَرْتَنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَخْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الإسراء الآية 62 .

منذ ذلك الحادث أخرج من الجنة وطرد من رحمة الله فأبلس وصار رجيا لعينا مذبذوبا محقرا ممقوتا وهذه الصفات الإبلسية خاصة بالأب الأول للشياطين، لأنه عاش الأحداث بكل تفاصيلها وخص بذلك الاسم دون أبنائه:

- ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿۳۵﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ الحجر الآية 34/35

- ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿۷۸﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ص الآية 77/78

- ﴿ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ الأعراف الآية 13

- ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَدْخُورًا ﴾ الأعراف الآية 18

وهذا الإبلاس والإفلاس استفز إبليس وأثار فيه الانتقام فأوعد وأقسم بالأيمان المغلظة:

- ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ص الآية 82 .

1- انظر تاج العروس ج15 ص 464 . ولسان العرب ج6 ص 29 .

- ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الأعراف الآية 16.

- ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ النساء الآية 118 .

و تولدت عن هذا الشعور سائر الأعمال الشيطانية وورثها عنه ذريته وأتباعه وأصبحت وصفا عاما ملازما لهم بكل ما يحمل من وسوسة وتزيين وإغواء ووعود مكذوبة ونصيحة مدخولة ... وكان أول ضحاياه آدم عليه السلام:

- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ طه الآية 120 .

- ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ الأعراف الآية 20 .

- ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ﴿فَدَلَاهُمَا بِغُرُورٍ...﴾ الأعراف الآية 21 / 22.

وأصبح هذا الإغواء والكيد دأبه وفعله لا يكلُّ ولا يملُّ وصار العدو المبين لذرية آدم من خروجهم من الأصلاب إلى المواراة في التراب<sup>1</sup> .

غير أن ربنا الكريم كشف لنا خبيث نواياه، وما دبره وطواه تماما مثلما كشف منه لآدم من قبل: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ طه الآية 117.

فبين لذرية آدم حقيقته بالبرهان العملي، والواقع الفعلي.

- ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ الأعراف الآية 27.

لما استحكمت فيه الصفات الشيطانية وترسخت، تأصلت وأصبحت جبلةً، فالأيتواني في الإغواء حتى لا ينجو من حباله أحد إلا من اجتباه ربُّه وأخلصه:

1- إشارة إلى مشاركته في الأولاد ﴿اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا﴾ وإلى ما يقوله

الشيطان لأعوانه عند احتضار ابن آدم: دونكم هذا فإنه إن فاتكم لن تظفروا به أبدا لأن الشيطان أشد ما يكون على ابن آدم حين الموت. رسائل ابن تيمية. ص 224 .

- ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿۳۹﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿۴۰﴾ الحجر الآية 39 - 40 .

- ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿۳۶﴾ ثُمَّ لَأَنْتَبِهَنَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿۳۷﴾ الأعراف الآية 17/16 .

- ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿۳۸﴾﴾ فما أنت ترى إبليس يسأل الله متوسلا بعزة الله التي لا تضام أن لا يحول بينه وبين بني آدم فأعطاه الله ذلك بعد أن فضح أمره، وحذر من كيدته وجعل تمكينه منهم بلاء وامتحاناً:

- ﴿ وَاسْتَفْزِرْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بِخَيْبِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿۶۴﴾﴾ الإسراء الآية 64 .

ومن رحمة الله بخلقه ولطفه بهم أن جعل كيدته في تباب وسعيه في خسارة حين قصم ظهره بالاستغفار وأحبط مكره بالتوبة، وأعظم منة من كل ذلك أنه لم يجعل للشيطان سبيلاً على الجهة الفوقية، قال قتادة:

أتاك الشيطان يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله.

لا يغيب عن المتبع الحصيف لما أوردنا، أن التسمية بإبليس تختلف عن التسمية بالشيطان، إذ لكل اسم منها ظلاله الدلالية، ونبراته الإيقاعية . ففضلاً عن كون إبليس اسماً علماً عليه فإنه يتضمن - أيضاً- معاني الإبلاس في اللسان العربي وهي مجتمعة فيه. وكذلك اسم الشيطان مشحون بمعاني الإغواء والإضلال.

فاسم إبليس يتضمن وصفاً للحال التي آل إليها بعد عز وطاعة بسبب فسقه عن أمر ربه فعشيتة الحيرة والإفلاس والإبلاس والقنوط والحسرة التي لا تزول، لذلك اقترن هذا الاسم في السابق بقصة سبب الوقوع في هذه الورطة.

بينما للشيطان أوصافٌ تتعلق بأفعاله وسلوكه بعد اليأس حين تمحّص للشر والصد عن الخير. ولذلك تكرر هذا في مقام الحديث عن إغوائه وإضلاله وتزيينه وحبائله التي ينصّبها للإيفاء بوعيده وتحقيق عهوده.

علما بأن لفظ الشيطان أعمّ، يدخل فيه إبليس وذريته وجنوده من شياطين الإنس والجن.

### أطوار مرّ بها إبليس:

ومن خلال ما سبق تحليله نبيّن أن إبليس مرّ في مسيرته مع بني آدم بأربعة أطوار لها أثر في توجيه مساره في الحياة، تناسبت مع أسمائه:

- أولها: قبل خلق آدم بفترة لا نعلم عنها شيئاً إلا ما جاء في بعض الأقوال التي لا ندري ما مدى صحّتها أو ما استُدلّ عليه من فحوى النصوص.

حيث كان إبليس في عز العبادّة يسرح ويمرح في الجنة وقيل كان اسمه عزازيل.

- ثانيها: عند خلق آدم وامتناع إبليس عن السجود حدث تحول جذري حيث طرد من رحمة الله تعالى فأبلس ويئس ورُجم؛ وهذه أوصاف تتعلق بحالته النفسية، فبعد عزّ وسمو صار إلى ذل وصغار ويأس، وهذه يناسبها اسم إبليس كما أنها لا تنطبق في الواقع إلا على الأب الأول الذي وقع له هذا الحادث فصار هذا الاسم علماً عليه دون ذريته وأتباعه ولا نجد هذا الاسم في القرآن إلا مرتباً بقصة السجود التي هي سبب مباشر في الإبلاس، فقد ذكّر إبليس في القرآن إحدى عشرة مرة<sup>1</sup> ورد في تسع منها في سياق الامتناع عن السجود وكلها تتعلق بإبليس الأب لشياطين الجن.

ولم يرد هذا الاسم دون ذكر السجود إلا في موضعين:

### 1- في سورة الشعراء:

- ﴿فَكُفِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٥﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٤﴾﴾ الآية 94/ 95

1- ورد في السور الآتية: البقرة: 34 - الأعراف: 11 - الحجر: 31 و32 - الإسراء: 61 - الكهف: 50

- طه: 116 - الشعراء: 95 - سبأ: 20 - ص: 74 و75

فالجنود هنا ولا شك منسوبون إلى إبليس الأب الأول، الذين هم رَجُلُهُ وَرَكْبُهُ المؤتمرون بأمره وهم الشياطين المتبعون له لأن السياق أراد استقطاب الأتباع فنسبتهم إلى إبليس هذا أبلغ من نسبتهم إلى الشيطان لأنه في مقام استقصاء لأتباع الشيطان المؤتمرين بأمره من أتباع الأب الأول إبليس إلى يوم القيامة لا يغادر منهم أحدا ولا يستثني واحدا ولهذا حَسُنَ توكيده بـ " أجمعون ".  
فإيراد هذا الاسم مناسب لمقامات ثلاثة:

- أ - مقام الإبلاس والإياس والقنوط.....خصوصية الصفة.  
ب - مقام الحديث عن الأب الأول للشياطين.....خصوصية الاسم والنسبة.  
ج - وإذا أريد المقامان السابقان معا .....خصوصية الصفة والنسبة.

## 2- في سورة سبأ:

- ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية 20 .

إن القضية هنا تتعلق بإبليس الأب بالذات حين أقسم لفرط إبلاسه وإفلاسه:

- ﴿ وَالْأَغْوِيَّتَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ الحجر الآية 39 / 40

- ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ الأعراف الآية 17

- ﴿ لَأَخْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الإسراء الآية 62

فما قدره إبليس واعتقده في البرية ظنا لا يقينا قد تحقق من استجابة لدعوته واتباع لخطواته ونكوب عن الصراط المستقيم وصدود عن السبيل القويم، ولم يسلم من كيدته إلا من استثني من المؤمنين.

وقد مكنه الله من تحقيق وعيده لحكم إلهية وأسرار ربانية رحمانية.

- ثالثا: مرحلة الانتقام من آدم وحواء بالكيد والوسوسة ليخرجهما من الجنة لإشقيائهما؛ فبعد الإبلاس استيقن الإفلاس فانطلقت فيه الروح الشيطانية التي هي جماع الشرور وصارت السمّة الغالبة عليه أيما وجهته توجهه وإذا دعته أجاب حتى صارت الأوصاف

الشيطنية اسما له كما هو معلوم من قانون اللغة أن تحلّ الصفة الغالبة محلّ الاسم تنوب عنه.

ولهذا نلاحظ أن الشيطان هو المناسب لسياقات الإغواء والوسوسة والتزيين وغيرها من أعمال الإضلال والإفساد...:

- ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ الأعراف الآية 20
- ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ فَذَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴿ الأعراف الآية 21 و22.
- ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴾ طه الآية 120 .

فما زال به حتى أخرجه من الجنة.

- ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ﴾ الإسراء الآية 53
- ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ يوسف الآية 100 .
- رابعا: وفي هذه المرحلة الأخيرة تتأصل العداوة وتعمق في إبليس وذريته لآدم وبنيه بعد أن تمحّض للأعمال الشيطانية حتى نُسب إليها وهي في الأصل منه. وأصبح اسم الشيطان بعد أن كان علما عليه وصفا لذريته ومن تبعه من الإنس والجن.

ولهذا تُوسّع في استعمال لفظ الشيطان في القرآن الكريم فوردت جمعا وإفرادا ومعرفة ونكرة وبلغت في مجموعها سبعا وثمانين لفظة (87) وهي مُرتبة وفق الكثرة كما يأتي حسب ما أحصيت:

الشيطان: 64 / الشياطين: 16 / شيطان: 4 / شيطانا: 2 مرتين / شياطين: 1 /

شياطينهم: 1 مرة واحدة.

بينما إبليس ورد إحدى عشرة مرة فقط. ليوافق المقامات والمواقف التي تناسبها المعاني الإبلسية.

**الشيطان والسعير:**

ومن باب التناسب في اختيار الألفاظ الموحية بالمعاني الملائمة، مما أوقفنا عليه هذا المبحث، وله صلة وشيجة بإبليس والشياطين، هو اقترانها كثيرا باسم السعير الذي هو أحد أسماء النار الكبرى<sup>1</sup> حيث مستقر الشياطين وأتباعهم وقيل هو دركة من دركاتها.

فاختيار السعير من بين أسماء النار العديدة لما في اسم السعير من زيادة توهج وتوقد توائم توسع الشياطين في الإغواء والإضلال وأضرابهم ممن أسرف على نفسه في اقتحام الكبائر والمنكرات....

ذلك أن السعير اسم من أسماء جهنم وتوصف به حين يشتد عذابها، ويتضاعف لهيبها.

قال الله تعالى:

- ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ التكوير الآية 12 .

- ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ سورة الإسراء الآية 97 .

مما يدل على أن التعبير بالسعير فيه مزيد عقاب، وفضل عذاب:

- ﴿وَكَفَىٰ بِيَجْهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ سورة النساء الآية 55 .

ذلك أن (سعر) النار في اللسان العربي بمعنى: أوقدها وألهبها وأججها وهيجه<sup>2</sup>.

والمتدبر في الآيات الوارد فيها السعير يجدها في مقام شدة التنكيل بالملكذنين والكفرة المجرمين ممن استجاب لدعوة الشياطين:

- ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿الحج الآية 3 / 4 .

- ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ فاطر الآية 6.

- ﴿أُولَٰئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ لقمان الآية 21 .

1- نحو: الجحيم وجهنم والهاوية ولظى وسقر...

2- أنظر مقاييس اللغة ج 3 ص 75، ولسان العرب ج 4 / 365 (مادة سَعَر)

- ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ الملك الآية 05 .

- ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ الفرقان الآية 11.

- ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ القمر الآية 47 .

وقال عن الشياطين<sup>1</sup> الذين سُخِّرُوا لسليمان عليه السلام:

﴿ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ سبأ الآية 12 .

على أنه عذاب الآخرة<sup>2</sup> لا تعذيب سليمان لهم في الدنيا حسب قول أكثر المفسرين<sup>3</sup>

فأنت ترى الجمع بين السعير والشياطين لتناسب ما بينهما، قد يكون في الإفراط والتجاوز غير المحدود الملحوظ في الطرفين هذا في الإحراق والعذاب وهؤلاء في الإغواء والتمرد ... قال أبو حيان عن قوله تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ « أي احتراقا وانهابا .. وهو كناية عن شدة العذاب والعقوبة »<sup>4</sup> .

وكذلك ليناسب دعوة الشياطين الصريحة إلى السعير كما هو واضح في الآيات الثلاثة السابقة<sup>5</sup> .

وكل أولئك مناسب للمعنى اللغوي لمادة ( س ع ر ) التي يقول عنها ابن فارس: « س ع ر أصل واحد يدل على اشتعال وارتقاد وارتفاع »<sup>6</sup> .

على أن هناك معنى آخر لهذه المادة وهو الجنون، إذ تصفُ العرْبُ الناقةَ به فتقول: « " ناقة مسعورة " كأن بها جنونا من سرعتها، كما قيل لها هوجاء »<sup>7</sup> .

1- شياطين الجن - ورد في سبأ ﴿ ومن الجن من يعملون بين .. ﴾ وفي سورة ص الآية 37 ﴿ وَالشَّيَاطِينِ كُلِّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ ﴾ .

2- نسب هذا القول إلى ابن عباس رضي الله عنه، أنظر: البحر المحيط ج 8 ص 528 .

3- وهناك من قال ذلك في الدنيا . أنظر تفسير القرطبي ج 14 ص 271

4- البحر المحيط ج 3 ص 679 .

5- الحج 3 و4، وفاطر 6، ولقمان 21 .

6- مقاييس اللغة - ج 3 / 75 .

7- لسان العرب ج 4 / 366 .

وقال الشاعر:

كأن بها سعرا إذا العيس هزها زميل وإزجاء من السير متعبُ

و بهذا المعنى فسر أبو علي الفارسي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴾ فرأى أن ( سُعْر ) في الآية تعني ( الجنون )، لأنه وصف خاص بحالهم في الدنيا . وعلل رأيه هذا فقال: « لأنهم إذا كانوا في النار لم يكونوا في ضلال، لأنه قد كُشِفَ لهم، وإنما وصف حالهم في الدنيا »<sup>1</sup> .

قلت والأولى بهذا المعنى الآية السابقة عليها في نفس السورة وهي قوله تعالى:

- ﴿ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴾ القمر الآية 24 . لأنه تعبير عن حالهم في الدنيا وقال عنه ابن منظور: " معناه إنا إذا لفي ضلال و جنون " <sup>2</sup> وهو معنى مأثور عن ابن عباس رضي الله عنهما <sup>3</sup> .

قلت حتى وإن أُريد هذا المعنى في الآية التي بعدها:

- ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴾ القمر الآية 47 فليس بالغريب المستنكر أن يكون الجنون وصفا لحال جهنم، ذلك أنها على وجه الحقيقة أو على وجه المجاز إذا رأت أعداء الله يجن جنونها ويتطير شررها، ويعلو شهيقها وزفيرها فتضطرم غضبا وتتميز غيظا عليهم، ولقد جاء هذا الوصف لجهنم في سورتي تبارك الملك، وتبارك الفرقان، ولعل هذا الوصف من بين الوشائج الرابطة بين السورتين ذاتي المطلع المشترك.. ومما يؤكد ما نحن بصدد إثباته هنا هو أن يَرِدَ ذلك الوصف ضمن سياق اشتمل على لفظ السعير أيضا، فضم الصورة واللفظة مقام " واحد " .

ففي سورة الملك: الآية 7 و 8

1- المصدر نفسه .

2- المصدر نفسه .

3- أنظر البحر المحيط ج 10 / 43 .

- ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴾ \* تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴿ وقد سُبقت بالإشارة إلى السعير، فقبلها: ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾

و ألحق بها أيضا مرتين، إذ بعدها: في الآية 10 و 11

- ﴿ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ \* فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِّقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿ .  
وفي سورة الفرقان: الآية 11 و 12

- ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ \* إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا .  
﴿

### من فوائد المبحث:

وفي ختام هذا المبحث رأيت من الجدير أن أُلخص بعض الفوائد العملية التي يمكن أن يُوقف عليها بفضل هذا التمييز اللغوي بين إبليس والشيطان .

1- لقد أتاح لنا التأمل في ذلك معرفة خاصة بعدوّ البشرية عن كذب مَظهرها ومَخبرها، حيث كشفت لنا السياقات خبايا عدونا المبين وأنه وراء كل سلوك مشين، مثلما صرَّح به نبي الله موسى عليه السلام حين وَكَّرَ الرجلَ ففضى عليه:

- ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ القصص الآية 15، وهو موقف من مواقف محاسبة النفس واتهامها والاعتراف بالزلل. حتى يخرج من آفة تبرير الإنسان لأخطائه واستحسان كل ما يبدر منه ويصدر.

غير أن أغلب الناس يصرِّحون بهذه العداوة لكنهم لا يعاملونه على أنه عدو حقا، فتراهم يتبعون خطواته ويصدِّقون وعوده جهلا وغفلة وضعفا .

2- كلما كان الكلام عن فعل إبليس بالخلق من تزيين وإغواء كان المناسب أن يذكر الشيطان، وهو الأعم دلالة، يدخل فيه إبليس ومردة الجن وعتاة الإنس وشواذ الحيوان

والملمهيات عن الذكر والصارفات عن الحق من الأشخاص والأوصاف حتى قال رسول الله ﷺ: «الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب»<sup>1</sup>

حصّ منه ﷺ على الرفقة والاجتماع، لأن الذئب يأكل من الغنم القاصية، والشيطان ذئب الإنس .

(3)- يجب الحذر من معاصي القلوب التي هي إبليسية في أصلها والتيقظ لمعاصي الجوارح والسلوك التي هي شيطانية في نسبتها: فالكبر والحسد والعجب والإباء والعناد يفضي جميعها إلى اليأس والقنوط والكفر: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ البقرة الآية 34.

كما قد ينجرّ على التهوّك في المعاصي والانهماك فيها أن يتحوّل صاحبها إلى شيطان من جنود إبليس قد لا يرجى إصلاحه إذا انسلك في عصائه وبات من أوليائه ولا يصحو من غفلته إلا بعد فوات الأوان حين يعاين ويردد مع المتحسرين:

- ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾  
إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿الشعراء الآيات 95/96/97/98 .

- ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ المؤمنون الآية 106 .

- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ فصلت الآية 29 .

تلك أحوال يدعو بعضها إلى بعض، فالحذر من الزهول عنها أو الاستجابة لداعيها:

- ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنَ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ فاطر الآية 6 .

- ﴿وَإِتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾  
الأعراف 175.

1- غريب الحديث والأثر - لابن الأثير - ج 2 ص 475 .

4- يجب الاهتمام والاعتناء باختيار الأسماء فإن أمرها عظيم، وشأنها خطير في سلوك الفرد وتوجيهه، إذ للاسم صلة بالجانب التربوي والمظهر الجمالي والتوازن النفسي، به يُعرف ويُميز من أتراه، ويُنادى به بين أقرانه، وقد حث الشارع على تحسين الأسماء فقال ﷺ: " إنكم تُدعون يوم القيامة بأسماءكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم " <sup>1</sup> و للاسم داعٍ يحملُ المسمى على تحقيق جزء من اسمه مما فيه من حسن وقوة، وشهامة وفتوة وغيرها ... وها هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه يباهي خصمه منطلقاً من اسمه:

أنا الذي سَمَّني أمِّي حيدرَه      ضرغام آجام وليث قسوره <sup>2</sup>  
 أكيَلكم بالسَّيف كيل السَّندره      أضربكم ضرباً يبين الفقره  
 فيحمل الاسم صاحبه على تحقيق بعض معانيه الجميلة وخصاله الحميدة، بل قد يكون لمعنى الاسم أثر جبليّ ينغرز في النّحية وينحت في الغريزة .  
 بل قد يورث معناه ما بقيت النسبة إليه قائمة ( فلان بن فلان بن فلان ) كالخبر الذي سنورده عن سعيد بن المسيب قريباً .

وكان ﷺ أحرص الناس على اختيار أحسن الأسماء، فهو الذي سَمَّى الطَّيِّب والطَّاهر ورقيةً وزينب <sup>3</sup> والحسن والحسين ومحسناً.  
 والحسن ظاهرٌ في هذه الأسماء كما ترى ...

كما غيرَ ﷺ أسماء لاحظ فيها الجفاء والفظاظة والقبح إذ غير عاصية إلى جميلة، ومُمرّة إلى زينب، وأصرم إلى زرعة، وغير اسم العاصي وشيطان وأبي الحكم وعتلة وغراب وحباب وشهاب وحرب وبني مغوية...

1- سنن أبي داود - ج4 / 287 الحديث رقم: 4948 .

2- ديوان الإمام علي - جمعه وضبطه وشرحه الأستاذ نعيم زرزور دار الكتب العلمية ط: 1421 - 2000 م ص 77 و78 وروي عجز البيت الأول:

كليت غاب في العرين قسوره .

3- الزينب: شجر حسن المنظر طيب الرائحة، أنظر: لسان العرب ج1 / 453 .

وعدّل أسماء أمكنة: فسمى أرضاً عفرة، أرضاً خضرة .  
وسمى شعب الضلالة، شعب الهدى .

وروى سعيد بن المسيب أن جده ( حزنا ) وفد على النبي ﷺ فسأله عن اسمه فقال: « حزن . فقال النبي ﷺ: بل أنت سهل، قال حزن: لا، السهل يُوطأ ويُمتن ... ولم يغير اسمه تشبثاً بمعناه .. فقال سعيد بن المسيب: " فظننت أنه سيصيبنا بعده حزونة " <sup>1</sup> .

و قال مرة: فلم تزل في طباعنا حُزونة ورثناها من ذلك الاسم .  
وأثر الأسماء في نشر أجواء التفاؤل والاستبشار أو خلاف ذلك ملحوظ مشهور ومن أعجبه ما حكي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه سأل رجلاً ما اسمك ؟ قال: جمرة، قال: ابن من ؟ قال: بن شهاب. قال: ممن ؟ قال: من الحرقة. ثم ممن ؟ قال: من بني ضرام. قال: أين مسكنكم ؟ قال: في الحررة. قال: من أيها ؟ قال: ذات لظى. قال عمر: أدرك أهلك فقد احترقوا . فكان كما قال عمر <sup>2</sup> .

(5)- لما كانت أسماء إبليس [ عزازيل وإبليس والشيطان ] اسماً على مسمى فإنه يصح بناء عليه أن تعتبر أسماؤه من المتكافئ الذي هو نوع من أنواع المترادف لتحقيق معاني الأسماء وانطباقها على المسمى، هذا وإن كنا عهدنا هذا النوع خاصة بأسماء الله تعالى وأسماء الرسول ﷺ، فإن هذا التطابق فيها للمدح والتعظيم . وهو في إبليس للذم والتحقير . والله أعلم .

1- سنن أبي داود - ج4 / 289 الحديث رقم: 4956 .

2- أنظر: كتاب التذكرة في قواعد الإعراب - محمد خليل الباشا ص 206 عالم الكتب - الطبعة الثانية 1405 هـ / 1985م بيروت .

## 2- بين الغلام والولد:

من المباحث اللفظية التي توقفت عليها بعض صور التكرار، محاولة التفريق بين الألفاظ المتقاربة، ومحاولة الكشف عن وجوه الاستعمال المناسبة حسب المواقع. وكثيراً ما يُسلمك مثل هذا التدبير إلى تناسب لفظي آخر متصل ثالثٍ ورابعٍ وجميعها موصولٌ بلفافة النص الجامع. من ذلك الدلالات الإيحائية للفظي: الولد والغلام.

يحملك على ذلك ورودها في نصين متشابهين وقع بينهما تبادلٌ واختصاصٌ كل اسم منهما بالنص الذي ورد فيه.

فقد جاء في سورة آل عمران قوله تعالى:

- ﴿قالت ربّ أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر...﴾ (47).

وفي سورة مريم قوله تعالى:

- ﴿قالت رب أنى يكون لي غلام ولم يمسنني بشر...﴾ (20).

علل الكرمانى<sup>1</sup> مناسبة ورود الغلام في آية مريم، بتقدّم ذكر الغلام قبلها في قوله تعالى: ﴿قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً﴾ (19) ولم يشر إلى هذا ابن الزبير (708هـ) في "ملاك التأويل". حتى إذا بلغنا زكريا الأنصاري (926 هـ) وجدناه لا يضيف إلى ما أورده الكرمانى أمراً ذا بالٍ فيقول: (قال هنا (ولد) وفي مريم (غلام)، لأن ذكر المسيح تقدّم وهو ولدها، وفي مريم تقدّم ذكر الغلام)<sup>2</sup>.

وهو نفس التعليل الذي ألفيناه عند الدكتور السيد علي محمد خضر؛ إذ يقول: (في الأولى ذكر لفظ (الولد) وفي الثانية لفظ (الغلام) لأن في آل عمران تقدّم ذكر الولد حين بشرتها به الملائكة في قوله تعالى: ﴿إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح...﴾ (45) أما في سورة مريم فقد تقدّم ذكر الغلام ﴿إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً﴾ (19). فجاء الرد بلفظ: ﴿أنى يكون لي غلام﴾ وذلك مراعاة للسياق

1- أنظر: أسرار التكرار. الكرمانى. ص 47.

2- فتح الرحمن. زكرياء الأنصاري. ص 87.

في كل سورة وما يقتضيه، حيث ذكر الغلام كذلك في قصة يحيى في سورة مريم والله أعلم<sup>1</sup>.

تبدو هذه الإجابات ناقصة بل قاصرة؛ لأن التعليل بذكر الغلام في قصة يحيى في سورة مريم أنه من المرشحات لورود ذكر الغلام على لسان مريم: ﴿قالت رب أنى يكون لي غلام﴾ في سورة مريم، يُضعفه إن لم ينقضه، ورود ذكر الغلام أيضا في قصة يحيى في سورة آل عمران ولم يرد ذكر الغلام على لسان مريم بعدها في نفس السورة؛ وإنما ورد لفظ الولد: ﴿قال رب أنى يكون لي ولد﴾.

وقد استوقف هذا الاستعمال الدكتور محمد حسن باجودة وهو يستعرض جوانب من الإعجاز في سورة آل عمران، فنراه يحاول إبراز الحكمة من مجيء لفظة (ولد) على لسان مريم البتول في سورة آل عمران ولفظ (الغلام) في سورة مريم، وفي الآيات المشابهة لها في قصة زكريا ويحيى عليهما السلام.

فيستأنس للوصول إلى ذلك بالرجوع إلى الأصل اللغوي للفظتين، فيقول: (والمعروف أن لفظة (ولد) تعني المولود، ويقال ذلك للواحد والجمع والصغير والكبير، بينما تطلق لفظة (غلام) على الغلام الطائر الشارب... ويقال: طرّ الشارب إذا نبت..

مما سبق يتبين أن لفظة الولد تدل على مجرد النسب بينما تدل لفظة الغلام على هذا الولد حينما يبلغ مبلغ الرجال وينبت شاربه ولحيته ويكون في مقتبل العمر<sup>2</sup>.

ثم يعلّل ورود لفظة (الولد) على لسان مريم عليها السلام بقوله: (إن مريم البتول الطاهرة العفيفة التي أحصنت فرجها بنص القرآن الكريم اتّجه كل اهتمامها إلى مجرد وجود الولد الذي ينتسب إليها والذي اسمه المسيح عيسى ابن مريم)<sup>3</sup>، كما يعلّل ورود لفظة (الغلام) على لسان زكريا وجبريل عليهما السلام ويقول: (إن كلاً من زكريا

1- التكرار الأسلوبى في اللغة العربية، د. السيد خضر، ط1، 1424هـ/ 2003م، دار الوفاء المنصورة، مصر، ص 141.

2- لمحات في إعجاز سورة آل عمران. د. محمد حسن باجودة (محاضرات الموسم الثقافي لكلية اللغة العربية 1999/1420) جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ص 60، 61.

3- المرجع نفسه. ص 63.

وجبريل عليهما السلام جاءت لفظة الغلام على لسانها لأن المهمة هنالك تحتاج إلى الغلام الذي بلغ مبلغ الرجال في حق يحيى عليه السلام ومهماته، وبلغ مبلغ الرجال في حق عيسى عليه السلام ومعجزاته<sup>1</sup>.

وجاء لفظ الغلام على لسان البتول اتباعاً لجبريل عليه السلام حين قال لها:  
﴿قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً (19) قالت رب أنى يكون لي غلام ولم  
يمسنني بشر (20)﴾.

عنّ لي بعد تدبر الآيات السابقة التي ورد فيها لفظ الغلام والولد، وبعد النظر في الأصل اللغوي للفظتين، وفي خصوصية الدلالة لكل منهما، أنه من المنتظر في موقف مريم عليها السلام ذكر (الولد) في السورتين، وأن ما خالف المتوقع هو ورود (الغلام) على لسانها في سورة مريم، وليس ورود (الولد) على لسانها في سورة آل عمران، هو المخالف لما كان يُتوقع.

وذلك أن مريم عليها السلام لم تكن البتة منشغلة بأمر الولد والغلام من قبل، فهي لم تسأل ولداً ولا غلاماً ترجو نفعه وتأمل دفعه. حتى إذا بُشّرت بولد غلام، فوجئت ودُهشت أن يكون لها ولد من غير نكاح، وهي العفيفة الطاهرة الصديقة البتول.. فكيف تواجه قومها وقد جاءت شيئاً فرياً مريباً. فكل همها منصبٌّ على هذا المولود، فتصدر زفرات حارة مؤلمة: ﴿يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾ فكان لفظ الولد هو الأنسب والمعبر عن حالها.

بينما زكريا عليه السلام لم يكن تبشيره بالغلام ابتداءً، فطالما تضرّع إلى الله وسأله غلاماً طيباً رضيعاً:

- ﴿وزكريا إذ نادى ربه ربّ لا تدركني فرداً وأنت خير الوارثين﴾ الأنبياء 88.  
- ﴿هنالك دعا زكرياء ربه قال ربّ هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾ آل عمران 38.

1- المرجع السابق.

- ﴿فهب لي من لدنك ولياً﴾ مريم 4.

فكان الغلام إجابةً لدعائه وتضرّعه؛ إذ كان همّه الغلام القويّ الذي يقوم بالمهمّة ويرث من النبوة. وكان لفظ (الغلام) أنسب له في كل الأحوال.

بينما مريم كان كل همّها ناشئاً من أن تلد من غير زوج. فذكر (الولد) هو المعبر عنها والأنسب لها، غير أن لفظ (الغلام) جاء على لسانها ردّاً على جبريل عليه السلام الذي فاجأها بما لم يكن في الحسبان:

- ﴿قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً﴾ مريم 19.

فردّت على الفور مستنكرة بما يحكي قوله معترضةً:

- ﴿أنى يكون لي غلام ولم يمسنى بشر ولم أك بغياً﴾ مريم 20.

وهذه الزيادة هنا وهي (ولم أك بغياً) إيغال في الاستنكار. وإلا فمعنى الولد حاضر هنا لا محالة؛ فنكون قد استنكرت قوله بلسانها (الغلام). واستنكرت أن تلد بفؤادها (الولد). وربما لفظت بهما معاً في حال الدهشة والحيرة حين نجمع بين النّصين، وخصّ القرآن كل لفظ بمقامه المناسب.

ومما يعزّز هذا التناسب ويعضّده أن لفظ (الغلام) لم يرد على لسان مريم في آل عمران، واختفى ذكره في تبشير الملائكة لزكرياء عليه السلام قبلها: ﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدّقا بكلمة منه وسيّداً وحسوراً ونبيّناً من الصالحين﴾ آل عمران 39. ولا على لسان الملائكة حين بثّرت مريم عليها السلام: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾ آل عمران 45.

بينما ورد لفظ (الغلام) في مثل هذه المواقف من سورة مريم؛ في تبشير زكرياء عليه السلام: ﴿يا زكرياء إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً﴾ مريم 6. وكذلك ورد في تبشير مريم بعيسى عليهما السلام: ﴿قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً﴾ مريم 18.

وكذلك جرى لفظ (الغلام) على لسانها اتباعاً لجبريل عليه السلام، وعلى هذا فلفظ (الغلام) هو الأنسب المعبر عن زكرياء عليه السلام، لأنه كان متعلقاً بأن يرزق غلاماً قوياً يجدد دين آباءه وأجداده.

كما أن لفظ (الولد) أنسب لمريم البتول يعبر عن همها وحيرتها، ولكنها ذكرت الغلام مجازة للمبشر لها، وفي سياقٍ توالى فيه لفظ (الغلام)، خصت به سورة مريم. وقد تكون هناك دواعٍ أخرى والله أعلم بها.

والملاحظ أن هناك تلازماً بين قصة مولد يحيى عليه السلام، وقصة مولد عيسى عليه السلام في سورتي مريم وآل عمران، وكأن القصتين قضيةً واحدةً تتعلق بشأن أسرة آل عمران. فترى السورتين تتناوبان في إظهار بعض المعاني وإخفاءها، فما خفي هنا يظهر هناك والعكس صحيح. بحيث لا تلم بالصورة والموقف، ويتم لك المعنى ويكتمل، وتدرك الوشائج والعلاقات إلا باستحضار ما تشابه في السورتين.

### استنتاج:

وهذا النهج والسلوك يُطلعك على تناسبٍ خفيٍّ وصلاتٍ دقيقة، من ذلك ما وقفت عليه:

- ورود لفظ الولد والغلام على لسان مريم عليها السلام بناءً على ما ورد في السورتين يبدو أنه متفرع من قوله تعالى: ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلاً﴾ آل عمران 46. فقوله (يكلم الناس في المهد) إشارة إلى المولود في مهده، وهو مناسبٌ للفظ الولد على لسان مريم عليها السلام. و(كهلاً) مناسب للفظ (الغلام)؛ ذلك أن دلالة لفظ (الغلام) في العربية تمتد من الصبا إلى الكهولة ويطلق عادةً على الشاب الذي نبت شاربه إلى أن يشيب، فقد جاء في تاج العروس: (الغلام الطائر الشارب، وهو من حين يولد إلى حين يشب، ويطلق أيضاً على الكهل، قال ابن الأعرابي: يقال فلان غلام الناس وإن كان كهلاً)<sup>1</sup>، وفي اللسان (والعرب يقولون للكهل غلام نجيب)<sup>1</sup>.

1- تاج العروس من جواهر القاموس. السيد محمد مرتضى الحسين الزبيدي. تحقيق إبراهيم التزوي. ط 1. 1421هـ/ 2000م، الكويت، مادة (غلم) ج 33 / 126.

وجاء ذكر (الولد) في آل عمران وهو يكلم الناس كهلاً، وأغضى عن ما كان منه في المهد: ﴿إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طائراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تاكلون وما تدخرون في بيوتكم..﴾ آل عمران 48.

وعلى العكس من ذلك جاء ذكر (الغلام) في سورة مريم وهو يكلم الناس في المهد: ﴿فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً (28) قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً (29) وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً (30)﴾ سورة مريم.

فوقع تبادلٌ في المواقع بين إشارةٍ وعبارةٍ، فحلت لفظة (الولد) محلّ كلامه في المهد وأغنت عنه، وحلت لفظة الغلام محلّ كلامه كهلاً ونابث عنه، فأكمل المعنى في السورتين كليهما.

- وكذلك الأمر فيما يتعلق بذكر (الأيام) و(الليالي) حيث وردت الأولى في سورة آل عمران ﴿ألا تكلم الناس ثلاثة أيامٍ إلا رمزا﴾. ووردت الثانية في سورة مريم: ﴿ألا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سوياً﴾، ولا يسلم لك المعنى إلا بالجمع بين ما جاء في السورتين أو السياقين: ثلاثة أيام بلياليها، وثلاث ليالٍ بأيّامهن.

يقول زكريا الأنصاري عن ذلك: (كل منهما مُقيّد بالآخر، فلا بدّ من الجمع بينهما)<sup>2</sup>، أي يكتمل المعنى بالجمع بينهما؛ غير أن ذكر الأيام أنسب لسورة آل عمران وذكر الليالي أنسب لسورة مريم.

فقد لاحظت أنه في سورة مريم ذكرت الليالي وهي مؤنثة في سورة نُسبت لأثى (مريم)، وقُدّمت الأثى العاقر على الذكر الطاعن في السنّ على لسان زكريا عليه السلام: ﴿وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً﴾، على خلاف ما ورد في آل عمران حيث ذُكرت الأيام وهي مذكرة في سورة نُسبت لذكر (آل عمران). وقُدّم الرجل

1- لسان العرب. ابن منظور، مادة (علم) ج 12 / 440.

2- فتح الرحمن. زكريا الأنصاري. ص 87.

الطاعن في السن وأُخِرَت المرأة العاقر: ﴿وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقرة﴾ فضلاً عما اقتضته مناسبة الفواصل في السورتين.

كما أن الجمع بين الأيام والليالي في لفظ واحد حين نعتبر السياقين، أمرٌ محتملٌ على غرار قوله تعالى: ﴿يَتَرَتَّبْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ البقرة 232. فإنها تحتمل الليالي والأيام وإن كان ظاهرها (عشر ليالٍ)<sup>1</sup>، ذلك أن العرب إذا حذف التمييز أجازت الحمل على التذكير والتأنيث، كما يجوز هنا التأنيث تغليباً كقولهم: ضُمننا خمساً من الشهر فتُغلبُ الليالي وإن كان الصوم بالنهار.

والواقع أن العدة مرتبطة بعدد الأيام والليالي، وليس يُدرى متى تدخل المتوفى عنها زوجها العدة، فذلك مرتبط بزمن الوفاة ليلاً أو نهاراً، ويكون التحلل من العدة تبعاً لذلك أيضاً بالليل أو بالنهار، فُحذف التمييز ليشملها حسب الظروف والأقدار.

- وكأني بهذا التمايز والتغاير الواقع بين سياقين متشابهين إلى درجة كبيرة وفي نفس القصة والخبر، جاء تنويراً لزوايا خفية يكتمل بها كلا السياقين، فتأمل السياقين المتشابهين الآتين:

- ﴿قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا، واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾ آل عمران 41.

- ﴿قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سوياً (9) فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيًا (10)﴾ مريم.

ففي آل عمران وردت (الأيام) وفي مريم ذكرت (الليالي).

وفي آل عمران كان زكريا في المحراب، وفي مريم خرج من المحراب.

وفي آل عمران أمر هو بالذكر الكثير والتسبيح، وفي مريم أمر هو قومه

بالتسبيح.

1- روي أن ابن عباس رضي الله عنهما قرأها: (أربعة أشهرٍ وعشر ليالٍ) أنظر: تفسير القرطبي: 3/

وفي آل عمران أمر بالتسبيح بالعشيّ والإبكار، وفي مريم أمرهم بالتسبيح بكرة وعشيا، بتقديم ما آخر في آل عمران.

وهذا المسلك في التنوع والمغايرة وثيق الصلة بالمغايرة بين (الغلام والولد) في نفس القصة والسياق.

وكأني بزكرياء عليه السلام أدركته الآية المبشّرة بالحمل عشاءً وهو يستقبل ليله فأمر بالتسبيح بالعشيّ، وبالإبكار حين يستقبل يومه، وتدوم آية العجز عن الكلام ثلاثة أيام بلياليها، بدءاً بأول ليلة وانتهاءً بآخر يوم<sup>1</sup>.

ثم كأني به خرج من المحراب بكرةً يستقبل يومه ومبلّغاً قومه ما أمر به هو، عن طريق الرمز والإيحاء: ﴿فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيّاً﴾ وهذا الذي تهيأ لي وبدا يفسّر سرّ تقديم (العشيّ) في الأول في حقّه حين أمر به؛ لأنه يستقبل ليله .. وتقديم (البكرة) في حقهم حين أمرهم مبلّغاً؛ لأنهم يستقبلون النهار.

وهذا أيضاً يكشف عن مناسبة الاقتصار على الأيام في آل عمران لأنها مناط التضييع، والاقتصار على الليالي في مريم خشية التضييع أيضاً، والله أعلم.

وهناك تناسبٌ خفي بين آية زكريا هذه وآية مريم بعدها، فكما أن آية زكرياء تتمثل في العجز عن الكلام مع سلامة العضو الناطق، إلا وحيّاً ورمزاً وإشارةً طيلة الأيام والليالي هنّ علامة للحمل وبشارة به. فإن مريم كذلك انقطعت عن الكلام مع القدرة عليه امتثالاً للأمر وإيفاءً بالنذر بسبب الحمل الذي تحمله: ﴿فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ مريم. وينوب عنها ولدها في المهد وقد لقن حجّته، ونفى التهمة عن أمّه في أفصح بيان، وأوجز كلام.

---

1- اليوم في العربية يطلق على النهار من طلوع الشمس إلى غروبها يقابله الليل: قال تعالى: ﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً﴾ و﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه﴾ و﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج﴾ وفي قصة زكريا، وقد يطلق اليوم على الوقت مطلقاً: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾، و﴿وذكّرهم بأيام الله﴾.

### 3- تَكَرَّارُ لَفْظَةِ فِرْعَوْنَ

إنَّ مَّا يَسْتَوْقِفُ الْمُتَمَلِّلَ فِي الْأَسَالِيبِ تَكَرَّارُ اللَّفْظَةِ مَرَّتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ فِي السِّيَاقِ الْوَاحِدِ. وَمِنْ أَقْرَبِ الشَّوَاهِدِ الْقُرْآنِيَّةِ، تَكَرَّرَ لَفْظَةُ «فِرْعَوْنَ» ثَلَاثَ مَرَاتٍ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ سُورَةِ هُودٍ هِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى:

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (96) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (97)﴾

حيث يقرع سمعك هذا الاسمُ الفَظُّ ثلاثَ مراتٍ على قِربٍ وتتابعٍ .  
يحاول الدكتور عبد المنعم السيّد فكَّ سرِّ هذا التكرار فيقول:

« فكَرَّرَ اسْمَ فِرْعَوْنَ ثَلَاثَ مَرَاتٍ لِتَسْجِيلِ تَهْمَةِ التَّكْذِيبِ وَالغِيِّ عَلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ. وَقَدْ أَقِيمَ الظَّاهِرَ مَقَامَ المَظْمَرِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِتِلْكَ النِّكْتَةِ وَكَانَ مَقْضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُقَالَ: فَاتَّبَعُوا أَمْرَهُ وَمَا أَمْرُهُ بِرَشِيدٍ»<sup>1</sup>.

بيدَ أنَّ هذا التعليل لا يوحى به ذلك الإظهار والتكرار. فما علاقة تكرار (فرعون) بتسجيل تهمة التكذيب عليه؟ وهل الإضرار هنا يذهبُ بمعنى التكذيب والغِيِّ، حتى يكون الإظهار إثباتاً له؟

ثمَّ إنَّ إشارته إلى مقتضى الظاهر الذي كان من المنتظر أن يجري عليه السياق أمرٌ لا نسلمُ به؛ لأنَّ الإضرار هنا يؤدِّي إلى اضطراب المعنى وفساده؛ إذ يُدْخِلُ الوَهْمَ، واحتمالٍ غير المراد، بينما الإظهار يرفع الاحتمال ويحسم المعنى فالإظهار هنا للاحتياط للمعنى ورفع الاحتمال عنه.

وتوضيحُ ذلك أنَّ الآية أشارت إلى إرسال موسى عليه السلام بالآيات الباهرة والبراهين السَّاطِعَةِ إلى فرعون وملئه، ولا شكَّ أنَّ موسى لتبليغ ذلك أنه أخبرَ وبشَّرَ وأنذر، وأمرَ ونهى.. فلو أُضْمِرَ اسْمُ فِرْعَوْنَ فَقِيلَ (فاتبعوه) لاحتَمَلَ الضميرُ أن يعودَ إلى موسى؛ إذ هو الدَّاعِي بالحجَّة والسُّلْطَانُ المَبِينُ، فيكون السِّيَاقُ هكذا:

1- ظاهرة التكرار في القرآن الكريم - عبد المنعم السيد حسن ص 64.

- ﴿ ولقد أرسلنا بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه فاتبعوا أمره ﴾ ولا يرفع احتمال عودة الضمير على موسى إلا إظهار الاسم ((فاتبعوا أمر فرعون)).

وذلك أن إتباع فرعون مقرر من قبل، فهم أتباعه المنسوبون إليه: ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ إلا أن يكون هناك تجديد للعهد.

وليست هناك في السياق، مُحَاجَّةُ فرعون لموسى والتي يترتب عليها في العادة اتباع جديد.

ثم إن إضمار الاسم ثانية بدل إظهاره في ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ فيقال: ﴿ وما أمره برشيد ﴾، يفتح خيارًا آخر للمعنى غير مقصود قطعًا، وهو عودة الضمير على موسى عليه السلام. ويصير ذلك التذييل: (وما أمره برشيد) تعليلاً لاتباع القوم فرعون ومخالفة موسى، وإن هذا نفسه لا يسلم من تناقض لدى الفحص والتأمل عند إضمار السابق أو إظهاره.

أما وقد ورد الاسم ظاهرًا مذكورًا فإنَّ السِّيَاق قد قطع السبيل على تلك المعاني غير المرادة والتي قد يلج منها بعض المبطلين من المتأولين.

### بعض وظائف لفظة فرعون في آية هود:

وبناء على إظهار لفظ فرعون هنا حقق عدّة وظائف:

1- حَسْمُ المعنى والاحتياط له، فلا ضمير يُفسَّر ويؤوّل .

2- دلّ على أن هناك حذفًا يقدر بين إرسال موسى واتباع القوم أمر فرعون؛ إذ لا شك أن فرعون حاج موسى وعارضه وهدد كل من يخالف وأوعده... فاتبعوه رغبة أو رهبة لما توهموا فيه من القدرة والسلطان الذي لا خلاص منه، قال تعالى:

- ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّه لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ يونس 83.

ويؤكد هذا اتصال الفعل (فاتبعوا) بالفاء الفصيحة التي تُنبئ عن حذف الجمل وطى الكلام .

3- وكما أسفرَ الإظهارُ الأوَّلُ عن اتباعِ فرعونَ، يكشفُ الإظهارُ الثاني ضلالَ هذا الإِتباعِ وسفاهةَ رأيِ فرعونِ وخسارَ تدبيره... إظهارٌ يجعلُ هذا الحكمَ على فرعونِ قائماً بذاته، مستقلاً بنفسه حينَ اجْتَنَبَ الإِضْمَارَ الذي يربطُ الجملَ ببعضها: ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ .

4- والغرضُ من إظهارِ اسمِ فرعونَ في أغلبِ المواضع التي أُظهر فيها بدلَ الإِضْمَارِ، تقريراتٌ تؤكدُ أنَّ فرعونَ الذي بلغَ من العلوِّ والسلطانِ ما بلغَ، أنه مُعجَبٌ برأيه على فساده، متَّبِعٌ لهواهٍ على ضلاله:

- ﴿ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ غافر 37.

فَحَتَّى إِذَا نَزَلَتْ آيَاتُ سُورَةِ غَافِرٍ<sup>1</sup> الَّتِي يَتَظَاهَرُ فِيهَا فِرْعَوْنَ بِالصَّلَاحِ وَالرَّأْيِ السَّدِيدِ وَالْحُكْمِ الرَّشِيدِ:

- ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ غافر 26.

- ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ غافر 29.

احتقرهُ السَّامِعُونَ لما عَلِمُوا من زيفه وباطله، فقد كشفه القرآن من قبل في سورة هود وطه:

- ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ هود 97.

- ﴿ يَتَّبِعُهُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُورِدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَؤْرُودُ ﴾ هود 98.

- ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾ طه 79.

فسبيل الرَّشَادِ، في مُخَالَفةِ سبيلِ فرعونِ، وهي التي دعا إليها مؤمنُ آلِ فرعونِ بعد ادِّعاءِ فرعونِ:

- ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ غافر 38.

1- نزلت ( غافر ) بعد سبعِ سورٍ من نزولِ سورة ( هود ) بمكة.

5- وكذلك مَوْعِجَةُ الْجَمَلَةِ ﴿ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ يُنبِئُ عَنْ مَوْقِفِ عَجِيبٍ جَدًّا؛ فَكَيْفَ يُتَّبَعُ أَمْرُ فِرْعَوْنَ عَلَى سَفَاهَتِهِ وَبَاطِلِهِ وَغِيَّهِ ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ وَلَا يُتَّبَعُ أَمْرُ مُوسَى عَلَى نَصَاعَةِ حُجَّتِهِ، وَقُوَّةِ سُنْدِهِ:

- ﴿ بَايَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ هُود 97.

فَمَا أَشَدَّ عِنَادَ هَؤُلَاءِ ! وَمَا أَعْظَمَ اسْتِكْبَارَهُمْ !

ذَلِكَ أَنَّ تِلْكَ الْجَمَلَةَ وَقَعَتْ بَيْنَ السُّلْطَانِ الْمُبِينِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى قَبْلَهَا وَنَفِي الرِّشَادِ عَنْ فِرْعَوْنَ بَعْدَهَا. وَكَانَ تَرْتِيبُهَا هَكَذَا:

- ﴿ بَايَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ... فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ هُود 97.

مَّا يُوحِي ضَمْنِيَا بِشِدَّةِ اسْتِكْبَارِ الْقَوْمِ وَعِنَادِهِمْ وَبَطْرِهِمْ الْحَقِّ، كَمَا قَالَ عَنْهُمْ رَبُّنَا فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ:

- ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴾ الْمُؤْمِنُونَ 46.

وَفِي سُورَةِ يُوسُفَ:

- ﴿ ... إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ يُوسُفَ 75.

**إِحَادَاتُ لَفْظَةِ فِرْعَوْنَ فِي الْآيَاتِ الْأُولَى نَزُولًا:**

وَأَمَّا الْأَنْمُودِجُ الثَّانِي الَّذِي ذَكَرْتُ فِيهِ لَفْظَةَ (فِرْعَوْنَ) مَرَّتَيْنِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى:

- ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (15) ﴾

هَذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ جَاءَ فِيهَا ذِكْرُ فِرْعَوْنَ حَسَبَ تَرْتِيبِ النُّزُولِ .

وَكُرِّرَ اللَّفْظُ فِيهَا أَيْضًا. وَلَكِنَّهُ ذِكْرٌ عَامٌّ يَحْمِلُ السَّمْعَ عَلَى التَّشَوُّفِ وَالْفُضُولِ لِمَعْرِفَةِ

مَزِيدٍ مِنَ الْأَخْبَارِ عَنْ هَذَا الَّذِي قُرُنَتْ حَالَهُمْ بِجَالِهِ فِي سِيَاقِ يَتَضَمَّنُ التَّحْذِيرَ مِنَ التَّشَبُّهِ بِهِ.

قال ابن القيم رحمه الله: "فأخبر سُبْحَانَهُ أَنَّهُ أَرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَيْنَا كَمَا أَرْسَلَ  
مُوسَى إِلَى فِرْعَوْنَ، وَأَنَّ فِرْعَوْنَ عَصَى رَسُولَهُ فَأَخَذَهُ أَخْذًا وَبِيلاً، فَهَكَذَا مَن عَصَى مِنْكُمْ  
مُحَمَّدًا ﷺ"<sup>1</sup>.

بينما حَمَلَ الْقَمِي النيسابوري التشبيه على التنويه والثناء فقال:  
" وَإِنَّمَا خَصَّصَ قِصَّةَ مُوسَى بِالذِّكْرِ لِأَنَّ أُمَّتَهُ أَكْثَرُ الْأُمَمِ الْبَاقِيَةِ، وَمَعْجَزَاتِهِ أَهْبَرُ،  
فَكَانَ تَشْبِيهُهُ نَبِينَا ﷺ بِجَالِهِ أَنْسَبَ "<sup>2</sup>.

وذكر أبو حيان أَنَّ الْمُخَاطَبِينَ كَانُوا عَلَى عِلْمٍ بِمَا جَرَى لِفِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ<sup>3</sup>.  
وليس هناك دليل - فيما أعلم - على أَنَّ قريشاً كانت على علم بنبأ فرعون  
وموسى، بل إِنَّ السِّيَاقَ الْعَامَّ لِلْأَنْبَاءِ، يُنْبِئُ أَنَّ الْقُرْآنَ جَاءَهُمْ بِمَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ.  
وحاولت أن أقف على ما يدلّ على انتشار أخبار فرعون وجُنْدِهِ بين العرب في  
الأدب الجاهلي، وبالتّالي بين قريش فلم أجد لذلك ذكراً إلاّ ما نُسِبَ لزيد بن عمرو بن  
نُفَيْلٍ فِي الثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

وَأَنْتَ الَّذِي مِنْ فَضْلِ مَنْ وَرَحْمَةٍ      بَعَثْتَ إِلَى مُوسَى رَسُولاً مُنَادِيَا  
فَقُلْتَ لَهُ: يَا أَذْهَبَ وَهَارُونَ فَادْعُوا      إِلَى اللَّهِ فِرْعَوْنَ الَّذِي كَانَ طَاغِيَا  
وَأَنْتَ بِفَضْلِ مِنْكَ نَجَّيْتَ يُونُسًا      وَقَدْ بَاتَ فِي أَضْعَافِ حُوتٍ لَيْالِيَا<sup>4</sup>  
وَذِكْرُ فِرْعَوْنَ هُنَا وَمُوسَى وَيُونُسَ لَا يَعْني انْتِشَارَهَا بَيْنَ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ إِنَّ  
صَحَّتْ نَسْبَتُهَا.

ثمّ إني أشكُّ في صحّة هذه النّسبة، وفي كونِ الأبياتِ قيلت في العصر الجاهلي  
لعدة اعتبارات جالت بخاطري أذكر منها:

1- بدائع التفسير - لابن القيم - ج 5 / 51.

2- غرائب القرآن - للقمي - ج 29 / 79.

3- أنظر: البحر المحيط - لأبي حيان 10 / 317.

4- أنظر: السيرة النبوية - لابن هشام 1 / 243.

1- التشكيك في نسبة هذه القصيدة إلى زيد بن عمرو بن نفيل فبينما ينسبها أبو عبد الله محمد بن إسحاق (ت 152هـ) لزيد بن عمرو نجدُ أبا محمد عبد الملك بن هشام (ت 218هـ) يقول هي لأُمَيَّة بن أبي الصلت<sup>1</sup>.

2- وأنَّ هذه الأبيات المستشهد بها لم تَرِدْ في رواية الأغاني للقصيدة<sup>2</sup>.

3- وأنه قيل إنَّ أُمَيَّة بن أبي الصلت كان: « يأتي في شعره بأشياء لا تعرفها العرب »<sup>3</sup>. حتى قال عنه ابن قتيبة: « وعلمناؤنا لا يحتجُّون بشيء من شعره لهذه العلة »<sup>4</sup>.

وتكفي هذه التجريجات لإسقاط هذا الدليل كما يقول أهل الأصول: الدليل إذا تطرَّق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال. وبناءً عليه نقول أيضًا: والشاهد إذا دخله الاعتلال ضعف به الاستدلال.

4- أنه ورد في الأبيات ذكر موسى ويونس عليهما السلام، وهو أمرٌ مُعجِبٌ مُحيرٌ مُريب؛ إذ تُطلَعنا السيرة النبوية أنَّ آيةَ تصديقِ الغلامِ عدَّاسَ النَّصراني بنبوة محمد ﷺ، أنه أعلمه بنبوة يونس بن مَتَّى وهو أمر لا قِبَلَ للعرب بِخَبَرِهِ، وقد عَفَت الآثار وانقطعت الأخبار عن تلك الديار. فكان لهذا الإعلام الأثر العميق في نفس الغلام فتأمل المشهد كما تصوِّره السيرة العطرة فإنه يشهد بهذه الحقيقة:

لما قدَّم عدَّاس طبق العنب لرسول الله ﷺ قال: « باسم الله ثمَّ أكل، فنظر عدَّاس في وجهه، ثم قال: والله إنَّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: ومن أهل أيِّ البلاد أنت يا عدَّاس، وما دينك؟ قال: نصراني، وأنا رجلٌ من أهل نينوى؛ فقال رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن

1- أنظر: السيرة النبوية لابن هشام 1/ 242 (المصدر السابق) ص 242.

2- أنظر: الأغاني- لأبي الفرج الأصفهاني- عن طبعة بولاق الأصلية 1390- 1970. مج 2/ ج 3/ ص 16.

3- نفس المصدر ص 187.

4- نفسه.

متى؛ فقال له عدّاس: وما يُدريك ما يُونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي، فأكبّ عدّاس على رسول الله ﷺ يُقبّلُ رأسه ويديه<sup>1</sup>.  
 وزاد التبيي - حسب ما ذكر السهيلي -: (أَنَّ عَدَّاسًا حِينَ سَمِعَهُ يَذْكُرُ ابْنَ مَتَّى قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ خَرَجْتُ مِنْهَا - يَعْنِي نَيْنَوَى - وَمَا فِيهَا عَشْرَةٌ يَعْرِفُونَ مَا مَتَّى، فَمِنْ أَيْنَ عَرَفْتَ أَنْتَ مَتَّى، وَأَنْتَ أُمَّيٌّ وَفِي أُمَّةٍ أُمَّيَّةٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هُوَ أَخِي، إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ)<sup>2</sup>.

5- وَأَنَّ مَا جَاءَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ وَأَقْوَامِهِمْ فَمُقْتَبَسٌ فِي الْأَرْجَحِ مِمَّا يُثَلَّى عَلَيْهِمْ مِنَ الْآيَاتِ أَوْ قِصَّةِ عَلَيْهِمْ ﷺ.

وقد عبّر عن هذا المعنى أبو قيس<sup>3</sup> صرمة بن أنس أجملَ تعبير إذ يقول في يائية له يذكر فيها نزول النبي ﷺ على أهل المدينة وفضله عليهم:

فَلَمَّا أَتَانَا أَظْهَرَ اللَّهُ دِينَهُ فَأَصْبَحَ مَسْرُورًا بِطَيْبَةِ رَاضِيًا  
 يَقُصُّ لَنَا مَا قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ وَمَا قَالَ مُوسَى إِذْ أَجَابَ الْمُنَادِيَا<sup>4</sup>

6- ثُمَّ إِنَّ بَعْضَ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي تَصْحَبُ بَعْضَ الْآيَاتِ، تُثَبِّتُهُ وَتُشِيرُ إِلَى أَنَّهَا مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ، مِنْهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِفِرْعَوْنَ وَمُوسَى وَنُوحٍ وَغَيْرِهِمْ:

- ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (49) هود.

- وردت هذه الآية بعد نبأ نوح عليه السلام وبين يدي أخبار الرسل عليهم السلام.

1- السيرة النبوية - لابن هشام - مج 2 ص 62. وانظر: فقه السيرة - للغزالي ص 126.

2- نفس المصدر - هامش صفحة 62، 63.

3- أوسى من الأنصار. عمّر في الجاهلية طويلاً وترهّب ولبس المسوح واجتنب الأوثان واغتسل من الجنابة. ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلم وهو شيخ كبير وقال هذه القصيدة. وقيل كان ابن عباس يختلف إلى صرمة يتعلم منه هذه القصيدة. عاش 120 سنة. أنظر: الإصابة 2/ 176.

4- أنظر: السيرة النبوية 2/ 158.

- وبعد الآية التي تكررت فيها لفظة فرعون في سورة (هود) ورد قوله تعالى:

- ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقَّصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (100) هود.

وكذلك وردَ بعد قصة موسى في (طه) قوله عزَّ وجلَّ:

- ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ (99) طه

ومما يُستأنس به التعبيرُ بلفظ (النبأ) فإنه يستعمل في الغالب للإخبار في الأصل بما لا علم للمخاطب به.

7- وكذلك سبقت آية المزمّل سياقًا إعلاميًا بما لا عهدَ به للمخاطبين إذ عبّر عن موسى بـ (رسول) مُنكرة ولم يُعرّف إلا بـ (ال) العهديّة عهدًا ذكريًا. ولا أستبعد أن تكون لفظة (فرعون) كذلك؛ إذ هي هنا لأوّل مرّة تطرّق أسما ع القوم كما أشرنا سابقًا.

- ثمَّ يُصادفهم اسم (فرعون) ثانية في سورة الفجر: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ (13).

- ثمَّ يأتي ثالثة في سورة البروج: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18)﴾ بعد أن سبقت الإشارة الخاطفة إليهما في الفجر. وفيه تشويق لتتبع أخبار القوم للاستبصار والاعتبار.

- ثمَّ في سورة ق: ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (13) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ بُعٍ كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (14)﴾.

- ثمَّ في سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذْرُ (41) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (42)﴾.

- وفي سورة ص بعدها: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (13) إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (14)﴾.

- ثم يُبسطُ القولُ في قصة فرعونَ وموسى لأوّل مرّة، في السورة التي نزلت بعد سورة ص وهي سورة الأعراف؛ إذ حَضِيَتْ قصتها بالنّصيب الأوفر من السورة؛ من الآية 103 إلأى 171 ويُقدَّر بحوالي ثلث السورة بالنّسبة لعدد آياتها (206 آية) وهو حوَالِي سبعة أثمان الحزب.

وأنت تلاحظ في السور الست السابقة وهي من أوائل ما أنزل، أنّ الحديث عن فرعون يقتصر على إبراز جانبين اثنين يتأكّدان في كل مرّة في لباس من اللفظ جديد. وهذان الجانبان هما:

1- عصيانُ الرّسل وتكذيبهم.

2- ثم عاقبة هذا العصيان والتكذيب.

فتأمّل هذا الملمّح في الآيات من جديد وهي مرتبة حسب النزول:

العاقبة والمصير	موقف فرعون وأضرابه من الرّسل
فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً (16) ﴿المزمل.	1- ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ
فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) ﴿الفجر.	2- ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11)...
وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (20) ﴿البروج.	3- ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19)
فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿ق.	4- ﴿... كُلُّ كَذِّبٍ الرُّسُلَ
فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (42) ﴿القمر.	5- ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا
فَحَقَّ عِقَابٍ (14) ﴿ص.	6- ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذِّبَ الرُّسُلَ

هذه الأنباء عن فرعون تطرق مسامع القوم لأول مرة متتالية فتتنامى صورة عن فرعون وتتكامل، إظهارها عصياناً وتكذيب فتعذيب. فيها عبرة وتخويف للمخاطبين وهم لا يزالون بمنجاة من العقاب:

- ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ (8)﴾ ص.

ثمَّ صارَ لفظ فرعونَ رمزًا للطغيان والتَّجَبُّر والعناد حتى قال رسول الله ﷺ: « فِرْعَوْنِي أَشَدُّ مِنْ فِرْعَوْنَ مُوسَى » يعني أبا جهل سمَّاه كذلك لعناده.

فأصبحَ للفظَة (فرعون) معنى يشتق؛ فقد جاء في لسان العرب: « الفرعنة: الكبر والتجبر.. وكلُّ عاتٍ فرعون<sup>1</sup> ».

قال أبو تمام:

جَلِيَّتْ وَالْمَوْتُ مُبَدٍ حُرٌّ صَفْحَتِهِ      وَقَدْ تَفَرَعْنَ فِي أفعالِهِ الأَجَلُ  
غير أن بعضهم<sup>2</sup> رأى في هذا الاستعمال خروجًا عن الفصاحة لأنها كلمة عامية وفي هذا الحكم نظر.

### من نتائج هذا البحث:

لقد مكنا البحث في تكرار لفظَة (فرعون) من الوقوف على بعض الفوائد وكشف بعض الحَبَايَا نجملها فيما يأتي:

1- لقد وردت لفظَة (فرعون) في القرآن الكريم أربعًا وسبعين مرَّةً (74) في سبع وعشرين سورة (27). أربعٌ منها مدنيَّة، والباقي منها مكِّي. وإليك بيان ذلك في جدول:

1- لسان العرب- مادة (فرعن) 13/ 323. وانظر: مختار الصحاح ص 500.

2- أنظر: سر الفصاحة- لابن سنان الخفاجي ص 72.

جدول توزُّع لفظة فرعون في القرآن الكريم

عددُ وُرودِ اللفظة فيها	ترتيبُ نزولِ السُّورة	السُّور المكيَّة
2 مرَّتان	3	المزمل
1 مرَّة	10	الفجر
1 مرَّة	27	البروج
1 مرَّة	34	ق
1 مرَّة	37	القمر
1 مرَّة	38	ص
9 مرَّات	39	الأعراف
5 مرات	45	طه
6 مرات	47	الشَّعراء
1 مرَّة	48	النَّمْل
8 مرات	49	القصص
2 مرَّتان	50	الإسراء
6 مرات	51	يونس
3 مرات	52	هود
9 مرات	60	غافر
2 مرَّتان	63	الزخرف
2 مرَّتان	64	الدخان
1 مرَّة	67	الذاريات
1 مرَّة	72	إبراهيم
1 مرَّة	74	المؤمنون
1 مرَّة	78	الحاقة
1 مرَّة	81	النازعات
1 مرَّة	85	العنكبوت
<b>66 =</b> مرة		

الشور المدنية	ترتيب نزول السورة	عدد ورود اللفظة فيها
البقرة	87	2 مرّتان
الأنفال	88	3 مرات
آل عمران	89	1 مرة
التحریم	107	2 مرّتان
		= 8 مرّات

2- جاء ذكر (فرعون) في أربع وعشرين (24) سورة مكية تردّد فيها لفظه ستّاً وستّين (66) مرّة، وفُصِّلَ القولُ في بعضها تفصيلاً فقِصّة فرعون وقومه هي أكثر قصص القرآن تَكَرَّراً ودَوْراناً.

هذا في المرحلة الأولى من الدّعوة حيث الجهاد بالقرآن والبرهان، فالقومُ المُنذرونَ صناديد قريش وعُتاتُها، فناسبَ هذا الوضعَ الحديثُ عن فرعونَ من جَهْمَةِ الموقف من رسول ربّ العالمين المؤيّد بالمعجزات الباهرة، والآيات الساطعة والبراهين القاطعة.. وإعراضه وعاقبة تكذيبه وعناده. فتلك شبيهة بحال القوم:

- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (15)﴾ المزمّل.

بينما تغيّرت الأوضاع في المدينة المنورة؛ إذ تأسس المجتمع المسلم وصار يتلقّى الأحكام بعد أن رضي بالإسلام.. فتحوّل الخطاب من الحديث عن فرعون إلى الحديث عن آل فرعون عن فعلهم ومصيرهم للتأسي والاعتبار والاستبشار.

فلم يرد لفظ (فرعون) في السور المدنية إلاّ ثماني (8) مرات في أربع سور فقط. جاء الحديث فيها عنه على سبيل الإشارة والاختصار، مقتصراً على من انتسب إلى فرعون من الأشرار والأخيار أعني آل فرعون وامرأة فرعون ليس إلاّ.

فتأمل الآيات التي نزلت في المدينة وذكر فيها لفظ فرعون وهي على التوالي:

ففي البقرة:

- 1- ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ (49)﴾.
- 2- ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكَ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50)﴾.

وفي الأنفال:

- 1- ﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ..(52)﴾.
- 2- ﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَاثِرٍ ظَالِمِينَ (54)﴾.

وفي آل عمران:

- 1- ﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ..(11)﴾.

وفي التحريم:

- 1- ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11)﴾.

فالحديث في المدنيات - كما ترى - عن مآل آل فرعون وهم فرعون وأتباعه وأشياعه حيث التَّنويهُ والتشنيعُ بمصير الأتباع ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ الذين لَقُوا مَصِيرَهُ وكانوا بمنجاة لو عقلوا ﴿وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ فلم تتبعه أما هم فوقعوا في عاقبة عمل فرعون فحوسبوا حسابه وذاقوا عقابه وصلوا عذابه.

قد يتعجب المتدبر في عدد ورود الألفاظ في القرآن الكريم، حين يجد أن فرعون ذكر في القرآن أكثر مما ذكر إبراهيم عليه السلام وهارون عليه السلام؛ إذ ذكر فرعون 74 مرة بينما ذكر إبراهيم 69 مرة وهارون 20 مرة.

أو حين يلاحظ أن أول هؤلاء ذكرا في القرآن من جهة النزول ومن جهة ترتيب المصحف هو فرعون. فأول ما ذكر، ذكر في سورة المزمل وهي ثالث سورة نُزولاً. وأول ما ورد ذكر له حسب ترتيب المصحف كان في الآية 49 و50 من سورة البقرة.

وورد أول ذكر لموسى عليه السلام في آخر سورة الأعلى وهي الثامنة نزولاً  
 وورد أول ذكر له في ترتيب المصحف في سورة البقرة في الآية 51.  
 وكذلك ورد أول ذكر لإبراهيم عليه السلام في آخر سورة الأعلى وورد أول ذكر  
 له من جهة ترتيب المصحف في الآية 124 من سورة البقرة.  
 وأول ما ذكر هارون عليه السلام ذكر في سورة الأعراف وهي التاسعة  
 والثلاثون (39) نزولاً.  
 وأول ما ذكر في المصحف ذكر في الآية 248 من سورة البقرة.  
 والجدول الآتي يلخص ما ذكر:

الاسم	عدد وروده	أول ذكر له حسب النزول	أول ذكر له حسب ترتيب المصحف
فرعون	74 مرة	في سورة المزمل = 03	البقرة الآية 49، 50
موسى	136 مرة	في سورة الأعلى = 08	البقرة الآية 51
إبراهيم	69 مرة	في سورة الأعلى = 8-	البقرة الآية 124
هارون	20 مرة	في سورة الأعراف = 39	البقرة الآية 248

وقد لاحظت أنّ أول ذكر لموسى هو أول ذكر لإبراهيم من جهة النزول وأن ثاني  
 ذكر له هو ثاني ذكر لإبراهيم كذلك. هذا وإنّ بين الذكر الأول والثاني نزلت 14 سورة،  
 ومع ذلك تشابه في الموقعين المعنيان فالذكر الأول في سورة الأعلى (8):  
 - ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (19)﴾.  
 والذكر الثاني في سورة النجم:  
 - ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37)﴾.  
 وفي هذين الموقعين تشابه في الفاصلة واختلاف في تقديم الاسمين وتأخيرهما.

والسر في تبوء تلك اللفظة هذه المساحة المعتبرة من آي الذكر الحكيم، فيما يبدو لي، يعود إلى ارتباطها الوثيق بقصة موسى عليه السلام التي وردت في أكثر من ثلاثين موضعاً<sup>1</sup> من القرآن، وهو أمرٌ لم تبلغه قصة أخرى؛ وذلك لما في سيرة بني إسرائيل من عبر ودروس، غدت قوانين تاريخية وسُنناً اجتماعية، تتكرر عبر العصور، وفي الأمم اللاحقة، حتى قال عنها النبي ﷺ مخاطباً أصحابه وأتباعه: (الله أكبر إنَّها السنن) أي أنها قاعدة عامة ثم أخبر: (لتتبعن سنن من كان قبلكم حدوا القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه) قالوا: يا رسول الله: اليهود والنصارى ؟ قال: فمن ؟) وفي رواية: (ومن الناس إلا أولئك ؟)<sup>2</sup>.

وهو إخبار يحملُ الذمَّ ويتضمَّنُ النهيَ عن التَّشْبُه باليهود والنَّصارى. وعلى قاعدة السنن والتشابه قال سفيان بن عيينة ت 198هـ: (من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبَّادنا ففيه شبه بالنَّصارى)<sup>3</sup>.

فاقتربت أخبارُ موسى وقومه في المراحل الأولى من دَعْوَتِهِ بفرعون اقتتراناً محورياً وتردَّدَ ذكره تبعاً لذلك، فما من حَدَثٍ في أخبارهم إلاَّ وله صلةٌ بفرعون ولم ينقطع ذكره إلاَّ بعد غرقه، فيتحول الحديث إلى موسى وقومه صرفاً خالصاً. فتري في سورة الأعراف الحديث عن موسى وفرعون يبدأ من الآية (103) إلى غاية (141) حيث يُغْرَق فرعونُ فلا يُسمع له حسيْسٌ ولا ركز بعدها، ولا يردُّ له اسم حتى تنتهي قصَّة موسى عبر 30 آية عند الآية (171) من سورة الأعراف. والله أعلم.

1- ذكِرَ موسى 136 مرة في 35 سورة من القرآن.

2- أنظر نص الحديث في فتح المجيد- تأليف العلامة الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ- تحقيق محمد حامد الفقي- ص 140 و 267.

3- بدائع التفسير- لابن القيم- 1/ 247. وانظر: فتح المجيد هامش ص 267.

#### 4- تَكْرِيرُ لَفْظَةِ الْمِيزَانِ:

في قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9) ﴾ الرحمن.

حيث تكرر لفظة الميزان ثلاث مرات.

يقول تاج القراء الكرمانى في تعلييل ذلك: « فصرح ولم يضم، ليكون كل واحد قائماً بنفسه، غير محتاج إلى الأول، وقيل: لأن كل واحد غير الآخر.

الأول: ميزان الدنيا، والثاني: ميزان الآخرة، والثالث: ميزان العقل. وقيل: نزلت متفرقة فافتضى الإظهار»<sup>1</sup>.

- ويقول الزمخشري: « وكرر لفظ الميزان تشديداً للتوصية به وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه»<sup>2</sup>.

- وقال الإمام القرطبي: « وكرر الميزان لحال رءوس الآي، وقيل: التكرير للأمر بإيفاء الوزن ورعاية العدل فيه »<sup>3</sup>.

- وقال أبو حيان الأندلسي: « وكرر لفظ الميزان، تشديداً للتوصية به، وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه »<sup>4</sup>.

- ويذكر ابن الزبير الغرناطي: « أن المراد بذكر الميزان إعلام العباد بما به قوام أحوالهم واستقامة أديانهم من إجراء أمورهم على العدل الذي أمر به سبحانه...»<sup>5</sup>.

ثم يشير إلى علة تكرار الميزان هنا فيقول:

« وكرر لفظ الميزان جرياً على عادة العرب فيما لها به اعتناء وتهم: كقول

الخنساء:

1- أسرار التكرار - للكرمانى ص 198.

2- الكشاف - للزمخشري 44/4.

3- تفسير القرطبي 155/17.

4- البحر المحيط 57/10.

5- ملاك التأويل - لابن الزبير الغرناطي 1056/2.

وَإِنَّ صَخْرًا لَوَالَيْنَا وَسَيِّدُنَا  
وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُّهُدَاهُ بِهِ  
وَإِنَّ صَخْرًا إِذَا نَشْتُو لَنَحَّارُ  
كَأَنَّهُ عَلَّمَ فِي رَأْسِهِ نَارٌ<sup>1</sup>

فكررت ذكر صخر ثلاث مرّات ظاهراً غير مضمّر... وهذا موجود في كلامهم كثيراً إذ قصدوا الاهتمام والاعتناء والتهويل والاستعظام<sup>2</sup>.

ثم يحاول الكشف عن سرّ تخصيص سورة الرحمن بذكر الميزان وتأكيده والوصاة بحفظه وفاءً والتزاماً، ولكن دون أن يربط ذلك بتكرار اللفظ.

ويعلّل أبو يحيى زكريا الأنصاري تكرار (الميزان) بما رأيناه عند الكرماني من قبل، فهو ينقل عنه كثيراً، فيقول مثلاً عن لفظة الميزان هنا: « فائدته بيان أنّ كلاً من الآيات مستقلة بنفسها، أو أنّ كلاً من الألفاظ الثلاثة مغاير لكل من الآخرين، إذ الأول ميزان الدنيا، والثاني ميزان الآخرة، والثالث ميزان العقل<sup>3</sup> ».

وتجدر الملاحظة هنا أنّ ما أورده الكرماني تعليلاً ونقله عنه الأنصاري وغيره هو حكم عامّ لبيان مواطن إظهار الاسم بدل إضماره، وبيان مسوغاته.

فإظهار اللفظ بدل إضماره ينبئ أنّ هذا اللفظ قائم بنفسه، مستقل عن سابقه، غير مفتقر إليه، حتى كأنه اسم آخر.

أو أن إظهاره إشارة إلى أن معناه يختلف عن سابقه، فهو من باب الجنس والاشتراك في اللفظ. أو يكون الإظهار بسبب تعدّد النزول، فكل لفظة نزلت في سياقها في زمن معين ثم جمعتها بأختها ترتيباً المصحف؛ إذ لا وجه للإضمار عند نزولها منفصلة عن أختها.

تلك دواعي الإظهار على العموم، ولا يكفي مجرد عرضها للكشف عن سرّ تكرير لفظة (الميزان) في تلك المواقع من سورة الرحمن.

1- ديوان الخنساء، دار بيروت- بيروت، 1398هـ - 1978م ص: 48، 49.

2- ملاك التأويل - لابن الزبير الغرناطي 2 / 1058

3- فتح الرحمن - زكريا الأنصاري 543، 544.

وإنما هي آليات ووسائل يلجأ إليها، يُسترشدُ بها ويُستأنس على وجه التقدير والاحتمال، لأن لكل سياق خصوصيته..

فمثلاً هنا: احتمال أن يكون لفظُ (الميزان) قد تكررَ بسببِ تعددِ النزول وتفرُّقه.. أمرٌ مُستبعد، فلا داعي لتجزئة آياتٍ متلاحمة الأوصال، تلاحم العبارة الواحدة.. إذ لا يُرتضى ذلك إلا بنقلٍ صحيح وبرهان قاطع.

وكذلك احتمالُ اختلافِ معاني لفظ (الميزان) أمرٌ واردٌ، لكنَّ ترجمةَ هذا الحامل وتطبيقَ هذا المسوغ على لفظة الميزان في هذا الآيات هو الذي فيه يتوقفُ فيه ويُنظر. فمنه الضعيف المستنكر، ومنه القوي المرتضى.

فانظر إلى معاني الميزان التي أشار إليها الكرماني، ونقلها القمي<sup>1</sup>. وزكريا الأنصاري وهي أن الميزان الأول ميزان الدنيا، والثاني ميزان الآخرة، والثالث ميزان العقل.. تجدها متنافرة في السياق وإن بدت مقبولة خارجه.

فانظر ما أشدَّ النفور بين تلك المعاني التي ذهبوا إليها في السياق! وما أشدَّ نبوَّها وجفاءها، إذ يصبح المرادُ عندئذ كالاتي:

( والسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ مِيزَانَ الدُّنْيَا

أَلَّا تَطَّعُوا فِي مِيزَانِ الآخِرَةِ

وَأَقِيمُوا الْوِزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَحْسِرُوا مِيزَانَ الْعَقْلِ ).

إننا لا نُنكر تعدد الموازين واختلافها، فهناك موازين الدنيا، وموازن الآخرة، وموازن المجرَّات والسَّمَوَات، وموازن الحشرات والذِّرَّات، وموازن الأعمال والأفعال والأقوال، وموازن النِّيَّات والظنون، إلى جانب الموازين الحسِّية والموازن المعنوية...

غير أنَّ الميزان الوارد في هذه الآيات مقيّد بالسياق، منضبط بالسورة فلا ينبغي الحديث عن الميزان بلا اعتبارٍ لهذين العنصرين . فالميزان في الأصل هو كلُّ وسيلة أو آلة تكشف لك عن مقادير الأشياء وقيمتها، وتطلُّعك على ما بينها من تفاوت سواء في

1- غرائب القرآن - للقمي النيسابوري 27 / 64.

الحسيات أو المعنويات، إنه يكشف عن مدى استقامة الأشياء وانحرافها، ومدى نقصها وزيادتها. فالميزان مرآة يتجلى فيها الحق والصواب. وعلى المرء بعد ذلك تبعات الموقف والتصرف حسب دواعي الحق، أو دواعي الهوى.

فالميزان إذا مُعِينٌ على معرفة الحق، كما يَعِصِمُ - إن شِئَتْ - من الزَّلَل والحيف، والتطيف والزيف. وربما تحقيقاً لهذا المعنى جُمِعَ بين الكتاب والميزان، وهما رمز الحق والعدل<sup>1</sup>. فالرَّسَلُ جَاءُوا بِالْكِتَابِ الْمَشْتَمَلِ عَلَى الْحَقِّ وَهُوَ الْجَانِبُ النَّظْرِي.

وجاءوا بالميزان الذي يحكم بالعدل، وهو الجانب العملي الموصل إلى الحق.

- ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ الأعراف (8).

- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ الحديد (25).

- ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ الشورى (17).

والذي يبدو لي أن منطلق الحديث عن الميزان في سورة الرحمن ليس عن ميزان البيع والشراء؛ وإنما عن الميزان الذي استقامت به حقائق الأشياء، ودقائق الخلق، في تعادلٍ لطيفٍ يُراعِي أدقَّ الجزئيات من غير زيادة أو نقصان.. عددًا ووزنًا وأجلًا، وفناءً وبقاءً، حركةً وسكونًا... فكل شيءٍ بقدرٍ معدود، ولأجل محدود:

- ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر (49).

- ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ الرحمن (5).

- ﴿فَالْقُلُوبُ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ الأنعام (96).

فالخلق في سجلِّ حفيظٍ عدا ووزنا وأجلا، نوعا وجنسا:

- ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ ق (4).

1- الأمر الذي جعل البشرية فيه الميزانَ رمز العدالة. وروى جُوَيْبِرٌ عن الضحاك أنه قال: (الميزان العدل).

- ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ القمر (53).
- ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ الأنعام (59).
- ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ الأنبياء (47).
- ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ الحجر (19).
- ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ الجن (28).
- ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ الأنعام (62).

فهذه المعاني الجليلة العظيمة للميزان من تعديل الأشياء، وإقامتها من العرش إلى الفرش في السماء والأرض هي التي تنسجم مع السياق: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ... وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ... وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾.

فبين رفع السماء ووضع الميزان، ووضع الأرض للأنام، وتقدير أوقاتها، أشار إلى الميزان الذي هو من وضع الرحمن، ولا يد للخلق فيه، وعليه قامت السموات والأرض، بهذه الإشارة الدقيقة جاءت المناسبة اللطيفة لوعظ النفوس السارحة في فلك الآماد، والسابجة في أعماق الآباد، وفي غمرة تلك المشاعر، ورحاب تلك الأنوار التي تحفها الآلاء من كل جانب .. في هذه اللحظة النفيسة همست الآيات بموعظة بليغة هي عماد الاستقامة، وسر السعادة.. فلم تترك الفرصة تمر، فبمناسبة الحديث عن الميزان الذي أقام الله عليه الخلق فاستقام كل شيء وصلح أمره، بالمناسبة أمر الخلق بإقامة الوزن بالقسط، ونهوا عن إفساره.. فجاء الحديث عن إقامة الميزان كالجملية المعترضة بين رفع السماء ووضع الأرض، غير أن السياق ربط بين السباق واللاحق، والاعتراض بتناسب لفظي ومعنوي:

بين السماء والأرض، والرفع والوضع، وإعادة اللفظ حتى كأنه لا اعتراض بين الآيتين السابعة والعاشرة.

حيث ارتبطت الآية:

- ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ الرحمن (7).

بالآيتين المجاورتين بإعادة لفظ الميزان فيهما:

- ﴿أَلَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ (8) وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9).

وبالآية العاشرة: بالمقابلة بين: }  
﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ }  
﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ }

وإعادة لفظ: (وَضَعَ) فيهما: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ.... وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا...﴾

ونلاحظ في نظم الآيات، وهي تدعو إلى الاعتدال والتوسط:

- ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أن هذه الحسنة وقعت واسطةً في اعتدال في العبارة بين  
سَيِّئَتَيْنِ:

- سيئة الطغيان في الميزان وتجاوز الحد.

- وسيئة الإخسار والنقص والبخس.

لأن اعتدال الميزان، في التوسط بين الطغيان والإخسار. وقد وقع ذلك في سياق العبارة موقع الواسطة من العقد أيضاً.

ولكن لا أدري ما الذي حمل المراغي على مخالفة هذا الترتيب الصريح في الآيتين فقال: « أمر سبحانه وتعالى أولاً بالتسوية، ثم نهى عن الطغيان ... ثم نهى عن الخسران <sup>1</sup> إلا أن يكون ذلك سهواً منه.

وبعد هذا أعود فأقول إن تكرار لفظة (الميزان) مقصودة بعينها لحكمة، وقد وقعت في محلها من العقد، فناسب ما قبلها وما بعدها، وانسجمت حروفها فكانت فواصل للآيات تفرع الأذان مراراً فتوقظ العقل وتنبه القلب، كما ناسب تكرارها أحوال الميزان الثلاثة.

1- تفسير المراغي 27 / 108.

كما تسمو بك لفظة (الميزان) من المعنى الحسي المشهود، والذي يتعامل به الناس، إلى عوالم سامية، ومعاني راقية، كالاتدال والتوازن والنظام والانتضباط حين اقترن الميزان بالسماء وما بناها، فكل شيء يخضع لميزان دقيق، ونظام متناسق وعدل منته، فحركة الكواكب والنجوم موجهة، ودورانها محدود، ووزنها معدود، وسرعتها مقدرة، وبعدها عن بعضها محسوب...

- ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ...وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾.

فكل ذلك وغيره من المخلوقات تحكمه سنن الله الكونية الثابتة التي لا تتغير إلا وفق سنة أخرى.

وهذا الخضوع الكوني والاستسلام هو نوع من الخشوع والخشية والسجود لله رب العالمين:

وإن من جلامد الصُّخُورِ ﴿لَمَّا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾.

وهذه الظلال الممتدة حولنا لا تتحرك وفق هواها أو هوى أصحابها، كلا إنها منقادة لله ربها:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (46)﴾ الفرقان.

فهذه الحركة الطائعة الخاشعة سجد حقيقي لله تعالى:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَّبِعُهُ ظِلَّاهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ النحل 48.

ففي حركة الظل سرعة واتجاها وميلانا وأوانا، يختفي نظام كامل يتجلى فيه الشهر والفصل ودرجة الحرارة وطول الليل والنهار... فالظل صمام الأمان، فلو تغير شيء مما عهدنا في الظل لكان إيدانا باختلال في نظام الكون.. وما طلوع الشمس من مغربها إلا تغير في اتجاه الظل وعلامة قرب الساعة، وأقول الدنيا وزوالها.

فالميزان أشمل وأعمّ من تلك الآلة المستخدمة في التجارة، إنه كلّ ما يُقوّم العوج، ويقيم العدل في الكون وحياة الناس، وعليه فالقرآن الكريم ميزانٌ به تعادل وتستقيم البشرية:

- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ الكهف 1.

- ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ الإسراء 9.

ولهذا كانت حاجة البشر ملحّة لتعلّمه منذ خلقوا:

- ﴿الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3)﴾ الرحمن 1، 2، 3.

فكل الخلق محكومٌ بميزانٍ مُقدّرٍ بعلم، ووُضِعَ في محله بحكمةٍ مثلما أشارت إليه

أواخر السُّورة السابقة: سورة القمر:

- ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (49)  
- ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ (52)  
- ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ (53)  
- سورة القمر

كما نوّه بمواقع الأفلاك والنجوم التي هي في غاية الأحكام، واعتدال الميزان في

السورة اللاحقة سورة الواقعة:

- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ

(77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) سورة الواقعة.

فتره يربط بين هذا النظام العصي المتين والقرآن المبين والكتاب الحكيم.

فهناك العناية الفائقة التي تحكّم المواقع، وتحقق التوازن بين ملايير الأفلاك

السيّارة، والأجرام السبّاحة، بسرعة مذهلة فلا تضطرب ولا تتصادم حتى تقوم

الساعة، ولقد هال الأمرُ جمعاً من العلماء في منتصف الثمانينات (1986م) وتخوفوا من

توقع اصطدام مُذنب هالي بالأرض .

ففرع العالم آنذاك من اقتراب المذنب، وحشي من أثر الاصطدام المتوقع، وما علموا أنّ الله تعالى قد قدر كل شيء، ووضع الميزان، ولكلّ أجل كتاب ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ الأنعام 96، يس 38 . والله أعلم .  
آمنا به فسجدت له العقول، واطمأنت به القلوب.

## 5- تكرار لفظة الكذب

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ النحل 116  
تكررت لفظة (الكذب) هنا ثلاث مرات مُعَرَّفَةً منصوبة وقُرئت (الكذب) الأولى:  
الكذب: منصوبة بنزع الخافض، أي لما تصف ألسنتكم من الكذب.  
الكذب: مرفوعة على أنها صفة لألسنتكم.. والكذب جمع كذوب كرسول ورسول.  
الكذب: قرأ بها الحسن هنا خاصة بكسر الباء على البدل من (ما) والتقدير: ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم للكذب... أي:

«ولا تقولوا للكذب الذي تصفه ألسنتكم»<sup>1</sup>

أو صفة لما المصدرية حسب ما قاله الزمخشري: وإن لم يجز بعض النحاة وصف المصدر المنسبك من (ما) المصدرية والفعل. ولشناعة جرم الكذب عند الله وعظيم إثمه، كرر لفظ الكذب ثلاث مرات ليقرع الأسماع ويوقظ القلوب، ذلك أنّ الكذب من أبرز سمات المنافقين وأبعدها عن خلق المؤمنين:

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ النحل 105

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مَبِينًا ﴾ النساء 50

1- تفسير القرطبي 196/10. وأنظر البحر المحيط 606/6.

و كفى بالكذب شراً أن يكون مجرد سماعه معصية، وأن يُجمع بينه وبين أكل  
السّحت فكيف بفاعله:

﴿ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ المائدة 42.

وكيف به وهو في أقبح صورة وأبشعها إنه الكذب على الله والافتراء عليه وهو  
الوارد في الآية، وعلى تكرر لفظه ثلاث مرات.

- فالكذب الأولى: كذب على الله بالتقوّل عليه: هذا حلال وهذا حرام.

- والكذب الثانية: لتفتروا على الله الكذب ← كذب على الله صريح.

- والكذب الثالثة: يفترون على الله الكذب ← كذب على الله صريح أيضاً.

ولهذا رأينا فقهاء السلف يتحرّجون ويتورّعون من الحوْم حول ألفاظ التحريم  
والتحليل، وهم الموقّعون عن ربّ العالمين. فكيف بالدهماء والمنتسبين إلى العلم.

رُوي أن الأعمش قال: « ما سمعت إبراهيم قطّ يقول حلال ولا حرام، ولكن  
كان يقول: كانوا يكرهون وكانوا يستحبّون<sup>1</sup> »

وكان الإمام مالك يقول « لم يكن من فتيا الناس أن يقولوا هذا حلال وهذا  
حرام، ولكن يقولون: إياكم كذا وكذا، ولم آكن لأصنع هذا<sup>2</sup> »

ومن جهة أخرى قال الكسائي والزجاج: « (ما) مصدرية، وانتصب (الكذب)  
على المفعول به أي: لوصف ألسنتكم الكذب. ومعمول (ولا تقولوا)، الجملة من (هذا  
حلال وهذا حرام)<sup>3</sup> »

وقال الزمخشري: « جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه فإذا نطقت به ألسنتهم  
فقد حلّت الكذب بجليته وصوّرته بصورته<sup>4</sup> »

1- تفسير القرطبي 196/10

2- نفسه

3- البحر المحيط 606/6

4- الكشاف للزمخشري 433/2

وأنت تلاحظ أن العبارة الأولى سلكت مسلكا لطيفا وتعبيرا بليغا، ليس هناك أبلغ منه في التشنيع بهؤلاء الذين استمرأوا الكذب ودأبوا عليه حتى صار لهم خلقا؛ إذ جعل ألسنتهم لا تصف إلا الكذب وصار الكذب وصفا ملازما لها. وكان ألسنتهم تُجسّد الكذب بعينه: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب﴾

والمقصود القول، ولم يرد تصوير الكذب من القول بهذا التعبير إلا في سورة النحل في موطنين منها هما:

- ﴿وتصف ألسنتكم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مُفْرِطُونَ﴾  
النحل 42

- ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام﴾ النحل 116  
ولا شك أن الموسوم بل الموصوم هنا بالكذب هو ما تصفه ألسنتهم افتراءً على الله وهو مقول القول ومعموله وهو هنا: ﴿أن لهم الحسنى﴾ في الأولى تقديرا. و﴿وهذا حلال وهذا حرام﴾ في الثانية تحقيقا. والله أعلم.

## 6 - تكرار لفظة الكتاب

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ آل عمران 78.

قال ابن عباس: هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف غيروا التوازن وكتبوا كتابا بدلوا فيه صفة رسول الله ﷺ، ثم أخذت فريضة ما كتبوا فحاطوه بالكتاب الذي عندهم.

وقد أشارت إليها الآيات:

﴿قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا﴾ الأنعام 91

﴿يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب﴾ المائدة 15.

## الكتاب هنا التوراة والخطاب في ﴿تحسبوه﴾ للمسلمين

و مضمون الكتاب الذي ينسبونه إلى الله ﴿ويقولون هو من عند الله﴾ هو الافتراء على الله، والقول في عيسى عليه السلام وأمه أنها إلهان ﴿وقولهم على عيسى بن مريم بهتاناً﴾ ويدخل في مضمون ذلك أيضا ما يخفون من صفات النبي صلى عليه وسلم ويظهرون غيرها ﴿قراطيس تبدونها وتحقون كثيرا﴾ الأنعام 91.

﴿ويقولون هو من عند الله﴾ للتضليل قصدا وعملا. وفي هذا تشنيع بفعلهم وقولهم وافتراءهم ﴿ليا بألسنتهم وطعنا في الدين..﴾ النساء 46.

إذ يلوون ألسنتهم فيميلون بها عن الحق أو إلى أهوائهم وما في قلوبهم، في خبث، وتلاعب في إخراج الكلمات، وفي نبرها وتنغيها لتحسبوه من الكتاب.

وقد جاء رسول الله ﷺ ليكشف ما حرّفوا ويظهر ما أخفوا ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا ما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير...﴾ المائدة 15.

وقد جاءت (ليا بألسنتهم) في سياق تحريف الكلم عن مواضعه وقد تعدته قلوبهم ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ آل عمران 78.

﴿وإن منهم لفريقا...﴾ قيل إنهم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف.

وقد يلحق بهؤلاء بعض الطوائف المنحرفة ممن يلوون ويؤولون بعض الآيات وفق أهوائهم وبدعهم تضليلا وتديسا على من لا علم له ولا فطنة فيظن أنه الحق. وقدما قال المعري:

وكم من زنديق خابط في غوايته وحجته فيها الكتاب المنزل

غير أنهم هنا، لا يحرفون الألفاظ بزيادة أو نقص؛ لأنه لا مطمع لأحد في ذلك، بعد أن تكفل الله عز وجل بحفظه؛ وإنما هو تحريف تأويل.

بيد أن تحريف الألفاظ والعبارات بزيادة أو نقص أو نسبة لغير قائلها لا يزال قائما في نصوص الحديث الشريف أو بتحريف، يصرفه عن معناه إلى معنى غير صحيح .

فأنت ترى كم من باطل وبدع وأهواء، منسوبة إلى الدين الحنيف ألصقت به بل يُنَافَحُ عنها هوى وتعصبا، بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

ومن صور ليّ اللسان بالكتاب؛ الكيفية التي يقرأ بها ما أريد إدراجه في الكتاب، وإلحاقه به، بِتَخَشُّعٍ في القراءة، وتجويدٍ للصوت وتجبير له، ومطّاً للحروف، وإظهار السكينة، وتوقير المتلوّ وتقديره، وما إلى ذلك... ترويجا للباطل وإدحاضا للحق. ويوغلون في التحريف والتدليس حين يضيفون إلى تلك القراءة المضللة، التصريح بالقول: ﴿هو من عند الله﴾ وهم يعلمون يقينا أنه ليس من عند الله ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾

وأغلب ذلك وقع فيما يتعلق بأوصاف النبي الأمي الذي بشرت به التوراة والإنجيل، وكرر (الكتاب) هنا ليلفت النظر إلى أن هذا الكتاب الذي يعرضونه ليس من الكتاب المنزل وإنما هو كتاب آخر محرف.

كما أن تكرار الكتاب هنا مناسب لسورة آل عمران إذ ورد فيها لفظ الكتاب والحديث عنه حوالي 32 مرة وجاءت الإشارة إلى الكتب الثلاثة التوراة والإنجيل والفرقان في مطلع السورة. وهو مناسب جدا لذكر الكتاب ثلاث مرات في الآية التي نحن بصدددها. ولم تبلغ سورة أخرى هذا العدد الذي ورد في آل عمران ولا سورة البقرة على طولها؛ إذ كرر لفظ الكتاب فيها 27 مرة مع أنها تعالج قضايا الكتاب المنزل القرآن والتوراة.

قال الراغب: « فالكتاب الأول: ما كتبوه بأيديهم المذكور في قوله: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم﴾. والكتاب الثاني: التوراة، والثالث لجنس كتب الله، أي: ما هو من شيء من كتب الله سبحانه وتعالى وكلامه»<sup>1</sup>

و العجب: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء﴾ النساء 153. وكذلك يختلف الكتاب الأول عن الكتاب الثاني في قوله تعالى: ﴿وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به﴾ العنكبوت 47.

1- معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني /442.

فهو ليس بتكرار كما يبدو لأول وهلة. لاختلاف معانيه.

## 7 - تكرار إحداهما:

### في البقرة: فتذكر إحداهما

قال تعالى: ( أن تضل إحداهما فتذكر إحداها الأخرى ) البقرة/282

في قوله هنا ( إظهار في مقام الإضمار لأن مقتضى الظاهر أن يقول فتذكرها الأخرى، وذلك لأن الإحدى والأخرى وصفان مبهمان لا يتعين شخص المقصود بهما، فكيفما وضعتهما في موضعي الفاعل والمفعول كان المعنى واحدا، فلو أضمر للإحدى ضمير مفعول لكان المعاد واضحا سواء كان قوله - " إحداها " - المظهر - فاعلا أو مفعولا به، فلا يُظن أن كون لفظ " إحداها " - المظهر - في الآية فاعلا ينافي كونه إظهارا في مقام الإضمار لأنه لو أُظمر لكان الضمير مفعولا، والمفعول غير الفاعل كما قد ظنه التفتازاني لأن المنظور إليه في اعتبار الإظهار في مقام الإضمار هو تأتي الإضمار مع اتحاد المعنى. وهو موجود في الآية كما لا يخفى.<sup>1</sup>

ثم نكتة الإظهار هنا قد تحيرت فيها أفكار المفسرين ولم يتعرض لها المتقدمون.

قال التفتازاني في شرح الكشاف: (ومما ينبغي أن يتعرض له وجه تكرير لفظ "إحداها" ولا خفاء في أنه ليس من وضع المظهر موضع المضمير إذ ليست المذكرة هي الناسية إلا أن يجعل "إحداها" الثانية في موقع المفعول، ولا يجوز ذلك لتقديم المفعول في موضع الإلباس، ويصح أن يقال: فتذكرها الأخرى، فلا بد للعدول من نكتة).<sup>2</sup>

ويروى عن أبي عمرو بن العلاء وسفيان بن عيينة أن معنى (تذكرها) - حسب قراءة أبي عمرو- تُصيرها ذكرا في الشهادة؛ أي تجعل إحداها الأخرى ذكرا؛ لأنه إذا اجتمعتا كانتا بمنزلة الذكر.<sup>3</sup>

يقول الزمخشري عن هذا التفسير: « ومن بدع التفاسير "فتذكر" فتجعل إحداها الأخرى ذكرا»<sup>1</sup> وأشار أبو القاسم الحسين بن علي المغربي (ت418هـ) أن معناه

1- تفسير ابن عاشور، ج2، ص: 575.

2- نفسه.

3- أنظر البحر المحيط 734/2 والقرطبي 397/3 وغرائب التفسير وعجائب التأويل 91/3

« أن تَضِلَّ إحدى الشهادتين عن إحدى المرأتين فتذكرها بها المرأة الأخرى، فجعل "إحدى" الأولى للشهادة والثانية للمرأة وأيده الطبرسي»<sup>2</sup>.

وذكر الألوسي في وجه العدول عن قوله "فتذكرها" إلى قوله ﴿ فتذكر إحداهما الأخرى ﴾ أنه رأى في طراز المجالس أن الخفاجي سأل قاضي القضاة شهاب الدين الغزنوي عن سر تكرار "إحدى" مُعْرَضًا بما ذكره أبو القاسم الحسين ونظم السؤال فقال:

يارأس أهل العلوم السادة البرره  
ماسرّ تكرار "إحدى" دون تُذكَرُها  
وظاهر الحال إيجاز الضمير على  
وحملُ الإحدى على نفس الشهادة في  
فَعُضْ بفكرك لاستخراج جوهره  
ومن نداه على كل الورى نشره  
في آية لذوي الأشهاد في البقرة  
تكرار إحداهما لو أنه ذكره  
أولاهما ليس مرضيا لدى المهره  
من بحر علمك ثم ابعث لنا درره  
فأجابه الغزنوي

يا من فوائده بالعلم منتشره  
يا من تفرد في كشف العلوم لقد  
تَضِلَّ إحداهما فالقول مُحْتَمِلٌ  
ولو أتى بضمير كان مُقْتَضِيًا  
ومَن رددتم عليه الحل فهو كما  
هذا الذي سمح الذهن الكليل به  
ومن فضائله في الكون مشتهره  
وافى سؤالك والأسرار مستترة  
كليهما فهي للاظهار مفتقره  
تعيينَ واحدة للحكم معتبره  
أشترتم ليس مرضيا لمن سبره  
والله أعلم في الفحوى بما ذكره

وقد أشار السؤال والجواب إلى ردِّ على جواب أبي القاسم المغربي في تفسيره؛ إذ جعل إحداهما الأولى مرادا به إحدى الشهادتين، وجعل تَضِلَّ بمعنى تتلف بالنسيان، وجعل إحداهما الثانية مرادا به إحدى المرأتين. ولما اختلف المدلول لم يبق إظهار في

1- الكشف 403/1

2- تفسير المنار 123/3

مقام الإضرار، وهو تكلف وتشتيت للضائر لا دليل عليه... وهو الذي عناه الغزنوي بقوله: { ومن رددتم عليه الحل...إلخ }<sup>1</sup>.

والذي أراه أن هذا الإظهار في مقام الإضرار جاء لعدة وظائف، فالإظهار يحرر الجملة الثانية ويجعلها مستقلة وإن ارتبطت بالفاء فيوحي ذلك بأن العلة في اشتراط إمرأتين مزدوجة، فكل جملة منهما تمثل طرفا مستقلا:

1- (أن تضل إحداهما) ← أي مخافة أن تضل الشاهدة أو تنسى.

2- (فتذكر إحداهما الأخرى) ← وهذه من أجل أن توجد المذكرة.

وهذا تعزيز للشهادة وتقوية لها، من أجل حفظ مصالح العباد؛ فهو صورة من الإحتياط لما يُتوقع.

كما أن موقع "إحداهما" فاعل في الجملتين على الأرجح ولكنه معمول لفاعلين مختلفين:

- "أن تضل" عامل في الفاعل الأول (إحداهما)

- "فتذكر" عامل في الفاعل الثاني (إحداهما)

وحسب ما تقتضيه الصناعة النحوية فإنه لا يجوز تقديم المفعول به في الجملة الثانية فإذا إضمرت "إحداهما" فتقول (فتذكرها الأخرى) أصبحت مفعولا به فاعله (الأخرى).  
بيد أن السياق آثر الإختيار الأول وهو الإظهار. ومن التعسف أن تفسر العبارة على أساس الإضرار وهي في سياق الإظهار، حيث ينقلب الفاعل مفعولا والمفعول فاعلا.

فالإضرار يرفع الإحتمال حيث يتعين الفاعل من المفعول (فتذكرها الأخرى). ولكن الإظهار يُدخل الإحتمال وهو غرض مقصود؛ إذ يحتمل فيه أن تذكر الثانية الأولى كما يمكن أن تكون كلتا المرأتين ناسية ومذكّرة في آن واحد وهو ما يوحي به لفظ

1- تفسير ابن عاشور ج2/577 وانظر تفسير المنار ج3/124

"إحداهما" وإعرابها فلا تزال إحداهما تذكر الأخرى مخافة أن تضل إحداهما أو تنسى فكأنَّ إحداهما للأخرى واعظ من نفسها. والله أعلم.

ذكر أن قاضيا أراد أن يفرق في شهادة بين امرأتين ليسمع من كل منهما على إنفراد، فقالت له إحداهما لا يصح لك أن تسمع مني ولا منها على إنفراد لتوازن بعد ذلك بين الشهادتين فإن الله تعالى يقول: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ فعدل القاضي عن رأيه.

والتعبير "بإحداهما" و"بالأخرى" يوحي ظاهره بالتسوية بين المرأتين في التعامل فالاسمان مقصوران لا تظهر عليهما الحركة، ودلالة اللفظ يصح حملها على أي من المرأتين. وقد اجتمعتا أيضا في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ فالأمر هنا ينطبق على إحدى الطائفتين دون تمييز أو تعصب أو ميل، لوجوب العدل في المعاملة: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾ دون أي اعتبار آخر.

### - في القصص: قالت إحداهما

وكذلك تكررت لفظة "إحداهما" في قصة زواج موسى عليه السلام من إحدى ابنتي شعيب عليه السلام بإعادة هذا اللفظ الذي يوحي بأن عرض شعيب تزويج موسى إحدى ابنتيه كان فيه تخيير له بينهما. دون أن يلزمه بالكبرى أو الصغرى، فالعرض صريح: ﴿... أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ في حضورهما بدليل الإشارة (هاتين).

وبالتعبير بـ ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ دون أن يقول ﴿قَالَتْ الْأُخْرَى﴾ فتكون هذه هي القائلة والأخرى هي الماشية على استحياء فينقسم الفضل بينهما.

وإنما عبر بـ "إحداهما": ليبرز الجميع وكأنه واحدة هي الماشية وهي القائلة وهي المتزوجة كما جاء في حديث روي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال له رسول الله ﷺ: «إن سئلت أي الأجلين قضى موسى قتل خيرهما وأوفاهما، وإن سئلت أي

المرأتين تزوج فقل الصغرى وهي التي جاءت خلفه وهي التي قالت: ﴿يَأْبَتِ اسْتَأْجِرَهُ  
إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرَ الْقَوِي الْأَمِينُ﴾ 26/القصص<sup>1</sup> «

وقيل اسمها صفوريا وهي التي خلعت عليها الآية حلّة من الجمال والفضل: جمال  
حياء في مشية، وفضل رجاحة عقل في فِراسة. قال عنها عبد الله بن مسعود رضي  
الله عنه: «أفرس الناس ثلاثة: بنت شعيب وصاحب يوسف في قوله: ﴿عَسَى أَنْ  
يَنْفَعَنَا﴾، وأبو بكر في عمر.»<sup>2</sup> والله أعلم.

---

1- تفسير القرطبي: 273/13

2- البحر المحيط 299/8

# الفصل الثالث

ما اختلف من المكرر

في

تذكير أو تنكير أو تأخير وأسراره

## - أولاً: ما تشابه نظمه واختلف في التأنيث والتذكير:

قد وردت في القرآن الكريم سورٌ من المتشابه اللفظي، أُسِنِدَ فيها تارةً للمؤنث في موضع من سورة، وأُسِنِدَ في موضع آخر للمذكر والمتحدّث عنه واحد.. فتستوقف المتدبّر، وتأخذُ حظّها من التفكير والتأمّل وهو شأن القرآن يُضَمِّنُ في الأساليب ما يُحدِثُ حركةً ونشاطاً في الأذهان، وسنلمس شيئاً من هذا في النماذج الآتية أثناء التحليل:

- 1- بين سورة النحل وسورة المؤمنون: (بين بطونه وبطونها):
    - ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نَسَقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ النحل 66.
    - ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نَسَقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ المؤمنون 21.
  - 2- وبين سورتي الأنبياء والتحريم: ( فنفخنا فيها، ونفخنا فيه):
    - ﴿ وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَزَجَّهَا فَفَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا... ﴾ الأنبياء 51.
    - ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْتَ فَزَجَّهَا فَفَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ التحريم: 12.
  - 3- وبين سورتي آل عمران والمائدة: ( فانفخ فيه، وفتنفخ فيها):
    - ﴿ إِنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ ﴾ آل عمران 49.
    - ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا ﴾ المائدة 110.
  - 4- وبين ما جاء في السور: الفرقان والزخرف وق، ﴿ بلدةً ميتة ﴾، وجاء في السورتين: الأعراف وفاطر: ﴿ بلدٍ ميّت ﴾.
  - 5- وبين سورتي: القمر والحاقة:
    - ﴿ كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ القمر 20.
    - ﴿ كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ الحاقة 7.
- حيث وُصِفَت (أعجاز النخل) مرةً بمذكر (منقعر)، ومرةً بمؤنث (خاوية) في قصة واحدة.

## بعض الأحكام في التأنيث:

وبين يدي تناؤل هذه النماذج بالتحليل رأيت من المناسب أن أشير إلى بعض الأحكام، والقواعد اللغوية التي تتعلق بالتأنيث، والتي سيُصادفها القارئ أثناء متابعة التحليل والتعليل، فيزولُ كثيرٌ من الغموض الذي قد يعترى.

وتتلخَّص هذه القواعد في:

1- أنَّ المذكرَ أصلٌ والمؤنَّث فرعٌ قال سيبويه: (واعلم أنَّ المذكرَ أخفَّ عليهم من المؤنَّث لأنَّ المذكرَ أوَّل، وهو أشدُّ تمكُّناً؛ وإِنَّمَا يخرجُ التأنيث من التذكير)<sup>1</sup>.

والشيء يختصُّ بالتأنيث فيخرجُ من التذكير. ولما كان المؤنَّث بهذه المنزلة احتاج إلى علامةٍ للاستدلال عليه.

وعلامات التأنيث اللفظية في الأسماء والصفات هي التاء والألف المقصورة والألف الممدودة.

ويرى إبراهيم السامرائي أن الفتحة بصورته الصوتية في: ليلةٌ وليلى وليلاء هو الأصل الذي ترجع إليه علامات التأنيث المختلفة.

- وهناك التأنيث المعنوي وهو ما خلا لفظه من تلك العلامات، ويُستدلُّ على تأنيثه بالضمير العائد عليه وبأسماء الإشارة.

- ونُبِّه إلى أن تاء المؤنَّث اللفظي ليست دائماً دليلاً على أنَّ الاسم مؤنَّث: إذ لها وظائف أخرى:

- فهناك من الأسماء والصفات المذكورة التي تلحقها هذه التاء نحو: أسامة وعنترة وحمزة... وبهمة وربعة وعمدة

- وهناك التاء اللازمة وهي التي لا يصحُّ حذفها لأنها جزءٌ من بنية الكلمة نحو: البكرة - الأمسية - البؤرة - القرية.

1- الكتاب- لسبويه ج 1 ص 6. وانظر: مدخل لدراسة المؤنثات السماعية- د.حامد القنبي- ضمن بحوث كلية اللغة العربية- جامعة أم القرى - العدد الرابع ص 145، 146.

- والتاء المصدرية نحو: توصية - تربية - تزكية ...  
 - وتاء المبالغة مثل: نَسَابَةٌ - عَلَامَةٌ - ذَوَّاقَةٌ - طُلَعَةٌ - غُمَزَةٌ...  
 - تاء التمييز بين الواحد وجنسه نحو: ثمرة - نخلة - شجرة - نخلة -  
 - تاء الحرفة نحو: التجارة - النجارة - السفارة - السقاية... الكهانة.  
 - تاء العوض من حرف زائد لمعنى: أشاعرة [أشعر = أشعري] أشاعثة [أشعث =  
 أشعثي]

- تاء العوض من من حرف زائد لغير معنى نحو: زَنَادِقَةٌ.  
 - تاء عَوْضٍ عن عين الكلمة مثل: إقامة - إجابة - إجابة  
 وإن شئت تركت الحروف على الأصل: إقام - إجاب ...  
 - تاء عَوْضٍ عن لام الكلمة نحو: لغة - سنة - شفة...  
 - تاء للدلالة على تعريب الأسماء المعجمة نحو: كَيْبَلَجَه = كَيْبَالَجَةٌ بدل كَيْبَالَجٍ للدلالة على أن  
 الأصل أعجمي معرب (مكيال). الجورب = الجوارية - والموازجة: جمع الموزج وهو  
 الحُفُّ<sup>1</sup>.

- وهناك المؤنث التأويلي، وذلك حين يذهب بالمدكر مذهب المؤنث أو  
 العكس، اعتمادًا على تأويل أحدهما بالآخر لغرض بلاغي<sup>2</sup> كقولهم: هذه الصوت؛ لأنه في  
 معنى الصيحة.

قال ابن منظور: (وربما أنثت العربُ الحداث، يذهبون به إلى الحوادث)<sup>3</sup>.  
 غير أنه - كما قال ابن جني - (وتذكيرُ المؤنثِ واسعٌ جدًّا؛ لأنه ردٌّ فزعٍ إلى أصلٍ،  
 لكن تأنيثُ المدكرِ أذهبُ في التناكرِ والإغراب)<sup>4</sup>

1- أنظر: مدخل لدراسة المؤنثات السماعية- د.حامد القنبي ص 152 - 156.

2- أنظر المرجع السابق ص 149.

3- لسان العرب- (مادة: حدث) 2 / 132 .

4- الخصائص - لابن جني 2 / 415.

إِذْ حَمَلُ الْفَرْعِ عَلَى الْأَصْلِ أَوْلَى وَأَلْيَقُ.

- وقد يؤنَّث المذكر أو يذكر المؤنَّث رعاية للمضاف إليه، وتنبهًا على أنَّ المضاف جزءٌ منه كقول الأعشى:

كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ<sup>1</sup>

- يقول ابن جنِّي: (فإن شئت قلت: أنتَ لأنَّه أرادَ القنَاةَ، وإن شئت قلت: إنَّ صَدْرَ القنَاةِ قنَاةٌ)<sup>2</sup> حيث يكتسب المضاف حكم المضاف إليه إذا كان صالحًا للحذف والاستغناء عنه بالمضاف إليه.

- أو يُذكر المؤنَّث من باب حذف المضاف المذكر، ليلتفت إلى المحذوف (بتذكير المؤنَّث).

- أو من باب حذف الموصوف وإقامة الصِّفة محلَّه.

- أو من باب الاستغناء بأحد المذكورين عن الآخر لكونه تبعًا له ومعنى من معانيه كقوله تعالى: ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ الشعراء: 4. على غرارِ قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ ﴾ التوبة: 62.

أو لتلازم المعنيين فلا ينفك أحدهما عن الآخر.. فيصحُّ إرادة المعنيين معًا.

وهذه الاعتبارات كلها فسَّرَ بها قوله تعالى:

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ الأعراف 56.

فازدحمت بباب هذه الآية من المعاني اللطيفة والتَّخريجات الدقيقة الحرِّيَّة بِطُفِّ

اللَّهِ وإِحسانه، وبمَدَى تمكين المُحسنين من رحمته القائمة بذاته سبحانه وتعالى.

1- ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس- تحقيق د.محمد محمد حسين- نشرة مكتبة الآداب بالجماميز- ط: 1 (المطبعة النموذجية) ص 123. وتمام البيت:

وَتَشْرِقُ بِالْقَوْلِ الَّذِي قَدْ أَدْعَتْهُ \*\*\* كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ

2- نفس المصدر 2/ 417.

وقد أجاد ابن القيم، رحمه الله، وأفاد: في عرض وجوه تخريج الإخبار عن (الرحمة) وهي مؤنثة بـ (قريب) وهو مذكّر. وحصرها في اثني عشر مسلكاً، وبين ما فيها من قوّة وضعف وما هو بين ذلك<sup>1</sup>.

وغرضنا من عرض هذه الأحكام، لا لنحمل كلام الله عزّ وجلّ على الاحتمالات النحوية والإعرابية دون النّظر إلى اعتبارات أخرى.. ولا لنحكم على صحّة التأنيث أو التذكير في العبارة..فذلك ما لا سبيل إليه؛ إذ القرآن يُصوّب القواعد ولا تُصوّبه القواعد؛ لأنّها مُستنبطةٌ منه أصلاً. وإنّا الغرض أن يُبحثَ عن العلة والسّرّ في مخالفة ظاهر القاعدة؟ وعن المناسبة في ورود التأنيث هنا، والتذكير هناك؟ ..

وسنتناول الآن تلك النماذج بالتّحليل. ونُنبّه مذكّرين، إلى أنّ هناك جوانب أخرى أسلوبية في هذه النماذج، ولكن اقتصرنا على ما يتعلّق بالتذكير والتأنيث التّزاماً بمقتضيات البحث.

### 1- بين سورة النحل وسورة المؤمنون: (بُطونه وبُطونها):

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَتُسْقِيَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل: 66]

وقال في سورة المؤمنون: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَتُسْقِيَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [المؤمنون: 21]

وردت في النحل ﴿ فِي بُطُونِهِ ﴾ بالتذكير وفي المؤمنون ﴿ فِي بُطُونِهَا ﴾ بالتأنيث والمتحدّث عنه في الآيتين واحد.

وهو إشكال استوقف النحويين واللغويين والمفسرين وغيرهم. فذكر النحاة أن الأنعام من الكلمات التي لفظها مفرد ومعناها جمع، فيجوز تذكيرها حملاً على اللفظ، وتأنيثها حملاً على المعنى.

1- بدائع التفسير. ابن قيم الجوزية . ج 2. ص 237.

وقال المبرد، وهذا شائع في القرآن الكريم نحو قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا  
قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي أَي هَذَا الشَّيْءُ الطَّالِعُ.  
وقوله تعالى: ﴿ إِن هَذِهِ...شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ أَي ذَكَرَ هَذَا الشَّيْءَ<sup>1</sup>  
وقال الكسائي "﴿ مِمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ أَي مِمَّا فِي بَطُونِ بَعْضِهِ إِلَّا الذُّكُورَ لَا أَلْبَانَ  
لَهَا"<sup>2</sup>

وقال ابن العربي: "إنما رجع التذكير إلى معنى الجمع، والتأنيث إلى معنى الجماعة،  
فذكره هنا باعتبار لفظ الجمع، وأنته في سورة المومنون، باعتبار لفظ الجماعة فقال: ﴿  
نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ وبهذا التأويل ينتظم المعنى انتظاماً حسناً"<sup>3</sup>.  
ويعلل أبو حيان تذكير الأنعام وتأنيثها في الآيتين فيقول: "لأن التأنيث والتذكير  
باعتبار وجهين، وأعاد الضمير مذكراً مراعاة للجنس لأنه إذا صحَّ وقوع المفرد الدال على  
الجنس مقام جمعه جاز عوده عليه مذكراً كقولهم: هو أحسن الفتيان وأنبه، لأنه لا  
يصح: هو أحسن فتى، وإن كان هذا لا ينقاس عند سيبويه، وإنما يقتصر فيه على ما  
قالته العرب"<sup>4</sup>.

ويحاول القمّي أن يعلل ذلك اعتماداً على النظر في موضع اللفظتين فيقول: "   
ولعل السرّ في أنّ الضمير في هذه السورة (أي سورة النحل) يعود إلى البعض وهو  
الإناث، لأنّ اللبّن لا يكون للكل فالتقدير: وإنّ لكم في بعض الأنعام لعبرة نسقيكم مما في  
بُطونه. وأمّا في المومنون فإنّه لما عطف عليه ما يعود على الكل ولا يقتصر على البعض  
وهي قوله: ﴿ ولكم فيها منافع ومنها تأكلون ﴾ لم يحتمل أن يكون المراد به البعض، فإنّ  
ليكون نصّاً على أنّ المراد بها الكل"<sup>5</sup>

1- أنظر تفسير غرائب القرآن 86/14.

2- تفسير القرطبي 124/10.

3- نفس المصدر.

4- البحر المحيط 554/6.

5- غرائب القرآن 86/14.

والمتبع للأنعام في القرآن الكريم يجد أنّ اللفظة وردت فيه حوالي 31 مرة لم تستعمل في سياق التذكير إلا مرة واحدة في آية النحل هذه ﴿ نسقيكم ممّا في بطونه ﴾ بينما جاءت على الأصل في بقية المواقع.

وفي سياق التأنيث الصّريح في عشرة مواضع أذكر منها:

- ﴿ وقالوا هذه أنعام... ﴾ 138- الأنعام.
- ﴿ وأنعام حرمت ظهورها ﴾- 138 الأنعام
- ﴿ ما في بطون هذه الأنعام ﴾ 139- الأنعام
- ﴿ وأحلّت لكم الأنعام ﴾- 30 الحج.
- ﴿ نسقيكم ممّا في بطونها ﴾ 21- المومنون.
- ﴿ تأكل منه أنعامهم وأنفسهم ﴾- 27 السجدة.
- ﴿ أنعاماً فهم لها مالكون وذلّلناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ 71-72 يس
- ﴿ ويأكلون كما تأكل الأنعام ﴾ محمد 12.

فتأنيث لفظة (الأنعام) أصيل وهو الأصل الذي استعمله القرآن وتذكير الضمير العائد عليها في موضع واحد في القرآن يدل على أنه أمر مقصود في ذلك الموضع لحكمة وغرض.

وليس قصارى الجهد في مثل هذا الموقف أن يُردّ اللفظ المذكّر إلى التأنيث بحجة أنّه وَرَدَ في القرآن مؤنثاً، على سبيل التأنيث التأويلي. ولا أن يُقال فيه أن (الأنعام) من الألفاظ التي يجوز فيها التذكير والتأنيث والآيات شاهدة على ذلك. ونكتفي بهذا التأويل .

والذي يبدو لي أنّ التّعبير جاء بالتذكير على غير ظاهر اللفظ فالتذكير هنا مقصود لا يؤول بمؤنث تخلصاً من الأشكال وإنما هو تنبيه مقصود وإشارة مُرادَة تُشحذ لها الأذهان وتُستحثُّ لها العقول والقراخ.

فالضمير في ﴿ ممّا في بطونها ﴾ في سورة المؤمنون لا يثير استغراباً لأنّه يجري على الأصل. فالأنعام مؤنثة، وليس تأنيثها هنا لنفي الذكور منها، والتركيز على الإناث باعتبار مصدر الألبان فذاك أمر مُستفادٌ من الواقع المعلوم بالضرورة.

وإنما الأمر في ورود الضمير العائد على الأنعام مذكراً في سورة النحل ﴿ نسقيكم مما في بطونه ﴾.

والظاهر أنّ المقام الجديد اقتضى التذكير هنا والتأنيث هناك، ففي سورة (المؤمنون) نلاحظ سياق التأنيث هو الغالب في ربط عناصر الآية:

- ﴿ نسقيكم مما في بطونها ﴾

- ﴿ ولكم فيها منافع كثيرة ﴾

- ﴿ ومنها تاكلون ﴾ 21.

- ﴿ وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ 22

والفلك يذكر ويؤنث ويغلب عليه التأنيث<sup>1</sup>، قال تعالى في سورة هود:

- ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا

آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ 40

- ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ 41

- ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا

وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ 42

- ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ 44

وقال في سورة يونس: ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم ....جاءتها ريحٌ

عاصفٌ ﴾ 22

بينما ذكرت الفلك في الشعراء والصفات ويس:

- ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذرياتهم في الفلك المشحون (41) وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾

(42).

والمرجح أنّ الفلك في الآية هنا مؤنثة لسببين:

1- ذكر لفظ (الفلك) في القرآن 23 مرة:

- في عشرٍ يحتمل التذكير والتأنيث.

- وفي عشرٍ أخرى حُمِلَ على التأنيث.

- وفي ثلاثٍ حُمِلَ على التذكير.

- أولهما: أنها في سياق التأنيث كما المعنا.

- وثانيهما: أنها وردت مؤنثة في قصة نوح عليه السلام بعدها مباشرة:

- ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون (22) ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه...﴾ إلى أن يقول: ﴿فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحيناً فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها منكل زوجين اثنين...﴾ (27) المومنون.

أما في سورة النحل فيبدو سياق التذكير هو الغالب، ابتداءً من مخالفة الضمير للظاهر في ﴿مما في بطونه﴾ ثم الفرث فالدم فاللبن الخالص ثم بعدها تذكير الثمرات بدل تأنيثها: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا...﴾ (67). قال (منه) ولم يقل (منها).

وإذا كان التذكير هنا هو أبرز سمة مميزة لآية النحل عن شبيهتها في سورة المومنون، فإن التأمل فيه قد أخذ بأيدينا وأوقفنا على فروق أخرى لم ننتبه إليها من قبل. منها:

أنه صرح بذكر اللبن في آية النحل ﴿لبناً خالصاً﴾ واكتفى بالإشارة إليه على سبيل التضمن في آية المومنون ﴿نستقيم مما في بطونها﴾.

وأن العبرة في (المومنون) عامة غير محددة ولا معينة، بينما في (النحل) تحملها إليك، ونضعها بين يديك، إذ العبرة فيها في كون السقيا من بين فرث ودم ومع ذلك هي ساعة للشاربين، لا يجد فيه الشارب إلا طعاماً لذيذاً، وريحاً طيباً، فلا ينفر منها طبع ولا يعافها ذوق...

إن الآية باهرة في خلوص اللبن من مادتين، تنفر منها الطباع السليمة، حقاً إنه محل التأمل لأولي الأبواب الذي أرشد إليه تذييل آية النحل بعدها:

﴿إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾ (67) وبعدها ﴿إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ (69).

ثم إن سياق الآيات في سورة النحل يركز على نعمة السقيا، والأشربة المختلفة المصادر، والمتنوعة الطعوم والفوائد، فهي على التوالي:

1- إنزال من السماء يحي البلاد والعباد. أنظر الآية 65.

- 2- الألبان لذة للشاربين. أنظر الآية 66. وهو غذاء كامل كان ﷺ يقول عنه: " اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه"<sup>1</sup>، وروى أيضا أنّ اللبن لم يشرق به أحد قط.
- 3- الحمر والنبيد والسكر قبل أن يحرم ← انظر الآية 67.
- 4- العسل وسمّاه شراباً. ← انظر الآية 69.

وفي هذه جميعاً مجال للتدبر والتفكير فقد ذُيِّلت الآيات فيها على التوالي:

- ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65)... لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67)... لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69)﴾.
- ثمّ أنّه لم يذكر لفظ (اللبن) في القرآن إلاّ مرتين في هذه الآية من سورة النحل. وفي سورة محمد ﷺ عند ذكر نعيم الجنة والعجيب اللطيف أنّه ورَدَت على نفس الترتيب، نعم الدنيا ونعيم الآخرة هكذا: الماء فاللبن فالخمر فالعسل: قال تعالى: ﴿مثلُ الجنة التي وُعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسنٍ وأنهار من لبنٍ لم يتغير طعمه وأنهار من خمرٍ لذةٍ للشاربين وأنهار من عسلٍ مصفى... (15)﴾ سورة محمد.

- بينما التركيز في سورة المؤمنين على المأكول

- إذ ذكر إنزال الماء من السماء وما ينشأ عنه من مختلف الأكل ﴿ومنها تأكلون﴾.
- ﴿فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون﴾ 19.
- ثم ذكر الزيت باعتباره إداماً للأكل ﴿تنتب بالدهن وصبغ للأكلين﴾ 20.
- ثم جاءت الإشارة إلى البن دون أن يذكر الشراب وختمت آيته ﴿ومنها تأكلون﴾ 21.
- وهذا كله، لم ترد الإشارة إليه في الآية المشابهة لها من سورة النحل. وعلى هذا يجدر التأمل والتدبر في محل العبرة فإنها وإن اتفقت في الظاهر في الجزء الأول من الآيتين: ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم من بطونها...﴾ المؤمنون.
- ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه﴾ النحل.

1- هذا جزء من حديث رُوي عن ابن عباس أن النبي ﷺ أتى بلبن فشرب ثم قال: "إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل: اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه، وإذا سقي لبناً فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه فإنه ليس شئٌ يجزي عن الطعام والشراب إلاّ اللبن". رواه أبو داود وغيره. أنظر القرطبي ج10/127.

فقد اختلفت ابتداء من الضمير العائد على الأنعام، ثم فيما بعد الضمير.  
فحمل العبرة في النحل في نص الآية: ﴿ نسقيكم مما في بطونها من بين فرث ودم  
لبننا خالصا سائغا للشاربين ﴾.

وليس الشأن في خروج اللبن أبيض صافيا مغايرا للون الفرث والدم فحسب  
ولكن الشأن في خلوصه في الطعم والرائحة طيبا ولذة تستسيغه الحلوق وتتأهب له  
العروق: ﴿ خالصا صائغا للشاربين ﴾.

فالعبرة بخلوص البن حسب النظر البسيط، والتأمل العميق، كل وفق ما تيسر  
له عبر الأجيال والقرون، من البحوث والعلوم.

فإن التعامل مع القرآن يجب أن يكون تلاوة وتدبرا امتثالا لقوله تعالى: ﴿ أفلا  
يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ 82 النساء.  
﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ 24 سورة محمد.

فإذا كان هذا في حق غير المؤمنين. فلا شك أنه في حق المؤمنين به أوجب.  
ليت شعري إلى أي مدى يبلغ بنا التدبر في مثل هذه الآيات اليوم وقد بلغ علم  
الأحياء والتشريح بوسائله الدقيقة أمدا بعيدا لم يخطر على بال أحد من قبل.  
فهذه الآية تهيب بأهل الاختصاص والذكر، من أهل هذا العصر، أن يتدبروا  
من جديد في هذه العبرة، بما أمدهم الله من خبرة، وحباهم من علم، وإني على يقين أنهم  
سيجدون في هذه الإشارة القرآنية، ما يحير الألباب، ويثير الإعجاب، فهو الذي لا  
تنقضي عجائبه، ولا تنتهي غرائبه.  
ويبلغ بهذه العبرة غايات أخرى.

ولقد دأب السلف الصالح على تلاوة التدبر والتفريس في المعاني على قدر ما  
أوتوا من العلم، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا....

رائدهم في ذلك ابن عباس رضي الله عنهما الذي يقول عن هذه الآية:

"إذا استقر العلف في الكرش صار أسفله فرثاً وأعلاه دماً، وأوسطه لبناً خالصاً، فيجري الدم في العروق، واللبن في العروق، واللبن في الضروع، يبقى الفرث كما هو فذاك قوله تعالى: ﴿من بين فرث ودم لبناً خالصاً﴾ لا يشوبه دم ولا فرث"<sup>1</sup>.  
ويقول الزمخشري رحمه الله:

"يخلق الله اللبن وسيطا بين الفرث والدم يكتنفانه، وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا ينبغي أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة، بل هو خالص من ذلك كله... والكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها، فتجري الدم في العروق، واللبن في الضروع، وتبقى الفرث في الكرش.

فسبحان الله ما أعظم قدرته، وألطف حكمته لمن تفكر وتأمل"<sup>2</sup>

واعترض الإمام أبو عبد الله الرازي على تفسير من اعتبر أن تلك الثلاثة تتوالد في موضع واحد، لأن هذا القول على خلاف الحس والتجربة، فلا يرى في كرشه دم ولا لبن. وإنما الحقيقة هي أن الغذاء حين يهضم في الكرش فينزل الكثيف منه إلى الأمعاء وينحدر الصافي منه إلى الكبد "فينطبخ فيها ويصير دماً، وهو الهضم الثاني مخلوطاً بالصفراء والسوداء وزيادة المائية، فتذهب الصفراء إلى المرارة، والسوداء إلى الطحال، والماء إلى الكلية، وخالص الدم إلى الأوردة وهي العروق النابتة من الكبد فيحصل الهضم الثالث. وبين الكبد وبين الضرع عروق كثيرة ينصب الدم من تلك العروق إلى الضرع... فينقلب من صورة الدم إلى صورة اللبن فهذا هو الصحيح في كيفية تولد اللبن"<sup>3</sup>

تتمثل: علق أبو حيان على قول الرازي، إن البنية تتحمل أن تكون باعتبار المكانية حقيقة كما قاله المفسرون الذين اعترض الرازي عليهم. ويحتمل أن تكون البنية مجازية باعتبار ذلك التوالد الناشئ بعضه عن بعض كما قاله الرازي.<sup>4</sup>

1- رواه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنظر غرائب القرآن ج 86/14.

2- تفسير الكشاف-ج2/416.

3- أنظر البحر المحيط - ج 6/556.

4- أنظر المصدر السابق.

وفي النصف الأول من القرن العشرين وجدنا الأستاذ أحمد مصطفى المراغي يعرض عن تلك التفاصيل ويلخص العبرة في أن العلف إذا هضم تحول بإذن الله تعالى "إلى عصارة نافعة للجسم....، ومن هذه العصارة يتكون الدم الذي يسري في عروق الجسم لحفظ الحياة، وبعض هذا الدم يذهب إلى الغدد التي في الضرع فتحولها إلى لبن"<sup>1</sup>.

وبعد منتصف القرن العشرين يسيطر الأسلوب العلمي بفضل تقدم البحث العلمي في الذرة والخلية، واقتبسه علماء التفسير ودارسوا الإعجاز فترى السيد قطب يقول عن تلك الآية:

"وعمليّة تحول الخلاصات الغذائيّة في الجسم إلى دم، وتغذية كل خلية بالمواد التي تحتاج إليها من مواد هذا الدم، عملية عجيبة فائقة العجب، وهي تتم في الجسم في كل ثانية، كما تتم عمليات الاحتراق، وفي كل لحظة تتم في هذا الجهاز الغريب عمليات هدم وبناء مستمرة لا تكف حتى تفارق الروح الجسد... وعمل الخلية الواحدة في الجسم في هذه العملية، عجب لا ينقضي التأمل فيه.

وقد بقي هذا كله سرا إلى عهد قريب. وهذه الحقيقة العلمية التي يذكرها القرآن هنا عن خروج اللبن من بين فرث ودم لم تكن معروفة لبشر."<sup>2</sup>

ولا شك أن أمر هذه العملية المعقدة، سيكون اليوم، بعد مرور نصف قرن على عصر السيد قطب، أغرب وأعجب في منظور علوم الطبيعة والحياة.

**2 - بين سورتى الأنبياء والتحريم:** (فنفخنا فيها، ونفخنا فيه):

**3 - بين سورتى آل عمران والمائدة:** (فأنفخ فيه، فتنفخ فيها):

1- تفسير المراغي - أحمد مصطفى المراغي ج14/ 103- دار إحياء التراث بيروت.

2- في ظلال القرآن - ج2/ 2180.

2 و 3 - : ومنتقل إلى أنموذج آخر أنت فيه المذكر بالمقارنة بشبيهه وذلك في قوله تعالى: ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ 91 الأنبياء. حيث ورد الضمير مؤنثا في (فيها)، بينما ورد مذكرا في سورة التحريم:

﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا...﴾ 12 التحريم.

وإن أليق ما يفسر به تأنيث المذكر هنا من الوجهة اللغوية هو أن يكتسب المضاف حكم المضاف إليه، فيطابقه الخبر أو الضمير العائد عليه. وعلى الخصوص إذا كان المضاف جزءا من المضاف إليه، فيتعلق الضمير أو الوصف بالمضاف إليه المؤنث عوض المضاف المذكر أو العكس.

فأنت (فيها) تبعا للمضاف إليه (فرجها) وهو مؤنث.

وكذلك الأمر في قوله تعالى:

- ﴿إني أخلق لكم من الطير كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طائرا بإذن الله﴾ 49 آل عمران.

بينما جاءت مؤنثة على الأصل (فيها) في سورة المائدة:

- ﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طائرا بإذني...﴾ 110 المائدة.

وهذا المسلك هو أحد الوجوه التي خرجت بها بعض الآيات منها قوله تعالى ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ 56 الأعراف بدل (قريبة).

وقوله عز من قائل: ﴿فظلت أعناقهم لها خاضعين 4﴾ بدل خاضعة التي تعود على الأعناق...ولكن ارتبطت بالقوم وهم ذكور عقلاء (خاضعين)، لإضافة الأعناق إلى القوم.

فالضمير في هذه النماذج، أو الوصف يتعلق بلفظ مركب من مضاف ومضاف

إليه:

- 1- فرجها...فيها ← روعي المضاف إليه.
- فرجها...فيه ← روعي المضاف. جاءت على الأصل.
- 2- كهيئة الطير...فيه ← روعي المضاف إليه.
- كهيئة الطير...فيها ← روعي المضاف. جاءت على الأصل.
- 3- رحمة الله...قريب ← روعي المضاف إليه.
- 4- أعناقهم... خاضعين ← روعي المضاف إليه.

والأصل أن يطابق الضمير المضاف لأنه المعنى المراد وإنما جيء بالمضاف إليه للتخصيص والتعيين. ولما كان لحرمة الجوار من اثر في كمال معنى اللقط، ونشوء المعنى من تزاوجها عومل المضاف إليه معاملة المضاف، تنبيها واعتناء به لغرض بلاغي يستشف من السياق فمثلا في قوله تعالى: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ اختصار للقول: إن رحمة الله قريبة من المحسنين والله قريب منهم. فجمعت الآية ذلك من أقصر طريق وأوجزه<sup>1</sup>... وعليه فإن هذا التخريج لا يصلح إلا فيما كان اللفظ فيه مركبا تركيبا إضافيا.<sup>2</sup>

أما إذا كان الارتباط بالاسم المفرد، فالتخريج يتخذ سبيلا آخر وذلك. وسنتناول هذه اللفظة في تركيبها الوصفي «بلدة ميتا» بعد الفراغ من تحليل الأنموذجين اللذين سبقت الإشارة إليهما على النحو التالي:

### 1- الأنموذج الأول: بين سورتي آل عمران والمائدة:

- قال تعالى: ﴿إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طائرا بإذن الله﴾ 49 آل عمران.

1- أنظر معاني النحو- فاضل صالح السامراني. 117/3. وبدائع التفسير لابن القيم 253/2.  
2- ويشترط في هذا التركيب أن يكون المضاف صالحا للحذف، وإقامة المضاف إليه مقامة، أو أن يكون المضاف كل المضاف إليه، أو بعضه، أو كبعضه. أنظر معاني النحو 3/ وبدائع التفسير 251/2.

- وقال أيضا: ﴿ وإذ نخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طائرا بإذني... ﴾ 110 المائدة.

2- الأنموذج الثاني: بين سورتي الأنبياء والتحريم:

- قال تعالى: ﴿ والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ 51 الأنبياء.

- وقال أيضا: ﴿ ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا فصدقت بكلمات ربها وكتابها وكانت من القانتين ﴾ التحريم.

وسنحاول أثناء التحليل أن نجمع بين هذين النموذجين، إذ هما من المتشابه الذي أساس تميزه التعاور بين التذكير والتأنيث، حسب أصل المبحث الذي نحن بصدد التمثيل له وتخرج بعض صورته، ونزواج الحديث عنهما في إجمال وإيجاز لما بين النموذجين من صلة في العبارة وخصوصية في الأسلوب والدلالة.

فأول هذه الملاحظات أن الأمر يتعلق بعيسى عليه السلام، بمعجزة مولده، ومعجزات رسالته، قبل المهدي وكهلا.

إذ هو نفخة جبريل عليه السلام بإذن ربه ﴿ إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ﴾ 19 مريم. كما أن الطائر نفخة عيسى عليه السلام بإذن ربه.

ينفخ في الطين فيكون طائرا يخلق بجناحيه بإذن الله.

كما نفخ في الطين - من قبل - فكان آدم أبو البشرية عليه السلام.

ثم هو هنا نفخ في بشر لينتج بشر آخر منه.

فبينما عيسى عليه السلام نفخة من روح وكلمة من الله تعالى إذا هو ينفخ كما

نفخ فيه بإذن الله.

فالسر في هذه النفخة الروحية، سواء كانت نفخة في الطين أو في الهيئة أو في

الطير: ﴿ فأنفخ فيها ﴾ أو ﴿ فأنفخ فيه ﴾.

أو نفخة في مريم عليها السلام أو في جيبها أو درعها:<sup>1</sup>

- ﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾.

- ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾.

فالسّر في تناوب الضمائر وتعاورها، هو أن يشمل هذه التقديرات جميعا ويحتويها إبرازا للعناية الرحمانية، والقدرة الربانية التي لا يقدر عليها إلا الخالق البارئ المصور.

والعجيب الذي يبقى سرا لا تدركه العقول، ولا يحيط به تصور هو حقيقة النفخ الذي يؤثر في الكائنات، في الأحياء والأموات، ذلك أنه نفخ في آدم طينا، فإذا هو بشر ينتشر...

- ونفخ جبريل في مريم فإذا عيسى (عليهم السلام جميعا)....

- ونفخ عيسى في الطين فإذا هو طائر يطير بجناحين....

- وينفخ إسرافيل في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله.

- وينفخ فيه أخرى فيبعث الناس من جديد فإذا هم قيام ينظرون.

فكيف يحصر النفخ أو يقصر على ظرف محدد (فيه...وفيها) وهو على هذه الحال، التي لا يبلغها خيال.

غير أن الضمير (فيها) يوحي بمعان بلاغية.. فإن النفخ فيها أعم من النفخ فيه، حيث النفخ في ذات مريم كلها حتى بلغ غايته واستقر في الأرحام فكان بكلمة الله وقدرته بشرا سويا يركض في بطنها، في تعاقب سريع بين النفخ والحمل والمخاض والوضع...يدل هذا التحول السريع بلا فتور ولا مهلة، توالي العطف بالفاء التي تفيد التعاقب والفور: ﴿ فحملته فانتبذت به مكانا قصيا21 فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة..22 فناداها من تحتها...فأتت به قومها تحمله...27 ﴾ مريم.

1- أكثر المفسرين على أن التذكير في ( فنفخنا فيه) لأنه محمول على جيب درعها وفي قراءة "أبي" فنفخنا في جيبها من روحنا" أنظر القرطبي 204/18 تفسير المراعي: 169/28. وكشف المشكلات- للباقولي 877/2.

فلولا هذا التعاقب السريع الذي هو آية ربانية لها على صدق ما أنبأها به جبريل عليه السلام لهلكت حيرة وأسى وحرنا، يطول مدة الحمل، والتفكر في مواجهة الفضيحة. فكيف لا تهلك، وقد ضاقت عليها الأرض بما رحبت مع طي فترة الحمل في لحظة سريعة حتى قالت: ﴿ ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ﴾ 23 مريم.

والملاحظة الأخرى هي أن النفخ الصادر عن الذات العلية في تلك الصور والمظاهر المختلفة، مهما تنوعت، فإنه تحوطه عناية القدرة والإرادة والمشئمة والإذن في قضية إنشاء الخلق والمعبر عنها بتلك العبارة الحاسمة التي لا يتصور معها استثناء:

- ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له: كن فيكون ﴾ النحل: 40.

- ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له: كن فيكون ﴾ يس: 82.

- ﴿ وإذا قضى أمرا فإنما يقول له: كن فيكون ﴾ البقرة: 117، وآل عمران: 47 ومريم: 35.

- ﴿ فإذا قضى أمرا فإنما يقول له: كن فيكون ﴾ غافر: 68.

فأنت ترى أن النفخ موصول بالأمر الكوني (كن فيكون).

قيل إنما سمي عيسى عليه السلام بكلمة الله، لأنه مكون بكلمة (كن)<sup>1</sup>

- قال تعالى: ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه... ﴾ النساء: 117.

وقيل سمي روحا بنفخة جبريل عليه السلام في درع مريم فحملت بإذن الله.

ولعله أيضا بسبب امتداد هذا النفخ لعيسى عليه السلام فيما يصنع من الطين

على هيئة الطير بعد ذلك.

وهل لتسمية جبريل عليه السلام بالروح من قبل، صلة بخلقه هو أيضا وبالنفخ

في مريم عليها السلام ؟؟.

1- أنظر تفسير القرطبي: 22/6.

هذا وإن تميز إيجاد بعض الخلق بعناية خاصة، كخلق آدم بيده عز وجل من طين، والنفخ فيه من روحه من غير وساطة، فإنه ذكر إلى جانب تلك الخصوصية أنه خلقه بـ ﴿كن فيكون﴾ أيضا: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له: كن فيكون﴾ 59 آل عمران.

وليس في إمكاننا أن نتصور كيف تحيل تلك النفخة الموات إلى حياة، أو ندرك علاقتها بالأمر الكوني.... إلا أن تكون النفخة نفسها متضمنة لهذا الأمر!

وقد تكرر هذا الأمر ﴿كن فيكون﴾ في عدة مقامات؛ لبيان ابتداء الخلق وبرئهم بـ (كن)، ولنفي الصاحبة والولد، والرد على مزاعم اليهود والنصارى والمشركين في قولهم: إن عزيز والمسيح والملائكة أبناء الله وبناته تعالى الله عما يصفون علوا كبيرا.

- ﴿ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكانزون﴾ 152.

- ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك﴾ 111 الإسراء.

وكذلك في مقام الحديث عن خلق عيسى عليه السلام وتكليمه الناس في المهد وكهلا.

وفي هذا كله مجال للتأمل وتزيه الله تعالى وتعظيمه.

#### 4- بين ما جاء في بعض السُّور (بلدة ميتا) و(بلد ميّت).

ونعود إلى لفظة (بلدة) في الآيات الآتية نتأملها:

- ﴿لنجبي به بلدة ميتا﴾ الفرقان: 49.

- ﴿فأنشرونا به بلدة ميتا﴾ الزخرف: 11.

- ﴿فأحيينا به بلدة ميتا﴾ ق: 11.

لا شك أنّ (بلدة) هنا مؤنّثة، كما هو ظاهر في الآيتين الآتيتين:

- ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا.. (91)﴾ التمل.

- ﴿وَأَشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةً طَيِّبَةً وَرَبِّ غَفُورٍ (15)﴾ سبأ.

و وردَ اللفظ مُذَكَّرًا (بَلَد) في موضعين - أيضًا- شبيهين بالتماذج الثلاثة السابقة:  
- ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ... (57)﴾ الأعراف.

- ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأُحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا... (9)﴾ فاطر.

يقول الفيروز آبادي عن قوله تعالى: ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا﴾ الفرقان 49:

(لم يقل مَيِّتَةً لَأَنَّ (المَيِّت) يستوي فيه المذكر والمؤنث)<sup>1</sup>.

وهذا الحُكْم وجدناه عند أبي حيان قبله مدعوما بتعليل لغويٍّ مُؤدَّاهُ أَنْ ما جاء من المصادر على وزن (فَعَل) يُوصَف به المذكر والمؤنث فتقول: رجلٌ عَبْلٌ، وامرأة عَبْلٌ.

ولما جاء الوصف بلفظ (مَيِّت) بالتخفيف على وزن (فَعَل) على وزن تلك المصادر، أُعْطِيَ حُكْمُهَا بالتذكير والتأنيث. وهذا دون لفظ (مَيِّت) بالثَّشْدِيد؛ لأنها تُثَابِل (فاعلاً) من حيث قبوله للتاء إلا فيما كان خاصاً بالمؤنث نحو: طامث<sup>2</sup>.

بينما ذهب زكريا الأنصاري أنه: (ذَكَرَ الصِّفَةُ مع أَنَّ الموصوف مؤنث، نظرًا إلى معنى البلدة وهو المكان، لا إلى لفظها، والسُرُّ فيه تخفيفُ اللفظ)<sup>3</sup>.

وهذا التخرُّج يعتمد أساساً على التأنيث التأويلي؛ فتراه يذهب إلى معنى (المكان) في لفظ (البلدة). وذهب أبو حيان قبله في لفظ (البلدة) إلى معنى البلد؛ إذ يقول: (وصَفَ بلدةً بصفة المذكر لأنَّ البلدة تكون في معنى البلد)<sup>4</sup>.

وقد اختلف تخرُّج العلماء لهذا الاستعمال اللغوي حسبَ محلِّ النظر منهم؛ فمن نظرَ إلى الموصوف (بلدة) أنه جاء على خلاف الظاهر، وأنَّ المعنى مذكَّر وإن جاء اللفظ مؤنَّثًا، فقد أوَّله بمذكَّر: (المكان أو البلد).

1- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز - 4 / 536.

2- أنظر: البحر المحيط 8 / 116.

3- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن - زكريا الأنصاري ص 404، 405.

4- البحر المحيط 8 / 116.

ومن نظر إلى الوصف (مَيْتًا) على أنه هو الذي جاء على خلاف الظاهر، أوله بأنه من الصَّيغ والأوصاف التي يستوي فيها المذكر والمؤنث لشبهها المصادر التي جاءت على وزن (فَعَلَ)، فلا تلحقه التَّاء.

فإذا اتَّصلت به التَّاء (مَيْتَةً) اختصَّ بالدلالة على ما لم تُدرَك تذكُّيته<sup>1</sup> من الحيوان نحو قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ الأنعام 145. وقلوه ﷺ عن البحر: (الحِلُّ مَيْتُهُ).

أما (المَيْت) بالتحديد، فإنه يُذكر ويُؤنث: المَيْت والمَيْتة.

وفُرق بين المَيْتِ والمَيْتِ والمَيْتةِ ففيل:

- المَيْتُ: الذي مات وفارق الحياة، نحو قوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ الأنعام 122. ﴿أَيُّبُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ الحجرات 12.

- المَيْتُ: المائتُ الذي لم يمِثْ بعد، أو أوشك أن يموت<sup>2</sup>.

- والمَيْتة: صفة غالبية لما مات بغير تذكية من الحيوان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ﴾ البقرة 173 والنحل 115.

وهذه الأحكام وإن كانت تصدق على أغلب التَّصوص، فإنها لا تشفي من السؤال الذي يحوك في النَّفس؛ وهو: ما المناسبة والسُّرُّ في أن يؤثِّر السياق التَّأنيث في هذا الموضع (بلدة مَيْتًا)، ويؤثِّر التَّذكير في الموضع الآخر (إلى بلد مَيْتٍ)؟.

تأمَّلتُ في السياقين فانقلبتُ بالملاحظات الآتية:

1- في سورة الرِّخف: الآية 11:

- ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

- إنه عبَّر عن سَرِيان الحياة في الموات هنا بـ (أَنْشَرْنَا) وهو الإحياء بعد الموت، وناسبه بـ ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ للتذكُّر والاستبصار.

1- أنظر لسان العرب- مادة (مَوَتَ) 92 / 2.

2- أنظر المصدر السابق. وانظر: معجم دقائق العربية- للأمير أمين آل ناصر الدين ص 139.

وجاء هذا التركيب [بلدة ميثًا] في سياق الحديث عن الذكر والأنثى في خفاء وإيماء، فقد لاح لي وميض منه يشع تارة ويخفى.

فكما أنّ محلّ الشاهد ﴿ بِلْدَةِ مَيْتًا ﴾ مُرَكَّبٌ من صفةٍ وموصوفٍ تنازعهما التذكير والتأنيث؛ فظاهر (بلدة) مؤنث، وظاهر (ميثا) مذكر.. ومن قائل: إنّ (بلدة) مؤنث في اللفظ، مذكر في المعنى بمعنى البلد أو المكان، كما سبقت الإشارة.

ومن قائل: إنّ (ميثا) وصفٌ مُذكر لمعنى (بلدة).

ومن قائل: إنّها وصفٌ مؤنث للفظ (بلدة) المؤنث.

فهذا التداخل بيت التذكير والتأنيث إلى درجة الاضطراب والتشويش على القواعد العتيقة، جعل الأستاذ عباس حسن والدكتور حامد القنيبي يُصرّحان: (أنّ فتح باب التأنيث التأويلي سيؤدّي إلى فوضى لغويّة تضرب فيها الدلالات اللغوية)<sup>1</sup>. قلت إنّ هذه الاحتمالات في الآية مقصودة لإثراء المعنى، وفتحها على فضاءٍ أرحب.

ولما كان الأمر كذلك فإنّ هذا التركيب في الآية يجري في مضماره وسياقه.

إذ يتصل بهذه الآية مباشرة قوله تعالى:

- ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (12) ﴾

فانظر إلى (الأزواج) فإنها تعني الذكر والأنثى. قال تعالى:

- ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (45) ﴾ النجم.

- ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (39) ﴾ القيامة.

وهذا مناسبٌ لتأويل التركيب الوصفيّ وحمله على التذكير والتأنيث.

1- مدخل لدراسة المؤنثات السماعية- د.حامد القنيبي- بحوث كلية اللغة العربية جامعة أم القرى- مكة المكرمة- العدد الرابع: 1407- 1409 ص 150. وانظر: النحو الوافي- عباس حسن- دار المعارف بمصر- ط 3- 4/ 589.

- ثم انظر إلى المعطوف عليها أعني: (الفلك والأنعام)، وهما من الألفاظ التي تحتمل التكرير والتأنيث كما سبق بيانه.

- ثم تأتي الإشارة إلى الأنثى متلفعةً في جلباب حياء، في تلميح وخفاء، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17)﴾.

وإلى الذكر تلويحًا: ﴿أَوْ مَن يُنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18)﴾

وتروق العبارة لطافةً ورقّةً بالإشارة إلى الأنثى في تعبيرٍ كِنائيٍّ غير صريح يستترُ في طياته لفظُ الأنثى<sup>1</sup>. ثمَّ يَفْجَأُكَ سَافِرًا مُفَسِّرًا فِي الْآيَةِ بَعْدَهَا قَبْلَ أَنْ تَذْهَبَ بِكَ تَخْيِيلَاتُ الْكِنَايَةِ مَذَاهِبَ شَتَّى:

- ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا... (19)﴾

وهنا يبرزُ الخَلَطُ والاضْطرابُ فِي قَضِيَّةِ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، والاعتداءُ فِي الْقَوْلِ والافتراء؛ إذ يُسَمَّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنْثَى، وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ عُلُوقًا كَبِيرًا.

ويبدو لي اختصاصُ هذا الموضع بـ (بلدة) دون (بلد)، تمهيدًا للحديث عن قضية الأنثى في حكم الجاهلية.

ويَحْسُنُ أَنْ أُشِيرَ هُنَا إِلَى أَنَّ سِيَاقَ التَّذْكَيرِ يُنَاسِبُهُ التَّعْمِيمُ؛ لِأَنَّ التَّذْكَيرَ أَعْمٌ مِنَ التَّأْنِيثِ؛ إذ يُغَلَّبُ التَّذْكَيرُ عَلَى التَّأْنِيثِ إِذَا اجْتَمَعَا فَتَقُولُ: يَا بَنِي آدَمَ، وَتَقْصِدُ بَنَاتِ آدَامَ أَيْضًا. ﴿أَلَمْ آعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ...﴾ يس 60.

وإيا أيها الذين آمنوا، ويدخل ضمنها: يا أيها اللائي آمننا.

وتقول: الأبوان، فتدخل الأم.. كما تقول: أخواك هند وهشام.

بينما إذا أُثِّتَ الْخُطَابُ خَصَّ النِّسَاءَ دُونَ الرِّجَالِ.

1- بينما صرحت به الآية المشابهة في سورة النحل لسرِّ بياني: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58)﴾ النحل.

وكذلك يدلّ التأنيث على الوَحْدَة إذا دلّ التذكير على الجنس، نحو: التَّمْرَة للحمّة الواحدة من التَّمْرِ.

وانظر كيف فرّق السياق بين الضَّلَال والضلالة في قوله تعالى:

- ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (60) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (61) ﴾ الأعراف.

فلم ينفِ الجنس فيقول: ليس بي ضلالٌ. وإنما نفى الوَحْدَة منه، وهو أبلغ في البراءة من الضلال كله: فليس بي ضلالة واحدة بله ضلالاً.

وجاء في سباق هذه الآية من سورة الأعراف لفظ (البلد) مُذَكَّرًا:

- ﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ (57) ﴾ الأعراف.

فالبلد أعام من البلدة. جاء في لسان العرب: البلد: كلُّ موضع من الأرض عامرٍ أو غير عامر، والطائفة منه بلدة. وقال بعضهم: البلد جنس المكان، كالعراق والشام. والبلدة: الجزء يُخَصَّصُ منه كالبصرة ودمشق<sup>1</sup>.

ولعلّ سياق التذكير الذي يوحي به لفظ بلد هنا، و(البلد) في الآية التي بعدها ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ.. (58) ﴾ الأعراف، له صلةٌ وطيدةٌ بمجىء قريب بالتذكير على غير الظاهر في الآية التي قبلها ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (56) ﴾ الأعراف.

وجاءت على الفور الترجمة الحيّة لقريب تلك الرحمة، بانهمار الغيث بعدها الذي أحيا الله به البلد الميِّت.

وقد أطلق هنا على الغيث لفظُ (الرحمة) لتشاكل سابقتها وتلتحم بها المعاني التحامًا، فتأمل .

فالتناسُب بين التذكير والتأنيث مُراعَى في سياقات مُختلفة.

1- أنظر: لسان العرب - مادة (بلد) 3/ 94. والملاحظ أنّ مكة المكرمة أُطلقَ عليها: البلد الأمين، والبلدة ﴿ رَبِّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ ﴾ ربّما لجمعها بين الخصوص والعموم باعتبارها أمّ القرى التي حولها.

ففي آية الفرقان: ﴿لِنُحْيِي بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا﴾ التي تحتمل في التّخرّيج والتّأويل، التّذكير والتّأنيث. نلاحظ في نفس السياق وُرُودَ (الأنعام) التي تحتمل التّذكير والتّأنيث كما أشرنا من قبل. ولفظُ (أَنَاسِي) التي ظاهرها التّأنيث لأنها جمعٌ لكنّها وُصِفَتْ بِمَذَكَّرٍ (كثيّرًا)، ولم يقلْ كَثِيرَةٌ؛ حيث قال تعالى:

- ﴿لِنُحْيِي بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنَسْفِيهَ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِي كَثِيرًا (49)﴾

وفي قرينتها من سورة ق:

- ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (10) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (11)﴾.

نلاحظ ورود (النَّخْلَ) في السياق وهو اسم جنس يُذَكَّرُ نظرًا للفظ، ويؤنّث نظرًا للمعنى<sup>1</sup>. وهو هنا مؤنّث بقرينة الوصف والضمير (بَاسِقَاتٍ لَهَا...) بينما وُصِفَ مذكّرًا في سورة القمر:

- ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20)﴾

من خلال النظر في التركيبين الوصفيين وفي مُناسبتهما للموقع اللذين حلّا فيه، بدا لي أنّ التركيب ﴿بَلَدَةً مَيِّتًا﴾ أقوى أثرًا وأكثر تأثيرًا وأعمق وأوفى بالمعنى الذي سيقت فيه.

وكانت المقارنة بين ألفاظ التّركيبين في سياقها على النحو الآتي:

- إنّ لفظ (بلدة) مؤنّثة أخص من (بلد) كما أشرنا آنفا.

- ثم أنّ التّأنيث يكون أحيانًا للتكثير والمبالغة، ويكون التّذكير للقلّة.

يقول أبو البركات ابن الأنباري (577 هـ) عن الفلك في قوله تعالى: ﴿فِي الْفُلْكِ

المشْحُونِ﴾ يس 41:

(فأرادَ به الواحد، ولو أرادَ به الجمع، لقال المشْحونة)<sup>1</sup>.

1- أنظر: البحر المُحيط 10/ 42. وبلاغة الكلمة- لفاضل السامرائي ص 93.

والفلك هنا هي سفينة نوح عليه السلام، وهي واحدة.  
وكذلك سفينة يونس عليه السلام في الآية الأخرى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ  
الْمَشْحُونِ﴾ الصّافات 140. ولما أراد الكثرة أنّها فقال:  
- ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ البقرة 164. وهذه عددها غير  
مُنحصِرٍ.

وكذلك التي في قوله تعالى:

- ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ يونس 22.

وتطوّر هذا الحكم حتّى صار كالقاعدة اللغويّة يلجأ إليه أهل اللغة عند الشرح  
والتفسير.. حتى قال ابن بري: (إذا جعلت الفلك واحداً فهو مذكّر لا غير، وإن جعلته  
جمعاً فهو مؤنث لا غير)<sup>2</sup>.

بيد أنه ورد الفلك مؤنثاً وهو واحد في سورتي هود والمؤمنون. وربّما خولفت  
تلك القاعدة هنا، لوجود مسوّغات؛ أولها أمن اللبس فقد صرّح بنسبة الفلك إلى نوح  
عليه السلام، فلا اشتباه يُحشى من جهة التعدد والكثرة.

- ثم إنَّ السّياق قد يكون اقتضى التّأنيث لمناسبات بيانية؛ ففي هود:

- قلنا حمل فيها.... الآية 40

- قال اركبوا فيها.... الآية 41

- وهي تجري بهم .... الآية 42

- واستوت على الجوديّ .... الآية 44

وفي سورة المؤمنون:

- ﴿فاسألُك فيها من كلّ زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم...﴾ (27)

1- أسرار العربية- للشيخ كمال الدين أبي البركات ابن الأنباري- تحقيق بركات يوسف هبّود- ط 1:

1420هـ- 1999م- دار الأرقم بن أبي الأرقم- بيروت- لبنان ص 71.

2- لسان العرب- مادة (فلك) 10/ 479.

ومَّا يُسْتَأْنَسُ بِهِ فِي رِعَايَةِ الْمُنَاسِبَةِ لِلتَّأْنِيثِ هُنَا، أَنَّ قِصَّةَ نُوحٍ تَلَّتْ مَبَاشِرَةً الْحَدِيثَ عَنِ الْأَنْعَامِ فِي سِيَاقِ تَأْنِيثِي ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نَسَقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (21) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (22) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ... (23)﴾.

- ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا وَرَدَ الْفُلْكَ مُؤْتَاً وَهُوَ وَاحِدٌ هُنَا، يَكُونُ - حَسَبَ الْقَاعِدَةِ اللَّغْوِيَّةِ السَّابِقَةِ- قَدْ اجْتَمَعَ الْإِفْرَادُ وَالكَثْرَةُ وَالتَّعَدُّدُ، وَلَا تَتَأَقَّضُ، فَالْإِفْرَادُ بِاعْتِبَارِ الْحَقِيقَةِ وَالْوَاقِعِ، وَالكَثْرَةُ بِالنَّظَرِ إِلَى قَاعِدَةِ التَّأْنِيثِ.. فَيُحِيلُكَ هَذَا الْجَمْعُ بِدَوْرِهِ إِلَى الْبَحْثِ عَنِ الْغَرَضِ الْبَلَاغِيِّ وَرَاءَ هَذَا السُّلُوكِ.

وَأَمَّا هُنَا تَلْوِيحًا إِلَى أَنَّ الْفُلْكَ وَإِنْ كَانَ وَاحِدًا بَلَاءً رَيْبًا، فَقَدْ أُغْنَى عَنِ كُلِّ مَرَكَبٍ وَسَفِينَةٍ يُتَصَوَّرُ أَوْ يُقَدَّرُ أَنَّهَا تَحْمَلُ رَاكِبًا عَلَى وَجْهِ الْبَسِيطَةِ آنَذَاكَ. فَلَيْسَ هُنَاكَ مَرَكَبٌ وَرَاكِبٌ سِوَاهَا وَسِوَاهُمْ.

وَلَيْسَ لِسَفِينَةٍ بَعْدَ سَفِينَةِ نُوحٍ هَذِهِ الْخُصُوصِيَّةُ فِي حَمْلِ الْبَشَرِيَّةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَيَذَكِّرُ الدُّكْتُورُ فَاضِلَ السَّامِرَائِي (أَنَّ الْعَرَبَ قَدْ تَوَنَّثَ لِلْكَثْرَةِ وَتَذَكَّرَ لِلْقَلَّةِ... وَقَدْ تَوَنَّثَ لِلْمَبَالِغَةِ)<sup>1</sup>.

كَمَا نَجِدُ الْفَرَاءَ يَعْتَمِدُ عَلَى الْمَعَانِي الْخَاصَّةِ الَّتِي يُوحِي بِهَا التَّأْنِيثُ، فِي تَأْوِيلِ بَعْضِ الْآيَاتِ بِاعْتِبَارِ أَنَّ التَّذْكَيرَ سَمَةٌ الْقَلَّةِ، وَالتَّأْنِيثُ سَمَةٌ الْكَثْرَةِ، فَيَقُولُ عَنِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ يُوسُفُ 30: (فَذَكَرَ الْفِعْلَ لِقَلَّةِ النَّسْوَةِ... وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿فَإِذَا أُنْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ﴾<sup>2</sup> وَلَمْ يَقُلْ: أُنْسَلَخَتْ)<sup>3</sup>.

بَلْ نَرَاهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ مَا أَسْنَدَ لِلتَّأْنِيثِ مُفْرَدًا، وَمَا أَسْنَدَ إِلَيْهِ جَمْعًا. فَيُشِيرُ إِلَى أَنَّ (فِيهِنَّ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا... مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ... فَلَا تَظَلَمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ... (36)﴾ التَّوْبَةُ، تَعَوُّدٌ عَلَى الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ لِقَلَّتِهِنَّ وَلَمْ يَقُلْ (فِيهَا) حَتَّى

1- بلاغة الكلمة- فاضل صالح السامراني ص 94.

2- سورة التوبة الآية 5.

3- معاني القرآن- للفراء- ط 3: 1983- عالم الكتب- بيروت 1/ 435.

لا تعود على الأكثر وهي أشهر السنة؛ وذلك أنّ العرب (يقولون لِمَا بين الثلاثة إلى العشرة (هُنَّ) و(هؤلاء)) فإذا جُزّت العشرة قالوا: (هي، وهذه) إرادة أن تُعرَفَ سِمَةً القليل من الكثير)<sup>1</sup>.

كما أن التاء أيضا لتمييز الواحد من جنسه في أسماء الجنس.

وهكذا ف (بلدة) أبلغ وأكثر تركيزا على الجزئيات، بينما (البلد) أعم وأشمل.

أما بالنسبة للوصف بـ (الميت) فهو للموت الذي فقد الحياة.. فالإحياء في حقه أبلغ من (الميت) الذي شارف الموت أو كاد. فهناك بونٌّ بين إنماء الحياة، وإحياء الموت. فذاك محلُّ افتراق السّياقين.

فالسّياقات التي ورد فيها لفظ (بلدة مَيِّتًا) بالتأنيث والتّخفيف جاء فيها جميعًا مفعولاً به لفعل الإحياء أو ما في معناه:

- ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا ﴾ - ﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا ﴾ - ﴿ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا ﴾.

إحياء لمواتٍ، فتُخرَجُ الأرضُ زخرفها وتمرغُ، بما لم يُغرس أو يُزرع.

بينما ورد لفظُ (مَيِّتٍ) بالتشديد والتذكير مجرورًا باللام في الأعراف و(إلى) في فاطر...متعلقًا بالفعل (سُقْنَاهُ) المتّصل به ضمير يعود على السحاب. فالآيات هنا تركّز على وجهة السّحاب العَمَاءِ القَنيِفِ غزير الماء، الذي تُقلُّه الرياح إلى وجهةٍ محدّدة.

فالبُلدُ هنا باعتبارُه وُجْهَةً<sup>2</sup> للسّحاب وغايتهُ المُقدّرة التي ينتهي إليها. ففي الأعراف:

- ﴿ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ نُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ (57) ﴾ .

1- نفس المصدر.

2- إشارة إلى اتصاله بحرف الجر (إلى) و(اللام) إلى بلدٍ وبلدٍ التي تفيد انتهاء الغاية والوجهة.

وفي فاطر:

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَثِيرُ سَحَابًا فُسْفُنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا..(9) ﴾ .

فافترق السياقان من هذه الجهة، فناسبه ذاك الاختلاف في العبارة. والله أعلم. ومن خلال هذه النماذج التي تتعاور فيها الضمائر وتبادل بين العبارات المتشابهة، تحدث في الأسلوب حيوية عمادها التلون والتنوع؛ فمن:

﴿ وَنَفَخْنَا فِيهِ ﴾ إِلَى ﴿ وَنَفَخْنَا فِيهَا ﴾

وَمِنْ ﴿ فَأَنْفُخُ فِيهِ ﴾ إِلَى ﴿ فَتَنْفُخُ فِيهَا ﴾

وَمِنْ ﴿ نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ إِلَى ﴿ نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾

وَمِنْ ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (12) ﴾ عَبَسَ

إِلَى ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (55) ﴾ فِي الْمَدْرَسِ.

فترى المفسرين يجمون حول المعنى الذي يستتر في الضمير (إنه) و(إنها) و(ذكره) ف قيل إنه للتذكرة لسابق الذكر ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾.. وإِنَّمَا ذَكَرَ لِأَنَّ التذكرة في معنى الذكر أو القرآن<sup>1</sup>.

وقد يكون ضميراً للشأن، أو ضميراً للقصة أو يعود على سابق أو لاحق مما تضمنته الآيات.. أو يُفسَّرُ هذا بذاك فيكتسبُ المعنى ثراءً، والتطبيق اتساعاً.

فهذا التلون والانتقال يُحدثُ تفاعلاً عجبياً مع النص فيه حيوية للأذهان تبعث على النشاط، وحركة للمعاني تطرد السامة، تستقطب جملة من التقديرات، يُنتقى منها ويُستصَفَى ويُختار. ذلك لأن التنوع يجعل الفكر يتردد بين احتمالات عديدة، وآفاق مديدة، يصلح فيها هذا ويصح ذلك. يكون المتأمل فيها حيال فضاء مفتوح يذهب به مذاهب شتى في حدود ما يحتمله اللفظ ويشهد له السياق.

1- أنظر: الكشف، الزمخشري 4/ 188 و218.. وانظر: البحر المحيط 10/ 340.

## 5- بين سورتي: القمر والحاقة: (أعجاز نخل منقعر) و(أعجاز نخل خاوية)

قال تعالى في سورة القمر عن إهلاك قوم عاد:

- ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿ تَزْعُ النَّاسُ كَانَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلِ مُنْقَعِرٍ ﴾ القمر الآيات: 19-20 .

وقال عنهم في سورة الحاقة:

- ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلِ خَاوِيَةٍ ﴾ الحاقة الآية: 7

تلاحظ في العبارتين الأخيرتين من النصين - على شدة التشابه - افتراقا يتمثل في اعتبار (أعجاز نخل) في سورة القمر مذكرا حيث وصف بـ (منقعر) واعتباره مؤنثا في سورة الحاقة حين وصف بـ (خاوية).

وهذا الافتتان يستوقف المتأمل ويحمله على البحث عن أسراره وأسبابه.

قال النحويون: اسم الجنس الذي يتميز واحده بالتاء جاز في وصفه التذكير كما في الآية ﴿ أَعْجَازُ نَخْلِ مُنْقَعِرٍ ﴾ والتأنيث كما في قوله ﴿ أَعْجَازُ نَخْلِ خَاوِيَةٍ ﴾ هذا مع أن كلا من السورتين وردت على مقتضى الفواصل<sup>1</sup>.

ويؤكد هذا أبو حيان الأندلسي فيقول: « وإنما ذكّر هنا لمناسبة الفواصل وأنت.. في الحاقه لمناسبة الفواصل أيضا »<sup>2</sup>.

ويعلل الزمخشري سرّ حمل اسم الجنس على التذكير والتأنيث فيقول: « ومؤنّث هذا الباب لا يكون له مذكّر من لفظه لالتباس الواحد بالجمع.

وقال يونس: فإذا أرادوا ذلك قالوا: هذه شاة ذكر، وحمامة ذكر. »<sup>3</sup>

1- غرائب القرآن - نظام الدين القمي - 53/27.

2- البحر المحيط. لأبي حيان. 42/10. وانظر أيضا فتح الرحمان لذكرياء الأنصاري. ص: 13.

3- المفصل في صناعة الإعراب - للزمخشري - ص: 250 و 251. قدّم له وبوّبه الدكتور علي بو ملحم - ط: 2003م. دار ومكتبة الهلال. بيروت.

وعُلِّلَ أيضاً هذا المسلك، أنه باعتبار النظر إلى اللفظ والمعنى فإذا نُظِرَ إلى اللفظ ذكّر، وإن نظر إلى المعنى أنث.

بيد أنّ المبرّد من قبل هؤلاء كان يستبعد رعاية الفواصل في الآيتين فيقول: «ليس في إحدى الآيتين رعاية للفاصلة وما أغنى القرآن عن رعايتها لو أدخلت على المعنى، وإنما قصد جنس النخل في التذكير، وأريدت جماعته في التأنيث وبكلمات الصيغتين نطقت العرب»<sup>1</sup>

والمبرّد هنا لا ينفي رعاية الفواصل على الإطلاق؛ وإنّما ينفي أن تكون رعاية الفواصل هي الحامل على مخالفة أصل لغوي في تأنيث أو تذكير. ولذلك ذهب يعلّل تذكير لفظ اسم الجنس وتأنيثه، وأنه جرى هنا على سنن العرب.

ويأتي الزمخشري فينظر إلى رعاية الفواصل نظرة اعتدال وإنصاف فلا تُحمَل ولا تُهْمَل.. فرعاية الفواصل تابعة للمعاني خادمة لها تزيدها وضوحاً وبيانا، وبهاء وجمالا فتراه يقول: «لا تحسّن المحافظة على الفواصل لمجردها إلاّ مع بقاء المعنى على سردها على المنهج الذي يقتضي حسن النظم والتئامه.. وبني على ذلك أنّ التقديم في: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، ليس لمجرد الفاصلة، بل لرعاية الاختصاص»<sup>2</sup>.

وتعليلهم المعاقبة بين المذكر والمؤنث في الموقعين، برعاية الفواصل لا يستقيم؛ لأنه لا يصلح في آية القمر تذكير ما ورد في سورة الحاقة مؤنثا فنقول: (خاو) بدل (خاوية). كما لا يصلح في الحاقة (منقورة) عوض (منقعر) كما يوهّم التعليل، فرعاية الفاصلة هنا ليست منحصرة في التأنيث والتذكير وإنّما في حرف الراء في القمر، والهاء الساكنة المسبوقة بياء مفتوحة في الحاقة. والذي ينبغي تعليله هنا:

1- دراسات في فقه اللغة. للصبيحي الصالح. ص: 87، عن جماليات المفردة القرآنية. د/ أحمد ياسوف.

ص: 314. ط2: 1999 م. دار المكتبي. دمشق.

2- الكشاف- الزمخشري-. وأنفل جماليات المفردة القرآنية 314.

- ما سر تذكير «أعجازُ نخلٍ» في القمر، وتأنيثها في الحاقة ؟
- ما الفرق بين (خاوية) و(منقعرٍ) وهما وصفان لشيء واحد، في خير واحد ؟
- ما مناسبة كل منهما للسورة الواقع فيها ؟

إنَّ أيسر ما يجاب به لتفسير هذه الظاهرة الأسلوبية عند النظر في الآيتين، وإزالة الإشكال هو الرجوع إلى القاعدة اللغوية التي مفادها أنَّ التذكير في اسم الجنس باعتبار اللفظ، وأنَّ التأنيث فيه باعتبار المعنى.

سئل المبرّد عن هاتين الآيتين وعن قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ وقوله تعالى ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ فقال كل ما ورد «كل ما ورد عليك من هذا الباب، فإن شئت رددته إلى اللفظ تذكيراً، أو إلى المعنى تأنيثاً»<sup>1</sup>.

ومن الوجهة البلاغية، هل يمكن من خلال هذه الإجابة التي تفسّر لنا مناط التذكير والتأنيث في أسماء الأجناس، أن نستصحب هذا الاعتبار ونحن ننظر في السورتين، وأنَّ من المناسب في سورة القمر رعاية الألفاظ، وفي سورة الحاقة رعاية المعاني ؟

إنَّ هذا الوجه ظاهر الفساد ؛ لأنَّ اعتبار الألفاظ والمعاني لازم في تفسير العبارات والنصوص ولا يصحّ الفصل بينهما إلّا في دراسات منهجية ذات وجهة خاصة. والأمر الثاني الذي توحى به تلك الإجابة وفق القاعدة المشار إليها أن اعتبار اللفظ أضيّق ؛ لأنّه محدود ملفوظ.. وأنَّ اعتبار المعاني واسع غير محدود. ومن هنا ساع الاستدلال باللفظ على القلّة، وهو هنا يُحمل على التذكير. والاستدلال بالمعنى على الكثرة، وهو هنا الحمل على التأنيث. ولعل هذا الملحظ هو الذي جعل بعض اللغويين يعتبر الكثرة من دلالات التأنيث، والقلّة من دلالات التذكير.

1- تفسير القرطبي - ج 17 / 137.

ومن ذلك ما فُسر به اختيار التأنيث في قوله تعالى:

- ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ﴾ ( الحجرات الآية: 14 )

- ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ( الشعراء الآية: 105 ).

ف قيل جاء تأنيث الفعل « في كل منها تحقيقا لغرض بلاغي، وهو الإشارة إلى الكثرة في الفاعل ؛ فكأن الأعراب جماعات كثيرة، وكأن قوم نوح بطون عديدة <sup>1</sup> » ويستأنس بما أورده الفراء في تفسير آية الحجرات، بما يوحي بكثرة الوافدين على رسول الله ﷺ من أعراب بني أسد.. يقول الفراء: « فهذه نزلت في أعراب بني أسد ؛ قدموا على النبي ﷺ المدينة بعيالاتهم طمعا في الصدقة، فجعلوا يروحون ويغدون، ويقولون: أعطنا فإننا أتيناك بالعيال والأثقال، وجاءتك العرب على ظهور رواحلها <sup>2</sup> »

قلت: إلى جانب خصوصية التذكير أو التأنيث في الآيتين والتي قد يستفاد منها معنى القلة أو الكثرة، فإنه يحسن النظر إلى المعنى الذي أوتر فيهما وصفا لأعجاز النخل وفي مناسبتة للسباق والمقام. وهو في سورة (القمر) "منقعر" التي تعني الاجتثاث من الأرومة، والاختلاع من الأصل وهي تحكي حال المشبه قبلها ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ ﴾ فانتزاع الناس كاجتثاث النخل من أصوله.. فهي صورة حيّة يتطير فيها الناس ولا يتمكنون من التثبت بالأرض وهي تصوير لحال القوم أثناء التدمير، يوحى بعُتُوّ الريح وبلوغها درجة تقتلع الناس اقتلاعا وترمي بهم بعيدا كما تقتلع جذوع النخل من أصولها.

أما الصورة في الحاقة فهي للقوم بعد الدمار وهدوء الريح، ووقفه على الآثار ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرَعى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ ففي سور القمر ترى الأجساد متطيرة تنتزع من الأرض انتزاعا، كأعجاز النخل تقتلع اقتلاعا.

وفي سورة الحاقة ترى القوم صرعى على الأرض كأعجاز نخل ساقطة واقعة.

1- من نحو المباني إلى نحو المعاني - د/ محمد طاهر الحمصي ط1: 2003م - دار سعد الدين - دمشق

2- معاني القراء للفراء - ط3: 1883 - عالم الكتب - بيروت ج 73/3.

فمعنى خاوية: واقعة على الأرض ساقطة، تناسب ما قبلها (صَرَغَى) (مُنْقَعِرٌ تناسب ما قبلها وهو ﴿تَنْزِعُ النَّاسُ﴾).

واختيار لفظة (مُنْقَعِرٌ) التي هي اجتثاث من الأرومة، يوحى باستئصال القوم عن بكرة أبيهم، فلا دابر لهم.. بينما جاء هذا المعنى صريحاً في (الحاقة) ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾

والطَّرِيفُ أن نجد من يتخذ من المعنى الذي يوحى به التأنيث وهو التَّكْثِيرُ إقليدًا يفتح به أسرار فن القول وخباياه بعد طول تأمل. فهذا الدكتور فاضل صالح السامرائي يذكر أنه ظل حوالي ستة أشهر يقلِّب الفكر وينقب في المعاني وينقُر في المباني للوصول إلى سرِّ تأنيث ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ في الحاقة، وتذكيرها في سورة القمر.. حتى فتح الله عليه بما أثلج صدره: وسكن له. وكانت دلالة التأنيث هي البارقة التي أنارت له السبيل وأسفرت عن تلك المعاني.

وسنُفسح له المجال ليحدِّثك على المباشر فيقول:

«لقد ذكر علماء العربية والمفسِّرون، أن النخل اسم جنس يذكر نظراً للفظ، ويؤنث نظراً للمعنى، وإنما وُضعت كل صفة بمكانها مراعاة للفاصلة.

والذي أراه أن ذلك مراعى فيه المعنى أيضاً وليس للفاصلة وحدها، وإن كانت الفاصلة تقتضي أن تكون كل لفظة بمكانها.

أنَّ العرب قد تؤنث للكثرة وتذكر للقلة وذلك كما في قوله تعالى:

- ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ يوسف الآية: 30،

- ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ الحجرات الآية: 14

فذكر (قال) لأن النسوة قلة، وأنث (قالت) لأنَّ الأعراب كثرة. وقد تؤنث للمبالغة نحو: رواية وداهية.

والنخل في آية الحاقة أكثر منه في آية القمر يدل على ذلك السياق.

قال تعالى في الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ (الآيات: 6-7-8)

وقال في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ (الآيات: 18-19-20)

ويتضح في سياق الآيات ما يأتي:

1- أنه قال في القمر ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾

وقال في الحاقة ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾

فزاد في وصف الريح في الحاقة (عاتية)، فهي أشد مما في القمر.. ..

2- قال في القمر: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾

وقال في الحاقة: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾

فذكر في القمر أنه أرسلنا عليهم في يوم، وذكر في الحاقة أنه سخرها عليهم سبع ليالي وثمانية أيام، فزاد في وقت التدمير والعذاب. ولاشك أن طول المدة يقتضي تدميرا أكثر وأبلغ.. فزاد في النخل المقتلع في الحاقة.

3- ولما زادت الريح عتواً وأمدًا في الحاقة ذكر أنها استأصلتهم كلهم فلم تبق منهم أحدا: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ ولم يقل مثل ذلك في القمر.

4- أنّ النخل المنقعر معناه المنخلع عن مغارسه الساقط على الأرض ومعنى (خاوية) خربة. وقيل: خلت أعجازها بلى وفسادًا. وقيل الخاوية معناها معنى المنقلع..

فالنخل الخاوية تشمل النخل المنقعر وزيادة.. فأنت الخاوية لأنه أكثر من المنقعر، وأنّ دماره أبلغ، وجعلها في سباق الدمار الشامل<sup>1</sup>

1- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني - فاضل صالح السامرائي ص: 93-95.

## ملاحظات واستنتاج:

وقبل اختتام هذا المبحث رأيت من اللائق أن أبدي ملاحظات حول ذلك الغرض البلاغي المستفاد من التأنيث والذي فحواه أنّ تأنيث الفعل المسند إلى فاعل مذكر، يدل على كثرة الفاعلين في نحو قوله تعالى:

- ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ﴾ ( الحجرات الآية: 14 )

وقوله تعالى:

- ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ( الشعراء الآية: 105).

فتأملت هذه الإشارة اللطيفة في الآيات التي وردَ فيها الفعل: (كذب وكذبت ) فيما أسند فيها الفعل إلى فاعل يتضمّن معنى الجمع. فألفيتها تصدق في كثير من النماذج، وتشدّد في بعض النماذج، ويمكن أن تُردّ إليها برفق على اعتبار ما.

- أولها ← إذا أسند الفعل (كذب) إلى (القوم) أنّث: (كذبت). ومعنى الكثرة فيه ظاهر:

- ﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴾ (الحج الآية: 42)

- ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الشعراء الآية: 105)

- ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴾ (ص الآية: 12)

- ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ... ﴾ (غافر الآية: 5)

- ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودٌ \* وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴾ (ق

الآيات: 12-13)

- ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ (القمر الآية: 9)

- ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴾ (القمر الآية: 33)

ولا يستثنى من هذا إلا قوله تعالى:

- ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ (الأنعام الآية: 66)

حيث لم يؤنث الفعل وهو مسند إلى القوم (قومك) وسبب ذلك - والله أعلم - أنه لا داعي لإبراز معنى التكثير الذي يفيد التأييد كما أشرنا ؛ بل إن معنى القلة ظاهر فيه ؛ فالقوم هنا قوم محمد ﷺ ، وإن طائفة المكذبين منهم قليلة "معدودة"، وعلى الخصوص إذا قيسوا بالأقوام الغابرة.. فمحمد ﷺ أكثر الأنبياء تبعاً وأقلهم مكذباً.

- وثانيها ← أنه يحسن الحمل على معنى الكثرة والتكثير في مقام مزاولة المواقف ومباشرتها، وهو يُبلغ ﷺ وهم يجابهونه بالتكذيب، أثناء ذلك، يكون في ذكر تكذيب الأقوام للمرسلين، تسلية وتثبيت وتخفيف لوطأة التكذيب ومرارته على قدر كثرة المشار إليهم، وأنه ليس بأوحدٍ في التكذيب:

- ﴿ وَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلٰى مَا كُذِّبُوا وَأَوَدُوا حَتَّىٰ آتَاهُم نَصْرُنَا ﴾ (الأنعام الآية: 34).

وكان ﷺ كثيراً ما يردد إذا ما أُوذِيَ متأسياً بالرسول قبله: « رحم الله موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر »<sup>1</sup>

وعلى هذا يكون ما نزل عليه ﷺ في مكة وهو يجابه المكذبين يحسن فيه التأييد لإفادة التكثير، لشدة الحاجة إليه.

على خلاف ما نزل في المدينة من هذه الأخبار ؛ فإنّ الداعي الذي كان في المكي قد زال، لتحل محلّه دواع أخرى سوى التثبيت والتسلية.  
فتدبر الآيتين الآتيتين:

- ﴿ وَإِن يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ (فاطر الآية: 4)

- ﴿ فَإِن كُذِّبُوكَ فَقَدْ كُذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ (آل عمران الآية: 184).

1- أنظر تفسير القرطبي 250/14. والبحر المحيط 508/8.

فقد اقترن الفعل بالتاء التي تفيد التكثير في فاطر، وخلا الفعل منها في آل عمران لعدم الحاجة إلى التكثير. يدل ذلك على هذا أن سورة فاطر مكية، والمقام في المكي - كما ألقينا - يقتضي التكثير.. ثم المجيء بفعل الشرط مضارعاً في فاطر ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ﴾ يحكي الحال وهم يكذبونه مع الاستمرار، مما يوحي بشدة الوطء، واستنقال الوضع.

بينما جاءت آية آل عمران خالية من التاء؛ كما جيء بفعل الشرط ماضياً ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ ﴾ فالسورة مدنية صار الحديث فيها عن التكذيب خبراً ماضياً؛ فالمقام مقام تقليل من شأن المكذبين لبوار كيدهم فلا يكثر بهم.. ولا فائدة من التكثير وقد أصبح الكثير قليلاً في الصورة والذهن، وهو شأن الحياة في ما مرّ وفات. فالنظر إلى الشدائد والمكاره، بعد انحسارها وانكشافها تتضاءل وتتصاغر فالآيات في سورة آل عمران نزلت في المدينة بعد بدر وأحد، وأصبح تكذيب أئمة الكفر ورؤوس الشرك خبراً بعد عين.

ولعل معترضاً يقول: هذه سورة الحج وهي كلها مدنية ما عدا الآيتين الـ (52 و53) وجيء فيها بالتاء التي تفيد الكثرة على خلاف ما قررتم.

نعم إنها مدنية ولكن جيء بفعل الشرط مضارعاً يحكي الحال فيما جدّ من تكذيب، ثم إن الآية في سياق الكثرة وتعداد الأقسام المكذبة عبر القرون من لدن نوح إلى موسى عليه السلام فتأمل:

- ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ (الحج الآية: 42، 43، 44).

- وثالثها: ← يلاحظ في سورة الشعراء وهي مكية تأنيث فعل التكذيب مع قوم نوح ومع عاد وثمود وقوم لوط ما عدا أصحاب ليكة فإنه ذكرّ الفعل وخولف السياق ولا ندري سر المخالفة. ولعله ينبئ عن القلة إذ استعمل (أصحاب) بدل (قوم) والقوم أكثر عدداً من الأصحاب وقد ذكرّ معها الفعل وهو في سياق تأنيث الأقسام المكذبة في الشعراء والحجر:

ففي الشعراء:

- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحِ الْمُرْسَلِينَ﴾ الآية: 105
- ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ الآية: 123
- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ الآية: 141
- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ الآية: 160
- ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ الآية: 176

وفي سورة الحجر:

- ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ﴾ الآية: 78
- ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ الآية: 80

## - ثانياً: ما تشابه لفظه واختلف في التعريف والتنكير:

قد يسترعي انتباه المتأمل في ما تشابه من الآيات ذلك الاختلاف اليسير بين المتشابهين والذي لا يتعلق بأصل المعنى وإنما بوصفٍ يتعلّق به كالتعرف والتنكير أو التأييد والتذكير....

ولا يتبيّن المتدبر مناسبة هذا التصرف إلا بالإمعان والتدقيق فمن الآيات التي استوقفتني كما استوقفت من قبلي:

1- في سورة البقرة:

- ﴿فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير﴾ الآية 234.

2- في سورة البقرة وآل عمران:

- ﴿ويقتلون النبيّن بغير الحق﴾ البقرة الآية 61.

- ﴿ويقتلون الأنبياء بغير حق﴾ آل عمران الآية 112.

3- في سورة البقرة وإبراهيم:

- ﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾ البقرة 126.

- ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ إبراهيم 35.

4- سورة آل عمران والأنفال:

- ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ آل عمران 126.

وفي الأنفال: ﴿وما النصر إلا من عند الله. إنّ الله عزيز حكيم﴾ الآية 10.

5- وفي الأعراف وحم (غافر، وفصلت):

- ﴿وإمّا ينزغتك من الشيطان نزع فاستعد بالله انه سميع عليم﴾ الأعراف الآية 200.

- ﴿ فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ﴾ غافر 56.
- ﴿ وإِذَا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِظْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فصلت 36.

6- وفي سورة مريم:

- ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15) ﴾

- ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) ﴾

7- وفي سورة الشرح تكررت النكرة والمعرفة بطريقة أخرى:

- ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) ﴾.

### 1- تنكير لفظة المعروف وتعريفها في البقرة

تلاحظ أنّ ( بالمعروف ) الأولى معرفة. والثانية ( من معروف ) نكرة مع شدة التشابه. حُكي عن الخطيب أنّ « المعروف الأول معرّف اللفظ لأن المعنى: بالوجه المعروف من الشرع لهن، وهو الوجه الذي دل الله عليه وأبانه. والثاني كان وجهًا من الوجوه التي لهن<sup>1</sup>. » .

ويذكر الكرمانى أنّ المعروف في الآيتين واحد، وأنّ ( من معروف ) المنكّرة سابقة على ( بالمعروف ) المعرّفة وإن وقعت متأخرة في التلاوة فإنها متقدمة في النزول بإجماع المفسرين. والدليل على ذلك أنّ الآية الثانية منسوخة بالآية الأولى والمنسوخ سابق على الناسخ ضرورة<sup>2</sup>.

وهناك أيضا من فرّق بين المعرفين فجعل المعروف الأول هو ما أباحه الله لهنّ من التزوج بعد انقضاء العدة فالمعروف هنا محدد معلوم وهو في الآية الثانية تخيير لهنّ بين أمرين مشروعين هما القعود والزواج فالمعروف هنا متردّد بين الاختيارين غير

1 أسرار التكرار في القرآن للكرمانى ص 44 .

2 انظر نفس المصدر

محدد، فأخرج مخرج النكرة.<sup>1</sup> ويؤيد هذا تقييد الآية الأولى بـ (إذا) الشرطية الموجبة لتحقيق شرطها بينما؛ قُيِّدَت الآية الثانية بـ (إن) الشرطية المتوقع شرطها لا على سبيل الوجوب. وهذا الأخير يناسبه التنكير لعدم تعيُّنه.

وهناك مناسبة أخرى بين اللفظين من جهة رسم الحرفين الجارين من حيث الاتصال في الرسم بالاسم المجرور أو الانفصال عنه، ذلك أنّ " الباء الجارة في المعروف في الآية الأولى مناسبة جدا لمعاني الاتصال والمصاحبة والملاصقة كما أنّ الباء نفسها تتصل بالكلمة خطأ فضلا عن اتصالها بمعرف بـ أل وهو معنى يقوي الاتصال والتقارب بخلاف من معروف في الآية الثانية حيث التجزئة والتبغيض والتنكير وهي معاني تدعم الانفصال والتباعد.. " <sup>2</sup>.

## 2- تنكير لفظة الحق وتعريفها

- ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ البقرة الآية 61.

- ﴿ويقتلون الأنبياء بغير حق...﴾ آل عمران الآية 112.

وردت لفظة (الحق) معرفة في آية البقرة، ومنكرة في آل عمران في موقعين منها

متشابهين ﴿ويقتلون النبيين بغير حق...﴾ آل عمران 21.

- ﴿ويقتلون الأنبياء بغير حق...﴾ آل عمران 112.

﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق...﴾ النساء 155.

يعلل الكرمانى مجيء (الحق) في البقرة معرفاً، بأنه إشارة إلى الحق الذي أذن الله

أن تقتل النفس به ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلى بالحق﴾ الأنعام 151. فكان الأولى أن يذكر معرفاً.

1 أنظر ملك التأويل 1/ص272 ونظر أسرار التكرار هامش 43-443.

2- أسلوب الالتفات في القرآن الكريم وأسواره - الأستاذ مصطفى شريقن - ص: 447. ط1 - دار

الخلدونية للنشر والتوزيع- الجزائر. 1430هـ/2009

ومجيئه منكرا في آل عمران والنساء إشارة إلى الحق العرفي لديهم، وفي معتقدهم.<sup>1</sup>  
وهو بالتنكير أولى.

ويضيف ابن الزبير الغرناطي أن ما في البقرة هو في سلف بني إسرائيل ممن لم يشاهد أمر محمد ﷺ، وأن الكفر السابق، عمومته في جميعهم؛ ولذلك جيء بجمع السلامة (النبين). وأن ما في آل عمران والنساء كان فيمن شاهد من بني إسرائيل أمر محمد ﷺ وعان تلك البراهين، حتى تبين له أنه ﷺ هو الذي أخبر عنه موسى عليه السلام. فلم تبق لهم أدنى شبهة يتعلقون بها، لتبرير ما ارتكبوه. حتى كأن ﴿بغير حق﴾ مرادف- في ما لو قيل- (بغير سبب ولا شبهة) وذلك أوغل في ذمهم، وسوء حالهم.<sup>2</sup>

ولقد أحسن السامرائي في الإفادة ممن سبقه فإليكها مختصرة:

الحق: في الأولى معرف ← (بغير الحق) الذي يدعو إلى القتل وهو معروف معهود.

حق: في الثانية نكرة ← أي أنهم يقتلون بغير حق أصلا، فليس هناك وجه من وجوه الحق يدعو إلى إيذاء الأنبياء، فضلا عن قتلهم.

ف(حق): نكرة عامة تفيد هنا زيادة النكير عليهم والذم، وتبشيع فعلهم؛ لكونهم قتلوا بغير سبب أصلا. فجاء بالتنكير، في مقام الزيادة في ذمهم.

ومن الواضح أن موطن التبشيع عليهم والعيب على فعلهم في آية آل عمران أكبر منه في آية البقرة تدل عليه أمور منها:

في البقرة جمع « (الذلة) و(المسكنة) أما في آل عمران فإنه أكد وكرر وعمم بقوله ﴿أيما ثقفوا﴾ وأعاد الفعل ﴿ضربت﴾ وحرف الجر ﴿عليهم﴾.

ذكر الجمع في البقرة بصورة القلة ﴿النبئين﴾، وذكر بصورة الكثرة في آل عمران ﴿الأنبياء﴾ أي يقتلون العدد الكثير بغير حق.<sup>3</sup>

1- أنظر أسرار التكرار/30 و31.

2- أنظر- ملاك التأويل ج1/215.

3- أنظر التعبير القرآني لفاضل السامرائي/188 و189.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الفرق بين جمع التكسير وجمع التذكير السالم، أن جمع السلامة فيه، ينصبُّ على الأوصاف والأحداث، وجمع التكسير ينصب على جمع الأفراد والذوات<sup>1</sup>

### 3- تنكير لفظة البلد وتعريفها:

- ﴿رب اجعل هذا بلدا آمنا﴾ البقرة 126.

- ﴿رب اجعل هذا البلد آمنا﴾ إبراهيم 35.

قيل إن (بلدا): الأولى نكرة، لأنه دعاء لأول مرة، حينما وطئ واديا غير ذي زرع، وأن البلد في سورة إبراهيم وهو معرّف كان بعد عودته وسكنى جرهم واستقرارهم .

### 4- تعريف العزيز الحكيم وتنكيره:

- ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ آل عمران 126.

وفي الأنفال: ﴿وما النصر إلا من عند الله. إن الله عزيز حكيم﴾ الآية 10.

إن تعريفه كان على وجه الوصف، وتنكيره على سبيل الإخبار، فناسب الأول التعريف، وناسب الثاني التنكير.

ولما كانت آية الأنفال قبل آية آل عمران نزولا<sup>2</sup>؛ إذ نزلت الأولى بمناسبة غزوة بدر، ونزلت الأخرى في غزوة أحد.. أخبر فيها "أن الله عزيز حكيم" وجعلها في سورة آل عمران صفة معرّفة؛ لأن الخبر قد سبق<sup>3</sup>.

1- أنظر معاني الأبنية في العربية للدكتور الفاضل للسامرائي/ 136-138 الطبعة الثانية 2007 دار عمار عمان.

2- ترتيب سورة الأنفال حسب النزول 88 . وآل عمران 89.

3- أسرار التكرار / 51.

## 5- تعريف السميع العليم وتنكيره:

- ﴿وَإِنَّمَا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الأعراف الآية 200.
  - ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ غافر 56.
  - ﴿وَإِنَّمَا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فصلت 36.
- إن آية الأعراف نزلت أولاً، وآية السجدة نزلت ثانياً، فحسن التعريف أي: ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الذي تقدّم ذكره أولاً عند نزوغ الشيطان<sup>1</sup>.
- قلت ذلك مناسباً لنزول هذه الآيات فآية الأعراف سابقة نزولاً، ومتقدمة في ترتيب المصحف، فترتيبها النزولي كما يأتي:

الأعراف ← ترتيبها 39 - وفي المصحف: 7

غافر ← ترتيبها 60 - وفي المصحف: 40

فصلت ← ترتيبها 61 - وفي المصحف: 41

فالتعريف حسب هذا الترتيب للتقدم الذكري.

ويلاحظ زيادة ضمير الفصل (هو) مع التعريف، للدلالة على توكيد الحكم، وقصر الوصفين عليه، مع الكمال فيهما؛ فإنه في الحقيقة لا سميع ولا عليم سواه؛ فهو الإله حصراً وتَوْحُّدًا، والسميع العليم قصرًا وتفردًا.

ولما كان التوجيه الرباني يدعونا إلى التحرز من شياطين الإنس، ممن نراهم ويروننا، ومن شياطين الجن الذين لا نراهم ويروننا، جعل التحرز من الإنس بتطبيق المبدأ ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾ المؤمنون 96.

وجعل التحصين من الشياطين بالاستعاذة برب العالمين ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين﴾ وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴿المؤمنون 97 و98.

ويتأكد هذا المبدأ ويتكرر في مقام الأمر بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

1- التعبير القرآني - الدكتور فاضل صالح السامرائي. ص 189.

فأنت تراه يصاحبك في سياق تلك الآيات: ففي الأعراف نلاحظ أنها سُبقت بـ ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ الأعراف 199.

وهو أمرٌ بدفع أذى شياطين الإنس من الجاهلين، بالإعراض عنهم.

ثم أمره بعدها، بدفع شر شياطين الجن بالاستعاذة بالله منهم.

- ﴿وإِذَا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغًا فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الأعراف الآية 200.

وفي فصلت: كذلك أمر قبلها بدفع شر شياطين الإنس بالإحسان إليهم: ﴿ادفع

بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ فصلت 34.

غير أنه في سورة فصلت: أكد الصفات بإنّ، وضمير الفصل (هو)، وبـ (أل) ﴿

إنه هو السميع العليم﴾.

حيث أريد هنا، توكيدُ الوصف الكامل والكافي في الاستعاذة، بأنه سبحانه

وتعالى يسمع ويعلم، يسمع استعاذتك فيجيبك، ويعلم ما نستعيز منه فيدفعه عنك.

وهذا المعنى يشمل الموضوعين، غير أنه جاء مجرداً من هذا التوكيد والتعريف في آية

الأعراف، ليفيد مجرد إثبات ذلك الوصف. وامتاز في سورة فصلت بمزيد التأكيد

والتعريف والتخصيص؛ ليناسب ما أنكره الله على نفر من قريش وثقيف، كثيرٌ شحمٌ

بطونهم، قليلٌ فقهٌ قلوبهم. - كما وصفهم ﷺ - لما اجتمعوا عند البيت وتساءلوا: أترون

الله يسمع ما نقول؟، فنزل قوله تعالى؟ ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم

ولا أبصاركم ولا جلودكم..﴾ فصلت 22.

فجاء التوكيد في سياق هذا الإنكار<sup>1</sup>، لحسمه وحسن هذا التعريف المؤكد، أن

المأمور به في "فصلت" دفعُ الإساءة بالإحسان، وهو موقف شديد على النفوس،

وأشق من مجرد الإعراض عن الجاهلين... فحسُنَ التوكيد لشدة الحاجة إلى الاستعاذة

والاستعاذة.

1- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: ابن قيم الجوزية (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر)، ج: 1 ص 96.

وحسُنَ الجمعَ بين الإعراض والدفع بالأحسن، وبين الاستعاذة وذكر الشيطان،  
لما بينهما من مناسبة، وعلاقة المسبَّب بسببه؛ ذلك أن مقام الدفع بالتي هي أحسن مقام  
حَظِيّ رفيع، يترصّد الشيطان سبيل من يرومّه، فقد اقسام: ﴿لأقعدن لهم صراطك  
المستقيم﴾.

ولهذا ترى السياق يُبرز هذا المعنى في موضع آخر: ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي  
أحسن إنَّ الشيطان يَنزِعُ بينهم إنَّ الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾ الإسراء 53.  
ويخرج أصالة النزغ والعداوة في الشيطان، مخرَجَ التوكيد، بـ "إنَّ"، وبإظهار لفظ  
"الشيطان" حتى لكأنهما حُكْمَان مستقلان لا ينفكان عن الشيطان:

فنزغهُ: ﴿إنَّ الشيطان يَنزِعُ بينهم﴾.

وعداوته: ﴿إنَّ الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾ وهما في آية واحدة.

وفي سورة يوسف وكأنهما آية واحدة:

- ﴿إنَّ الشيطان للإنسان عدوٌّ مبينٌ﴾ الآية 5/يوسف.

- ﴿من بعد أن نزغ الشيطانُ بيني وبين إخوتي﴾ الآية 100/يوسف.

ويحسن أن ننبه في الأخير ونحن نتناول التعريف والتنكير في الاسمين الكريمين  
أنَّ الأمر يتعلق بأوصاف المولى الذي لا تعرفه "أل" العهدية... كيف وقد جمع السياق  
بينه وبين اسم الذات الذي هو أعرف المعارف (الله) جلَّ في علاه ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾  
فكيف يبقى بعده في ذهن معنى للتَّنكير الحقيقي...

ويبقى الأسلوب هو الذي اقتضى هذا التعريف لوروده بعد ضمير العماد (ضمير  
الفصل). والله أعلم.

## 6- تعريف السلام وتنكيره:

- ﴿وسلامٌ عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يعث حيا﴾ (15) ﴿مريم 15.

- ﴿والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً﴾ (33) ﴿مريم 33.

جاء السلام منكرا في حق يحيى عليه السلام ومعرفا في قصة عيسى عليه السلام  
و(ال)للاستغراق أي السلام الكامل التام. أو هي للعهد باعتبار السلام السابق الموجه  
إلى يحيى عليه السلام. قال زكريا الأنصاري (لأن الأول من الله، والقليل منه كثير  
والثاني من عيسى... أي ذلك السلام الموجه إلى يحيى موجه إلي)<sup>1</sup>.

و السلام في حق يحيى، وإن كان نكرة، فأعظم به وأكرم؛ إذ كل سلام منه  
سبحانه(كاف عن كل سلام ومغن عن كل تحية، ومقرب من كل أمنية، فأدنى سلام  
منه، يستغرق الوصف.. ويدفع البؤس..، ويقطع موارد العطب والهلاك)<sup>2</sup>.

بينما جاء السلام معرفا في حق عيسى عليه السلام لأنه صادر عنه منسوب إليه  
﴿والسلام علي﴾. والسلام والسلامة: هو التعري من الآفات وانتفاؤها؛ غير أن  
السلامة(الحقيقية ليست إلا في الجنة، إذ فيها بقاء بلا فناء، وغناء بلا فقر، وعز بلا  
ذل، وصحة بلا سقم)<sup>3</sup>، ولذلك سميت دار السلام.

والسلام من الناس بالقول دعاء وطلب، ومن الله تعالى بالفعل تحقيقا، فلا  
يحققها إلا هو سبحانه وتعالى.

وقُيِّد السلام في الآيتين بتلك الأوقات الثلاثة ﴿يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث  
حيا﴾ لأنها أخرج الأحوال، في حياة البشر، وتقلبات أطوارهم، وأحوجها إلى الأمان  
والسلام: لحظات الميلاد والوفاة والبعث والنشور.والقرينة التي تعين على ضبط الحفظ  
في هذا المتشابه عند استحضاره واسترجاعه، أن السلام الأول نكرة باعتبار التقدم  
والسبق والثاني معرفة، وكان (أل) هنا للعهد الذكرى.

1- زكريا الأنصاري/352- وأنظر أيضا مجلة منار الإسلام. ص: 33. السيد حسين الحسنی العدد: 8  
السنة الرابعة يوليو 1979.

2- صفاء الكلمة د عبد الفتاح لاشين/25 .

3- معجم مفردات القرآن. للراغب الأصفهاني/245.

## 7- تكرر لفظتي العسر واليسر معرفة ومنكرة في سورة الشرح

- ﴿فإن مع العسر يسرا(5) إنَّ مع العسر يسرا(6)﴾.

تكررت الآية الثانية لعدة اعتبارات اختلف حولها المفسرون؛ إذ تحتمل الجملة أن تكون: - تأكيداً للأولى. وعلى هذا يتَّجَدُّ العسر واليسر في الجملتين.

- أو تكون (أل) للعهد لا للاستغراق؛ قالت عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي: « والراجح أن (أل) في العسر، للعهد لا للاستغراق...وأما تنكير يسر، فلكي ينفسح فيه مجال التصور والإطلاق فيحتمل ما قاله المفسرون وما لم يقوله»<sup>1</sup>

- أو تكون وعدا مستأنفا فيتعدد اليسر حسب ما أشار إليه الحديث المأثور "والذي نفسي بيده لو كان العسر في حجر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه، إنه لن يغلب عسر يُسرَيْن"<sup>2</sup>.

والحامل على هذا التفسير هو حسن الرجاء؛ فإن وعد الله لا يحمل إلا على أكمل الوجوه وأحسنها؛ فتراه ﷺ يجعله حكماً عاماً بعد أن خصه الله به؛ فعاشه واقعا: شرح الله له صدره، ووضع عنه وزره وأنقض ظهره، ورفع له ذكره.

وقاعدة إعادة النكرة، وإعادة المعرفة التي فسر بها الحديث قاعدة صحيحة من حيث المبدأ- وإن خطأها بعضهم-؛ إذ تقول مثلاً: دخل رجل وخرج رجل ← لتدل على رجل آخر، فهما رجلان (الداخل والخارج)

فإذا قلت: دخل الرجل ثم خرج الرجل، فالرجل هنا واحد.

غير أن هذا ليس على إطلاقه فقد تكرر المعرفة ويتعدد معناها لوجود قرائن ويكون الثاني غير الأول، على نحو ما جاء في الآيات الآتية:

1- التفسير البياني للقرآن الكريم للدكتورة عائشة عبد الرحمن ج1/ 71. الطبعة الثامنة (د.ت). دار المعارف مصر.

2- أنظر أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها من غرائب آي التنزيل لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي اعتنى به وراجعته نجيب ماجدي /365. طبعة 2009م 1430هـ. المطبعة العصرية- صيدا- لبنان. وقد نسب القول

{ لن يغلب عسر يسرين } أيضاً، لعمر بن الخطاب، وابن عمر، وابن عباس، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم.

- ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ الإحسان الأول هو العمل والثاني هو الثواب.
- ﴿أن النفس بالنفس﴾ الأولى هي القاتلة والأخرى المقتولة
- ﴿وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به﴾ العنكبوت 47.
- الكتاب الأول هو القرآن والكتاب الثاني التوراة والإنجيل.
- ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء﴾ آل عمران 26. الملك الأول كلي عام والثاني جزئي خاص.

وكذلك قد تتكرر النكرة ولا تفيد التعدد كما في قوله تعالى: ﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾ الزخرف 84. قيل إن معنى (إله) هنا معبود. ولعل هذه الاستثناءات، هي التي حملت بعض العلماء على تخطئة هذه القاعدة وإبطالها؛ ومن هؤلاء أبو علي الحسين الجرجاني، والزمخشري، وابن هشام، وابن عاشور وغيرهم.

وراحوا يتكلفون تخريجات<sup>1</sup> ما أغناهم عنها لتعليل التثنية التي وردت في الحديث (يسرين)، فشط بهم التعليل والتأويل، عما كان ميسورا موفورا، وأحظى قبولا لو أنهم اجتزأوا واكتفوا بما أشار إليه الفراء والزجاج، وصاحب البحر المحيط وغيرهم. وهناك من علل التعريف والتنكير في الآية تعليلا ذوقيا فرأى في تعريف العسر مناسبة كونه حاضرا موجودا وفي تنكير اليسر كونه غائبا مفقودا<sup>2</sup>؛ غير أن هذا التعليل يذهب بتعجيل المسرة التي تفيض بها الآيات.

وإذا كان المصدر المؤكّد لفعله يرفع عنه احتمال المجاز، فإني لا أستبعد أن يكون التكرار أولى بهذه الوظيفة، فيبيد الجملة المكررة عن إرادة المعنى المجازي، ويخلصها للمعنى الحقيقي وعليه فجملة ﴿إن مع العسر يسرا﴾ تنبئ أن هذه البشارة حقيقة لا مجرد مجاز وتصوير، وبذلك تنضاف إلى وظائف التكرار هذه الوظيفة البليغة.

1- أنظر تخريجات ابن عاشور في تفسيره ج 30/415 و 416.

2- أنظر أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها لعبد القادر الرازي/365.

## - ثالثاً: ما تشابه لفظه واختلف في التقديم والتأخير:

1 - تقديم الجار والمجرور وتأخيرهما بين: يس والقصص: (من أقصى المدينة)

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ القصص الآية 20.

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ يس الآية 20 و 21  
إن التشابه وقع في العبارة الأولى من الآيتين مع اختلاف يسير يتمثل في تقديم اللفظ وتأخيرها، وحتى ندرك ملاءمة كل صورة من الصورتين لموقعها الذي وردت فيه، نحاول التأمل في العبارتين وسيفضي بنا التأمل في التركيب إلى معان لم نكن لنقف عليها لولا ذاك التأمل.

﴿ إن أصل التركيب:

- وجاء رجل يسعى من أقصى المدينة.

- أو وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى.

- ورد في سورة القصص الوجه:

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾ الآية 20

و قد يحمل على أنه الأصل أيضا فلا يركز فيه إلا على سبب الاهتمام في تقديم

الجار والمجرور ﴿ من أقصى المدينة ﴾ على الوصف ﴿ يسعى ﴾

بيد أن الملفت للانتباه حقا والجدير بالاهتمام صدقا هو ما السرّ في تقديم الجار

والمجرور ﴿ من أقصى المدينة ﴾ على الفاعل ﴿ رجل ﴾ ؟ وهو الوارد في سورة يس:

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ الآية 20

بالنظر إلى الوظائف النحوية التي تتجاوزها المفردات بين التركيبين نلاحظ أن

"من أقصى المدينة" و"يسعى" يجوز إعرابهما صفتين<sup>1</sup> ويجوز إعرابهما حالا على أن يكون أحدهما وصفا للنكرة (رجل) حسب التركيب في سورة القصص ويترجح أن يكون

1- أنظر: البحر المحيط ج 8 / 295.

الوصف بـ (من أقصى المدينة) في سورة القصص لأنه ولي النكرة (رجل)، وكذلك تعرب (يسعى) في سورة يس لولايتها النكرة (رجل).

وتكون (يسعى) في القصص صفة أخرى لرجل أو حالاً له، لأنه تخصص بالوصف، وأما في يس فهي صفة لأنه قد تعين أن (من أقصى المدينة) صلة متعلقة بجاء لتقدمها على الفاعل.

وتكون "من أقصى المدينة" في القصص في موضعها صلة لجاء، أو صفة لرجل، وفي سورة يس مقدمة على الفاعل لأداء معنى من معاني الاهتمام والعناية، ولذا اختلف إعرابها بين الموقعين، فزى الكرمانى يقول عن إعراب (من أقصى المدينة): « والأظهر في هذه السورة (يعني سورة القصص) أن يكون وصفاً وفي يس أن يكون صلة »<sup>1</sup>. وهذا الافتراق في الموقع كفيلاً بأن يستحث الهمم ويحملها على التدبر في سبب تقدم الجار والمجرور وسر العناية به في سورة يس على الخصوص.

كما يستوقف الدارس المتأمل غرض التنكير في الفاعل (رجل) فقد يكون التنكير هنا للتعظيم، بمعنى أنه رجل عظيم كامل الرجولة وموقفه الباهر شاهد على ذلك، أو هو للعموم والغموض فهو رجل من عامة القوم لا يعرفونه وفي هذا الإيهام والتنكير إظهار للحق الذي جاء به المرسلون، « حيث آمن بهم رجل من الرجال لا يعرفونه ومن أطراف المدينة مما لا يحتمل التواطؤ معهم »<sup>2</sup>.

و هكذا تلتحم المعاني التي يوحي بها التنكير بالمعاني التي يثيرها التقديم، فهذا الرجل الذي لا يعرفون عنه شيئاً لم يقل لهم: اتبعوني، لأنهم لا يعرفون سيرته، وإنما نصح لهم وقال: « اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ » فانكشف إيمانه بهم حين وصفهم بالرسالة، وأشاد بعلو هممهم وأتى على سمو أخلاقهم « اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ».

1- أسرار التكرار - للكرمانى ص 159. وغرائب القرآن للقمي ج 20 ص 32.

2- غرائب القرآن - للقمي ج 23 / 12.

كما يقرر شيئاً من هذا المعنى وزيادة، تقديم ( من أقصى المدينة ) حيث يفيد أن هؤلاء الرسل ما قصرُوا في التبليغ فقد بلغ إنذارهم أقاصي المدينة، وهذا الرجل الغريب شاهد قوي على ذلك.

وإنَّ هذا الجاني القادم من مكان بعيد من أقصى المدينة لم يشهد أحداث قصة أصحاب القرية، ولا ندري كيف بلغه الأمر... ومع ذلك كان أشدهم استجابة على البعد وأطوعهم للحق وأعمقهم اهتداء، إذ صار داعياً هادياً فجاءهم واعظاً ناصحاً... فتقديم المكان القصي على الفاعل كان عناية واهتماماً بهذا الشأن.

وبقدر ما في موقف هذا الرجل من إجلال وتعظيم، فإن فيه تقييماً وتحقيراً للقوم لإعراضهم عن الهدى ونفورهم من الحق، مع شدة القرب من الرسل وتلقي الخطاب مباشرة ومعاينته مع مشاهدة الاستقامة وكريم الأخلاق وجميل المعاملة: «مَنْ لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ».

وهذان الموقفان المتباينان بين الرجل وأصحاب القرية هو أمر ملحوظ في الواقع فرب مبلغ غائب أوعى من سامع شاهد، ولقد نصرَ رسولَ الله ﷺ رجالاً من المدينة وخذله بعضُ أكبر قريش في مكة ...

ويشير الزركشي إلى هذا المعنى حين يقول عن موقف أصحاب القرية من الرسل: إنَّه « توبيخ لأهل المدينة الكافرين والمعرضين مع قريش من الرسالة والدعوة، وحصول الإيمان من ساكني الأطراف »<sup>1</sup>.

ويذكر السبكي سبباً آخر في تقدم (من أقصى المدينة) يتمثل في إزالة عارض قد يجول في النفس ويخطر بالبال حول تلك القرية، من أن أهلها ظالمون مكذبون فما

1- دلالات التقديم والتأخير ص 135 - 577

أحرى أن يُلْعَنوا ... فأزيلت هذه الشبهة بمن استوطن أقاصي المدينة ممن لا يشعر  
1  
• ٣٦

ويجعل ابن عاشور من هذا التقديم سبيلا لامتداح سكان الأطراف والأرباض  
فيقول: « يظهر وجه تقديم (من أقصى المدينة) على (رجل) للاهتمام بالثناء على أهل  
أقصى المدينة، وأنه قد يوجد الخير في الأطراف ما لا يوجد في الوسط، وأن الإيمان  
يسبق إليه الضعفاء لأنهم لا يصدّهم عن الحق ما فيه أهل السيادة من ترف وعظمة إذ  
المعتاد أنهم يسكنون وسط المدينة ...

وأما قوله تعالى في سورة القصص: ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾ فجاء  
النظم على الترتيب الأصلي إذ لا داعي إلى التقديم إذا كان ذلك الرجل ناصحا ولم يكن  
داعيا للإيمان»<sup>2</sup>.

لا جرم أن المقام في سورة القصص أن يتبوأ الفاعل محله الأصلي ويقدم الوصف  
بالجار والمجرور: ﴿ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ ﴾ على الوصف بالجملة الفعلية (يَسْعَى) وذلك لإبراز  
العناية الربانية لموسى ﴿ وَلِئُضَمَّ عَلَى عَيْنِي ﴾ حيث قيّضت لموسى عليه السلام رجلا لا  
يعرفه يُقبَلُ من أقصى المدينة محذرا ناصحا.

و هذا التحليل يكشف للمتأمل ما بين العبارتين المكررتين من اختلاف على  
شدة الاتفاق ومناسبة كل عبارة منهما لمحلها، وهو مناط التمييز بين المتشابهين حتى لا  
يسقط التالي للآيتين عند الاستظهار ويختل حفظه عند التلاوة، فتأخير الفاعل  
(رجل) وتقديم المكان القصي عليه هو أحرى وأنسب بسورة يس ﴿ وَجَاءَ مِّنْ أَقْصَى

---

1- أنظر خلاصة هذا المعنى في: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح - بهاء الدين السبكي - تحقيق  
د/خليل إبراهيم خليل ط (1) 1422 / 2001 دار الكتب العلمية - بيروت - المجلد 1 / 484 والإيضاح  
للفرويني ص 210 والبرهان 284/3 وأسرار التقديم والتأخير (3) ص 119، 120.  
2- تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج 2 / 366.الدار التونسية للنشر.تونس1984. وانظر: دلالات  
التقديم والتأخير في القرآن الكريم. دراسة تحليلية، د. منير محمود المسيري.مكتبة وهبة.ط1/2005.  
القاهرة. مصر. ص 578.

المَدِينَةَ رَجُلٌ يَسْعَى ﴿ حيث تتأكد معاني التقديم ويشتد الإلحاح عليها إذ نلمس هذا الإلحاح في:

\* إظهار إيمان رجل من أقصى المدينة في حين كذب أصحاب القرية وهم الحاضرون المخاطبون.

\* وفي الإشارة إلى انطباق هذا المثل على أهل مكة ﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القرية اذ جاءها المرسلون ﴿ وقد استجاب له ﷺ ثلثة من أهل المدينة على البعد بينما غفل عن ذاك الهدى كثير من أهل مكة التي خصها الله عز وجل بمهبط الوحي، ومبعث الرسالة ... وقد سبقت الإشارة في سورة يس إلى غفلة أهلها والتيئيس من إيمان بعض كبرائها:

- ﴿ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6) ... فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7) ﴾

- ﴿ ... وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10) ﴾

وقد أثلج صدري أن وجدت الإمام أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي يشير إلى ما عن لي من معان أثارها في التأمل في سر تقديم المكان على الفاعل في آية يس فوجدت نفسي أسبح الله العظيم على هذا الاتفاق على ما بيننا من افتراق وبعد في الزمان، فتأمل ذلك إن شئت بالنظر إلى ما أثرت وإلى ما ذكره ابن الزبير فيما يأتي:

يقول أحمد بن إبراهيم بن الزبير عن آية يس:

« ووجه ذلك - والله أعلم - أن تقديم المجرور الذي هو قوله: ﴿ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ ﴾ مشيرا إلى إحراز معنى جليل مطلع على حكم السوابق من بعد مسافة عن داعيه إلى الهداية، فلم يضره بعد الدار وكفر من باشر الرسل وشافهم فلم ينتفع بقرب الدار، وذلك بحسب ما قدر لكل المكلفين وسبق له، وحاصل الإخبار من هذه الآيات مثال لحال كفار قريش من أهل مكة، وحال الأنصار من أهل المدينة، حين جاء هؤلاء وآمنوا به ﷺ مع بعد دارهم، وعاند عتاة قريش فكفروا مع الالتحام في النسب واتحاد الدار، ويوضح هذا أن السورة مكية، وإنما افتتحت بذكر قريش وهم المعنيون بقوله:

﴿تُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ إلى ما بعد من آيات، والإخبار بأن ذلك لا يجدي عليهم في قوله: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فهذا الإخبار بحال كفار قريش، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ...﴾ أي من انقاد وأصغى إليك وإن بعدت داره وهذا حال الأنصار وهم في المدينة، ثم قال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ أي الفريقين ممن كفر مع قرب داره ومن آمن مع بعد داره، وذكر تعالى أصحاب القرية وحالهم مع من أرسل إليهم، وأنهم أرسل إليهم اثنان ثم عززوا بثالث فجاوبهم أصحاب القرية... فلما ذكر سبحانه هذه المحاورة والمراجعة قال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾ أي ممن لم يحضر معهم ولا شاهد ما طال من مراجعتهم، فجاء بحسب ما سبق له من السعادة يقول: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾... فمجيئه من أقصى المدينة مثال لمن بعد فلم يضره بعده، وذكره المراجعين للرسول من أصحاب القرية مثال لمن قرب وطالت مباشرته وشاهد الآيات فلم ينفعه قربه، فلما قصد في آية يس مثال من ذكر من الفريقين خصت من تقديم المجرور على الفاعل ما يجرز المعنى المقصود، فهو من قبيل ما قدم للاعتبار والتهمم... فلا حراز هذا المعنى قدم هذا المجرور وتأخر الفاعل «<sup>1</sup>».

وعلى هذا فليس لنا في هاتين الآيتين من سورة القصص ويس إلا أن يقدم المجرور ﴿مَنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾ ويؤخر الفاعل (رجل) لتلك الاعتبارات، ويلتزم الترتيب الأصلي (فعل وفاعل ومجرور) في القصص، وهذا معين على ضبط الحفظ.

## 2- تقديم الجار والمجرور وتأخيرهما: (به) و(فيه)

من أوضح الآيات المتشابهة والتي يفرق بينها بتقديم الحرف أو تأخيره ما تلمسه في الآيات الآتية:

1- ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ الأنفال: (10)

- ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ آل عمران: (126)

2- ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِزْيِرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ البقرة (173)

1- ملك التأويل - أحمد الزبير الغرناطي - تحقيق سعيد الفلاح - دار الغرب الإسلامي بيروت ط (1) 1403هـ / 1983م ج 2 / 904 - 907.

- ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلِيَ لغيرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ المائدة (3)  
- ﴿...إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلِيَ لغيرِ  
اللَّهِ بِهِ ﴾ الأنعام (145)

- ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلِيَ لغيرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ النحل (115)  
3- ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ ﴾ النحل (14)  
- ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ ﴾ فاطر (12)

## 1.2 - بين الأنفال وآل عمران:

أما التشابه الأول ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ﴾ آل عمران  
(26) فيقول عنه تاج القراء الكرمانى:

(هاهنا بإثبات ( لكم ) وتأخير (به)..؛ لأنَّ البشرى هنا للمخاطبين فبيّن وقال:  
(لكم)، وفي الأنفال قد تقدم (لكم) في قوله ﴿ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ فاكتمى بذلك.  
و قدّم (قلوبكم) هنا، وأخّر (به) ازدواجًا بين المخاطبين فقال: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا  
بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ﴾ آل عمران (126).

وقدّم به في الأنفال ازدواجًا بين الغائبين فقال: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى  
وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾ الأنفال: (10) <sup>1</sup>.

ويقول صاحب ملاك التأويل: (لما تقدّم الإخبار عن عدوّهم في آية آل عمران،  
فاختلط ذكر الطائفتين وضمّهما كلام واحد . فجردت البشارة لمن هُدي منها وأنها لأولياء  
الله المؤمنين، فجاء بضمير خطابهم متّصلاً بلام الجرّ المقتضية الاستحقاق ف قيل:  
(بشرى لكم)، وبيّن أن قلوبهم هي المطمّنة بذلك ف قيل: ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ﴾، فقدّمت  
القلوب على المجرور اعتناءً وبشارةً ليمتاز أهلها ممّن ليس لهم نصيب.

1- أسرار التكرار ص 51.

أما آية الأنفال فلم يتقدّم فيها ذكر لغير المؤمنين وقد تقدّم تخصيصهم بالخطاب أيضاً: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ فأغنى عن عودته فيما بعد ولم يحتاج إلى الضمير الخطابي في (لكم) <sup>1</sup>.

و يقول ابن تيمية عن آية آل عمران: "يقتضي خصوص البشرى بهم . وأما قصة بدر فإنّ البشرى بها عامّة فيكون هذا كالدليل على ما روي من أنّ ألف بدر باقية في الأمّة، فإنه أطلق الإمداد والبشرى وقدم (به) على (لكم) عناية بالألف، وفي أحد كانت العناية بهم لو صبروا فلم يوجد الشرط" <sup>2</sup>.

ففي بدر وعدهم "بالإمداد بألفٍ وعدًا مطلقًا وأخبر أنّه جعل إمداد الألف بشرى ولم يُقيده" <sup>3</sup> بخلاف الوعد في قصة أحد فإنه مقيّد بالصبر والتقوى: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ آل عمران (125).

و يبدو أنّ زكريا الأنصاري قد رضي تعليل الكرمانى في بيان سرّ تقديم (القلوب) على (به) حين قال:

(و قدّم (قلوبكم) على (به) هنا، وعكس في الأنفال ليزواج بين الخطابين هنا في (لكم) و(قلوبكم) ) <sup>4</sup>.

و يرجع الشيخ محمد عبده سرّ اختلاف التعبيرين إلى اختلاف الأحوال في الواقعتين؛ بدرٍ وأحدٍ: (و الفرق بينهما أنّ المؤمنين لم يكن لهم يوم بدرٍ ما تطمئنّ به قلوبهم غير وعد الله وبشارته لهم على لسان رسوله ﷺ ، ولذلك كان من دعائه يومئذ: " اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم أنجز لي ما وعدتني... " <sup>5</sup> فما زال يستغيث حتى سقط

1- أنظر ملاك التأويل - لابن الزبير - 1/ 314 و 315.

2- التفسير الكبير لابن تيمية 4/ 336 .

3- نفس المصدر ص 335 .

4- فتح الرحمن في كشف ما يلتبس في القرآن - شيخ الإسلام زكريا الأنصاري ص 96، 97.

5 تفسير المنار - ج 4 / 115، 116.

رداؤه فأعاده أبو بكر رضي الله تعالى عنه والتزم رسول الله ﷺ من ورائه وهو يقول له: (يا نبي الله بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك) <sup>1</sup>، فكان بهذا الوعد اطمئناناً قلوبهم لا بسواه فلذلك قدّم (به) على (قلوبكم).

و أما في يوم أحد فلم تكن الحال كذلك.. فلم تعدّ البشارة أن تكون مما يطمئن به القلب فقال: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ من غير قصر <sup>2</sup>.

و نجد أخيراً الدكتور منير محمود المسيري يشير إلى سرّ وجود (لكم) في آية آل عمران وتقديم (به) في سورة الأنفال فيقول:

"و إنّ (لكم) مُضمرة في سورة الأنفال كما هي مُظهرة في هذه السورة (آل عمران)، فلأنّ الأولى جاءت على الأصل، والثانية قد تقدّمتها (لكم) فأغنت عن إعادتها بلفظها ومعناها.... فلما قال: ﴿اسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ علم أنّه جعل بشرى لهم فأغنت (لكم) الأولى بلفظها ومعناها عن الثانية، وفي الآية الأولى لم يتقدم ما يقوم هذا المقام فأتى بقوله (لكم) على الأصل.... و أما تقديم (به) في الآية الثانية فلأنّ الأصل في خبر يصدر بفعل أن يكون الفاعل بعده ثم المفعول ثم الجار والمجرور <sup>3</sup>، لكنّه لا يذكر سرّ تقديم (به) في الأنفال، وإنّما يكتفي بالإشارة إلى الغرض العام للتقديم وهو أن يُبدأ بما هو أهمّ، والعناية به أتمّ ولا يتجاوز ذلك.

و بعد عرض نظرات أولئك والتي نلاحظ تقاربها وتأثر بعضها ببعض، أود أن أشير إلى أن آية الأنفال هي مفتاح هذا المتشابه:

- ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الأنفال (10).

1- أيام العرب في الإسلام- محمد أبو الفضل إبراهيم- علي محمد البجاوي ص 22

2- تفسير المنار - 4 / 116.

3- دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم- د- منير محمود المسيري- ط (1): 2005 / 1426- مكتبة وهبة القاهرة ص 275، 276.

فحلُّ التأمُّل ومحطُّ التدبُّر في هذه الآية بالنظر إلى آية آل عمران يتركز في ثلاثة مواقع فيها:

1- خلؤها من (لكم).

2- تقديم (به) على القلوب (قلوبكم).

3- ورود الاسمين الكريمين ضمن جملة مستقلة هي تذييل لما سبقها بينما هما في آية آل عمران صفة للفظ الجلالة (الله) جل جلاله:

- ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ آل عمران (126).

كل ذلك مرده إلى اختلاف المقامين وتباين الموقفين، وإن كانا في غزوتين فإن الأمر بينهما مختلف.

ففي بدر لما اشتدَّ الأمر وبلغ أقصاه مع قلة في العدد والعدة توالى المبشرات بالتأييد والنصر المؤكَّد وهو ظاهر في السورة:

1- ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ...﴾ الأنفال (7)

2- ﴿... وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ الأنفال (7)

3- ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ الأنفال (8)

4- ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْدِفِينَ﴾ الأنفال (9)

5- ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ الأنفال (12)

ووعدهم رسول الله ﷺ بالإمداد الرباني والنصر العزيز حتى إنه ليُشير إلى مصارع كبراء القوم، فما تجاوزَ أحد منهم مدَّ إشارته

فالإمداد في بدر مضمون.

بينما الإمداد في أحدٍ مشروط بالصبر والتقوى ومعاودة المشركين الكفرة عليهم من فورهم ذاك.. ولكنهم لم يعودوا، وهو أحد شروط الإمداد.

فالاطمئنانُ بالإمداد في بدر نصر وتثبيت لأنه حق وواقع  
والاطمئنانُ بالإمداد في أحد تأنيس لأنه وعد مشروط.

ثم إنَّ البشري في بدر غير مقيدة ولا مخصصة لهم، فهي مطلقة عامة للمؤمنين  
إلى يوم الدين، وهي للمخاطبين من أهل بدرٍ بلا شك، ولكن حُذِفَ الخطابُ هنا  
(لكم) لتستغرق البشري وتعمُ المخاطبين وجميعَ مَنْ يأتي بعدهم من المؤمنين فلو ذكرت  
(لكم) هنا لاحتملت الخصوص.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ( لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر، وفيما سوى ذلك  
يشهدون ولا يقاتلون، إنَّما يكونون عددًا أو مددًا )<sup>1</sup>.

ولقد تظاهرت الروايات إلى جانب الآيات أن الملائكة قاتلت يوم بدرٍ وأنَّ  
البشري عامَّة عند جمهور من العلماء: (لأن الله جعل أولئك الملائكة مُجاهدين إلى يوم  
القيامة، فكل عسكر صَبَرَ واحتَسَبَ تأتيمهم الملائكة ويقاتلون معهم)<sup>2</sup>.

بل إنَّ هناك من اعتبر الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة والتي صارت خمسة  
آلاف أنَّها من الإمدادات التي تحققت يوم بدر لتحقِّق الشرط فيها إذا صبر المؤمنون  
يوم بدر واتقوا الله فأمدهم بخمسة آلاف من الملائكة على ما وعدهم<sup>3</sup>.

و قال الحسن: (فهؤلاء الخمسة آلاف رِدءٌ للمؤمنين إلى يوم القيامة)<sup>4</sup>.

و لم ينقل أنَّ الملائكة نزلت في أحد وإن كانت آية الإمداد هذا نزلت ضمن  
الحديث عن غزوة أحد.. فقد روي عن عكرمة والضحاك قولهما: ( إنَّما كان هذا يوم  
أحد، وعدهم الله المدد إن صبروا، فما صبروا فلم يُمدَّهُم بملك واحد، ولو أمدوا لما  
هزِموا )<sup>5</sup>.

1 تفسير القرطبي - 4 / 194.

2 تفسير القرطبي - 4 / 194.

3- أنظر: المصدر السابق.

4- تفسير القرطبي - 4 / 194.

5- المصدر نفسه ص 195 .

و هذه الحقيقة التي تميّز بدر عن أحد هي سر تقديم الجار والمجرور (به):

- ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾.

ذلك أن المتأمل في الآيتين:

- ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ آل عمران 126.

- ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ الأنفال 10.

يقتضي النظر في سر القصر بتقديم (به) في آية الأنفال لأن الجار والمجرور قد تقدّم على محله.

ولا يصحّ تكلف النظر في سرّ تقديم (القلوب) على الجار والمجرور في آية آل عمران وإن رأينا من يخوض في سرّ تقديمها ويتكلف له؛ لأنه في الحقيقة ليس هناك تقديم البتة. ف (قلوبكم) في آل عمران فاعل واقع في محله الأصلي، وعليه فالنظر ينبغي في سرّ تقديم (به) في الأنفال دون آل عمران لوقوعها في محلّها.

## 2-2. بين البقرة وبين المائدة والأنعام والنحل:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ لغير الله﴾ البقرة 173.

تعد هذه الآية من المواطن التي قدّم فيها الجار والمجرور (به) وأخر في مثيلاتها في

المائدة: ﴿وَلحْمُ الخنزير وما أهل لغير الله به﴾ المائدة 3

والأنعام: ﴿أو فسقاً أهل لغير الله به﴾ الآية: 45

وفي النحل: ﴿ولحْمُ الخنزير وما أهل لغير الله به﴾ الآية: 115

ولقد ذكر ذلك جلُّ من وقف عند هذه الآية؛ غير أنّ الصحيح ليس هناك تقديم على الوجه الدقيق فالباء في (به) واقعة في محلها الأصلي؛ إذ هي هنا للتعدية؛ ولهذا قال عنها تاج القراء الكرمانى: «فإنها تجري مجرى همزة والتشديد في التعدي، فكانت كحرف من الفعل، فكان الموضع الأول أولى بما هو الأصل»<sup>1</sup>. يعني بالموضع الأول في ترتيب المصحف، أي (به) الواقع في سورة البقرة. الظاهر أنه أخذ هذا عن الخطيب

1- أسرار التكرار - للكرمانى ص 38.

الإسكافي ونقله عنهما الفيروز آبادي في بصائره، وذكرها الأنصاري في الفتح. واكتفى الدكتور منير محمود المسيري في دلالات التقديم<sup>1</sup> بنقل ما أورده الخطيب الإسكافي والفيروز آبادي.

أقول إن التعليل بمجيء الآية الأولى على أصل الترتيب لكونها أوّل الآيات في ترتيب المصحف، لا يسلم لمُدَّعيه، لأنه يخالفه واقع النصوص القرآنية قرب مقدم أو مؤخر جاء على أصل الترتيب، ولكنه مؤخر في ترتيب المصحف، وآخر جاء على خلاف الأصل ولكنه مقدم في المصحف.

ثم الأولى بالناظر في هذه الآيات المتأمل في أسرار التقديم والتأخير، أن يعتبر هنا أن التقديم وقع بـ (لغير الله) والتأخير بـ (به)، وهو ما جاء في آية المائدة والأنعام والنحل وجاءت آية البقرة على أصل الترتيب فلا تقديم ولا تأخير.

ويلاحظ أن آية النحل أشبه بآية البقرة من أختيها في المائدة والأنعام؛ غير أنها تخالفها في تقديم (لغير الله) فتأملهما:

- ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لَغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ البقرة/173

- ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النحل/115

أُخِّرَتْ (به) وقُدِّمَتْ (لغير الله) لإظهار العناية وإبراز خصوصية ذلك؛ إذ ليست العناية هنا مركزة على الذي وقع الإهلال به ورفع الصوت.

فتقديم (لغير الله) على (به) لإبراز شناعة ما تُوجَّه به لغير الله وتمييزه عن المحرمات التي وردت في سياق تعدادها بأنه رجس معنوي وإن بدا ظاهره حلالاً طيباً مذكياً ولكن أفسدته النية والتوجه والقصد.

1- أنظر دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم للدكتور منير محمود المسيري ص: 222 و 223.

وهذه العناية بذلك التقديم جاءت في السور الثلاث دون سورة البقرة التي اكتفي فيها بسرد المحرمات من الخبائث من الطُّعوم والمأكولات المقابلة للحلال والطيبات من الرزق، دون تشنيع، بل ذيلت الآية بـ ﴿والله غفور رحيم﴾ بعد رفع الحرج قبلها ﴿فلا إثم عليه﴾ ورفع الجناح. هذا من خصوصية البقرة في هذا الموضوع دون المواضع الثلاثة الأخرى ولكل موضع خصوصيته.

بينما شتّع على ﴿ما أهل لغير الله به﴾ في المائدة والأنعام استكراها له ومقتا، ولأنه توسّع فيه، فله صور وأشكال تساهل فيها بعض الناس بما لم يتساهل في أمر الميتة ولا لحم الخنزير. قال ابن عطية: «ما ذُبح على النَّصب جزء من ما أهل به لغير الله لكنه خُص بالذكر لشهرة الأمر»<sup>1</sup> أي لفُشُوهُ بين الناس.

وقال ابن زيد: «ما ذُبح على النَّصب، وما أهل به لغير الله شيء واحد»<sup>2</sup>

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «المراد ما ذبح للأنصاب والأوثان»<sup>3</sup>

ولعله لما كان ما ذبح لغير الله ليس نجساً لذاته وإنما لما صاحبه من إهلال عند ذبحه، ونية وقصد، مما لا تُشاهدُ قذارته ولا يستشعر بنجاساته، أبرز السياق شناعته بالتقديم وبوصمه بالفسق وهو المروق والخروج عن الطاعة، وخالف بينه وبين مجاوره في المحل الإعرابي تنبيهاً وتخصيصاً: ﴿فإنه رجسٌ أو فسقاً أهل لغير الله به﴾ الأنعام 145

والفسوق غالباً ما يكون انحرافاً معنوياً، يدرك بالعقل لا تقع عليه الحواس، وعلى الخصوص فيما يتعلق بالمحرم من المأكول، فقد جاء التعقيب على المحرم من الطعام بوصفه بالفسق في سورة المائدة أيضاً: ﴿ذلكم فسق﴾ وذلك بعد قوله تعالى من نفس الآية: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق﴾ المائدة 03

1- البحر المحيط - لأبي حيان 172/4.

2- المصدر نفسه.

3- تفسير القرطبي 224/2

والأقرب أن ﴿ذَلِكُمْ فَسُق﴾ إشارة إلى المحرمين الأخيرين للفصل بينهما وبين المحرمات السابقة عليها، بالإستثناء ﴿إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾.  
ذلك أن المحرمات في الآية ثلاثة أصناف:

1- محرمات لا تحل بذبح وهي الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله.  
2- محرمات تحل بالذبح إن أدركها الذابح وهي المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع ﴿إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾.

3- وأخرى تابعة لما أهل لغير الله به؛ أي ما يحل في الأصل بالذبح ولكن صحبته نية فاسدة وعقيدة منحرفة وهو ما عدّ فسقا. وهو هنا ما ذبح على النصب ويتضمن أيضا ما أهل لغير الله به كما سبقت الإشارة، والإستقسام بالأزلام.

هذا وإن قصرت الإشارة ﴿ذَلِكُمْ﴾ على الإستقسام بالأزلام خاصة كما هو الظاهر، فإنها ترجع إلى سابقه بتأويل ما؛ وذلك لأن الإستقسام صورة من صور الرجم بالغيب مما يتعاطاه الكهان والمنجمون.

ولعل مناسبة إيرادها في سياق الحديث عن المحرمات من الأطعمة أنه سبيل لأكل أموال الناس بالباطل، بالإضافة إلى ما يصحبه من فساد في العقيدة تماما كالذي أهل لغير الله به، أو ذبح على النصب. فقد كانوا إذا أقدموا على أمر ذي بال يخشون عواقبه لجأوا إلى الاستقسام بالأزلام وضرب القداح فيأتون هُبلا بِمِئَّةِ درهم لضارب القداح وجزورا ينحر ويؤكل<sup>1</sup>.

فلفظاعة جرم الإهلال لغير الله وشناعة تعاطيه قدّم في الآيات ووصف بالفسق والمروق.

وعليه فسّر تقديم الإهلال لغير الله هو سبب تأخير (به) في هذه المواطن ليتمكن من إبراز تلك الخصوصية في الرجم المعنوي التي يحرم بها ما كان في الأصل طاهراً طيباً.

1- أنظر البحر المحيط - لأبي حيان 173/4

وللعلّة نفسها أخرجت (به) في سورة النحل غير أنه لكلّ موقع خصوصية بزيادة أو نقص.

ففي النحل وقعت هذه المحرمات مُمهّدة للنهي - بعدها - عن الخوض في التحريم والتحليل افتراء على الله من غير علم فليس لأحد أن يحرم إلا ما حرم الله: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب...﴾ النحل 116.

الأمر الذي جعل بعض السلف يتحرّج فلا يجروا أن يطلق على فتوى يصدرها أو حكم يجتهد فيه: هذا حلال أو هذا حرام تورعا وتقوى فقد أثر عن الإمام مالك قوله: «لم يكن من فتيا الناس أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام، ولكن يقولون إياكم كذا وكذا، ولم أكن لأصنع هذا»<sup>1</sup>.

وعن الأعمش قال: «ما سمعت إبراهيم قط يقول حلال ولا حرام، ولكن كان يقول: كانوا يكرهون وكانوا يستحبون»<sup>2</sup>.

كما وقعت تلك المحرمات أيضا توطئة وتذكيرا بين يدي ما حرّم على اليهود من قبلنا مما أحل لنا، وذلك لبغيمهم وافتراءهم على الله بتحريمهم نصيبا مما ذرأ من الأنعام والحراث، ممّا قصّه الله على نبيه في سورة الأنعام من قبل: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل﴾ النحل 118.

فكان ذكر المحرمات علينا هنا في سياق تعداد النعم التي خصت بها هذه الأمة، وذلك مقصد من مقاصد سورة النحل كما هو معلوم.

1- تفسير القرطبي 196/10.

2- المصدر السابق.

## 3-2 - بين النحل وفاطر: ( فيه )

قال الله تعالى:

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى  
الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ النحل 14

وأيضاً في سورة فاطر:

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ  
لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ  
تَشْكُرُونَ ﴾ فاطر (12).

ومحلُّ النظر في هذا المتشابه هو في العبارة ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ ﴾ بتقديم  
(فيه) وتأخيرها.

يقول الخطيب الإسكافي:

( فأما تقديم (فيه) في الآية الأخرى على (مواخر) فلأن الفعل الذي قُدِّم فيها  
وعطف هذا عليه، بولغ في تقديم الجار والمجرور فيه مبالغة لا مدى وراءها ولا زيادة  
عليها، ألا ترى أنّها قُدِّموا على الفعل نفسه وهو: ﴿ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ فلما  
عرض قوله ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ ﴾ بعد فِعْلٍ هذه صفته، وقد حصل فيه مفعولان وجار  
ومجرور، قَوِيَ تقديم الجار والمجرور فيه على أحد مفعوليه ليعلم أنّه من جملة كلامِ بِنِي  
الفعل فيه على تقديم الجار والمجرور عليه<sup>1</sup>.

وتبنّى الكرمانى هذا التعليل فقال: ( ما في هذه السورة جاء على القياس، فإنَّ  
الفلك المفعول الأول لترى، ومواخر المفعول الثاني، و(فيه) ظروف وحقه التأخير، ...  
وأما في الملائكة (أي سورة فاطر) فقدّم (فيه) موافقةً لما قبله، وهو قوله: ﴿ وَمِنْ كُلِّ  
تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ فوافق تقديم الجار والمجرور على الفعل والفاعل)<sup>2</sup>.

1- درة التنزيل - للإسكافي ص 136.

2- أسرار التكرار - للكرمانى ص 121.

وكذلك فعل ابن الزبير إذ جعل تلك العلة من خصائص الشورتين، فجعل سورة النحل مبنية على (تأخير المجرورات عما تعلق به، وجرى الكلام جزياً واحداً للتناسب والتشاكل، فقيل: لتأكلوا منه، وتستخرجوا منه، وموآخر فيه، ولو قيل هنا ﴿فيه مَوَآخِرَ﴾ وتقدّم المجرور على العامل فيه وهو (مَوَآخِرَ) لَمَا ناسب ما تقدّم مما بُنِيَتْ الآية عليه، وتقدم في المجرورين قبله.

أما آية الملائكة فمبنية على تقدّم المجرور على ما به تعلق، قال الله تعالى: ﴿ومن كل تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾، وتأكلون العامل في المجرور الذي هو (كل) متأخر عنه، فناسب ذلك تأخر العامل أيضاً في المجرور الثاني ليتناسب الكلام ببناء آخره على ما بُنيَ أوّله، ولم يكن ليصحّ ما لا يناسب<sup>1</sup>.

ونقل الفيروز آبادي في بصائرهم، وزكريا الأنصاري في فتح الرحمن عن الإسكافي والكرماني، فلا داعي لإعادته.

ولكن عيب هذا التعليل، وقصور هذا التّخريج، أنه اقتصر على تناسب لفظي دون أن يتجاوزَه إلى المناسبة المعنوية، والتي هي بلا شكّ أساس ذلك التصرف.

ولقد نفطن منير محمود المسيري إلى مكن السرّ في هذا التقديم، غير أنه اكتفى بالإشارة إليه، ولم يستظهره حين يقول: (ولي هنا رأي في تقديم مَوَآخِرَ وتأخيرها، ففي تقديمها كما في سورة النحل ﴿مَوَآخِرَ فِيهِ﴾ لفت الأنظار إلى قدرة الله في الفعل، وكيفية شقّ الفلکِ عباب الماء، فكان القرآن يستدعي منّا النظر في الآلة وكيفية جريانها،

أما تقديم ﴿فيه مَوَآخِرَ﴾، فالنظر هنا في المحلّ وهو الماء السائل وقدرة الله الذي سخر هذا الماء وجعله صالحاً لأن يسار فيه<sup>2</sup>.

والمتمم في الجملة التي هي محلّ التشابه يُلاحظ أنّها من قبيل الجمل التي يتعدى فعلها إلى مفعولين، وهذه يقتضي الترتيب فيها في الأصل أن يقدم المفعول الأول، والأصل أن يكون معرفة، ثم المفعول به الثاني الذي أصله أن يكون نكرة، ثم الحرف

1- ملاك التأويل 2/ 734، 735 .

2 دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم - للدكتور منير محمود المسيري ص 456.

والظرف، وهذا الأصل جاءت عليه آية النحل: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ﴾، بينما تقدّم الجار والمجرور على المفعول الثاني في فاطر: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ﴾، ففي النحل جاء الاهتمام بالدرجة الأولى على الحدث وأثره، وفي فاطر على الظرف والمحل الذي حدث فيه المَخْرُ والسَّيْر، ذلك أن السُّورَتَيْنِ تختلفان في المضامين والموضوعات التي تعالجها والمقاصد التي تستشرفها وتحذو إليها، فسورة النحل تُذَكِّرُ بِنِعْمِ اللَّهِ عَلَيْنَا، وتسخير الخلق لنا، ومن ذلك تسخير البحر لتأكلوا وتستخرجوا، ولتبلغوا فيه حاجاتكم، ولتبتغوا من فضله لعلكم تشكرون، وفيها تعداد النعم وهي لا تحصى:

- ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ النحل (18)

و في هذه العبارة التي بين أيدينا تنبيهٌ إلى تسخير شقِّ الأمواج للسفن فترى الفلك ماخراتٍ عبابه وهو ما يفضي بالمتأمل إلى الشكر:

- ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ النحل (14)

بينما الحديث في سورة فاطر عن الصور والأشكال، والأنواع والألوان، واختلاف خصائصها للاعتبار والتفكير والاستدلال على عظمته سبحانه وتعالى:

- ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فاطر (28)

فقد وقعت الآية ضمن تنوع ظاهر، وجمال باهر، فقد جاء قبلها:

- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ فاطر (12)  
وجاء بعدها:

- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ 19

وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ 20

وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُورُ 21

وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ 22..﴾ فاطر 19-22.

- ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا

وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَايِبُ سُودٌ 27

وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ...28 ﴿ فاطر 27، 28  
و من أصناف الذين أوردوا الكتاب:

- ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ... ﴾ فاطر 32  
فتقديم الظرف (فيه) في فاطر تنبيه إلى المحلّ الذي يحمل السفن، وتسير فيه،  
إنه الماء الذي ترسب الأجسام فيه في العادة والأصل ولا تطفو، فضلا عن الحركة فيه،  
فلولا لطف الله وتسخيره لما غدا فلكٌ ولا راح؛ إذ السير في الماء شبيه بالتّحليق في  
السماء:

- ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴾ النحل (79)  
كما تتميز هذه العبارة عن أختها في النحل بأنها جملة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالجملة  
التي بعدها: ﴿ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ بلام التعليل: ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَآخِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ  
فَضْلِهِ ﴾

بينما هي مستقلة في سورة النحل، إذ جيء بواو العطف في: ﴿ وَلَتَبْتَغُوا ﴾ لتكون  
معطوفة على لتأكلوا منه... وتستخرجوا منه... ولتبتغوا، حتى كأنها جملة معترضة.

و الضّمير في (فيه) يعود على كلّ من البحرين العذب الفُرات، والملح الأجاج في  
فاطر، ويعود على البحر في النحل، فتسخير البحر فيها بأن جعله الله من مصادر  
الرزق المأكل منه والملبوس، ويسرّ السبيل إليه بالسير فيه... وهذه الصورة تتّمّة لما  
جاء في مطلع السورة حيث الإشارة هناك إلى مصادر الرزق في البرّ ووسائل النقل  
فيه، والإشارة هنا إلى مصادره في البحر، في تقابل رائع ممتع فيه من سحر البيان. فتأمّل:

- 1- ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾: من أصوافها وأوبارها مما يُلبس.
- 2- ﴿ وَمَنَافِعَ ﴾: من أغطية وأفرشة وأبنية وتجارة وما إلى ذلك.
- 3- ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾: من لحومها وسمّنها وألبانها....
- 4- ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾: في سيرها وانتشارها حين الإراحة والسّرح.
- 5- ﴿ وَالْحَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾: وهي وسائل النقل البرية.

هذا في البرّ ويقابله في البحر بإيجاز:

أ- ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ أشار إلى الملبوس.

ب- ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ أشار إلى المأكول.

ج- ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ﴾ وهي وسيلة النقل البحريّة.

د- ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ للتزيّن والتجمل يقابله في البرّ: ﴿لَتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾.

هـ - ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ﴾ لإمتاع العيون (وترى) وهي صورة مرئية يُحدثها الفلك حين يشقُّ عَبَابَ الماء بمقدمته وحيزومه، تاركا أثرا وراءه متغيّر اللون ومختلف الشكل، سرعان ما يلتئم ويتتابع هذا المنظر ظهورا واضمحلالا ما واصلت الفلك سيرها. وهو ملمح جمالي على سطح البحر يقابله انتشار الأنعام على بساط الأرض: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ في إقبالها وإدبارها كأثر مقدّمة الفلك والأثر خلفها.

وكذلك تقديم (فيه) على (مواخر) يبيّئ (مواخر) أن تتصل مباشرة دون فاصل بلام التعليل في (لتبتغوا) المتعلق بها فتصير: ﴿مَوَاحِرَ لَتَبْتَغُوا﴾ وهو الأنسب لقوة الارتباط وشدة الاتصال بين الحدث وسببه.

ولما زال سبب الاتصال وكان الانفصال بين (مواخر) و(لتبتغوا) حين فصل بين الجملتين بالواو (ولتبتغوا) وهو المؤذن باستقلال الجملة الواقعة فيها (مواخر).. رجعت (فيه) إلى محلّها فتأخرت فكانت (فيه) فاصلاً آخر بالإضافة إلى الواو بين (مواخر) و(لتبتغوا): مَوَاحِرَ فِيهِ وَلَتَبْتَغُوا.

أي أنه إذا قدّمت (فيه) أسقط الواو لشدّة التعلّق، وإذا أخّرت (فيه) أثبتت الواو تحقيقاً للانفصال في اللفظ ووقوعه في المعنى.

وكفى بتلك قرينة معنويّة تضبط بها اللفظ، وتقي من السقوط في الحفظ عند الوقوف عند هذا المتشابه:

- ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ فاطر (12) — فالمخّر من أجل الابتغاء.

- ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ النحل (14) - فَاَلْمَخْرُ هُنَا مُطْلَقٌ غَيْرَ متعلق بالابتغاء. والله أعلم.

# الفصل الرابع

استعمالات ( لا ) مكررة ومقدرة  
وأغراضها البلاغية وأسرارها البيانية

## استعمالات ( لا ) مكررة ومقدرة وأغراضها البلاغية:

يلاحظ المتدبر في صور التكرار الواردة في الكتاب العزيز، أن لتكرار "لا" خصوصيات تستدعي الوقوف والدراسة، ولم أر في دراسات جمهور النحاة والبلاغيين والمفسرين من استوفى كل ما يتعلق بتكرار " لا " من حيث صحة الاستعمال وصور الدلالة، إذ تخالج المتأمل في كثير من مواضعها عدة تساؤلات لا يجد لها جوابا شافيا في المصادر التي بين يديه.

فقد يتناول أصحابها جوانب عديدة، لكنهم يغفلون عمّا خالجك واستثار اهتمامك وجئت تطلبه، فيحملك ذلك بدوره على البحث والاستقصاء لعلك تظفر بما يقنع ويشفي..

من ذلك ما تلاحظه في الآيات الآتية التي تكررت فيها " لا ":

1- ﴿ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴾ القيامة 31. قالوا إن تكرارها هنا واجب لا اختيار فيه، وعليه قدروا تكرارها في قوله تعالى: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ البلد 11. بناء على القاعدة التي أصلوها.

2- ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ فصلت 34.  
- ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ {19} وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ {20} وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ {21} وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ... {22} ﴾ سورة فاطر.

وهذه صور مختلفة لتكرار " لا " ولتقديرها حين يُعطف على ما سبق من نفي.

وهذا التنوع نفسه ينشأ عنه عدة تساؤلات:

- ما سر اختلاف العبارة ؟

- وما مناسبة كل تعبير ؟

فقد عطف النفي بـ (لا) على النفي بـ (ما) مرتين:

وعطف (لا) على مثلها مرتين أيضا .

والتنوع يسم المواقع الثلاثة: الطرفين والواسطة بينهما:

- إذ المُفْتَتِح: وما يستوي الأعمى والبصير.

- والمُخْتَمِّم: وما يستوي الأحياء ولا الأموات.

ويتمثل الاختلاف في حذف (لا) في المطع وذكرها في الختام.

بينما جاءت الوسطة مختلفة عنها حيث تكررت (لا) معطوفة على أختها مع حذف العامل (يستوي).

وهذا التنوع في الصياغة على وجه الجواز والاختيار؛ إذ يصح أن ترد العبارة في غير الآية: وما يستوي الأعمى والبصير والظلمات والنور والظل والحرور والأحياء والأموات.

أو بتكرار (لا) في جميعها، أو بذكر العامل (يستوي) في الأطراف والوسطة أو بالمناوبة بين هذا وذاك، وكلها صور جائزة.

غير أنه إذا روعي المعنى المراد، فإنه لا يصح إلا تعبير واحد للمعنى الواحد المقصود.

لم تشر جُلّ التفاسير التي طالعها والدراسات التي وقفت عليها إلى الفروق الدقيقة التي تقتضيها خصوصيات الصياغة بين تلك التعابير.

و ربّما زواج السّياق الواحد في بعض الآيات بين صياغتين، أعني بين ذكر الأداة (لا) وتكرارها، وحذفها وتقديرها، كآية فاطر السابقة وربما اقتصر على الحذف وعدم الذكر نحو: « قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ » المائة 100 في السياق الواحد أو اقتصر على ذكر (لا) نحو: « وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ » فصلت 34.

أو كررت مع العامل نحو قوله تعالى: « لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ » فاطر 35.

ولم يتعرضوا إلى الفروق الدلالية بين تلك الصور المتشابهة وإنما راح أغلبهم يحكم بزيادة (لا) في موضع، استنادا على نص آخر شبيهه خالٍ من (لا). فَبِنَاءٍ عَلَى آيَةِ قَضَوْا بزيادتها في آية أخرى، ونزيد ذلك توضيحا بإيراد نماذج أخرى:

3- فقد حكموا بزيادة (لا) في قوله تعالى: ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ البقرة 105 .

لعدم ورودها في شبيهه لها في سورة البيّنة:

- ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ ﴾ البيّنة 01.

وعلى زيادتها في قوله تعالى:

- ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران 139.

حملا على قوله تعالى:

- ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾ محمد 35.

وزيادتها في قوله تعالى:

- ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا ﴾ التوبة 55 قياسا على

الآية الأخرى بعدها:

- ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ

كَافِرُونَ ﴾ التوبة 85.

غير أن حكمهم بزيادة (لا) في هذه النماذج لا يلغي معنى النفي أو النهي المستفاد من العطف عليه.

أما الحكم على (لا) بالزيادة لفظا ومعنى أي مع إلغاء معنى النفي تماما فهو صورة أخرى من صور زيادة (لا) وهي الصورة الرابعة لها في سياق تكراري:

وفي هذه الصورة ترد (لا) في السياق، فيحكم عليها بالزيادة لفظا ومعنى، لا لنبو في الصياغة، ولا لأن لها شبيها من القول حذف فيه كما هو الحال في نماذج الوجه الثالث آف الذكر.

وإنما دلالة مقتضى السياق تأبي اعتبار النفي المستفاد من (لا) وتلغيه لقارئ لفظية وعقلية.

## - تحليل آية الأعراف وتأويلها: ﴿ قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾

والشاهد الرئيس الذي تُرْجَعُ إليه سائر النماذج الممثلة لهذا الوجه هو قوله تعالى:

- ﴿ قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ الأعراف 12.

قالوا إن (لا) هنا زائدة لفظاً ومعنى لتضافر الأدلة على أن السجود لم يحصل

قطعا فمن صريح اللفظ:

- ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ الأعراف 11

- ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبِي أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ الحجر 31

- ﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ الحجر 33.

فضلا عن شبيهتها:

- ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي ﴾ ص 75

وأصبحت هذه الآية أصلا للاستدلال على زيادة (لا) لفظاً ومعنى .

ففي كل نموذج تعارض فيه النفي بـ (لا) مع المعنى المرشح والمراد، ألغوا (لا)

وأحالوك رأساً على آية الأعراف. ويصادف المطالع في كتب التفسير والشروح تكرر

هذا الاستدلال بالإحالة على آية الأعراف عشرات المرات في مواضع كثيرة نذكر منها:

- ﴿ قَالَ يَا هَارُونَ مَا مَنَّكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا {92} إِلَّا تَتَّبِعَنِ ... ﴾ طه 93.

- ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الأنعام 109.

- ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَنُلِ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ إِلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ... ﴾ الأنعام

151.

- ﴿ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ آل

عمران 80.

- ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَزِيَّةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ الأنبياء 95.

- ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ ... ﴾ الحديد 29.

- ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الفاتحة 7.

- ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...﴾ النساء 65.

تلك نماذج حكم فيها على (لا) بالزيادة على اختلاف في بعضها في هذا الحكم، بين القوة والضعف والصحة والفساد.

إلا أنّ المحير حقاً، كيف يتبنى أولوا الأبواب منهج الإقصاء والإلغاء للفظ له معنى في كلام من لا يقبل الزيادة ولا النقص، وتحرم فيه الإضافة والحذف؟!

وعليه فما السر والحكمة من وجود أداة نفي في مقام يتعارض والنفي؟!

وسنحاول في هذا المبحث كشف هذه المشكلة وتذليل المعضلة وإن بدت لنا طويلة الذيل شموسا حرونا.

وننبه ابتداءً أنه لا يعيننا في هذا التحليل من (لا) الزائدة إلا ما وقع منها في صورة تكرارية في سياق واحد، وحكم بزيادتها لوقوعها بعد نفي عطفت عليه بالواو... وهي ليست بواجبة الذكر، إذ قد تسقط في اللفظ ويظل معنى النفي قائماً، فحذفها وذكرها سيان على العموم. وتمثلها نماذج الصورة الثانية والثالثة المشار إليهما قريباً.

أو هي واجبة الذكر فلا بد من تكرارها كما هو الحال في الصورة الأولى، ولا يعيننا من نماذج (لا) الزائدة في الصورة الرابعة وهي الأخيرة، إلا ما ورد فيه (لا) وحكم بزيادتها لتعارض في أصل المعنى، ثم لوجود شبيه له خال من (لا) في نفس الموضوع والغرض، مما يعزز المعنى الأصلي فمثل هذا نتناوله لعلاقته بصلب البحث، إذ هو صورة لما تكرر مع زيادة حرف النفي (لا) كما هو واضح جلي في أمر سجود إبليس بين سورة الأعراف وسورة ص:

- ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ الأعراف 12.

- ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي﴾ ص 75.

حيث قرر جل من تعرض لهذه الآية أو لقضية زيادة (لا)، أنها زائدة وتقدير الكلام " ما منعك أن تسجد " فحكّموا بزيادتها في العبارة، وإهمالها في الدلالة وكأنه لا فرق بين التركيبين.

و تبعا لهذا التخرّيج فالآيتان في الأعراف وص متطابقتان ولا داعي لبحث أسرار النظم فيهما.

و هكذا تصبح دعوى الزيادة أيسر سبيل يُلجأ إليه لتخرّيج ما دق من الأساليب أو غمض من البيان.

والحقيقة أن كلا السياقين، ما ذكر فيه (لا) وما خلت منه - وإن صحّ الذكر والحذف في عرف الصناعة النحوية - يمثلان عبارتين متغايرتين - على شدة التشابه - تحمل كل واحدة منهما من المعاني ما لا تحمل الأخرى.

وأمام هذا الملحظ الدقيق لا يسعنا إلا الوقوف مليا تتأمل الآية الكريمة: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ الأعراف 12.

لقد حيّرت الأفهام، وأثارت الأقلام، واستوقفت كل من مر بها، وكادوا يُجمعون على زيادة (لا) في هذا الموضع، حتى صارت هذه الآية أصلا ومرجعا لإثبات زيادة (لا) في مواضع أخرى وتسويغها.

والظاهر أن الذي حملهم على القول بالزيادة في هذا الموضع أمران:

- أولهما: صعوبة توجيه المعنى مع اعتبار النفي وإقراره.
- وثانيهما: ورود آية سورة ص خالية من النفي: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ ﴾ فيها تترشح الزيادة. وهما حاملان قويان على القول بالزيادة، حتى ألفينا المالقي (702 هـ)، لا يجد عن ذلك محيصا فيقول: « فصارت (لا) زائدة لفظا ومعنى، فما قالوا في زيادتها من الجهتين صحيح لفظا ومعنى، لا مدفع فيه فاعرفه »<sup>1</sup>.

1- رصف المباني - الإمام أحمد بن النور المالقي - تحقيق أ.د أحمد محمد الخراط ط 3: 1422هـ/

2002م - دار القلم - دمشق ص 345.

ووجدنا الدكتور فاضل صالح السامرائي، وهو من المعاصرين، يؤكد ذلك ويجزم بالزيادة بلا تحفظ فيقول: « وأما قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ... ﴾ ف (لا) زائدة ولا بد، لأنها لو لم تكن زائدة، لكان المعنى أنه سجد، فحاسبه على السجود، وسيكون المعنى عند ذاك: ما منعك من عدم السجود؟ بعكس المعنى الأول وهذا باطل <sup>1</sup> .

ولكن ما يمنعنا من ارتضاء هذا المسلك، على وَجَاهَتِهِ، إلا القناعة بأن كلام الباري يجمل على أن يرد فيه حرف واحد عبثاً بلا معنى.

إننا إذا نظرنا إلى آية الأعراف منفصلة عن مثيلاتها- ولا ينبغي فصلها- فإنها توحى بأن إبليس سجد وعاتبه الله على سجوده: ما منعك من السجود؟

ولكن هذا المعنى غير مراد، وغير صحيح تنفيه دلالات النصوص الصريحة منها:

- ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي ﴾ ص 75.
- ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ الأعراف 11
- ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبِي أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ الحجر 31
- ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ الحجر 32
- ﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ الحجر 33

و كذلك دلالات الاستثناء من الساجدين:

- ﴿ ... فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبِي وَاسْتَكْبَرَ... ﴾ البقرة 34
- ﴿ ... فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ الأعراف 11
- ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ {30} إِلَّا إِبْلِيسَ أَبِي ... ﴾ الحجر 30-31
- ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾ الإسراء 61
- ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ... ﴾ الكهف 50
- ﴿ ... فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبِي ﴾ طه 116

1- معاني النحو - د فاضل صالح السامرائي: 4 / 196.

- ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ \* إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ ص 74  
بالإضافة إلى دلالات ضمنية:

- ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ ص 76

توحي بعبارة الامتناع عن السجود، صرّح بها اللعين.

- ﴿ فَفَسَقَ عَنُ أَمْرِ رَبِّهِ ... ﴾ الكهف 50 عصى وخرج عن الطاعة بامتناعه عن السجود.

- ﴿ قَالَ ءَسْجُدْ لِمَن خَلَقْتَ طِيناً ﴾ الإسراء 61

يستبعد أن يسجد لآدم احتقاراً له واستكباراً واستطالة عليه.

فهذه كلها تفيد أن إبليس لم يسجد يقيناً ولا تدع مطمعا لتسويغ معنى السجود.

وإنما السؤال الذي يُلحّ على متأمل آية الأعراف هو:

لماذا جاء بـ (لا) الزائدة هنا؟! وما دورها وأثرها في هذا السياق؟

مع العلم أنه لا يجوز بحال قراءة آية الأعراف بدون (لا) تحقيقاً ورعاية للمعنى، ولا يجوز إثباتها في آية ص حملاً على آية الأعراف، لأن هذا التصرف - فضلاً عن مخالفته للرواية - قد يُعْمي على معنى خفيّ لم تدركه عقولنا، ولم تنفذ إليه بصائرنا، وقد ينجلي يوماً ما على يَدَيَّ مَنْ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بِهِمْ فِي كِتَابِهِ.

فإثبات (لا) في الأعراف لا جرم أن لورودها سرا اقتضاه المقام والسياق، مما لم يتوفر في آية ص لاختلاف الموضوع، فكل مقام يناسبه ما جاء فيه ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ النساء 82.

و لعل هذا المبدأ هو الذي حمل شيخ المفسرين ابن جرير الطبري أن يصدع بهذا المعنى فيقول: « غير جائز أن يكون في كتاب الله شيء لا معنى له، وأن لكل كلمة معنى صحيحاً، فتبين بذلك فساد قول من قال: (لا) في الكلام حشو "لا" معنى لها»<sup>1</sup>.

1- تفسير الطبري، دار المعرفة، بيروت، 1406هـ - 1986م، مج 5 ج 8 ص 97.

من أجل ذلك فلا بد من التريث والتروي قبل الحكم بالزيادة، ومن إجمالة النظر في الآيات والتدبر في مقاصد السورة التي ورد فيها النص، والنظر في مدى انسجام السياق مع السباق واللاحق، وما إلى ذلك...

### - تحليل آية البقرة: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾

وقبل تحليل آية الأعراف التي نحن بصدد عرضها، رأينا أن نحلل آية من سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا...﴾ البقرة 158

ونعدها وليجةً لتحليل آية الأعراف لما بين الآيتين من صلة أسلوبية تمكننا من تصوّر منهج التحليل الذي سلكناه وارتضيناه.

ذلك أن السؤال في سورة الأعراف جاء بإثبات (لا) ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ...﴾ ؟

وجاء في سورة ص بدونها: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ ..﴾ ؟

والموقف الحصيف يقتضي أن يُنظر في المعنى كما هو، وفي الموقع الذي تبوأه دون الإسراع إلى إلغاء (لا) قياساً على آية ص، فذلك موقع آخر له حيثياته واعتبارات ينبغي ألا تسقط من الحساب، ولا سيما أن بين دلالتيهما افتراقاً بل بينهما تضاد.

إن لـ (لا) اعتباراً في المعنى لا يُغفل عنه ولا يُهمل، فانظر إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وهي تصوّب فهم عروة ابن أختها، بإحالتة على الموازنة بين سياقين شبيهين بما نحن بصدهه وتستنكر أن يسوّي بينهما وذلك حين قال لها:

أرأيت قول الله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا...﴾ فما أرى على أحد شيئاً أن لا يَطَّوَّفَ بهما، قالت: يا عُرَيْيَّةُ، كلا لو كان كذلك لقال: «فلا جناح عليه أن لا يَطَّوَّفَ بهما»<sup>1</sup>.

1- منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم بقلم الدكتور عبد الوهاب فايد ص 314 (د ط) منشورات المكتبة العصرية صيدا - بيروت - وانظر البحر المحيط 2/ 66 وغرائب القرآن 2/ 41 وصحيح البخاري حديث رقم: 4495.

وللآية قراءتان:

قراءة الجمهور: ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ... ﴾ وهي تنص صراحة على رفع الجناح في فعل الطواف وأنه لا إثم على فاعله.

وقراءة أخرى ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا ... ﴾<sup>1</sup>، وهي التي أنكرتها السيدة عائشة. وهذه القراءة تدل دلالة صريحة على رفع الجناح في ترك الطواف.

وعلى هذا فالقراءتان نص في الإباحة والتخيير بين الفعل والترك، وأنه لا إثم ولا حرج في الحالين.

ويسند هذا ما روي عن ابن عباس وأنس وابن الزبير من الصحابة ومجاهد وعطاء وابن سيرين من التابعين رضي الله عنهم: « أنه لا شيء على من تركه، عمداً كان أو سهواً، ولا ينبغي أن يتركه »<sup>2</sup>.

كما روى عطاء عن ابن عباس: « من شاء سعى بسيل مكة، ومن شاء لم يسع »<sup>3</sup> فهو عندهم لا يتجاوز درجة التطوع، لأن رفع الحرج دليل الإباحة لقوله تعالى بعد ذلك ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾<sup>4</sup> البقرة 158.

وهذا التحليل يجعل اعتراض عائشة رضي الله عنها على ابن أخيها اعتراضاً غير قوي قال عنه أبو حيان الأندلسي: « كلام لا يُخرج اللفظ عما دل عليه من رفع الإثم عن طاف بهما، ولا يدل ذلك على وجوب الطواف »<sup>5</sup>، لأن رفع الجناح دليل الإباحة، وهو الظاهر المتبادر من الآية.

---

1- وهي قراءة في مصحف عبد الله بن مسعود وهي مخالفة للمصحف الإمام رويت عن ابن عباس وأنس وابن الزبير وعطاء ومجاهد وابن سيرين - أنظر البحر المحيط 2/ 66 و غرائب القرآن 2/ 41 ومنهج ابن عطية ص: 314.

2- البحر المحيط ج 2/ 66.

3- المصدر نفسه.

4- غرائب القرآن 2/ 40

5- البحر المحيط 2/ 66

ومع ذلك فإن السعي بين الصفا والمروة عند جمهور الفقهاء، إما ركن لا يجبر بدم وإما واجب يجبر بدم.

وهذا بدوره يطرح تساؤلاً وجيهاً:

ما سرّ التعبير بنفي الجناح مع أن الطواف بين جبلي الصفا والمروة فرض واجب؟

إن ظاهر اللفظ في الآية هو رفع الحرج والإثم على من فعل الطواف بدلالة المنطوق، ورفع الجناح والإثم على من ترك الطواف بدلالة المفهوم، على غرار قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ البقرة 203.

ولكن هناك قرائن مستفيضة قوية تثبت فرضية ووجوب الطواف بهما. فلنجهت إذا عند تفسير هذه الآية على أن نحقق المعنيين معاً، رفع الحرج والإثم في آن واحد، حتى نحافظ على حرمة النص القرآني وضرورة الاحتكام إليه. وقد دعت تلك القرائن إلى وجوب معاودة النظر في النص لاستخراج جزء من تلك الأحكام.

فلاحظنا في النص التنويه بالصفا والمروة وأنها من شعائر الله في الحج: ﴿إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ...﴾ فكيف يُزهدُ فيهما بعد ذلك مباشرة بأنه لا إثم على من طاف بهما.

وورود ذلك في سياق شرطي يوحى بارتباطها الوثيق بالحج والعمرة، ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا...﴾ .

وإذا جاز سقوط هاتين الشعيرتين عن الحاج أو المعتمر هنا، فإنهما يسقطان سقوطاً تاماً، إذ ليست هناك مناسبة أخرى تقام فيها شعيرة السعي سوى الحج والعمرة، فيصبح وجود السعي كإعدامه بالنسبة للحاج والزائر، وهذا لم يقل به أحد، وكيف يصح ذلك وقد جعل الله السعي من معالم الذكر، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:

- ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ رَمِي الْجِمَارِ وَالسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمُرْوَةِ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ﴾<sup>1</sup>

ثمَّ رَفَعُ الإِثْمَ وَالْجُنَاحَ، عند استحضار سبب النزول واعتباره، ينصرف تلقائياً إلى حال السعي مع وجود الصنمين، لا إلى نفس السعي « فهو لرفع الإثم على من تطوَّفَ بهما، رداً على ما كان في الجاهلية من التحرج من السعي بينهما، لأنه كان عليهما صنمان »<sup>2</sup>.

فالسعي واجب، لا يسقط لوجود الصنمين أو لمكانهما؛ لأن الله رفع الحرج، وبمعنى أوضح: أنه لما أوجب سبحانه وتعالى الطواف بالصفَا والمروة، فلا ينبغي لأحد بعد ذلك أن يتحرج في أن يسعى في محل الصنمين إساف ونائلة، ولا من الطواف في محل كان المشركون يعظمونه بالطواف بين ذينك الصنمين فالإباحة ورفع الحرج تنصرفان أصلاً إلى الأمر الذي كان يغلب على الظن حرمة وعدم جوازه أو خشية الإثم من فعله أو تركه.

وعلى هذا فقد جمع النص بين وجوب الطواف ورفع الحرج عن الطائف وأصبح من الممكن أن تُحمل الآية على الاستخدام اللغوي في البلاغة وهو هنا يتمثل في إرجاع الضمير إلى معنيين مختلفين في آن واحد، أعني ضمير التثنية (هما) في أن يطوَّفَ بهما؛ إذ يعود الضمير إلى الجبلين المذكورين في النص، كما يمكن أن يعود إلى الصنمين المذكورين في سبب النزول.

قال أنس رضي الله عنه: « كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمُرْوَةَ مِنَ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا... ﴾ »<sup>3</sup>.

وقال الشعبي: « كان إساف على الصفا، وكانت نائلة على المروة، وكانوا يستلمونها فتحرجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما، فنزلت هذه الآية »<sup>4</sup>

1- منهاج المسلم - أبو بكر جابر الجزائري - ص 282 من الهامش = رواه الترمذي وصححه - ط: 8، 1396 - 1976 - دار الفكر.

2- الفقه الإسلامي وأدلته - د. وهبة الزحيلي 3/ 170، ط 2، 1405هـ - 1985م - دار الفكر دمشق.

3- أنظر صحيح البخاري الحديث رقم: 1648 و 4496.

4- في ظلال القرآن - سيد قطب: 1/ 149 - الطبعة الثالثة 1397هـ / 1977م - دار الشروق - بيروت.

وهكذا يكون الطواف بالصفاء والمروة غرضاً وقصدًا وهو المحل لأداء شعيرة السعي الواجبة، كما يقع الطواف بمحل الصنمين عَرَضًا وطريقًا دون قصد .. وهو مناط رفع الحرج والجناح.

إنّ هذا المسلك اللطيف الذي يحمل صورتين مختلفتين في صورة واحدة والمتمثل في تحقيق مقصدين جليلين في سلوك واحد، هو حكمة بالغة، وفطنة ثاقبة دأب عليها ﷺ، فكان من عاداته أن يقيم شعائر الإسلام ويظهر التوحيد في الموضع الذي أظهرت فيه شعائر الكفر وأعلام الشرك.

ومن ذلك أمرُهُ بالوقوف بالمَحْصَبِ بِحَيْفِ بني كنانة لما أراد النفرة من منى، وهو المكان الذي تقاسم فيه بنو كنانة وقريش على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب ... وفي هذا الموقف تذكير بنعمة الله عليهم وفضله، إذ جعل من ضعفهم قوة، وأبدلهم بخوفهم أمانًا. ومن ذلك أيضا أمرُهُ ﷺ ببناء مسجدٍ بالطائف في موضع اللات والعزى تحقيقًا لذلك المقصد الشريف.

وبناء على هذا فإنه يُحْمَلُ قول ابن عباس رضي الله عنهما: « من شاء سعى بمسيل مكة ومن شاء لم يسع ... » ليس على الخيار بين السعي وتركه، وإنما قصد بالسعي الرَّمْلَ والإيفاض والهرولة ببطن الوادي بين الصفا والمروة. على غرار ما فُسِّرَ به قول عائشة رضي الله عنها للنساء: « ليس عليكم سعي » فقد روى الشافعي رحمه الله أنّ عائشة رضي الله عنها رأت نساءً يُسرعن فقالت لهن: « أما لكن فينا أسوة ؟ ليس عليكم سعي. أي خب وسرعة مشي<sup>1</sup> ».

وبهذا التفسير جمعنا بين ظاهر اللفظ وفحوى الخطاب ومقصد الشارع دون أن يلغى أحدهما الآخر أو يضيق به ذرعا.

1- منهاج المسلم - ص 282 من الهامش .

## عود إلى تحليل آية الأعراف

والمراد من مثل هذا التحليل لآية البقرة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا...﴾ بين يدي تحليل آية الأعراف ﴿مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ﴾ أن نذكر ونلفت النظر إلى أنه ينبغي عند التحليل والتفسير أن لا تُجاهل دلالة النص اللغوية، وأن لا يُسرَع إلى الحكم بالزيادة والإلغاء، أو تغيير في اللفظ لمجرد معنى مُسبق، أو لوجود مثلٍ له في نص آخر نقيسه عليه.

فمن الحزم ألا تُلغى عبارةً عبارةً، فلكلِّ محلٍّ ودلالة وإيحاء ...

وخطورة هذا المنحى المتعجّل أنه يَحمِلُ متبجّه - إذا استغلق عليه المعنى - على التصرف في لفظ الآية بتغيير نظمها بجذف أو زيادة، أو تقديم أو تأخير، أو تحوير، ثم يفسر الآية وفق التركيب الجديد الذي قدّره، والذي هو ليس قرآناً قطعاً.

وسأطبق - ما أمكنني ذلك - هذا المنهج الذي رسمته، في تحليل آية الأعراف المشار إليها: فأنتقل من المعاني التي يدل عليها النص بلفظه دون إجحاف لأي حرف منه ثم أتشوّف لمقاصد النص ومُراداته التي ترشّحها قرائن قوية، وإن بدت مجافية لظاهر السياق، ثم أبحث مناسبة هذا الظاهر لذلك المقصد.

فتأمل قوله تعالى: ﴿قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك﴾ ظاهر اللفظ في الآية أن السؤال عن المانع من عدم السجود... وكأن إبليس سجد، والله يعاتبه على السجود: ما منعك من عدم السجود؟<sup>1</sup>

وهذا لا يصح من جهتين: أولهما أن الله تعالى لا يحاسبه على السجود وامتنال الأمر. وإنما عن ترك السجود.

وثانيهما أن إبليس لم يسجد لآدم يقينا لدلالة النصوص الصريحة والمؤكدة لعدم السجود وقد أوردنا طائفة منها في الصفحات القرية السابقة، وأقرب شاهد على هذه الحقيقة الآية التي تسبقها مباشرة وهي قوله عز وجل: ﴿...إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾ الأعراف: 11.

1 - أنظر معاني النحو 4 / 196

حيث ورد انتفاء السجود عنه بأسلوب ينفيه عنه نفياً شديداً بالاستثناء والحال المؤكدة، ذلك أن جملة "لم يكن من الساجدين" جملة حالية مؤكدة لمضمون عاملها وهو ما دلت عليه أداة الاستثناء "إلا" لما فيها من معنى استثنائي وهو عين مدلول "لم يكن من الساجدين" فتأكد المعنى من جهتين.

فموقع "لا" في هذه الآية من أدق المواقع وأغمضها، إذ اعتبار النفي بها يعارض المقصود ويصادم المعنى. وهو الأمر الذي أُلجأ إلى القول بالزيادة والإلغاء. فرأينا جامع العلوم الأصهباني الباقولي "543هـ"

يركن إلى القول بزيادتها في الآية ويكتفي به فيقول: قالوا "لا" زيادة، والتقدير: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك. كما قال في موضع آخر "ما منعك أن تسجد"<sup>1</sup>.

وعلل أحمد بن عبد النور المالقي "702هـ" هذا الشرود لـ "لا"، بسبب وقوعها في سياق المنع فقال: "تقدمها المنع وهو الترك، فصارت "لا" زائدة لفظاً ومعنى. فما قالوا في زيادتها من الجهتين صحيح لفظاً ومعنى، لا مدفع فيه"<sup>2</sup>.

إن هذا التأويل يتجاهل ما بين العبارتين من فروق بل يجعلهما متطابقتين في المعنى دون اعتبار لمعنى النفي الذي تفيده "لا" في إحدى الجملتين، بينما رأينا عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تفرق بين ما ورد فيه "لا"

وما خلا منها واعتبرتها عبارتين مختلفتين في الدلالة والحكم حين قالت لعروة رضي الله عنه: «بئسما قلت يا ابن أخي، إن هذه لو كانت على ما أولتها كانت "لا" جناح عليه أن لا يطوف بهما"<sup>3</sup> بإثبات "لا".

فذهبت إلى مثل: ﴿ما منعك أن تسجد﴾ في سورة ص.

وذهب هو إلى مثل: ﴿ما منعك ألا تسجد﴾ في الأعراف.

1- كشف المشكلات وإيضاح المعضلات - لجامع العلوم الباقولي - 1/ 452 (ط 1) 1415هـ / 1995م.

2- رصف المباني - لأحمد بن عبد النور المالقي - ص 345.

3- غرائب القرآن - للقمي - 41/2.

فرّقت بينهما بفطرتها السليمة وسليقتها العربية وحسّها اللغوي. فأنكرت عليه أن يسوّي بينهما.

ولتجنب مثل ذلك التفسير، وجدنا ابن جرير الطبري ينطلق لتأويل هذه الآية من مقدمة حول حقيقة سجود إبليس، هل وقع منه أم لم يقع؟!<sup>1</sup>

فيقول: "فإن قال قائل: أخبرنا عن إبليس، ألحقتُهُ الملامة على السجود، أم على ترك السجود، فإن تكن لحقته الملامة على ترك السجود، فكيف قيل له: "ما منعك إذ أمرتك ألا تسجد"، وإن كان النكير على السجود فذلك خلاف ما جاء به التنزيل في سائر القرآن، وخلاف ما يعرفه المسلمون؟!"<sup>1</sup>.

ثم يؤوّل الآية بتقدير محذوف يناسب المعنى ولا ينافره فيقول:

"والصواب عندي من القول في ذلك أن يقال: إن في الآية محذوفاً قد كفى دليل الظاهر منه، وهو أن معناه: ما منعك من السجود فأحوجك أن لا تسجد. فترك ذكر (أحوجك) استغناء بمعرفة السامعين قوله: ﴿إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾<sup>2</sup>.

وأوّلهُ السّكاكي بجمّل (ما منعك) على (ما دعاك) على سبيل المجاز المرسل بعلاقة الضدية، لما بين الصّارف عن فعل الشيء، وبين الداعي إلى تركه من علاقة اللزوم، إذ الممنوع من الشيء مصروف إلى خلافه.

فيصبح المعنى: ما دعاك إلى أن لا تسجد<sup>3</sup>.

« و"لا" غير صلة قرينة المجاز، وكذا ما "منعك إذ رأيتم ضلواً ألا تتبعني؟»<sup>4</sup>.

1- تفسير الطبري - 96/8 وانظر: لطائف المنان - فضل حسن عباس ص 227.

2- المصدر نفسه ص 97 وانظر: لطائف المنان - فضل حسن عباس ص 228.

3- أنظر: مفتاح العلوم - للسكاكي ص 156، والإيضاح للقزويني - ص 404 - ط (4) 1395 / 1975 - دار الكتاب اللبناني - بيروت، وشروح التلخيص - ج 4 / 42 (د.ط) و(د.ت) دار الإرشاد الإسلامي.

4- الإيضاح ص 404 وشروح التلخيص 4 / 42.

وهذا التقدير قريب جدا مما أشار إليه الراغب الأصفهاني عن بعضهم "وقيل: ما الذي صدك وحملك على ترك ذلك"<sup>1</sup> ونقله عن الفيروز آبادي في بصائر<sup>2</sup>

ولعل الشيخ عبد الرحمن تاج شيخ الأزهر استلهم من هذا التأويل تخرجه للآية عن طريق التضمنين البلاغي « فالفعل "منع" أُشْرِبَ معنى الفعل "حمل" أو "بعث"<sup>3</sup> »

وأشار الراغب إلى وجه آخر يفسر الآية على ظاهرها من غير لجوء إلى حذف أو تضمين أو تقدير، وهو اعتبار المعنى المشترك لـ "منع" وهو المنعُ والحَمَى، قال الراغب رحمه الله: "قال بعض المفسرين: إن معنى "ما منعك" ماحك، وجعلك في منعة مني في ترك السجود؟"<sup>4</sup>

وهذا الرأي الأخير رجحه الدكتور على العماري لأنه يفسر اللفظ دون اللجوء إلى الحكم بالزيادة والإلغاء أو الاضطرار إلى التقدير والتخريج.

غير أن الدكتور فضل حسن عباس يوجه إلى هذا الموقف اعتراضا يصفه بالقوة والوجهة ويقول: « وبم تفسر المنع في قوله تعالى: ﴿ما منعك أن تسجد﴾ ص 75. ولن يستطيع أن يحمل الفعل هنا في سورة ص ما حمله عليه في سورة الأعراف، فهو هنا يقينا من المنع لا من المنعة! »<sup>5</sup>

وبناء على هذا الاعتراض يرجح الدكتور فضل حسن تخرج الإمام الطبري دون أن يستبعد رأي السكاكي.

هذا وإن كان اعتراضه على الرأي الذي أورده الأصفهاني اعتراضا غير قوي كما سنشير قريبا، فإن له توجيها آخر جيدا أعدّه من أحسن ما وقفت عليه في تأويل هذه

1- مفردات ألفاظ القرآن- للراغب الأصفهاني- تحقيق نديم مرعشلي - ص 496 دار الكتاب العربي -

مطبعة التقدم العربي نوفمبر 1972م

2- أنظر بصائر ذوي التمييز - للفيروز آبادي - 4 / 526.

3 - لطائف المنان ص 231

4- الإيضاح ص 404، وشروح التلخيص 4 / 42.

5- لطائف المنان ص 234.

الآية، إنه يتعلق بالجانب المنهجي في التفسير، ويتمثل في أن سؤال الله عز وجل إبليس عن السجود جاء في ثلاثة مواضع لكل منها مورده الخاص به فلا ينبغي أن تُحمَل على شيء واحد.

ففي الأعراف: ﴿ما منعك ألا تسجد﴾ فليس من الحكمة البيانية التي عرفناها أن نحمل هذه الآية على ما تحمل عليه آية ص، وأن يكون السؤال عن المانع من السجود. لا بد من محمل آخر للآية الكريمة، فإن كان السؤال في سورة ص عن المانع عن السجود، فإن السؤال في سورة الأعراف ينبغي أن يكون عن الحامل على عدم السجود، ولهذا جاء في آية ص قوله سبحانه: ﴿استكبرت أم كنت من العالين﴾. لا يقال أن الأمرين شيء واحد، فقد يكون المانع من الشيء، غير الحامل على تركه.

بقيت سورة الحجر، حيث كان السؤال فيها مغايرا لما جاء في السورتين السابقتين... وإنما سئل: ﴿مالك أن لا تكون مع الساجدين﴾ فقد نُظِرَ في هذه الآية الكريمة إلى مخالفة الساجدين الذين كان معهم من قبل، هكذا تأتي كل آية بمجديد!<sup>1</sup>. سأحاول تحليل الآية بما فتح الله عز وجل بعد إبداء رأبي فيما جاء به الدكتور فضل حسن عباس.

أولا: إن اعتراضه على الدكتور علي العماري- وإن وصف الاعتراض بالقوة والوجاهة- أراه اعتراضا متهافتا لم يصدر عن روية، لأن الذي رجح معنى المنعة والحِمى، والتعزز بالشيء بحيث لا يُخَلَص إليه، لم يدع -أن هذا المعنى ينسحب على آية ص ويفسر به فعل "منع" فيها. كلا! إن هذا المعنى يستقيم وينسجم مع آية الأعراف وآية طه: ﴿ما منعك إذ رأيتم ضلوا ألا تتبعني﴾ طه 92 و93. محل النفي فيهما والذي يتعارض مع المعنى الأصلي الآخر لفعل "منع".

بل إن هذا التخريج المُعْتَرَض عليه، في رأبي، هو أقربها إلى الصواب، وأسلمها منهجا في التأويل يراعي الجوانب الثلاثة ولم يخلِّ بواحد منها:

1- لطائف المنان - ص 235.

1- إذ يعتمد معنى أصيلا من معاني لفظ (منع) وهو المنعة والتحرّز والتحصّن.

2- ولا يلغى معنى (لا) لثبوته في النص.

3- ويوافق المعنى المراد في الآية، وهو السؤال عن سبب عدم السجود.

والأمر الثاني: لقد أحسن الدكتور فضل حين رأى وجوب الرجوع إلى المواطن الثلاثة التي ورد فيها السؤال عن السجود، لَتَبَيَّنْ أثر الموقع فكان السؤال في سورة ص عن المانع عن السجود، والسؤال في الأعراف عن الحامل على عدم السجود، وفي الحجر عن سبب مخالفته للساجدين.

لكن الدكتور توقف في نصف الطريق فلم يبيّن الصلات الدلالية بين الموقع وصيغة السؤال، ووجه التناسب بينهما.

ولقد لاحظت مرارا أنّ لِمَا تكرر في القرآن موقعا متميزا، لما فيه من تنبيه وإثارة، وإلحاح على فكرة أو معنى، فهو بمثابة بؤرة المعاني والأحداث التي تنتظم السورة الواقع فيها.. فكثيرا ما يصلح ذاك التكرار أن يكون منطلقا لرصد خصائص السورة وتصوير ملاحظتها، وتحديد معالمها، وإظهار ما بين السورتين الواقع فيهما من اتفاق وافتراق، يتناسب مع الفروق الدقيقة بين العبارتين المتشابهتين، وكأنه المعين الذي تتدفق منه المعاني وفق خطوط عريضة ترسم هيكل السورة.

ولما استقر في الأذهان وتجلي للعيان من خلال أي القرآن أن إبليس لم يسجد لآدم، فإنه ينبغي تأويل آية الأعراف مع استصحاب معنى الامتناع عن السجود، ومع اعتبار معنى (لا) في العبارة، وعدم تجاهل دورها.

فالأحوط أن نتعامل مع النص بتفعيل دلالات ألفاظه، وصوغها في المعاني المستوحاة من قرائن السياق والأحوال.

لا غرور إنه لكل مقام مقال. فقصة آدم، وإن كانت قصة واحدة فإن لها في كل موقع أسلوبا جديدا تصاغ فيه.. فمن ذلك مشهد سؤال الله تعالى لإبليس - وهو أعلم به - عن السبب في امتناعه عن السجود، ورد في ثلاثة مواضع، ولكل موضع صياغة لاشك لها صلة بأغراض السورة ومضامينها، وأنها مناسبة للسياق واللاحق.

والملاحظ أنه لم يرد السؤال عن السجود في نفس القصة في مواضع أخرى حيث طوي الحديث عنه وأسدل الستار دونه لمناسبة أيضا.

فظاهر التشابه في قصة آدم وإسجاد الملائكة له يبدو متطابقا لكن عند التأمل والوقوف عنده، نجده يتميز شيئا فشيئا، فكل جزئية لها خصائصها ترشد إلى مكان آخرى تعد من أسرار التعبير، وخفي المعاني وكثيرا ما يمر عليها المفسرون دون إشارة إليها.

إن محطّ التأمل في هذه القصة هو عبارة السؤال بين سورتي الأعراف وص للبحث عن سبب تخصيص سورة الأعراف بزيادة "لا" ﴿ما منعك ألا تسجد﴾ دون مثيلتها في ص ﴿ما منعك أن تسجد﴾.

قيل في الإجابة عن ذلك: إنها صلة أي زائدة لفظا ومعنى كما أشرنا من قبل. كما قيل أنها زائدة لتأكيد النفي في هذا الموقع «جمع بين لفظ المنع ولفظ "لا" زيادة في النفي»<sup>1</sup>.

وقيل «جمع في هذه السورة "الأعراف" بين "ما" في ص و"ما" الحجر، فقال: ما منعك أن تسجد، مالك ألا تسجد. فحذف "أن تسجد" وحذف "مالك" لدلالة الحال ودلالة السورتين عليه، فبقي، ما منعك ألا تسجد. وهذه لطيفة فاحفظها»<sup>2</sup>.

وينضاف إلى هذا التناسب أن سورة الأعراف واقعة في ترتيب النزول بين ص والحجر، حيث نزلت سورة الأعراف بعد سورة ص مباشرة ثم نزلت الحجر بعد عدة سور<sup>3</sup>.

وعندي أن تفسير الآية وفق المعنى المشترك لـ "منع" وهو المنعة والاحتفاء بحيث لا يخلص إليه، دون إلغاء أداة النفي "لا"، وتفسير مقبول مستساغ لا ينافي أصل

1- بصائر ذوي التمييز 1/ 206.

2- أسرار التكرار - للكرماني ص 78 وبصائر ذوي التمييز 1/ 206.

3- ترتيب هذه السور حسب النزول كما يأتي: ص: 37 والأعراف: 38 والحجر: 53.

المعنى ولا يجافي أصول التفسير، إذ يصبح المعنى حينئذ: مَنْ تَعَزَّزَتْ بِهِ وَحَمَاكَ وَجَعَلَكَ لَا تَسْجُدُ؟.

غير أنّ تحليلَ هذا المعنى وبسطه يختلف.. شيئاً يسيراً عن معنى السؤال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ؟﴾ الوارد في ص.

إذ يوحي السؤال في الأعراف أن الامتناع عن السجود كان استهانة بعاقبة مخالفة الأمر الرباني، حال من يعتقد أن له من ينصره ويتحصن به من الله، فلا يخاف ولا يخشى.

وهذا الحامل على العصيان والتمرد، أشد من حسد آدم واحتقاره...

فإبليس في الأعراف استجاب لدواع عديدة، الحسد والكبر والعجب ثم عدم تقدير عظمة الأمر وقدرته عليه... وهذا التفصيل مناسب للسورة التي فصّلت القول في أهم القضايا تفصيلاً شافياً مستوعباً، فكان هنا أن بسط في «قصة خلق آدم أبلغ بسط، بحيث لم تبسط في سورة كما بسطت فيها»<sup>1</sup>. فإثبات "لا" في هذا الموضوع دون أشباهه ﴿مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ﴾ يوحي أن إبليس أصر ألا يسجد وقرر، وهذا فيه من التعزز والتمرد ما فيه.. كما أنه مناسب لمقام البسط والإطناب والتفصيل وزيادة الألفاظ. وربما يثير فيك التأمل في (لا) هذه التي اختصت بها سورة الأعراف أن هناك اختلافاً ما، بين الموقعين جاء مختصراً في أداة النفي هذه كما أن فيه من التوافق والتواء ما هو ظاهر من مثل الامتناع عن السجود. وهذه المعاني المتخالفة متناغمة مع المعاني الرئيسة في السورة؛ إذ تشع لك آية السجود هذه معاني وملاحظ ما كنت لتنتبه إليها لولا تلك الومضات النابضة التي تشير إليك وتدلّك على نفسها.

وبالنظر إلى مجال قصة آدم مع إبليس في القرآن نلاحظ تشابهاً استدعى وجود القصة في ذلك المحل، واختلافاً يسيراً ناسبه بفروق لفظية بين المتشابهات.

1- أسرار ترتيب القرآن - للسيوطي - ص 86.

ففي البقرة جاءت قصة السجود مختصرة، خالية من السؤال عن سبب الامتناع عن السجود وإنما أسفر عنه السياق مجملاً ﴿إلا إبليس أبى واستكبر﴾<sup>1</sup> لأن التركيز في هذا الموقف كان على العلم الذي رفع الله به آدم وأَسْجَدَ له ملائكته<sup>1</sup>. وبالعلم أيضا غفر له ذنبه وأصلح شأنه:

- ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾ البقرة 37.

وهذا مناسب لما بسطته السورة حول العلم والكتاب وما يجري مجراها.

وفي الأعراف التركيز على الحامل على العصيان وما يترتب على ذلك من مواقف بعد الوقوع فيه.

فقد وقع آدم في المعصية كما وقع إبليس من قبله؛ لكن مع فارق بينهما.

فإبليس عصى الأمر لداء نفسي عضال هو الحسد والكبر والعجب، وعصى آدم النهي تحت ضعف بشري من نسيان وغفلة، وحرص وتشبه إلى جانب وسوسة الشيطان وتزيينه.

والعبرة ليست بما وقع من معصية ولكن الشأن الموقف بعد ذلك.

فإبليس أصر واستكبر وكفر ولم يعترف أو ينكسر، بينما آدم اعترف واستغفر.

- ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ الأعراف 23.

وهذا الملمح من قضايا السورة التي تعالجها وهو أبرز سمات المتقين فيها:

- ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ الأعراف

201.

وعلى ضد من هذا إخوان الشياطين من الفاسقين.

وفي الحجر أُخْرِجَ عدم السجود إخراج التمرد والشذوذ عن الجماعة؛ إن كان الأمر بالسجود موجها للجمع لا للجنس، فأبرز السياق هذا المعنى بإظهار موقف إبليس

1- من المعلوم أن السجود كان عند نفخ الروح قبل أن يعلمه ولكن باعتبار المأل.

المخالف للجماعة، مع هيبة المقام التي كلها خضوع وخشوع، وطاعة وانصياع ﴿إلا إبليس﴾ أبي أن يكون مع الساجدين ﴿الحجر 31.

وجاء الإلحاح على شأن المعية وإنكار الخروج عنها في صيغة السؤال بعدها أيضا:  
﴿قال إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين﴾ ؟ الحجر 32.

فشناعة العصيان هنا مضاعفة، فالعصيان وحده كبيرة ينضاف إليه عصيانه وهو في جمع أشرف منه وأطوع، امتثلوا للأمر جميعا.

ولهذا فالتعبير بـ "مع الساجدين" أشد تقريبا وتأنيبا من "من الساجدين" الواردة في الأعراف: ﴿إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾ التي تفيد التبعض أو الانتساب إليهم في الأصل أو الفعل.

حيث نفى عنه الانتساب إليهم لما خالفهم في السجود.

بينما نفي المعية "...مع الساجدين" هو أوسع مجالا وأعمق في المخالفة للجماعة.

فهذه المعية لها دلالة خاصة في أساس الارتقاء للانتساب إلى القوم وموطأة

ليكون منهم وناسب هذا ختام السورة حين أمر النبي - ﷺ - "وكن من الساجدين" وقد كان حقا - ﷺ - منهم ومعهم وفيهم ولهم؛ كان من الساجدين مع الساجدين، وتقلب في الساجدين، وإماما للساجدين فلم يفتقده ربه حيث كان سجود، مندوبا كان أو واجبا، في فرض أو نفل، سجود في صلاة أو لسهو أو لتلاوة أو شكر...

وتتأكد معاني هذه المعية وشناعة مخالفتها في المواقع التي يؤكد الله تعالى فيها سجود الملائكة وذلك في موضعين في الحجر وص؛ حيث أكد سجودهم لآدم توكيدا لفظيا مضاعفا.

- ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون؛ إلا إبليس...﴾ الآية 30 الحجر و73 ص.

وورد نفس الموقف وهو سجود الملائكة لآدم دون توكيد لفظي يذكر، في مواطن أخرى في البقرة والأعراف والإسراء والكهف وطه.

فلا شك أن هناك مناسبةً ما في كل سورة من هذه السور اقتضت ذلك التوكيد أو عدمه وهو ما يستدعي مزيداً من التأمل.

ويتجلى لك - على شدة التشابه - خصوصيات العبارة لكل سورة ما يصبح بمثابة المعلم لها، فمن ذلك:

أ- ما يتعلق بسجود الملائكة وامتناع إبليس حيث يلاحظ أن:

- ﴿ فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر ... ﴾ خاص بالبقرة

- ﴿ فسجدوا إلا إبليس أبى ﴾ خاص بسورة طه 116

- ﴿ فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾ خاص بالأعراف

- ﴿ فسجدوا إلا إبليس قال آسجد لمن خلقت طينا ﴾ خاص بالإسراء 61

- ﴿ فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه .. ﴾ خاص بالكهف 50

ب- ومن المعالم الخاصة بلفظ السجود واقترن به من أدوات مما يعين على تحديد السورة، التراكيب الآتية:

- "مع الساجدين" من خصوصيات سورة الحجر 31

- "من الساجدين" في مطلع الأعراف 11 ونهاية الحجر 98

- "في الساجدين" من خصوصيات سورة الشعراء 219

- "أن تسجد" من خصوصيات سورة ص 75

- "ألا تسجد" من خصوصيات سورة الأعراف 12

ج- كما يوقفك التأمل في هذا التشابه على مقامات السجود ومحالّه في السور التي ورد فيها؛ فتلاحظ وقوع السجود لآدم في مطلع السورة في الأعراف، وفي ختام السورة في ص. وعلى العكس من ذلك وقع سجود التلاوة في السورتين حيث وقعت السجدة في الربع الأول من سورة ص (الآية: 24) بينما وقعت في سورة الأعراف ختاماً لها (الآية: 206) وهي أول سجدة في القرآن يختر لها التالي.

د- واختلف نص السؤال عن عدم السجود، والجواب عنه، حسب المواقع، ففي البقرة طُويَ السؤال واكْتُفِيَ بذكر السبب والحامل على عدم السجود، وفي الإسراء طُويَ السؤال وضمَّن في الجواب:

- ﴿ قال آسجد لمن خلقت طينا ﴾ 61

وفي الحجر صرح بالسؤال والجواب:

- ﴿ قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ﴾ قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴾ 32 و 33 .

كما صرح بهما في الأعراف وص وتميَّز السؤال فيهما بـ "ما منعك" إذ لم ترد هذه الصيغة إلا فيهما مع افتراق بينهما في ورود النفي بـ "لا" في الأعراف "ألا تسجد" دون ص. وهو محل التأمل والحامل على كل تلك الوقوف... فمن تشابه بين السورتين في القصة، وسجود التلاوة واختلاف في المواقع بداية وختاماً... وما واكبه من تشابه في نص السؤال وافتراق في لفظ وما إلى ذلك.

فتعليل ورود "لا" في هذا الموقع عصيٌّ على التعليل كما ترى، إذ ليست له علاقة بصحة الاستعمال أو سلامة التركيب فـ "لا" هنا في "ألا تسجد" هي في أفصح كلام وأعلى بيان، وإنما الإشكال في دلالة ظاهر اللفظ في هذا الموضع.

وربما ألجأ هذا بعض المفسرين إلى تفسير أحد اللفظين بالآخر، وربما حمل بعض اللغويين على القول بجواز استعمال الوجهين لمعنى واحد مثلما يستعمل اللفظان المترادفان، أي يسوِّغ استعمال "ألا تفعل" محلَّ "أن تفعل" إذا تعلق بالفعل "منع".

### زيادة ( لا ) في آية الفاتحة:

وغاية ما هنالك أن "لا" زائدة أو هي للتأكيد لدى كثير منهم. وعلى كل حال فإن المواقع الأخرى لـ "لا" حين تذكر أو تعاد وتكرر، له دلالات تتنوع حسب الاستعمالات، نحاول الكشف عنها ضمن تحليل النماذج الآتية:

قال تعالى في آخر الفاتحة: ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾

هذه الآية من المواقع التي حُكِمَ فيها بزيادة "لا". قال أبو حيان الأندلسي "ولا الضالين" لتأكيد معنى النفي؛ لأن "غير" فيه النفي، كأنه قيل لا المغضوب عليهم ولا الضالين<sup>1</sup>

وكذلك طرح ابن القيم تساؤلاً عن "لا" في هذه الآية فقال: "ما فائدة زيادة "لا" بين المعطوف والمعطوف عليه؟"<sup>2</sup>

ولا يقصدون بالزيادة هنا الإلغاء وإنما يقصدون أن الأصل فيها حذفها، لدلالة القرائن عليها، غير أن إظهارها هنا لدواعٍ بلاغية.

ففي الجنى الداني للمرادي (ت 749هـ): "لا" زائدة لتوكيد النفي لئلا يتوهم عطف "الضالين" على "الذين"<sup>3</sup>

وهو نفس المعنى الذي أشار إليه معاصره أبو حيان (754 هـ) حين يذكر أنه لو حُذفت أداة النفي واكتفي بالعطف عليها فقيل: ﴿غير المغضوب عليهم والضالين﴾ لتوهم عطف الضالين على "الذين".

ويرى ابن القيم أن النفي هنا بـ "لا" أولى منه بـ "غير" لوجوه<sup>4</sup>.

1. أنّ "لا" أدخل في النفي من "غير".

2. أنها أقل حروفاً.

3. لتفادي تكرار اللفظ.

4. لاجتناب الثقل في النطق بـ "غير" مرتين مع قُربٍ وجوارٍ.

وهذا بعد أن استخراج فوائد لزيادة "لا" بين المعطوف والمعطوف عليه وهي المسألة الخامسة عشرة عنده في تفسير الفاتحة.

1- البحر المحيط - لأبي حيان - 51 / 1.

2- بدائع التفسير - لابن القيم الجوزية - 249 / 1

3- الجنى الداني للمرادي ص 301

4- أنظر البحر المحيط 51 / 1

وأول هذه الفوائد<sup>1</sup>: أن ذكر "لا" تؤكد للنفي الذي تضمنته "غير"، فهو في قوة لا المغضوب عليهم ولا الضالين.

وثانيها أن المراد المغايرة الواقعة بين النوعين وبين كل نوع بمفرده... فإنه لو قيل: غير المغضوب عليهم والضالين، لأوهم أن المراد ما غير المجموع المركب من النوعين لا ما غير كل نوع بمفرده... وبيان ذلك أنك إذا قلت: ما قام زيد وعمرو فإنما نفيت القيام عنهما مجتمعين، ولا يلزم من ذلك نفيه عن كل واحد منهما بمفرده، بخلاف قولك: ما قام زيد ولا عمرو فإنه يلزم النفي عن كل واحد منهما في حالتي الاجتماع والافتراق<sup>2</sup>.

وثالث الفوائد: رفع توهم أن الضالين، وصف للمغضوب عليهم وأنها صنف واحد وُصف بالغضب والضلال. فلما دخلت "لا" علم أنها صنفان متغايران مقصودان بالذكر. فضلا عن هذه الفوائد، لاح لي تناسب دقيق، وترابط وثيق بين المزاوجة بين "لا" و"غير" وبين الموقع الذي وردت فيه.

فقد تُلْقَى النفي بـ "لا" بدل تكرار "غير" أو إضمارها. فأغنت هذه المناوبة<sup>3</sup> عن عدة صور احتمالية:

- غير المغضوب عليهم وغير الضالين.
- لا المغضوب عليهم ولا الضالين.
- غير المغضوب عليهم والضالين.

فزاد ذكر "لا" المعنى دقة وبيانا، وأضفى على اللفظ رقة وجمالا. وتكررت الأدوات بتقدير لفظها على سبيل الاحتباك.

فأدت تلك الصورة معاني هذه الصور مع تكرار النفي دون إعادة اللفظ

1- أنظر بدائع التفسير 1/ 250.

2- أنظر المصدر نفسه 1/ 249، 250.

3- وقع مثل هذه المناوبة بين ( غير ) و ( لا ) في عدة آيات: 173/ البقرة-145/ الأنعام-15/ النحل-25/ النساء-5/ المائدة.

ثم جاءت المغايرة بين التثمين مناسبة للمغايرة بين الموصوفين والصفتين الواقعين في دائرة النفي من جهة، كما أنها مناسبة لمقام التغاير والتمايز والتنوع الذي يسود سورة الفاتحة، فمن الحمد إلى الثناء إلى التمجيد، ومن الألوهية إلى الربوبية إلى الرحمانية ومن العبودية إلى الاستعانة إلى الدعاء.

بالإضافة إلى المغايرة بين الموصوفين والصفتين، فأخص وصف لِحِق باليهود هو الغضب عليهم، وأخص وصف لَصِق بالنصارى هو الضلال.

أما تلوين الأسلوب وتنويعه فإنه لسمة الأسلوبية التي لا يخطئها متأمل في السورة على قصرها، فهناك الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ومن البناء للمعلوم في "أنعمت عليهم" إلى البناء للمجهول في (المغضوب عليهم) من الفعل (أنعمت) إلى الوصف (المغضوب) و(الضالين) وجعل الإنعام في صلة (الذين): الذين أنعمت عليهم. وجعل الغضب والضلال في صلة (ال) الموصولية: (المغضوب) و(الضالين) مع العلم أن هناك فرقا بين هذين الموصولين يتمثل في:

- أن (الذين) تدل على الموصولية بالأصالة والتمحض، فهي خاصة لها. وتوصل بالجملة الفعلية والاسمية وتتصرف حسب العدد والجنس.

- بينما (ال) ليست أصلية في الموصولية فلها وظائف أخرى كالتعريف والعهد والجنس ولا تُوصل إلا بالوصف فهي شرط في الموصولية.

كما أنها عامة لا تتصرف فتلزم وضعاً واحداً مع المذكر والمؤنث والجمع والإفراد.

فصلة (الذين) هنا جاءت فعلاً ماضياً مُتَعَيَّنَ الزمان. وجاءت صلة (ال) وصفا مُنَبِّهَ الزمان مبنياً للمجهول في (المغضوب) ومبنياً للمعلوم في (الضالين)..

قال أبو حيان عن هذه الإشارة: « وكذلك أتى بالفعل ماضياً، وكذلك أتى بالاسم في صلة "ال" ليشمل سائر الأزمان، وبناء للمفعول ..، لأنه مقام تल्प وترفق وتذلل لطلب الإحسان، فلا يناسب مواجهته بوصف الانتقام»<sup>1</sup>.

1- البحر المحيط 1/ 53.

وكل هذا التنوع والافتنان جاء لأغراض بلاغية، وواكبه التنوع والتصريف في أداة النفي؛ فمن "غير" إلى "لا" لأداء وظائف بيانية أيضا. وهو تناسب لطيف في طيات تصاريف الأساليب.

### تكرار (لا) في سورة القيامة

قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (القيامة)

جاء في فتح القدير: (أي لم يصدق بالرسالة ولا بالقرآن ولا صلى لربه...  
وقيل: (فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه)<sup>1</sup>.

إنَّ عدم التصديق أعظم جُزْماً من ترك الصلاة وهي عماد الدين؛ لأنَّه ينسف الإيمان من أصوله .

ثم يؤكد السياق ذلك بلفظ آخر . إيغالا في التشنيع والإنكار عليه .

ف (لكن كذب) أكدت (لا صدق)، وفيه زيادة أيضا على عدم التصديق، بإظهاره وإعلانه.

و(تولى) أكدت (لا صلى) وفيه زيادة أيضا عن ترك الصلاة ؛ فقد تركها هنا إعراضا عنها وليس تهاونا أو سهواً.

ويستدلُّ فاضل السامرائي على هذا التأكيد المعنوي بمناسبته للتكرار اللفظي الذي وقع بعده: ﴿أُولَى لَكَ فَأُولَى ثُمَّ أُولَى لَكَ فَأُولَى﴾ .

وذلك أنَّه كانت «قوة التهديد بمقابل قوة الوصف فقال مقابل ﴿فَلَا صَدَقَ﴾ : ﴿أُولَى لَكَ﴾ فذكر (لك). ومقابل ﴿وَلَا صَلَّى﴾ : (فأولى) بحذف (لك) إشارة إلى عظم الإيمان وأهميته، وإشارة إلى أنَّ الصفتين المذكورتين ليستا بدرجة واحدة في الضلال.

1- فتح القدير - للشوكاني - 5 / 331. وانظر: لمسات بيانية - فاضل السامرائي 230.

فهذا الحذف ليس للفاصلة فقط، وإن كانت الفاصلة تقتضيه أيضا، وإنما هو للمعنى وللفاصلة<sup>1</sup>.

ويلاحظ في الجملتين الدعائيتين اللتين وقع فيهما التكرار، أنهما وثقتي الصلة بالصفتين السابقتين وأن الدعاء منصبٌ عليهما.

وذلك أن الصفتين المنفيتين: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ أكد معناهما في: ﴿وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى﴾.

فعدم التصديق أكده بالتكذيب، وعدم الصلاة أكده بالتولي والإعراض عن عمود الطاعات وهي الصلاة.

وأما الدعاء المترتب على الاتصاف بهاتين الصفتين فهو:

- ﴿أُولَى لَكَ فَأُولَى ثُمَّ أُولَى لَكَ فَأُولَى﴾

وقع في هذه العبارة تكراران جزئي وكلي:

جزئي: حيث تكررت (أولى) دون (لك) في الآية أولى وثانية. وفصل بين الدعائين بالفاء.

تكراري كلي: حين كررت الآية كلها ﴿أُولَى لَكَ فَأُولَى﴾ وقد عطف بين الآيتين المكررتين بـ (ثم) وهي تفيد التراخي والتباعد مع الترتيب. بينما عطف المكرر في كل من الآيتين بالفاء التي تحقق الترابط الوثيق والاتصال المحكم بين الطرفين.

فلا صدق ← كرر المعنى مع زيادة بـ: كذب.

ولا صلى ← كرر المعنى مع زيادة بـ: تولى.

فهذا تناسبٌ معنويٌّ رُبطَ بهِ بين الآيتين فضلا عن الرابط اللفظي (لكن) فشُدَّ بذلك أزرُ الآيتين.

1- لمسات بيانية- فاضل السامرائي، 231.

وجاءت بعد ذلك الجملتان الدعائيتان المكررتان لتُعود على هذين الوصفين المكررين حيث ربطت الفاء بينهما ربط المسبب بالسبب ﴿أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ﴾ تنبيها إلى أنه مترتب على حالهم إيدانا بقرب حلول الهلاك بهم .

وقيل (أولى) مشتق من الولي وهو القرب، وليّ تلو ولي على حدّ قوله تعالى:

- ﴿فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾

فالزجرُ الأوّل والتوعّد أشدّ من الثّاني، ولذلك ذكرت (لك) في الأوّل المناسب لعدم الصّلاة ولم تُذكر في الثّاني المناسب لترك الصّلاة .

ثم كررت الجملة كاملةً وعُطفت بـ (ثم) التي تفيد هنا أنّ ما بعدها أبعد في الرتبة وأقوى في التّواعد وأبلغ في التّهديد.

فـ (ثم) هنا لبيان تفاوت الرتبة بين المنزلتين، وليس لإفادة المهلة والتراخي.

غير أنّ الجمع بين المعنيين الحقيقي والمجازي لـ (ثم) هنا أولى وأنسب وأكمل.

فتوسّط (ثم) بين مقامين كما قال عنهما ابن القيم: ( هي مؤذنة بتراخي ما بين

المرتبتين زمانا وخطرا).

وبناءً على هذا فآية التّوكيد أشدّ وأقوى من الآية المؤكّدة.

وهناك من حمل (ثم) على التراخي الزمّني ولم يرض أن يكون التكرير في الآية

لمجرد التأكيد والمبالغة في التّهديد والوعيد كالذي أشار إليه صاحبُ البحر المحيط؛ وإنما

جعل التّكرير تأسيسا يحمل فائدة جديدة.

## تكرار (لا) ذكرا وتقديرا

وبالتأمل في السياقات المختلفة لـ (لا) النافية واستعمالاتها في النصوص الفصيحة الراقية واقتصرنا هنا على القرآن الكريم الذي لا يُساميه نصّ.. ألفينا عدّة صور لها، منها:

1- وجوب تكرارها

2- استبدالها بأداة نفي أخرى، لأغراض بلاغية أو أسباب تركيبية أسلوبية.

3- عدم جواز تكرارها وإعادتها...

4- زيادتها

5- وجوب تقديرها متى لا يختل المعنى أو يفسد.

وتلك سياقات دقيقة يصلح فيها كلُّ سياق لمعنى دقيق مُحدّد، ومقام معين قد يبني عليه الأصوليون أحكاما تَبَعًا لدلالات كلِّ تركيب وإن بدا في الظاهر متشابهًا.

فهذا الشّيوطي - رحمه الله - يُسأل عن قال:

والله لا كلمتُ زيدا ولا عمرا ولا بكرا. بتكرار (لا) وبدونها. فيُجيب: " إنَّ الكلام مع التكرار أيمان في كل منها الكفارة، وإنه بدون التكرار يمين في مجموعها كفارة "<sup>1</sup>.  
ومن ذلك أنهم أوجبوا تكرارها إذا دخلت على الماضي لفظا ومعنى، نحو قوله تعالى:

- ﴿ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴾

قال أبو حيان: " إنَّ العرب لا تكاد تفرد (لا) مع الفعل الماضي حتى تعيد "<sup>2</sup>. وكذلك رأى جمهورُ النحاة والمفسرين أنَّه إذا نفي الفعلُ الماضي المعنى بـ (لا) وجب تكرارها.

1- الأشباه والنظائر - للشّيوطي - مج 2 - ج 4 - ص: 168.

2- البحر المحيط - لأبي حيان - ج 10 - ص: 482.

## تقدير (لا) في قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾

ولم يخرج عن هذه القاعدة إلا قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ حتى قال العزُّ بن عبد السَّلام عن الآية " ويشكل النبي بـ (لا) وهي إنما تنفي الاستقبال " <sup>1</sup> وراحوا يُحاولون تخرِج مسلك الآية بالبحث عن نكته وسببه ومناسبته.

ف قيل: إنها المكررة في المعنى لأن (العقبة) مُفسرة بِشَيْئَيْنِ:

فكُّ الرقبة، وإطعامٌ في يومٍ ذي مسغبة. فكأنه قال: فلا فكَّ رقبة ولا أطمعَ يتيماً أو مسكيناً. <sup>2</sup> وهذا التعليل - عندي - بعيد لأنَّ الإشكالَ في اختلال التلازم اللفظي في مثال هذه العبارة، وليس في إشكال المعنى أصلاً، لأنَّ معنى العقبة يختزن حشدًا من المعاني منها ما فسَّره ألفاظ الآية: ﴿ما العقبة فكُّ رقبةٍ أو إطعامٌ في يومٍ ذي مسغبة...﴾

وذهب الألوسي إلى أنَّ المتيقن من تكرارها أنه الأكثر والأشهر وإن الوجوب ليس بمتيقن.

وقيل إنَّ الفعل هنا يراد به الاستقبال أو الدعاء حتى لا يلزم تكرارها.

وقيل هي للاستفهام، وحذفت الهمزة. والتقدير: أفلا اقتحم العقبة؟

والأمر الذي لا شك فيه أن السياق والمقام اقتضى اختيار (لا) في هذا الموطن بلا تكرار، لتثير تلك المعاني المشار إليها مجتمعةً. يقول عنها الدكتور فاضل السامرائي: «فقد جمع هذا التعبير عدَّة معانٍ في آن واحد:

المضي والاستقبال، والتوبيخ والحض والدعاء... وكلها مرادة مطلوبة،

و أنه لو جاء بأي حرف آخر غير (لا) لم يُقد هذه المعاني الكثيرة المتعددة.» <sup>3</sup>

1- الفوائد في مشكل القرآن - للعز بن عبد السلام - ص: 179. - أنظر لمسات بيانية - للسامرائي - ص: 268.

2- أنظر لمسات بيانية - للسامرائي - ص: 266.

3- لمسات بيانية-فاضل السامرائي-ص269-270.

و من الصور التي يجب فيها تكرار (لا) ما كان على نحو قولنا:

لا زيدٌ في الدار ولا عمرو وعُلِّل ذلك أن هذا الموضع في الأصل من مواضع (ما) ولكن لما أُريد المبالغة في النفي صارت (لا) أنسبت في هذا المقام، وجعل تكرارها أماره على تشديد النفي وتوكيده.<sup>1</sup>

وإذا تقدم الخبر على المبتدأ كان الخبر مخصّصاً بالنفي نحو ﴿لا فيها غول ولا هم ينزفون﴾ تفيد إثبات لما يقابل المبتدأ وما يعادله.

وكذلك حذفها يوهم غير المراد، أو يفسد المعنى.

وقد تكون (لا) بديلاً عن أداة نفي أخرى أو تكون هذه الأداة بديلاً عن (لا)؛ كالذي نجده في سورة الفاتحة: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ من (غير) إلى (لا). أو من (ما) إلى (لا) كما في قوله تعالى: ﴿ما يؤدّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنزل عليكم من خير من ربكم﴾ البقرة 105.

---

1- أنظر من نحو المباني إلى نحو المعاني-محمد طاهر الحمصي- ص236 ط1: 2003م دار سعد الدين للطباعة والنشر-دمشق-.

## (لا) بين آية البقرة وآية البينة

ذكر (لا) وإبرازها في قوله تعالى:

- ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ ﴾ البقرة 105.

يلاحظ المتأمل في هذه الآية ورود (لا) عطفاً على المنفي قبلها بينما حُذفت لا في شبيبتها في سورة البينة:

(لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة )

### البينة 01

وقد آثر نظم الآيتين اختياراً واحداً من بين أربعة احتمالات فيما يتعلق بالمعطوف:

1 - (...الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين )

2 - (...الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين )

3 - (...الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركون )

4 - (...الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون )

فضلا عن احتمالات التقديم التأخير .

و لكل احتمال دلالاته، والمقام الذي يناسبه .

فلاحتمال الأول (و لا المشركين ) عطف على محل الجرّ (من أهل الكتاب )

وكذلك الاحتمال الثاني (و المشركين ) عطف على محل الجرّ (من أهل الكتاب)

بينما الاحتمال الثالث والرابع عطف على محل الرفع (الذين كفروا ) وهذا الأخير

يجعل (المشركين ) في درجة الذين كفروا من أهل الكتاب وأنهم قسيّم لهم.

بخلاف الاحتمال الأول والثاني فإن المشركين يصيرون قسماً من الذين كفروا

وقسيماً لأهل الكتاب باعتبار أنّ (من) بيانية للذين كفروا . وهو الذي جاء وفقه نظم

الآيتين .

وهذا النظم يوحي بدلالات، ويتضمّن إشارات لا يحملها الاحتمالان الآخرا

(الثالث والرابع )

فآية البقرة وآية البيّنة كلاهما تبينان أنّ أهل الكتاب والمشرّكين، يُعدّان من الكُفّار، وإن كانوا أهل كتاب لعدة اعتبارات: لكفرهم برسالة محمد ﷺ وهذا يعني كفرهم بما جاء في التوراة والإنجيل، من مُبشّرات برسالة محمد ﷺ، كما هو إشارة إلى قولهم في المسيح وعزير مقالة الكفر:

(لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابنُ مريم) المائدة-72

(لقد كفر الذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة) المائدة 73

و"من" بيانية للذين كفروا في الآيتين. و(المشرّكين) معطوفة على أهل الكتاب - كما أشرنا - غير أنّ إبراز (لا) مع العطف في سورة البقرة (ولا المشرّكين)، دون سورة البيّنة، يضفي دلالة خاصّة تتمثّل في أنّ نفي الوُدّ يتعلق بأهل الكتاب كما يتعلق بالمشرّكين على حدّ سواء، كل على حدة .

يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور ولما كان مقتضى دلالة الآية، " قد يُوهم كون البيان قيداً، وأنّ الكافرين من غير أهل الكتاب لا يحسدون المسلمين، عطف عليه قوله (ولا المشرّكين) كالاحتراس، وليكون جمعاً للحكم بين الجميع " <sup>1</sup> أما العطف دون إيراد (لا) - كما هو في سورة البيّنة - فيفيد أنّ المقصود "بالإبطال ابتداءً هو دعوى أهل الكتاب، وأمّا المشرّكون فتَبَعَ لهم " <sup>2</sup> و ذلك أنّك إذا قلت:

- ما مررتُ بمحمد وخالد: فقد نفيتُ مروراً واحداً، مع احتمال اجتماعهما وانفادهما .

كما يحتمل انك مررت بأحدهما دون الآخر أي نفيت اجتماعهما في المرور فقط .

وإذا قلت:

- ما مررت بمحمد ولا مررت بخالد فقد نفيت مرورين منقطعاً أحدهما عن الآخر. <sup>3</sup>

وفي تقديم أهل الكتاب على المشرّكين، في الكفر في تلك القضية، وجعل المشرّكين تبعاً لهم، مع أنّ كفر المشرّكين أبعد وأشمل . ففي تقديمهم إشارة إلى أنّ كفرهم

1- تفسير التحرير والتنوير: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور 653/1

2- المرجع السابق: 475/30

3- انظر معاني النحو - للسامرائي 4 / 194 و 195 .

أغرب وأشنع ... لأنه كان الأولى بأهل الكتاب، من المشركين، أن يؤمنوا بما جاء في كتبهم حول بعثة محمد ﷺ، وكان الأجدر أن يصدّقوا ما كانوا يستفتحون به على الدين كفروا من مشركي العرب؛ لكنهم

( فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) البقرة 89

فمن هنا استحقوا الذم واللعنة وهم أخصّ بها ... وكانوا من هذا الوجه أشبه حلالا بالمنافقين من جهة مرض القلوب وفسادها .

وقد ابتلي رسول الله ﷺ بهذين الصنفين في المدينة المنورة، وقد جمع القرآن بينهما في مواطن منها (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب) الحشر 11

ويقول بن عاشور:

"و إنما قدّم أهل الكتاب على المشركين هنا مع أن كفر المشركين اشدّ من كفر أهل الكتاب؛ لأنّ لأهل الكتاب السبق في هذا المقام، فهم الذين بثّوا بين المشركين شبهة انطباق البيّنة الموصوفة بينهم، فأيدوا المشركين في إنكار نبوة محمد ﷺ، بما هو أتقن من ترّهات المشركين". 30/ 475

ولم تمرّ إلاّ عقود حتى شرح الله صدر الكفار من المشركين إلى الإسلام، ولم يبق إلاّ ذاك الصنف من أهل الكتاب يناوئون ويكيدون وهم إلى اليوم يعادون الإسلام والمسلمين.

وفي التعبير في النفي بـ (ما) و(لا) مناوية، لفت وتنبية إلى أن هناك صلة ما بين المنفيين، وإنّ بدا في الظاهر بينهما بعدّ وافتراق؛ فأولاء أهل كتاب، يؤمنون بالكتاب وبالرسل، وأولئك كفار مشركون، هؤلاء في المدينة، وأولئك في مكة، غير أنّ الأسلوب يوميء إلى أنّ بين الصنفين تقارباً واتفاقاً، وأنّ كفر هؤلاء ممتد إلى أولئك ... فيكشف الوشائج الخفية بينهما .

ذلك أن المناوية بين (ما) و(لا) يوحي بالاقتراب والاشتراك حسب الاستعمال،

كما أن تكرار (ما)

فما عَطِفَ مناسبٌ للافتراق وقد تفتن الدكتور تمام حسان إلى هذه العلاقة فقال: " والمعروف أنك إذا أردت نفي أمرين أحدهما مستقل عن الآخر قلت: ( ما.... وما....) كما في قوله تعالى: " وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم " النساء157. إذ إن دعوى الصلب غير مرتبطة بدعوى القتل. أما إذا كان الأمران مترابطين فإن النفي يكون بواسطة (....ما...و...لا....) نحو قوله تعالى: "قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به" يونس16. فالدراية مرتبطة بالتلاوة.

وهناك سبب آخر يدعو إلى استعمال (لا) دون (ما) في هذه الآية وهو أن استعمال (ما) يوهم بمعنى التعجب إذ تتول العبارة إلى "وما أدراكم به!" . لذلك كانت (لا) ضرورية هنا نحوًا وأسلوبًا<sup>1</sup>.

---

1- اجتهادات لغوية: د. تمام حسان. عالم الكتب. ط1/2007 القاهرة. مصر. ص: 47، 48.

## ذِكْر (لا) وتكرارها، وحذفها وتقديرها حسب مقتضيات المقام:

فانظر إلى هذه النماذج، وتأمل ما بينها من فروق:

- ﴿لَا يَمْسُنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمْسُنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ فاطر: 35.

- ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ فصلت: 34.

- ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ المائدة: 100.

هذه ثلاث صورٍ مختلفة:

1- تكرر النقي بـ (لا) مع العامل في الآية الأولى، فأفاد إبلاغية المعنى واستقلاليتها بنفسه.

فضلا عن كون الجملة الثانية في النموذج الأول تكرارا تأسيسياً يُضيف معنى حين يميز بين المترادفين: النَّصَبُ واللُّغُوبُ.

ولهذه الصورة شواهد أخرى في القرآن الكريم نحو قوله تعالى:

- ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ هود: 31.

2- أما الصورة الثانية فأعيدت فيها (لا) دون العامل:

- ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فصلت: 34.

لو لم تكرر (لا) فقيل " وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ " لكانت المفاضلة بين

الحسنة والسيئة على وجه العموم، ولكن إعادة النفي (لا) جعل المفاضلة وعدم التكافؤ بين أجزاء الطرف الواحد بلةً بين الطرفين المتقابلين:

- فلا تُسوِّ بين الحسنة والحسنة والأحسن فإن بينهما تفاضلاً.

- ولا تُسوِّ بين السيئة والأسوأ فإن بينهما تبايناً.

فعليك بالأحسن وإياك والأسوأ الأخسر فإن الآيات في سياق المكافأة

والمجازاة.

فادفع بالحسنى والأحسن ﴿ اذْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾.

- ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ سورة الإسراء 53.

وأعظمها دفع الأسوأ بالأحسن<sup>1</sup> لما بينهما من بُعدٍ شاسع، هو قمة التمايز، يُبَوِّئُ صاحبه أعلى الدرجات، ولهذا كان يقول ابن الخطاب رضي الله عنه: (ما جازيت من عَصَى الله فيك بمثل أن تتقي الله فيه).

فمن جاءك بسيئة فجئتته بحسنة لا يعدل من جاءك بالأسوأ فجئتته بالأحسن لما بينهما من تفاوتٍ في الدرجات، فهذه الأخيرة بلا شك توجب الجزاء والشرط وتحققه.

فترى العدو وليًا، وينقلب الكاشح الحاقد صديقًا ودودًا.

وليس هذا الجزاء لمن لم يحقق الشرط بضمونٍ ولا مكفولًا.

والذي أرشد إلى هذا المعنى البديع هو تكرر (لا)، ولولا ذلك ما وقفت عنده،

ولاكتفيت بالإشارة إلى الحسنه والسيئة، وانتفاء استوائهما.

3- أما الصورة الثالثة فحلت من تكرار العامل وإعادة (لا):

- ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ فدلالة هذا التركيب تختلف عنه في قولنا:

"لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَلَا الطَّيِّبُ" حيث توحى بأن الخبيث ليس على مستوي

واحد، وأن الطيب ليس على درجة واحدة، وهو أمر يحتاج إلى مزيد تأملٍ.

بينما الآية تُشير إلى التباين بين الخبيث والطيب إذا قورنا ببعضهما، وهو أمر

جلي لا يخفى على ذوي الأبواب.. غير أن العقول الغافلة والقلوب اللاهية قد تُصاب

بصائر أصحابها بالعشى أو العمى إلى درجة أنهم لا يُفرّقون بين الخبيث والطيب، على

شدة الوضوح والافتراق، فعرّهم كثرة الخبيث، وأعماهم عن خُبثه وشناعته فمن مقاصد

1- بدا لي بقريظة ﴿ اذْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ادفع الذي هو أسوأ، وعليه تكون (الحسنة والأحسن) و(السيئة والأسوأ). ضمناً في الآية.

الآية كَثُفُ الْآثَارِ الْمُرْدِيَةِ لِحَبِّ الْمَكَثَرَةِ وَالتَّكَثَّرِ ﴿أَلِهَامُ التَّكَثَّرِ﴾ ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْحَيْثِ﴾.

وكذلك الجمعُ بين الخبيث والطيب بحرف العطف، وأداة النفي (لا)، يهيئ الموازنة بين أمرين متقابلين، بين الخبيث والطيب. والعجيب أنك ترى بعض العقلاء من الناس يُسوِّي بينهما، وهذا من أكبر صور الغفلة وأشدّها.

وليس المقام هنا مُناسبا لإعادة (لا) في التركيب (لَا يَسْتَوِي الْحَيْثُ وَلَا الطَّيِّبُ).

فيفصل بين الخبيث والطيب؛ وتُصبح الموازنة بين الخبيث في نفسه. والطيب ومثيله، فبين الخبيث والخبيث منازل ودركات، وكذلك بين الطيب والطيب درجات وصفات. وهذا يتضمن أيضا البؤن الشديد بين الخبيث والطيب؛ لأنه إذا كانت التسوية غير جائزة بين أطراف العنصر الواحد وأصنافه فما بال التسوية بين عنصرين مُختلفين! فكيف إذا كانا متناقضين فذاك إيغال في التمايز والتباعد.

ومع ذلك فهناك من لا يُميّز بين الخبيث والطيب لأنه محبوب بهوس المكثرة، وهوى التباهي، وشهوة التملك ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْحَيْثِ﴾.

فإذا انتفى التماثل التام، بين أجزاء الشيء الواحد وبين أصناف الجنس الواحد فكيف يصحّ في الأذهان التسوية بين الأضداد.

وتأمل قوله تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ...﴾ فاطر 12، فمع الظاهر في البحر أنه من أقرب المخلوقات لدينا، وأظهرها تماثلا وتعادلا، فمستوى البحر مثلا مقياس يُرجع إليه لتعيين مدى الارتفاع والانخفاض في كل بقاع الأرض. ولكنه إلفات النظر إلى التمايز بين المتجانسين.

وكذلك من مظاهر التماثل بين البحرين ﴿وَمَنْ كُلُّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حُلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَآخِر...﴾ فاطر 12.

فكانت هذه الآيات تمهيدا لما يأتي بعدها:

- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ فاطر 19.

- ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ فاطر 20.

ومن هنا فإعادة (لا) أبلغ في إبراز التباين وإظهار عدم التقارب وانتفاء التشابه في مثل تلك النماذج؛ لأنه يأبى التسوية بين أصناف الشيء الواحد، ويعترض عليها، فكيف يُسوَّى بعدها بين المتناقضين، ولذا تلاحظ تكرارها في مثل هذا المقام:

- ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (20) وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ (21)﴾

وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ... (22)﴾ وهنا يبلغ التباين أقصاه حين أُكِّدَ العامل بالتكرار للتنبيه على نفي التساوي نفيًا مطلقًا، والإنكار على مَنْ يُسوَّى بينهما؛ حيث يبلغ التمايز قَمَّتَه، فليس هناك أبعد افتراقٍ واستحالةً اتفاقٍ مما يكون بين الأحياء والأموات. وهذا بين يدي تقرير الحقيقة: ﴿... إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مِّنْ فِي الْقُبُورِ (22)﴾.

وهذا تبصير للتمييز بين الحق والباطل، وهو بدوره تمهيد لما بعده للتأمل والتدبر في الاختلاف في الخلق في الثمرات والجبال والناس والدواب والأنعام، المفضي إلى الخشية<sup>1</sup> والتسليم لعظمة الحق.

1- إيماء إلى قوله تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء} فاطر الآية: 28.

## تكرار (لا) في آية من سورة نوح

المتأمل في السياقات المختلفة الوارد فيها تكرار (لا) يذهله التنوع، وتعدد الاحتمالات التعبيرية، فتتداخل عليه الفروق الدلالية، فهناك وجوب تكرارها أو تقديرها، وجواز تكرارها أو حذفها، وهناك (لا) المكررة للنفي بدلا من غيرها: غير - لن - لم - ليس ...

وهذا نفسه يتنوع فيما بينه.

فانظر على سبيل التمثيل إلى قوله تعالى على لسان قوم نوح عليه السّلام:  
﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ نوح 23.  
لاحظ:

لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ  
ولا تَذَرُنَّ وَدًّا

ولا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ ← تم حذف العامل دون (لا).

ويَعُوقَ وَنَسْرًا ← تم حذف العامل و(لا) معا.

فهذا الترتيب في المكررات بين الذكر والحذف فيه تدرج ملحوظ. فالقول القاطع

الحاسم هو:

- ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ﴾ على وجه العموم.

ثم حَصَّ من بين الأصنام المعبودة خمسًا، كانت لقوم نوح عليه السلام ثم انتقلت إلى قبائل العرب بأعيانها وقيل بأسمائها فقط.

وكان أهمها صنم (وُدّ)، وتجلت أهمية مكانته، في التعبير بإعادة (لا) والعامل معا، تماما مثلما سبقت الإشارة إلى مطلق الآلهة من قبل: ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا ﴾ ، فقد كان صنم وُدّ لقوم نوح بخاصّة، وقيل: هو أول صنم معبود، وسُمِّي وُدًّا لودّهم له، وكان بعد ذلك لقبيلة كلب بدومة الجندل، وقيل هو صنم لقريش به سُمِّي عمرو بن عبد وُدّ .. لأجل هذا قُدِّم على الخمس وأظهر معه (لا) والعامل (تَذَرُنَّ).

وثانيها: (سُوعُ)، وقيل كان لهذيل بساحل البحر، وقيل لهمدان.

وثالثها: (يُعُوثُ)، وقيل كان لمراد أو لمذح، وبه سمي عبد يغوث.

ورابعها: (يُعُوقُ)، وقيل كان لهمدان وقيل غير ذلك.

وخامسها: (نَسْرٌ)، وقيل كان لذي كَلَّاعٍ من حمير.

وهذا الترتيب ربما كان للشهرة والانتشار، أو للمكانة ودرجة التعلق .. أو لأمر أخرى الله أعلم بها.

وكما تنوعت الصُّور اللفظية التي وردت ضمنها هذه الأصنام تنوعت كذلك الأسماء التي وقع عليها النهي بين مصروف ( وَدًّا - سُوعًا - نَسْرًا ) وقع في الأطراف وممنوع من الصرف ( يِعُوثُ - يِعُوقُ ) وقع في الوسط. والعجيب هنا هو اتفاق هذين الاسمين الممنوعين من الصرف أيضا في الصيغة على زنة المضارع الواوي العَيْن، وقد اختلف في الأصل اللغوي لهما بين العربية والعجمة، وفي عِلَّةِ المنع من الصرف: أهي العلمية والعجمة ؟ أم العلمية ووزن الفعل؟<sup>1</sup> .

وربما أبرزت أسماء هذه الأصنام الخمسة هنا على بعدها السحيق في الزمن، إذ الأمر يتعلق بقوم نوح عليه السلام، لصلتها ببلاد العرب ؛ حيث بُعثت هذه الأصنام من جديد في شبه الجزيرة، كما جاء في بعض الروايات عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما: « كان أيام الطوفان دَفَنَهَا الطين والتراب والماء ، فلم تَزَلْ مدفونة حتى أخرجها الشيطان لمشركي العرب »<sup>2</sup> .

ويُقَوِّي هذا ويسنده أن بعض هذه الأسماء ذات أصل اشتقاقي في العربية، وهو وجه من التناسب يصل ما بين المتباعدين؛ فقد عُرِفَ لدى العرب، عبدُ وُدٍّ، وعبد يغوث<sup>3</sup> . وقيل إن نَسْرًا كان على صورة نسر<sup>4</sup> .

1- أنظر: البحر المحيط 285/10 و286 . و: تفسير القرطبي 309/18 و310.

2- تفسير القرطبي 308/18.

3- وهو عبد يغوث بن الحرث بن وقاص الشاعر الجاهلي صاحب المفضلية الثلاثين ومطلعها:

وقد يقف المتأمل لهذه الآية على فروق أخرى دقيقة.. فلا ريب أن هذا التنوع في الصياغة، يتناغم مع الدلالات المنوعة أيضا، وأن هناك اختيارا للفظ واختيارا للموقع والترتيب، وتناسبا مع إظهار الحرف (لا) والفعل بعدها:

وَلَا تَذَرْنِ الْهَتَمُ

وَلَا تَذَرْنَ وَدًا

أو حذفها فيما تلا ذلك: وَيَعُوقُ وَنَسْرًا.

اقتضت ذلك خصوصية دلالية، وإن خفيت على كثير من التالين والمتأملين فلربما أبرزت تلك الأصنام الخمسة هنا، على بعدها السحيق في الزمن، فالأمر يتعلق بقوم نوح، لصلتها ببلاد العرب، حيث بعثت من جديد في بلاد العرب كما جاءت به بعض الروايات. كما ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الأصنام الخمسة أنه لما « كان أيام الطوفان دفنها الطين والتراب والماء، فلم تزل مدفونة حتى أخرجها الشيطان لمشركي العرب »<sup>5</sup>.

ولعل هذا البيان والتخصيص بذكر الأسماء بسبب الأثر الواسع الكبير لهذه الأصنام على مر الدهور.. وقد أشار نوح عليه السلام إلى هذا الإضلال العريض ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ نوح 24.

ولعل إبراهيم عليه السلام يشير إليهن أيضا في دعائه ببلاد العرب عند البيت المحرم: ﴿وَاجْتُنِبِي وَبَيْتِي أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ (36)﴾ سورة إبراهيم 35، 36.

والملاحظ أنه أجري على هذه الأصنام صفة العقلاء تذكيرا وتأيينا، حملا على اعتقاد القوم في هذه الأوثان.

---

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا \* وما لكما في اللوم خير ولا ليا

4- أنظر البحر المحيط 286/10.

5- تفسير القرطبي 308/18.

وهناك هندسة عجيبة لمواقع الألفاظ في الجمع بين المختلف والمؤتلف ولا عجب فإن تلك المواقع من تقدير العزيز العليم ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ سورة النساء 82.

فتأمل شيئاً من هذا الرّبط المحكم في آية سورة نوح السابقة:

:-1

﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ﴾  
 ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وُدًّا ﴾

- اتفاق في تكرار أداة النهي والعامل معا  
 - واختلاف في تعميم الأول (آلهتكم) وتخصيص الثاني (ودًّا).

﴿ وَلَا سُوءًا ﴾  
 ﴿ وَلَا يَغُوثَ ﴾

- اتفاق في تكرار حرف النفي وحذف العامل فيهما  
 - واختلاف في الصيغة والمنع من الصرف

﴿ وَيَعُوقَ ﴾  
 ﴿ وَنَسْرًا ﴾

- اتفاق في حذف (لا) والعامل معا.  
 - واختلاف في الصيغة والمنع من الصرف مثل سابقها لكن يختلف عنه في الترتيب.

وفي هذا التدرّج في الذكر والحذف والتكرار ترقُّ في مدارج المعاني، وأسراراً لا تغيض على كثرة التنقيب والتنقيب وتواصل البحث.

## خلاصة عن تكرار (لا):

لقد تبين لنا من خلال تتبع تكرار (لا) في السياق الواحد، أنّ تكرارها متنوعُ الصُّور والمظاهر.

ومن الخطأ المنهجيّ أن نُعاملَ تلك التّماذج على أنّها صورة واحدةٌ تكرّرت فيها (لا) لتوكيد المعاني والأحداث والذوات.

وعلى سبيل التمثيل والتوضيح فهناك صُور عديدة لتكرار (لا) في سياق العطف نُجملها فيما يلي:

1- استقصاء المعنى من كل الجوانب، كما في قوله تعالى:

- ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۖ وَإِنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ۗ طه 118،  
119.

- ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۗ فصلت 34.

- ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۗ البقرة 38 و 62 و 112 و 262 و 274 و 277.

2- نفي المعنى وضده، والمراد المعنى الحاصل من اجتماع الصّفتين، ولا يُستغنى بواحدةٍ منهما عن الأخرى، وهو شبيهٌ بما يُسميه ابن فارس: "من سنّ العرب" أن تنفي الشيء والغرض إثباته، وفي نحو قوله تعالى:

- ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا ۗ الأعلى: 3 وطه: 74. فالمقصود: المعنى الناتج من اجتماعها أو هو صفة بين الوصفين.

- ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ ۗ النور: 35.

3- تأكيد المعنى والإلحاح عليه بنفي مُرادفه إيغالاً واستقصاءً. سواءً كان المنفي حدثاً في مثل قوله تعالى:

- ﴿لَا يُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۗ المدثر: 28.

- ﴿لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى ۗ طه: 77.

أو كان المنفي اسماً أو وصفاً، كما في قوله تعالى:

- ﴿لَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ طه: 112.

- ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ البقرة: 255.

- ﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ الواقعة: 44.

فالمعنى الثاني في الأمثلة الآتية، وإن كان مؤكِّدًا للمعنى السابق، فإنَّه يشتمل على زيادة معنى، وتحقيق انسجام في النظم والمبنى، وهذا على اعتبار أنه لا ترادف حقيقيًا بين اللفظين. بل على اعتبار التغير بين المترادفين مما يستدعي وجوب التمييز بينهما، واستجلاء ملامح الفروق بين: تُبقي وتذر، وتخاف وتخشى، والظلم والهضم.

4- وقد تكون ضرورة الجمع بينهما حين يكتمل المعنى ويتنامى ويتركز ويشتد ويمتد بما يناسبه فيما يليه من مرادفات معنوية كالذي لمسناه في سورة القيامة في الآية: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ التي قال عنها السامرائي: «آية التوكيد أشد من الآية المؤكدة»<sup>1</sup>.

حيث ارتبط بتكرار النفي ما بعده ارتباطا عضويا يتنامى فيه المعنى فترى المكرر المنفي: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ يُؤكِّد بتكرار معناه: (كَذَّبَ وَتَوَلَّى).

وهذه اللفظة الأخيرة تهيء الأذن لجربها لاستقبال جملة الدعاء المكررة بعدها بسبب الاشتراك في المادة اللفظية من (تَوَلَّى) إلى (فَأُولَى) التي تتكرر أربع مرات: ﴿أُولَى لَكَ فَأُولَى ثُمَّ أُولَى لَكَ فَأُولَى﴾ القيامة: 34-35.

كما أن اختيار النفي بـ (لا) دون (ما) النافية له مواطنه ومُناسباته وإن بدا في الظاهر ولأول وهلة أن التعبير بأبيّ منهما يُحقِّق الغرض سواء بسواء.

فلا يفرِّق بين: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ و:

- (ما زاغ البصر ولا طغى) و:

- (لا زاغ البصر ولا طغى).

ولا بين: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَلَا أَنتُمْ بِمُصْرِحِي﴾ ابراهيم 22،

- وقولك: لا أنا بِمُصْرِحِكُمْ ولا أنتم بمصرخي.

1- لمسات بيانية- للسامرائي ص 231.

- و: ما أنا بِمُضْرِحِكُمْ وما أتم بمصرخي .

تلك مواطن دقيقة لاستعمالات (لا) و(ما) تحتاج إلى مزيد من التأمل وفضل من التدبر فمما لا شك فيه أن السياق في الآيات التي نحن بصدد دراسة تكرار النفي فيها قد آثرت (لا) عن (ما) لاعتبارات لغوية وبلاغية عامة تتعلق بدرجة النفي وقوته واعتبارات خاصة دلالية تختلف باختلاف السياق والمقام.

وسأوردُ بعض الملاحظات المستنبطة من التأمل في بعض خصائص النفي بـ (لا) علماً تميز المعالم، وتبرز الفروق بين بعض سياقات النفي المتشابهة.

1- أول هذه الملاحظات أن النفي بـ (لا) آصَلُ مِنَ النَّفْيِ بـ (ما) وأكد وأبلغ لأنها - كما يقول عنها برجشتراسر- أقدم حروف النَّفْيِ في العربية<sup>1</sup>. ثم أنها متمحضة في الدلالة على النَّفْيِ في جميع استعمالاتها؛ بينما (ما) تتجاذبها عدة وظائف أخرى.

ومما يؤكد أصالتها في النفي أيضاً أنها تتعارض معها أدوات النفي الأخرى، وتُتَلَقَّى بها فتنوب عنها حين يقتضي السياق تأكيد النفي وتقديره بين المتعاطفات.

فمن صور هذا التعارض في القرآن الكريم: تعارضها مع (ليس) في قوله تعالى:

- ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ... (91) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ (92)﴾ التوبة.

- ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ الفتح 17.

وموضوع النصين واحد.

وتعارضها مع (لن) في قوله عز وجل:

- ﴿لَنْ نُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ المجادلة: 17.

- ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ﴾ الممتحنة: 3.

والمعنى في الآيتين مُتقارب جداً.

1- التطور النحوي- للأستاذ برجشتراسر- طبعها حمد حمدي البكري 1929- ص 115- عن معاني النحو ص 175.

وتقارضهما مع (لم) في قوله عزّ من قائل:

- ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ النساء 137.

وتقارضهما مع (ما) في قوله تعالى:

- ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ المائدة: 103.

- ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ...﴾ الأحقاف: 26.

وتتقارض مع (غير) في نحو قوله تعالى:

- ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الفاتحة: 7.

- ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ البقرة: 173.

- ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ المائدة: 5.

مع العلم أنّ (ما) أكد في النفي من (لم):

قال تعالى على لسان مريم عليها السلام:

- ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا وَلَمْ أَكُ بِغِيَا﴾ مريم: 20

وقال في شأنه سبحانه وتعالى:

- ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ ق: 38 وهو أمر يتعلق بخلق السموات والأرض وما بينهما.

وقال في حال أهل الجنة الذين حلّوا بدار المقامة:

- ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ 34 الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ

المقامة من فضله لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نِصْبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ 35﴾ سورة فاطر.

وجيء بـ (لا) وهي أعم في النفي وأشمل. وكُرِّرَ اللفظُ (لا يَمَسُّنَا فِيهَا) وجيء

بالمعنى في صورتين: النَّصْبُ واللُّغُوبُ لِيُحْتَضِنَ المعنى من طرفيه إقرارًا بالإنعام

الذي تمّ، والفضل الذي عمّ في مقام الحمد وشكر المنعم.

- و(إن) أكد في النفي من (ما).

- و(ما) تنفي الجمل الاسمية والفعلية .

- و(ليس) تنفي الجمل الاسمية فقط .

- ولا ينفي الجنس من أدوات النفي الأ (لا) .

2- وثاني الملاحظات أنّ (لا) أوسع استعمالاً في الدلالة على النفي؛ إذ تدخل على الأسماء والأفعال وتدخل على المعارف والتكرات، وتدخل على الجمل والمفردات. وهذه الخصوصية تفسّر علّة التقارض في بعض النماذج السابقة.

3- وثالث تلك الملاحظات أنها تختص بمواضع دون أخواتها من حروف النفي فتكون عاطفة نحو: قام زيدٌ لا عمرو

وتدخل على الخبر وما يقوم مقامه نحو: زيدٌ لا شاعرٌ ولا كاتب.

وقول الأعشى:

كَأَنَّ مَشِيئَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا      مَرُّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلٌ

أو النعت: «إنها بقرة لا فارضٌ ولا بكرٌ عَوَانٌ بين ذلك» البقرة:

- «وفاكهةٌ كثيرةٌ لا مقطوعةٌ ولا ممنوعةٌ» الواقعة 32 و33.

- «وظلٌّ من يحموم لا باردٍ ولا كريمٍ» الواقعة 43، 44.

- «من شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ» النور 35.

أو الحال: أقبل الرجل لا مسرعاً ولا متوانياً<sup>1</sup>.

ويُستحسن أن نُنبّه هنا إلى أنّ تكررَ (لا) في المواقع الثلاثة الأخيرة هو على وجه

الوجوب. وذلك أنه يُؤتى بـ (لا) حين يُراد نفي أكثر من خبر أو نعتٍ أو حالٍ، ولا

يصحُّ نفي خبر واحد بها أو نعت واحد أو حال واحدة ولهذا وجب تكرارها.

أما إذا أُريد نفي واحد منها فقط جيء بـ (غير) دون (لا).

1- أنظر: مُعْني اللبيب- لابن هشام ج 1 / 318- 321. وانظر: معاني النحو للسامرائي 4 / 175.

4- ورابعها أنّ (لا) لا تقتصر على زمان دون آخر، وإنما ترتبط بأطواره جميعًا فتدخل على المضارع فيفيد الحال كقوله تعالى:

- ﴿ ما لكم لا تنطقون ﴾ الصافات: 92.

- ﴿ ما لي لا أرى الهدهد ﴾ النمل: 20.

- ﴿ فما لهم لا يؤمنون ﴾ الانشقاق: 20.

أو يفيد الاستقبال نحو قوله تعالى:

- ﴿ ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يذكهم ﴾ البقرة: 174.

أو يفيد الاستمرار كما في قوله تعالى:

- ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ البقرة: 255.

- ﴿ لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها ﴾ البقرة: 285.

- ﴿ لا يحبُّ الله الجهرَ بالسُّوء من القول إلا من ظلم ﴾ النساء: 148.

وتدخل على الماضي قليلا فيجب تكرارها على القول الأشهر كما في آية سورة القيامة (فلا صدق ولا صلى) وفي الحديث الشريف (فإنَّ المنبتَّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى)، ولما جاءت غير مكررة في قوله تعالى: (فلا اقتحم العقبة) حُرِّجَتْ بعدة أوجه أوردها المرادي في الجنى الداني<sup>1</sup>.

ولا يجب تكرارها إذا أريد بالماضي الاستقبال في سياق القسم أو الدعاء نحو

قولهم:

والله لا عدتُّ إلى التهاونِ أبدًا ← لدلالته على الاستقبال.

لا أراك الله مكروها ولا فضَّ فوك ولا خابَ رجاؤك ← لعدم قصد المُضِيِّ.

ولقد أوقفنا تثبُّع استعمالات (لا) على أحكام جليلة ودقيقة تتعلَّق بتكرار النَّفْيِ بـ

(لا) على سبيل الوجوب أو الجواز.

1- أنظر: الجنى الداني - للمرادي ص 297 - 299.

لقد كادت تُجْمَعُ كُتُبُ النحو واللغة على وجوب تكرار (لا) في المواقع الآتية<sup>1</sup> :

1- إذا دخلت على الجملة الاسمية صدرها معرفة نحو قوله تعالى:

- ﴿ لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدركَ القمرَ ولا الليلُ سابقُ النهارِ وكلُّ في فلكٍ يسبحون ﴾  
يس: 40.

وقوله عز وجل:

- ﴿ لا هُنَّ حلٌّ لهم ولا هم يحلونَ لهنَّ ﴾ الممتحنة: 10.

2- وإذا دخلت على جملة اسمية تقدم فيها الخبر كقوله تعالى:

- ﴿ لا فيها غولٌ ولا هم عنها يُنزفون ﴾ الصافات: 47.

بخلاف موقعها في قوله تعالى:

- ﴿ لا لغوٌ فيها ولا تأثيم ﴾ الطور: 23. فإن تكرارها على سبيل الجواز لدخولها على التكرة  
وسواءً أعملت فيها أو لم تعمل. كما في قوله تعالى:

- ﴿ لا بيعٌ فيها ولا خلةٌ ولا شفاعَةٌ ﴾ البقرة: 254، بفتح ما بعد (لا) على قراءة أبي عمرو  
بن العلاء وابن كثير<sup>2</sup>.

3- وإذا دخلت على المفرد الواقع خبراً أو حالاً أو نعتاً في مثل قوله عز وجل:

- ﴿ وفاكهةٌ كثيرةٌ \* لا مقطوعةٌ ولا ممنوعةٌ ﴾ الواقعة: 32، 33.

- ﴿ وظلٌّ من يحمومٍ \* لا باردٍ ولا كريمٍ ﴾ الواقعة: 43، 44.

- ﴿ وظلٌّ ذي ثلاثِ شعبٍ لا ظليلٍ ولا يُغني عن اللهبِ ﴾ المرسلات: 30.

وقد سبقت الإشارة إلى أنّ هذه من المواقع الخاصة بـ (لا) دون أخواتها في

التنقي.

1- أنظر: مُغني اللبيب 1/ 319. ورفص المباني 332. ومعاني النحو 4/ 177.

2- أنظر: رصف المباني ص 335.

4- أو دخلت على جملة فعلية فعلها ماض لفظاً ومعنى كقولنا: لا راح ولا غدا، لا قام ولا قعد. ونحو قوله تعالى: ﴿فلا صدق ولا صلى﴾.

وهذا القيد حملَ جُلَّ المفسرين والثَّحاة منهم على الخصوص، على تقدير تكرر (لا) في قوله تعالى: ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ أو بتأويل الفعل الماضي بالدلالة على الاستقبال.. أو بتأويل المعنى بدلالة آخر الكلام: ﴿ثمَّ كانَ من الذين آمنوا...﴾ الذي أغنى عن تكرارها وقام مقام التكرير كأنه قال: فلا اقتحم العقبة ولا آمن<sup>1</sup>. قاله الفراء والزجاج وتلقفها الزمخشري فقال عن (لا) في الآية: (هي متكررة في المعنى؛ لأنَّ معنى ﴿فلا اقتحم العقبة﴾: فلا فكَّ رقبة، ولا أطعم مسكيناً؛ ألا ترى أنه فسّر اقتحام العقبة بذلك)<sup>2</sup>.

ومن لم يُقدِّر تكررًا، حملَ الفعلَ على الاستقبال أو انه للدعاء تخلصًا من تقدير مكرر.

وذهب بعضهم إلى أنَّ (لا) للتضيض بمثابة (ألا).

و تدلُّ هذه التخريجات المختلفة على وجوب تكرارها عندهم إذا دخلت على الماضي إذا دخلت لفظاً ومعنى فلا يجوز أن تسقط من اللفظ.

ومن الطريف أن هناك مواضع بالمقابل، تتكرر فيها (لا) ويجوز حذفها أو تأويلها. أو يحكم عليها بالزيادة، فقد تتكرر (لا) قبل القسم توطئةً للجواب في نحو قولك: لا والله لا يقوم زيد. وقيل: إن من هذا الباب قوله تعالى:

﴿فلا وربك لا يومنون﴾ و﴿لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ وربما قالوا: إن (لا) الأولى زائدة؛ غير أن تخريجها أولى من جعلها زائدة في أول الكلام ومُفتتحة، إذ الزيادة مع التقديم متناقضتان<sup>3</sup>؛ لأن التقديم والصدارة اعتناء، وأن الحذف والزيادة استغناء.

1- أنظر: البحر المحيط 10 / 482. وانظر: الجنى الداني ص 289.

2- الكشاف: 4 / 256.

3- أنظر: رصف المباني ص 332.

ومن أعدل الأقوال في هذا الباب أن (لا) النافية التي تصدرت القسم نابت  
مناب كلامٍ متقدمٍ عليها تقتضي نفيه مُقدِّراً، لدلالة ما بعده عليه)<sup>1</sup>.

وكأنَّ المعنى: ليس كما تقولون، ثم أقسمَ بعد ذلك.

أو هي على ظاهرها نافية لما بعدها، وأنَّ منفيها (أقسمُ) وكأنَّ المقامَ إعظامٌ فوق  
الاقسام.

ومن المواطن التي يجوز إعادة (لا) من الوجهة التركيبية لا البلاغية البيانية ما  
عُطِفَتْ به (لا) على واو المعية أو واو الصرف كما يُسميها الكوفيون في مثل قوله أبي  
الأسود الدؤلي:

لا تنه عن خلقٍ وتأتي مثلهُ عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ

يقول الفراء: (ألا ترى أنه لا يجوز إعادة (لا) في "تأتي مثله" فلذلك سُمِّيَ صرفاً  
إذ كان معطوفاً ولم يستقم أن يُعادَ فيه الحادث الذي قبله)<sup>2</sup>.

لأنَّ إعادةَ هنا يجعل الواو حرفَ عطْفٍ على المجزوم (لا تنه) وهي هنا في  
موضع نصبٍ (وتأتي).

ونشيرُ بالمناسبة إلى أن المواضع التي تحملُ على التأمُّل وإعمال الفكر في تخرِج  
(لا) هي المواضع التي تحملُ ذكر (لا) وحذفها؛ لأن ذلك جائز من جهة التركيب.

بيد أنك ترى كثيراً من الباحثين يقتصر في التحليل على التعليق عليها بتقدير  
(لا) إنَّ حُذفت، وبالإشارة إلى جواز حذفها إن ذُكرت، ولا يتعنَّى استخراج المعاني  
التي أضفاها حضور (لا) في السياق، ولا المعاني التي تغيض إذا غابت وحُذفت.

وأنكر من هذا - في تقديري - دعوى زيادة (لا) لفظاً ومعنى، لحل مُعضلة المعنى  
حين يستغلُّ الفهم ويستعصي إجراء المعنى على ظاهر اللفظ. وهو إغفال تام للقاعدة  
الأصولية في اللغة: إنَّ الأصل مُطابقة المعنى للفظ، وتكثيرُ اللفظ بتكثير المعنى.

1- أنظر المصدر السابق.

2- معاني القرآن - للفراء 1/ 34. وانظر: معاني النحو 3/ 332.

وبين يدي تحليل بعض النماذج التي وردت فيها (لا) على وجه الجواز، واستند فيها بعضهم على دعوى الزيادة المحضة أو الزيادة للتأكيد في أعدل الأحوال وأنصف الأقوال.. متوخيًا الوقوف على أسرار التعبير.

بين يدي ذلك أحب أن أوضح جوانب علمية تتعلق بمفهوم الزيادة عند النُّحاة وعلماء اللغة حتى لا يُفسَّر ما نرمي إليه على غير وجهه.

ذلك أن القدماء من علماء اللغة لاحظوا أن بعض حروف المعاني ترد أحياناً في الكلام كالمهملة حين يُلغى عملها، ويختفي أثرها في المعنى، فيضحي دخولها كخروجها، ولا يتغيَّر بها أصل المعنى الثابت، فأطلقوا عليه الحروف الزوائد، وأشهرها ستة حروف هي: إن، وأن، وما، ومن، ولا، والباء.

وسمَّها البصريون: "حروف الزيادة والإلغاء".

وسمَّها الكوفيون: "حروف الصلة والحشو"<sup>1</sup>.

ويُطلق سيبويه على زيادة هذه الحروف اسم "اللغو" لأنها لم تُحدث شيئاً من العمل لم يكن قبل دخولها سوى توكيد الكلام<sup>2</sup>. ويزيد الصيرفي ذلك بيانا فيقول:

(بين سيبويه عن معنى اللغو في الحرف الذي يسمونه لغوا وبين أنه للتأكيد، لألاً يظنَّ إنسان أنه دخل الحرف لغير معنى البتة، لأن التوكيد معنى صحيح، ومذهب غيره أنها زِيدت طلباً للفصاحة)<sup>3</sup>.

ثم يأتي رضي الدين الاسترأبادي (686هـ) فيلخص ويوضح فيقول: (فائدة الحروف الزوائد في كلام العرب إما معنوية وإما لفظية، فالمعنوية تأكيد المعنى... وإنما سميت زائدة لأنها لا يتغير بها أصل المعنى بل لا يزيد بسببها إلا تأكيد المعنى الثابت وتقويته...)

1- أنظر: الأشباه والنظائر 1/ 253.

2- نفس المصدر ص 254.

3- نفسه 1/ 253.

وأما الفائدة اللفظية فهي تزيين اللفظ، وكونه بزيادتها أفصح أو كون الكلمة أو الكلام بسببها مهيأً لاستقامة وزن الشعر، أو حسن السجع أو غير ذلك من الفوائد اللفظية)<sup>1</sup>.

ولا يجيزُ الرّضي الحُكْمَ على الحروف بالزيادة لغير معنى فيقول عنها: (ولا يجوز خلؤها من الفوائد اللفظية والمعنوية معاً، وإلا لعدت عبثاً، ولا يجوز ذلك في كلام الفصحاء، ولا سيما كلام الباري تعالى وأنبياؤه عليهم الصلاة والسلام)<sup>2</sup>.

ونجد السيوطي بعد ذلك يستنكر ويعجب ممن يقول بزيادتها بلا معنى بعدما تبين أنه يتوسل بها (إلى الفصاحة والتمكّن وتوكيد المعنى وتقديره في النفس)<sup>3</sup>.

وحدّ الإلغاء والزيادة في الحرف هو أن لا يكون الحرف عاملاً ولا معمولاً فيه ولذلك استغرب ابن السراج زيادة حروف الجر لأنها عاملة. ولذلك يرجح أنها دخلت لمعانٍ أخرى غير التأكيد.

حقاً إن معنى التوكيد معنى عامّ تُنشئه حروف الزيادة، لكنّ الشأن في استنباط المعنى الخاص الذي أفادته زيادة الحرف المُعين في السّياق المُحدد.

فضلاً عن الانسجام اللفظي الذي تُحدثه تلك الزيادة، ولا سيما في نصوصٍ قويمَةٍ القصد والنّهج، مُحكّمة البناء والنّسج.

ولقد كان ابن جرير الطبري - رحمه الله - بالمرصاد لكل من يعتمد دعوى الزيادة في تفسير آيات الذكر الحكيم. ويُصرّح في مواطن عديدة من تفسيره (أنه غير جائز أن يكون في كتاب الله شيء لا معنى له)<sup>4</sup>.

ويقول عن (لا) في قوله تعالى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ التي اعتبرها أكثر المُفسّرين زائدة، يقول عنها إنها (عمدة في الكلام)<sup>1</sup>.

1- نفسه 1 / 255.

2- نفسه 255.

3- نفسه ص 254.

4- تفسير الطبري 3 / 19. وانظر: لطائف المنان ص 72.

ويسير على نهجه في رفض الزيادة الفخر الرازي في تفسيره الكبير، وفي العصر الحديث نجد الشيخ محمد عبده يرفض القول بالزيادة رفضاً حاسماً، بل يرى أن تحكيم المذهب النحوي في القرآن: (وإن أخلّ ذلك ببلاغته، جراءة كبيرة على الله تعالى)<sup>2</sup>.

وكذلك فعلت الدكتورة عائشة عبد الرحمن فزراها تقول عن زيادة الباء في خبر (ليس) و(ما) على سبيل المثال: (إن هذه الباء ظاهرة أسلوبية في كتاب الله تعالى، لا ينبغي أن تشوبها شبهة زيادة، وأنها تُركت في بعض الآيات القليلة لهدف بياني، وغرض بلاغي<sup>3</sup>).

ومنهج هؤلاء في الغالب في تخرّيج الآيات دون القول بالزيادة، يكون إما بتضمين الفعل المتعلّق به مع ما ينسجم مع اعتبار النفي، وإما بتقدير محذوفٍ يعملُ في (لا)، أو بتأويلٍ صائبٍ وفهمٍ راجحٍ يفتح الله به دون تصرّفٍ في اللفظ بزيادة أو حذف.

---

1- أنظر: تفسير الطبري 8/ 96.

2- تفسير المنار 3/ 84.

3- لطائف المنان ص 80.

# الفصل الخامس

ملاح شخصية السورة  
وبعض أسرارها  
من خلال ما تكرر فيها

## التكرار وشخصية السور:

إن التكرار شديد الصلة بروح السورة التي يتبوأ موقعاً فيها، وبه يُمكن تحديد ملامح شخصية السورة العامة، فكل مخالفة تُلاحظ ضمن ما تكرر، ملائمة للّب السورة ومضمونها، فهو استجابة لمسار السورة ومقاصدها.

ويكاد يكون التكرار المتبادل بين السور عيّنةً مميزة تلمح فيها الخصائص العامّة المشتركة بين السور، والخصائص الفارقة بينها.

فما كان في المتشابه من اتفاق، دلّ على سمة التقارب، والتشابه في جوانب، وما كان فيه من تغاير واختلاف فهو آية ما بين السورتين من تمايز وافتراق .

وكذلك تجد ما فُصلَ في السورة من تكرر، أُجملَ في غيرها، يسري مضمونه في سائر مفاصل السورة، وعليه ينتظم هيكلها العام.

فيمكن تصور ملامح السورة بمجرد التوسّم في ما حظيت به من تكرر وخُصّت به من تشابه.

فَتأمّل التشابه الوارد بين سورة البقرة وسورة الأعراف وسينكشف لك ما بين السورتين من تناسب استوجب ذاك التشابه كقصة آدم وإبليس وقصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، كما يتكشف لك ما بينهما من اختلاف يُناسبه ذلك التصرف في المتشابهين بزيادة أو نقص أو بتقديم أو تأخير أو طي موقف أو عبارة .. وهي فروق بين المتشابهات تُناسب وضع السورة العام وموقع السّياق الخاص .

فالتشابه الواقع بين السورتين يُنبئ أنّ بين البقرة والأعراف صلوات قرابة حميمة فمثلا من بين هذا التقارب الذي واكب التشابه:

1- أنّ كلا السورتين مُفتتح بالأحرف المقطعة: (الم)، (المص) .

2- وكلاهما مُفتتح بالألف واللام والميم .

3- وكلاهما من السور الطّوال .

4- وكلاهما يتجاوز عدد الآي فيها المئتين .

- 5- وكلاهما واقع بعد سورة من سور الحمد.
  - 6- وكلاهما مطلع الربع وبدايته.
  - 7- وكلاهما تضمّن قصّة آدم مع إبليس..
  - 8- وكلاهما تناول قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل بشيء من التفصيل.
- كما نلمح تمايزًا يتخلل هذا التشابه يتناسبُ والفروق العامّة بين السورتين فمن تلك الفروق:

- 1- أنّ مفتح سورة الأعراف فيه زيادة (ص).
- 2- وسورة البقرة أطول من الأعراف بما يُقاربُ الضّعف من حيث الحجم.
- 3- وعدد آي البقرة: 286 [285] والأعراف: 207.
- 4- وهناك فرقٌ واضحٌ بين سورة الحمد أمّ الكتاب والحمد سورة الأنعام ! وهما مستند السورتين.
- 5- البقرة مطلع الربع الأول، والأعراف مطلع الربع الثاني
- 6- وفي قصة آدم وإبليس وموسى وبني إسرائيل مع ما بينهما من اتفاق نلاحظ مظاهر الافتراق: في الطي والذكر والتفصيل والإجمال والتصرف بالتغيير والتبديل وتبادل المواقع.

### 1- التشابه والاختلاف بين السورتين: قصة آدم وإبليس:

ففي قصة آدم عليه السلام ذكر الحوار مع الملائكة في البقرة وضرب عنه صفحًا في الأعراف، بينما أجمل الحديث عن إبليس في البقرة وفُصّل فيه في الأعراف. وهذا الذكر والإجمال وذاك الطي والتفصيل يرشدنا إلى تصوّر هندسة السورة ومخططها العام. فتخصيص سورة البقرة بحوار الملائكة حول شأن خلق آدم دون سورة الأعراف وإجمال قصة إبليس فيها، مقابل تفصيلها في سورة الأعراف، له دواعٍ اقتضتها رعاية المعاني المناسبة لما تمليه مضامين السورتين وأغراضها.

إذ شتان ما بين الصنفين فإبليس يملأه الحسدُ وينفخه العُجب والكبر، وله صولٌ وجولٌ في سورة الأعراف.

ويلاحظ في خطاب آدم عليه السلام بين السورتين بعض الاختلاف وهو من سمات التَّمييز مع شدّة التشابه:

ففي البقرة: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) ﴾.

وفي الأعراف: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (19) ﴾.

فتلاحظ في البقرة خطاب التشريف والتكريم بعد الإنعام عليه بتعلّم الأسماء كلها ويبرز في الآية هنا:

1- في عطف "وقلنا" على خطاب الملائكة قبله:

﴿وإذ قلنا للملائكة... (34)﴾

﴿وقلنا يا آدم... (35)﴾

بينما في الأعراف سبق خطاب آدم:

﴿ويا آدم اسكن...﴾ بخطاب إبليس مرّتين فكان بمثابة المعطوف عليه:

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا... (14)﴾

﴿قال اخرج منها مذءوما مدحورا... (18)﴾ وهو مناسب لخطاب التقرير

والتأنيب بينما تأخر خطاب إبليس في البقرة ولم يصرّح به وإنما ورد ضمن خطاب آدم وحواء مرتين أيضا:

﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو... (36)﴾ البقرة

﴿قلنا اهبطوا منها جميعا... (38)﴾ البقرة

2- وإبراز لفظة " رعداً " في البقرة دون الأعراف، غداً مؤشراً لذلك التكريم لآدم والإنعام على بني إسرائيل ﴿ يا بني إسرائيل أذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين ﴾ وهو مملح خاص بسورة البقرة.

فتأمل اللفظة في الآيتين وفي الموقعين:

ففي البقرة خاطب آدم وحواء: ﴿ وكلا منها رعداً حيث شئتما ﴾ (35)  
وفي خطاب بني إسرائيل: ﴿ وإذا قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رعداً...58 ﴾

غير أنه قدمت " رعداً " في الأولى وأخرت في الثانية؛ لأن الأولى في الجنة والثانية في القرية ... ونعيم الجنة أوفى وأرغد وأوفر.

بينما طوي " الرعد " في الأعراف ﴿ فكلا من حيث شئتما...19 ﴾

﴿ وإذا قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم...161 ﴾ الأعراف  
لأنّ المقام قد تغير فأصبح الحديث عنهم ﴿ وإذا قيل لهم ... ﴾ بعد أن كان الخطاب موجهاً إليهم في البقرة ﴿ وإذا قلنا ادخلوا هذه القرية ... ﴾.

3- وكذلك المعنى المستفاد من المغايرة بين الفاء والواو في الآيتين ﴿ وكلا ﴾ في البقرة و﴿ فكلا ﴾ في الأعراف.

يقول بدر الدين بن جماعة(733): « قيل إنّ السكنى في البقرة للإقامة وفي الأعراف اتخاذ المسكن <sup>1</sup> »

وذلك أن الفاء تقتضي الترتيب. والواو لا تقتضي ذلك.

ويذكر السامرائي أن الواو أدل على سعة الاختيار وأرحبُ زمنًا من الفاء، وهو المناسب لمقام التكريم <sup>1</sup>.

1- كشف المعاني في المتشابه من المثاني- لبدر الدين بن جماعة، ص: . وأنظر أسرار التكرار للكرمانى، ص: 26.

والملاحظ أنه وقعت المغايرة بين الواو والفاء على العكس من هذا في خطاب بني إسرائيل بين السورتين.

فجاء بالفاء في البقرة: ﴿ وَإِذَا قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا (58) ﴾

وبالواو في الأعراف: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ - حَسُنْتَ الْفَاءَ هُنَا الَّتِي تَفِيدُ التَّعْقِيبَ فِي الْبَقْرَةِ لِأَنَّهَا مُرْتَبِطَةٌ بِالدَّخُولِ "ادْخُلُوا" وَالْأَكْلَ مُهَيِّئًا عَقِبَ الدَّخُولِ بَلَا تَرَخٍ وَهُوَ وَجْهٌ مِنَ الْإِكْرَامِ وَالاجْتِبَاءِ. بَيْنَمَا ارْتَبَطَتْ فِي الْأَعْرَافِ بِالسُّكْنِ وَالْإِقَامَةِ.

وقد لوحظ أن ما وردَ من قصة إبليس وردَ مُفَصَّلًا فِي السُّورِ الْمَكِّيَّةِ: فِي الْأَعْرَافِ وَالْحَجْرِ وَالْإِسْرَاءِ وَالْكَهْفِ وَطِهٍ وَصٍ وَمَا جَاءَ فِي الْبَقْرَةِ وَهِيَ مَدِينَةٌ أَجْمَلَةٌ وَهُوَ أَمْرٌ مَنْطِقِيٌّ فَبِاعْتِبَارِ السَّبْقِ الزَّمَنِيِّ مَا فُصِّلَ سَابِقًا تَكْفِي فِيهِ الْإِشَارَةُ وَالْإِجْمَالُ لَاحِقًا . وَبِاعْتِبَارِ التَّرْتِيبِ الْمَوْضِعِيِّ هُنَاكَ مَنْطِقُ الْإِجْمَالِ ثُمَّ التَّفْصِيلُ وَلِهَذَا كَانَ التَّبَادُلُ بَيْنَ التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ فِي السُّورَتَيْنِ فَقَدْ أَجْمَلَ الْحَوَارَءَ مَعَ إِبْلِيسَ فِي الْبَقْرَةِ وَفُصِّلَ فِي الْأَعْرَافِ وَذَكَرَ الْحَوَارَءَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ فِي الْبَقْرَةِ وَطُويَ فِي الْأَعْرَافِ وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الصَّنْفَيْنِ إِبْلِيسَ يَمْلَأُهُ الْحَسَدُ وَالْعُجْبُ وَالِاسْتِكْبَارُ وَالْمَلَائِكَةُ تَغْمُرُهُمُ الطَّاعَةُ وَالِاتِّمَارُ وَهُوَ مَلَأَتْهُمُ سُورَةُ الْبَقْرَةِ فَقَدْ سُمِّيَتْ سُورَةُ الْمُتَّقِينَ لِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ مَعَانِي التَّقْوَى.

تلك وقفات متشابهات وقفناها في سورة البقرة ونقفها هنا في سورة الأعراف ولكنها وقفات من نوع آخر ملائم للمقام الجديد ومسيرة لروح السورة.

فهنا في سورة الأعراف نقف على العداوة المتأصلة في إبليس لبني آدم والخبث والكيد والتزيين، واعتراض الطريق المستقيم والعمل على إشقاء بني آدم وإحزانهم في الدنيا والآخرة وليس له وجهة يؤلِّبها إلا هذه فلا خيرَ فيه مطلقا.. ولذلك تؤكد سورة الأعراف على الحذر من مكائده والتنبيه من مصايده فإنه يقطع الطريق الموصل إلى

1- أنظر التعبير القرآني- للدكتور فاضل صالح السامرائي، ص: 291. ط3: 1425هـ / 2004م. دار عمار- عمان- الأردن.

الجنة فتكشف السورة عن مصير الناس وحالهم في الآخرة وقد نال اللعين من كثير منهم بإغوائه وتزيينه.

كما تكشف عن حقيقة هذا العدو وما يُضمره وعن سلوكه وديدنه من غير ملل ولا فتور:

- حسد آدم وتكبر وعصى ربه.
- وأكد بالآيمان المغلضة: لأغويهم أجمعين.. لأقعدن لهم صراطك المستقيم
- المناوشة عن الآيمان والشمائل من بين الأيدي والخلف
- صرفهم عن الشكر والذكر ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ ولذلك: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾

ثم جاءت السورة بجوانب تطبيقية، يتمثل النموذج الأول في: وسوسة الشيطان لآدم وزوجه وصدّهم عن السبيل فأنساها وصية رب العالمين وهذا ورد مجملًا في سورة البقرة مفصلاً هنا في الأعراف .  
ففي البقرة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا (36)﴾ فأبعدهما عنها.  
وفي الأعراف: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ... وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ... (20) وَقَاسَمَهُمَا... (21) فَذَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ (23)﴾ الأعراف.

- ثم بنماذج من الكيد، من قعود الشيطان بالصرط المستقيم: الإغواء - المناوشة عن اليمين والشمال - صرفهم عن الشكر؛ حيث تطالعك السورة بالحديث عن قصة آدم مع إبليس ولا تكاد تختتم حتى يُسفر لنا عن كيفية الوقاية والتخلص من كيد الشيطان ونزغه وهمزه باللجوء إلى الله تعالى بالاستعاذة بالله منه ﴿وَأَمَّا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200)﴾ الأعراف. والاعتصام بالذكر ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (201)﴾

وكذلك نلاحظ في هذه السورة الإلحاح على السجود حيث يُبرزُ عدمَ سجود إبليس وامتناعه عنه تكبراً وعصياناً؛ إذ لم يذكر في سورة البقرة امتناعه عن السجود إلا متضمنًا في: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ (34)﴾، بينما في الأعراف يبرز صريحًا ويلجُّ على إظهار الامتناع من السجود مع وجود الأمر ود.

- ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ (12)﴾. وهي في هذا شبيهة بما في الحجر...

ولذلك كان من المناسب جدًّا أن تختم السورة بذلك الصنف المحتبى الذين أبرز ما يُميّزهم السجود وعدم الاستكبار:

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (206)﴾

وقد وقع هذا ختامًا للسورة ومفتتحًا للسجودات بعدها باعتبارها أول سجدة في القرآن عند بلوغها يخرُّ المومنون للأذقان سُجَّدًا خاشعين .

وفي أعماق السورة بينَ ذلك المفتتح وهذا الختام يستوقفنا سجود السحرة للحق لما تراءى لهم رأي العين ولم يستكبروا على الحق لما سطع.

وكأنَّ في هذه السورة إيماءً إلى أولئك الذين يسهون عن صلاتهم وهي التي أساسها السجود أنهم قد وقعوا في شرك الشيطان وإضلاله بل تشبهوا به في ترك السجود والخضوع. كما أن في حنايا السورة يكشف ربُّنا دسائس إبليس ومكائده وإضلاله لكثير من الإنس والجنّ .

وفي الأعراف لما فصل في قصة آدم والشيطان ليبرز لنا أن الشيطان سبب الضلال والفتن، جعلَ ذلك عبرة لكل بني آدم، عليهم أن يستصحبوها في كل المواقف فإنَّ العداوة بيننا وبينه أصيلة صراعها لا يهدأ: وسوسة وإغواء وتضليل:

- ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ (26)﴾ الأعراف.

وهناك من يُعرض عن هذا التوجه الربّاني فيتحوّل بعض القوم إلى شياطين من الإنس يقومون بما اختص إبليس بفعله وآلى ألا يتركه إلى يوم الدين، ونذر أن يقوم به

على الوجه الأكل والأمثل ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (16). أنظر شعيبا عليه السلام وهو يُشير إلى صِنْفٍ من قومه يعترضون الصراط المستقيم تمامًا مثل الذي تكفل الشيطان به:

- ﴿ولا تقعدوا بكل صراطٍ تُوعدون وتصدون عن سبيل الله من ءامنَ به وتبغونها عوجًا﴾ (86) ﴿وتبرز سافرةً صورة الإنسان الشيطان:

- ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُفْصِرُونَ﴾ (202)﴿

وهو يصطاد كل مَنْ عصفت به رياح وساوسه واضطرب إيمانه وهيمت الشكوك على قلبه فيأخذه في تلك الغمرة ولا ينظره إلى جلوة:

- ﴿وَإِذْ عَلِمْنَا نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (175)﴿ الأعراف. ولم يمهل ليتدبّر ويتذكّر فيبصر..

## 2- التشابه والاختلاف بين السورتين: قصة موسى مع بني إسرائيل:

وفيما يتعلق بقصة موسى مع بني إسرائيل بين سورتي البقرة والأعراف نلاحظ التشابه الذي يكاد يكون تماثلًا تامًا إلا أنّ هناك فروقًا أملتها روح السورة واقتضاها المقام الجديد،

ففي: سورة البقرة الحديثُ مُوجّه إلى بني إسرائيل مباشرة إذ يستوقفك مرارًا الخطاب:

- ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ونلمحه في أسلوب المخاطبة:

- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى﴾ البقرة 55 و 61.

- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾

- ﴿وَوَضَعْنَا عَلَىكُمْ الْعِمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى﴾ البقرة 57.

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا...﴾ البقرة 58.

- ﴿...وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ يُغْفَرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ البقرة 58.

قيل إن السياق يُوحى بأن الأمر اختياري في التقديم والتأخير وإن كان إجباري التنفيذ. إذ الواو غير ملزمة بمراعاة الترتيب: بين الدخول سُجَّدًا وبين القول "حطّة".

بينما في: سورة الأعراف جاء ذكر القصة للاتعاظ وكان الخطاب لأهل الكتاب الذي هم بين يدي رسول الله ﷺ تذكيرًا ووعظًا . وكأنهم هم الذين يروون هذه الأخبار حين يسألون عنها خبرًا خبرًا كما صرَّح بذلك: ﴿ وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ (163) ﴾. إذا هو يصوِّر المشاهد ويبرز المواعظ:

وفي سورة الأعراف أيضًا جاء الحديث مؤكَّدًا مكرَّرًا عن نبوَّة محمد ﷺ ورسالته ﴿ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158) ﴾.

وقبلها وغير بعيد أكد أن رحمة الله الواسعة ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ (157) ﴾ موسومًا بأوصاف خلقية عالية ثم جاء الخطاب للناس مع التنويه بأن من قوم موسى أمة عادلة مهتدية والسياس في معرض الإخبار عن بعض الأحداث والمواقف لبني إسرائيل:

- ﴿ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْعَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى (160) ﴾  
- ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ (161) ﴾ الأعراف.

وهكذا فبقدر ما بين السورتين من التلاؤم والتوافق فيهما من التمايز والتمايز فحجاء من التبدل والتغيير ما يُناسب الجديد فمن ذلك التمايز:

- ﴿ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ البقرة 59.

- ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ الأعراف 162.

- ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا ﴾ البقرة 59.

- ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا ﴾ الأعراف 162.

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ البقرة 58.
- ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ الأعراف 161.
- ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ البقرة 58.
- ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ الأعراف 161.
- ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ البقرة 58.
- ﴿وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ الأعراف 161.
- ﴿وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ البقرة 58.
- ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الأعراف 161.

أشار إلى هذا الاختلاف والتشابه ابن جماعة في المسألة التاسعة عشر وحاول الإجابة عن اختلاف ألفاظ الآيتين، وفائدة مناسبتها مع قصد التنويع في الخطاب، فقال: <sup>1</sup> أما آية البقرة: فلما افتتح ذكر بني إسرائيل بذكر نِعْمَةٍ عَلَيْهِمْ بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ناسب ذلك نسبة القول إليه، وناسب ذلك نسبة القول إليه، وناسب قوله (رغدا) لأن النعم به أتم.

وناسب تقديم ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾، وناسب ﴿خَطَايَاكُمْ﴾ لأنه جمع كثرة، وناسب الواو في ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ لدلالاتها على الجمع بينهما وناسب الفاء في ﴿فَكُلُوا﴾ لأن الأكل مترتب على الدخول فناسب مجيئه بالفاء .

وأما آية الأعراف: فافتتحت <sup>2</sup> بما فيه توبيخهم وهو قولهم:

- ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ ثم (اتخاذهم العجل)، فناسب ذلك: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ وناسب ترك ﴿رَغَدًا﴾ والسكني بجامع الأكل، فقال: ﴿وَكُلُوا﴾ وناسب تقديم ذكر مغفرة الخطايا، وترك الواو في ﴿سَنَزِيدُ﴾

وفي المسألة الثلاثين:

1- كشف المعاني - لابن جماعة - ص: 96-97.

2- أي قصة موسى مع بني إسرائيل بعد نجاتهم وخلصهم من فرعون وتفرغه لدعوة قومه .

- ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾  
وفي الأعراف: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ وقال ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾  
وقال هنا ﴿يَفْسُقُونَ﴾ وفي الأعراف: ﴿يُظْلِمُونَ﴾.

كان جوابه:<sup>1</sup>

لما سبق في الأعراف تبعيض الهادين بقوله: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾  
(159) ﴿نَاسٌ تَبْعِيضَ الظَّالِمِينَ مِنْهُمْ بقوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ ولم يتقدم مثله في  
البقرة.

وقوله عليهم ﴿عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، ليس فيه تصريح بنجاة غيرهم.

وفي البقرة إشارة إلى سلامة غير ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ لتصريحه بالإنزال على  
المتَّصِفِينَ بِالظُّلْمِ والإرسال أشدُّ وقعًا من الإنزال.  
فناسب سياق ذكر التَّعْمَةِ ذلك في البقرة .

وختم آية البقرة بـ ﴿يَفْسُقُونَ﴾ ولا يلزم منه الظلم، والظلم يلزم منه الفسق،  
فناسب كل لفظٍ منها سياقَه.<sup>2</sup>

قلتُ من خلال التأمل في الآيات والأقوال نلاحظ حقًا تلاؤمًا بين التغيرات  
والمقام ففي مقام ذكر المنن والتذكير بالنعمة في البقرة جاءت الألفاظ والعبارات لتواكب  
وتعبر:

فانفجرت (بعد أن كانت فانبجست في الأعراف) - ورغدا المعبر عن العيش  
الهنيء ولا أثر لها في الأعراف حيث خفيت.  
وكذلك الأمر في مقام التأنيب والتوبيخ والتفريع:

1- كشف المعاني - لابن جماعة - ص: 98.

2- ص 96-98. الطبعة 1990.

تعداد تلك المواقف المُنبتة على عدم شكر النعمة وعدم الامتثال للأوامر، وعلى فعل المنكرات مع النعم التي تترى وتتوالى من كل جانب...فناسب هنا الجحود والنكران ذكر التفاصيل عند ايراد النعم وإبرازها وذلك لغرضين اثنين:  
تأنيسا وتذكيرا وموعظة، وزجرا وتقريعا واستهانة وتنكيلا...  
﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ البقرة 66.

## شخصية السورة من خلال تحليل تكرار آية القبلة:

إن من التكرار في القرآن الكريم ما ليس لمجرد التكرار والتوكيد كما هو الظاهر المعهود، وإنما يأتي لمعان عميقة لا تتجلى إلا بالتدبر الكافي والتأمل الواعي، إذ تشبكت بذلك التكرار أفكاراً، وتلتف حوله معانٍ، التفاف الأغصان والفروع بشجرتها .  
وذلك إذا ارتبط التكرار بالمعنى الغزير العميق، كتكرار آية القبلة، كلما أردت حصر المعاني فيها تفتقت لك عن أخرى وراءها وطالعتك بما لم يتكشف من قبل في الوهلة الأولى .

وحتى تستبين هذه الحقيقة نورد الآيات التي ورد فيها ذاك التكرار:

- ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ. (144)

لئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين. (145)

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147) وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. (148)  
وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ. (149)

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150). سورة البقرة: 144-150

نلاحظ في هذا النص الكريم:

" فول وجهك " تكررت ثلاث مرات

" ومن حيث خرجت " تكررت مرتين

" وحيثما كنتم فولوا " تكررت مرتين

والملاحظ هنا أنه ليست هناك عبارة كاملة مستوفاة مكررة بكل جزئياتها، ففي الآية الأولى المكررة نفتقد فيها " ومن حيث خرجت ". وفي الموقع الثاني نفتقد " وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ". وفي الموقع الثالث في العبارة الثالثة وهي الأخيرة نجدها تامة اشتملت على كل المتكررات التي افتقدناها فيما قبل وكأنها نتيجة وحصيلة لما سبق: " ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره " .

فالعبرة الأولى (الآية 144) لم تشتمل على " ومن حيث خرجت " ،

والثانية (الآية 149) لم تشتمل على " وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره " ،

وفي العبارة الثالثة (الآية 150) صار – ما اشتملت عليه العبارة الأولى وما

اشتملت العبارة الثانية- طرفين لها، وأصبحت هي كالواسطة بينهما:

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ **فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** **وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا**  
**وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** (الآية 150)

طرف أول – واسطة – طرف ثان

وكأن الجزء الأول في الموقع الأول يتعلق بأمر النبي ﷺ بالتوجه إلى الكعبة البيت الحرام ومن خلاله أمرت الأمة بالتبعية: فول وجهك شطر المسجد الحرام – وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره .

ويبدو أن هذا خاص بهم وهم في المدينة في مسجد قباء أو بني سلمة أو المسجد النبوي إذ لم يُرد الخروج هنا ( ومن حيث خرجت )

ثم أعقب هذا بالإشارة إلى أن تبديل القبلة قد أُشير إليه في الكتب السابقة إشارة واضحة وبالتالي فإنهم (ليعلمون أنه الحق من ربهم )

واطمانوا إلى هذه الحقيقة وإن أنكرها بعضهم وجدها ﴿ وما الله بغافل عما

يعملون ﴾

وفي الجزء الثاني زاد الأمر تثبيتاً وتوسيعاً حين كرره وتجاوز به المكان الذي أنزلت فيه الآيات، إلى سائر بقاع الأرض، حيث وصلت جميع الأمكنة بالبيت الحرام وشدّت إليه: ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾

وعقّب على هذا ( بأنه الحق من ربك ) كما ورد تماماً في الكتب السابقة وأشير إليه بأنه الحق فما جاء في الجزء الثاني، تقرير لذلك الحق الوارد في الجزء الأول كما يفيد مضمون هذه العبارة ( الحق من ربك ) أن هذا الأمر من المحكمات الراسخة التي لا يطالها تبديل ولا نسخ .. ولم تُؤمر الأمة هنا في الجزء الثاني إلا بعد أن أرسيت هذه الحقيقة وثبتت في فؤاد نبيها عليه الصلاة والسلام .. عندئذ فقد اكتملت العبارة في الجزء الثالث فجمعت ما لمخناه من قبل من جزئيات وبهذا تمت النعمة وتحققت الهداية ﴿ ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون ﴾

وإذا رجعنا إلى بعض كتب التفسير وبخاصة المهمة منها بشأن التكرار في القرآن نجد أنفسنا حيال أقوال مختلفة ملخصها أن تكرار تلك الآية ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ .

جاء لتأكيد الأمر باستقبال الكعبة والاهتمام بها، لأن موقع التحويل كان صعباً على نفوسهم جداً .. فأكد الأمر لِيخِفَ عليهم، حقا فإن التحول عن القبلة شاق ثقيل على مَنْ أَلِفَ التوجه إلى القبلة الأولى، فإن الإنسان أَلُوفٌ بما تعوده ويشق عليه الانتقال عنه إلا لمن يسره الله عليه وهداه إليه ﴿ وإنها لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾ فاقترن بالنبي واهتدى، كالذي أثر عن عمر -رضي الله عنه- في شأن تقبيل الحجر الأسود: «.. ولولا أنني رأيتُ رسولَ الله ﷺ قبلك ما قبلتك» رواه البخاري ومسلم وأحمد .

وقالو: إنما أراد: بالأول: - وَلَّ وجهك شطر الكعبة أي عاينها إذا صليت تلقاءها  
ثم قال: " وحيث ما كنتم " معاشر المسلمين في سائر المساجد بالمدينة وغيرها "   
فولُّوا وجوهكم شطره " .

ثم قال: " ومن حيث خرجت " يعني وجوب الاستقبال في الأسفار، فكان  
هذا أمرا بالتوجه إلى الكعبة في جميع المواضع من نواحي الأرض<sup>1</sup>.

قلت: وإن في الآية التي سبقت هذه الآيات ﴿ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ رفعا  
للحرج فإن تحديد القبلة في جميع الأصقاع والبقاع من الصعوبة بمكان.. فيبقى الاجتهاد  
والمقاربة وإن لم يصب الكعبة، فإنما الأعمال بالنيات، فثم وجه الله الذي قصد بالتوجه ..  
وقيل إن هذه الآية نص في تشريع الاتجاه على الرحلة: فعن أنس بن مالك قال: كان  
النبي ﷺ « إذا كان في سفر فأراد أن يصلي على راحلته استقبل القبلة وكبَّر ثم صلى  
حيث توجَّهت به » .

رواه أبو داود والدارقطني وقال القرطبي حديث صحيح وقال به الشافعي وأحمد  
وذهب مالك إلى أنه لا يلزمه الاستقبال، لحديث بن عمر: كان رسول الله ﷺ يصلي  
وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته وفيه نزل ﴿ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ .  
ويعلل المراغي: وأعاد الأمر "فول وجهك" مرة ثالثة عناية بأمر هذا التَّوَلَّى  
وليرتَّب عليه الحكم والمنافع الثلاث الآتية:

1- " لئلا يكون للناس عليكم حجة " لأولئك المحاجين في أمر القبلة وهم أهل الكتاب  
والمشركون وتبعهما المنافقون ..

2- " ولأتم نعمتي عليكم " بإعطائكم قبلة مستقلة ..

3- " ولعلكم تهتدون " أي وليعدكم بذلك إلى الاهتداء بالثبات على الحق<sup>2</sup> وحاول ابن  
الزبير الغرناطي تعليل هذا الأسلوب عن طريق الموازنة بين بني إسرائيل وصحابة

1- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج 2 / 168

2- تفسير المراغي ج 2 / 16-18

رسول الله ﷺ في تلقي الأحكام والأوامر والتكليف وهي بمثابة القواعد العامة للفقه والتفسير وهو مسلك لطيف يجعل أسلوب التكرار هنا جاء لطلب ملح اقتضته تلك القواعد المناسبة للتكليف بالتوجه شطر المسجد الحرام فتراه يقول مفصلاً: « إن كل قضية تكليفية إذا كانت مما يتأكد فإنها ترد ملحوظة الجهات، منها على ما يحرر مطلوبها على الكمال، مدفوعاً عنها - وإن ضعفت - طوارق الاحتمال اعتناء منه سبحانه بهذه الأمة لتحصيل سلامتها من الأمر المحمول على من قبلها . ألا ترى أن بني إسرائيل إنما لحقهم الامتحان في أمر البقرة من جهة الإطلاق في قوله تعالى: ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ فورد الأمر مطلقاً مع ما جُبلت عليه نفوسهم من التثاقل في تلقي الطاعات .. فتابعوا لتحرير المطلوب وشدّدوا، فشدد الله عليهم، وهذا مما حُفظت منه هذه الأمة

ألا ترى قوله تعالى في فرضية الصيام: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ كيف حُدِّدَ بشهر، وعيِّنَ بالتسمية، وبُيِّنَ وقتُ الإمساك بضبط طرفيه، وبُيِّنَ حالُ المرض وحالُ السفر، وأمروا بتكميل العدة على ما أوضح الشرع، إلى غير ذلك مما يحصل منه الاختلاف للاحتمال، وكل هذا وأكثره قبل أن يسألوا، وكذا جرى في أمر القبلة عند التحويل ..

فقوله تعالى في أول الأمر بالتوجه قبل البيت ﴿ فول وجهك شطر المسجد

الحرام ﴾

وإن كان قد تقيّد بالأداة المعيّنة للجهة فإن فيه احتمالاً أن يكون خاصاً به ﷺ أو عاماً له ولأمته <sup>1</sup> .

وليس يُخشى الاعتراض من سَلَمَ بالقواعد المستقرات من الكتاب والسنة وإنما قُصدَ القطعُ بذوي الزيغ والارتباب الذين يتعلقون بأدنى احتمال فيتبعون ما تشابه منه . فلدفع احتمال خصوصية الأمر بالتولي بالنبي ﷺ أتبع بقوله ﴿ وحيث ما كنتم فولوا

1- ملائكة التأويل ج 1 / 241، 242

وجوهكم شطره ﴿ حتى لا يختص بمكان دون مكان، ويبقى مع ذلك احتمال: فهل الأمر بالتولي خاص به وهو مقيم في المدينة، أم عام في السفر والإقامة .

إن الآية الأولى احتمالية، فجاءت الثانية ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ نسا لا احتمال فيه، فحصل منه ما لم يحصل نسا مما تقدم ..

وتصبح: ﴿ وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ نسا على التوجه شطر المسجد الحرام في الإقامة والسفر حيث ما كنتم من البلاد والمواقع التي خرجتم إليها حيث كانت من الأرض، وذلك تبعا لخطاب النبي ﷺ كما كانت الأولى تابعة لخطاب النبي ﷺ أي حيث ما كنتم من المدينة المنورة<sup>1</sup> .

كما علل التكرار هنا بتلك القاعدة الأسلوبية: طول الفصل بين المتلازمين يستوجب الإعادة والتكرار كما هو مشهور في مثل قوله تعالى: ﴿ أَيْعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِثْمُ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ (35) ﴾ فأعيدت " أنكم " تأكيدا ولينبني عليها الخبر.

وعلى هذا أعيد قوله تعالى: ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام " لينبني عليه " وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ ذلك أنه فصل بين الأمرين أمر النبي ﷺ وأمر الأمة، بقوله تعالى ﴿ وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون ﴾ « فلما تباعد عنها كُرر توكيدا ولينبني عليه ما ينبغي اتصاله به ... وبهذا اللحظ لم يتكرر شيء من الآية لمجرد التوكيد، بل كلُّ مَّا يُظن تكرارا مفيداً معنًى لم يحصل مُحرزاً مما قبله، ووضَع التناسُبُ في ذلك كله<sup>2</sup> .

وهذا التعليل الذي يعتمد طول الفصل مسوغا للتكرار في هذا الموقع، يُهمل مقاصد التكرار الأخرى الكامنة في الآيات كما سنتبين قريبا، إذ تعدد الرؤى بحسب الزوايا التي يطل منها أصحابها على التكرار، وأقرب شاهد على هذا ما بين يدي الآن من تعليل أبي يحيى زكريا لتكرار الآية: ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ 144،

1- أنظر: ملاك التأويل ج 1/ ص 242، 243

2- المرجع نفسه 1/ 244

حين يقول: « وكرر ثلاث مرات، لأن الأول في المسجد الحرام، والثاني خارجه،  
والثالث خارج البلد، وعليها ينزل قوله قبل كل منها " ومن حيث خرجت »<sup>1</sup>  
وهو شبيه بما سُقناه للإمام القرطبي من الحِكم في ورود هذا التكرار:  
« وقيل أراد بالأول:

ولَّ وجهك شطر الكعبة، أي عَينها إذا صليت تلقاءها.

ثم قال: " وحيث ما كنتم " معاشر المسلمين في سائر المساجد بالمدينة وغيرها " فلولوا وجوهكم شطره "، ثم قال: " ومن حيث خرجت " يعني وجوب الاستقبال في الأسفار، فكان هذا أمرا بالتوجه إلى الكعبة في جميع المواضع من نواحي الأرض.<sup>2</sup>  
واستحسن القرطبي هذا القول لأن فيه حَمَلَ كل آية على فائدة<sup>3</sup>.

وهذه الجِدَّة في المعنى هي التي تلمَّع التكرار وتبعد عنه سماجة الإعادة. وكان مدخل سيد قطب لتفسير هذا التكرار من هذا الباب، فاسمع إليه يقول: « ونجد في تكرار الأمر بشأن القبلة معنى جديدا في كل مرة .. في المرة الأولى كان الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام استجابة لرغبة الرسول ﷺ بعد ثقل وجهه في السماء وضراوته الصامتة إلى ربه ..<sup>4</sup> وفي الثانية كان لإثبات أنه الحق من ربه يوافق الرغبة والضراعة .. وفي الثالثة كان لقطع حجة الناس، والتهوين من شأن من لا يقف عند الحق والحجة<sup>5</sup> »  
وهذه الثلاثية التي يشي بها ما تكرر ثلاث مرات يكاد يُتَّفَق في عددها وإن اختلف في تعيينها وتحديدها: فما أشار إليه القرطبي آنفا من شأن هذه الثلاثة هو غير ما

1- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن ص 45 .

2- تفسير القرطبي ج 2 / 168

3- نفس المصدر ج 2 / 168

4- ج 1 / ص 138

5- الظلال 1 / 137، 138

أشار إليه سيد قطب وخلاف ما أورده مصطفى المراغي « أعاد الأمر ثلاثة عناية بأمر هذا التولي، وليرتب عليه الحِكم والمنافع الثلاث الآتية .. »<sup>1</sup>.

هذا وإن الزمخشري الذي عهدناه في فن القول يجول ويصول لم نَر منه هنا ما كنا ننتظر، إذ تَبَّح الكلام وخلطه ولم يفصح عن الأمر بوضوح وبيان واكتفى بالعموم حين قال عن آية القبلة: « وهذا لتأكيد تكرير أمر القبلة وتشديده لأن النسخ من مظان الفتنة والشبهة وتسويل الشيطان والحاجة إلى التفصلة بينه وبين البداء، فكرر عليهم ليثبتوا ويعزموا ويجدوا، ولأنه نيَطَ بكل واحد ما لم يُنَطَ بالآخر فاختلفت فوائدها »<sup>2</sup>

ولم ننبين ذلك حتى صادفناه عند القمي فانجلى الغموض وتعين العموم وإن لم يذكر القمي صاحب القول وإنما عرضه وهو بصدد ذكر أقوال العلماء في سبب تكرار " أمر التولية " ثلاث مرات، وهو القول الثاني من بين سبعة يقول فيه: « وثانيها أنه نيَطَ بكل واحد ما لم يُنَطَ بالآخر، وذلك أنه أكد الأول بأن أهل الكتاب يعلمون حقيقته بشهادة التوراة والإنجيل، وأكد الثاني بإخبار الله تعالى عن حقيقته، وكفى به شهيدا، وأتبع الثالث غرض التحويل، وهو قوله: ﴿ لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ كما أن قوله: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وأمثال ذلك تكرر حيث نيَطَ بكل منها فائدة »<sup>3</sup>.

وجمال التكرار هنا يكمن في التدفق الفكري الذي يغمرك وأنت تتلمى أسراره وتتوسم ظلاله فإن التكرار بجرسه الظاهر وإلحاحه على السمع والقلب، يستثير النفوس للوقوف، والعقول للتدبر وإيقاظ حواس الاستشعار. للظفر ببعض كريم الجواهر الممكنون والفوز بالمستور عن العيون وكأني بسيد قطب لدى هذا التكرار يُطَوِّف حوله ليجد سَرَبًا إلى كنزه، ومنفذا إلى سره فقد حبسه برهة ليعلنها صريحة: " ولكننا مع هذا - نلمح وراء التكرار أنه كانت هناك حالة واقعة في الصف الإسلامي تستدعي هذا التكرار، وهذا التوكيد، وهذا البيان، وهذا التعليل مما يشي بضخامة حَمَلَة الأضاليل

1- ج 2/ ص 16

2- الكشف ج 1 / ص 322

3- غرائب القرآن ج 2/ ص 27

والأباطيل، وأثرها في بعض القلوب والنفوس. هذا الأثر الذي كان يعالجه القرآن الكريم<sup>1</sup> يشير إلى أثر ما يروّجه السفهاء من الناس في بعض النفوس الضعيفة.

ونحن نلمح في أحشاء التكرار المهمين على هذا النص تكرارا وتوكيدا لمعنى آخر نشأ من أصل القضية وهو بدوره أيضا يكشف عما وراءه من واقع اجتماعي مضطرب، وداء عضال ذلك ما يوحى به ما في النص من توكيد على أنه الحق: ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ الآية 147. ﴿ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ.. ﴾ الآية 149. ، وتحذير خفي من الميل عنه ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ 144. ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ 149 .

وقد استوقف هذا التكرار سيد قطب مرة أخرى ليتساءل عن العلل المستوطنة في قلوب بعض المخاطبين به فيقول: « وهو الذي يشي بأنه كانت هناك حالة واقعة وراءه في قلوب بعض المسلمين تقتضي هذا التوكيد وهذا التحذير الشديد »<sup>2</sup>. وهذا الموقف وذاك يحمل القارئ النهم على البحث في السيرة بتأن ورصد لأحوال القوم لإبراز هذا الجانب الاجتماعي والانحراف النفسي الذي يحول بين العقول وهداها، والنفوس وتقواها .

إن تكرار مقطع ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ يستوقفك في قلب سورة البقرة في منتصفها، حين يقرع سمعك الأمر بالتوجه شطر المسجد الحرام ثلاث مرات متجاورات لا يفصل بينهما إلا جملٌ يسيرة فتهزُّ فؤادك هزًّا، إنه الحديث عن القبلة التي ارتضاها والوجهة التي اصطفاهَا، وبمجرد الوقوف عندها للتأمل يتدفق عليك صوبٌ من المعاني الشريفة، وشعابٌ من الأفكار اللطيفة، لما في القبلة من معانٍ خصيبة ترتبط بها وشائج العقيدة بل هي من أعظم مظاهرها بعد التوحيد، فكثيرا ما يعبر عن المسلمين بـ " أهل القبلة "

1- الظلال - سيد قطب ج 1 ص 168

2- الظلال ج 1/ ص 136

فإنه بالوقوف على هذه الآية تتداعى المعاني السابقة في السورة، وتتزاحم اللاحقة ثم تنتظم في سمط واسطته هذه الآية .

- فهناك الحديث عن التوجه المطلق إلى الله تعالى الذي يغيب عنده المكان ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ البقرة 115 .

- ثم يأتي الحديث عن تاريخ البيت الحرام، وما ناله من تشريف وتكريم، وكَم في هذا من تشويق لاتخاذ وجهه ومصلى " .

- ثم تحيء آيات الواسطة لتجمع في مقدمتها بين هذين المعنيين: إطلاق الوجهة والإيحاء إلى الوجهة المثلى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ البقرة 142 .

- وربط من جهة أخرى بين الأمة الوسطية المرشحة للقيام بالشهادة على الناس، وبين موقع القبلة التي هي وسط الأرض ووسط الكون حيال البيت المعمور في السماء لو سقط (البيت المعمور) لوقع عليها (على الكعبة) كما جاء في بعض الآثار..

وكان الربط بين الجانبين بالأداة "كذلك" التي تفيد المماثلة والمطابقة الحسية والمعنوية: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ...﴾ 143

- وبعدها مباشرة تتعين الوجهة وتفرض القبلة، ويرد التكرار الذي كان منه المنطلق .

- كما نصل بعد هذه الآيات بمقدار مسيرٍ يتناسب مع الآيات السابقة بعدا وقربا إلى مقام يحدثنا عن جانب عميق في هذه التولية والتوجه، به صلاح الدنيا والآخرة:

- ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ 177 .

حيث نقف على حقيقة ذلك التوجه، ونصيب مغزاه ونحقق مقصده. تكلم ثلاث وقفات:

أ - ﴿فَأَيْنَا تَوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ..﴾ البقرة 114

ب - ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ..﴾ البقرة 143 و 149

ج - ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.. ﴾ البقرة 176- والغرض هنا الكعبة - بلا ريب حين استقر التوجه، ولكن عبر عنه بالمنطق الأول والتوجه المطلق تحقيقاً للتححرر .

ولعل من التناسب الحسي والاتساق المعنوي أن تتناغم ثلاث وقفات هامات، مع ثلاثة تكرارات، إذ تتداعى خواطر على البال كلما مررت بمهد تلك الآيات المكررات.

وإن المعنى الجامع يتمثل في ارتباط البحث عن الوجهة المرضية<sup>(1)</sup>، بالبحث عن الحق الذي ليس للنبي إلا اتباعه، ومجانبة الهوى ومجافاته، ولهذا أشارت الآية إلى الأهواء في القضية وإلى سبيل الحق فيها، وهو المحور الذي تدور حوله قضية القبلة وهو مناط مظهر التكرار وداعيته، بجزأيه الأصلي والفرعي<sup>(2)</sup> .

فإن التوجه إليه سبحانه وتعالى لا يُحَدَّ بمكان، وإن أوجب التوجه إلى المكان:

"ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله " 115 وهذا هو مخ عقيدة التوجه، وإنما كان التعيين مُظهرًا للوجهة المرتضاة ليرتَّب عليها واجبات، وتتحقق به أسرار والتزامات هي ثمرة هذا التوجه تُمكن من حقيقة البر، إذ التوجه إلى المكان ليس مقصودا لذاته وإنما المقصود رب البيت العتيق .

- ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ 177

كما إن تحديد الوجهة يميزك عن سائر المتوجهين إلى غير هذا السبيل القويم والصراط المستقيم:

- ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ 142 .

- ﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيُّهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ 148 .

1- إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ﴾ .

2- نقصد بالأصلي ما تعلق بالقبلة لفظا ومعنى، وبالفرعي ما وجد من تكرار في طيات ما بين آيات القبلة .

فذلكم التوجهُ المحدد، صورةٌ عمليةٌ للالتزام الحق في غمرة الأهواء التي تناوشه من كل مكان .

ومن زاوية أخرى ألطف وأدق، تتمثل لي آيات القبلة قُطبا في قلب السورة موصولا بما قبله وبما بعده من جوانب مختلفة كل جانب منها ثلاثي الأبعاد هي مركزه الجاذب، فمن ذلك:

(1)- بعد بناء الكعبة الوارد في الآيات: 125-126-127 دعا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ البقرة 129.

(2)- وبعد تحويل القبلة إلى الكعبة وبيان الحكمة رُبطت بما بعدها بإحكام .

(3)- بواسطة "كما" التي تصل ما بعدها بما قبلها وصلا مُبينًا وإحكاما متينا لدلائلها على المشابهة والمماثلة بين الطرفين، فتحديد القبلة وتعيين الكعبة من باب إتمام النعمة، تماما كما تمت بتحقيق دعوة إبراهيم عليه السلام المشار إليها من قبل بذاتها وأوصافها<sup>(1)</sup>:

﴿ وَلَا تَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ 150 ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ 151 .  
بل فيه زيادة بيان، لأنه في مقام شكر وامتنان ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾.

وهكذا صار تحديد القبلة واسطةً بين بناء الكعبة وبعث الرسول ﷺ تسليما في سبط واحد .

وهناك توافق ثلاثي يلحظه المتأمل:

- بين القبلة الواقعة وسط الأرض والكون

1- مع فارق في التعبير فالنزكية في الدعاء مؤخرة وفي الإجابة مقدمة وكأنه إشارة إلى مرتبة النزكية في العلمية .. ولطفه يصح ويحقق المرغوب .

- والأمة الوسط ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾

- وموقع هذه الآيات في وسط سورة البقرة

وللكعبة المركز على ظهر البسيطة روابط تشد إليها المؤمنين:

- فخلق المصلين حولها في الأرض دائمة، وفي المسجد الحرام حركة الطواف دائمة.

- تجذب إليها من كل فج عميق، أفئدة تهوي إليها من مكان سحيق .

وفي أحشاء وطيات هذه الآيات الأم التي عليها مدار التكرار، نلمح آيات أُخَر تذكر بمشابه لها سبقت الإشارة إليه قبل آيات تعيين القبلة ووجهة التولي .

فالأيات الواقعة ضمن آيات القبلة المكررة هن قوله تعالى:

1- ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ 145.

ورد قبلها:

- ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ

وَلَا نَصِيرٍ ﴾ 120

ذلك أن أمر القبلة كان محفوفًا بالضلالات والأهواء تدور مع القبلة أنى دارت،

لذلك ورد الحديث عنها قبلها وتكرر معها .

2- ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ

يَعْلَمُونَ ﴾ 146 .

ورد قبلها:

- ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ.. ﴾ 121 .

وفي هذه الإشارة الأخيرة تعريض بأهل الكتاب الذين يعرفون النبي الأمي حق

المعرفة لكنهم يكتُمون الحق وهم يعلمون، أعماهم الهوى وأضلَّهم، لأنه جاءهم بما لا تهوى

أنفسهم ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ البقرة/ 89 وكذلك شأن القبلة ففيه دليل

على صحة الرسالة وصدق الرسول المبشَّر به في كتبهم .

فقد يكون لو أن النبي ﷺ أقام على الاتجاه إلى بيت المقدس واتخذه قبلة دائمة  
قد يكون حجة لأهل الكتاب أنه ليس النبي المبشر به، فلما كان التحول عرفوا أنه حق  
من ربهم:

- ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ 144

فقد قيل: إن في كتبهم أن النبي الذي سيبعث في الأميين سيتجه إلى القبلتين  
فهاهو ذا قد تحقق: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ 150 .

والناس هنا - في رأيي - على عمومها من أهل الكتاب والمشركين وغيرهم ممن  
يكون تغير القبلة عليهم فتنة، أو يثير في نفوسهم الشبهة . أما المعاندون من المشركين  
والحاسدون من أهل الكتاب والفتانون من المنافقين فهم جميعا أهل أهواء ظالمون  
لأنفسهم، لا تجدي معهم حجة ولا دليل ولا يخشى جانبهم صاحب الحق ﴿لئلا يكون  
للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني..﴾ 150 . وهم المشار  
إليهم بالسفهاء في مطلع آيات القبلة:

- ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا..﴾ 142 .

كل هذه التنوعات من المتشابهات توأكب المعنى المكرر المهيمن على النص،  
وتسندده وتسفر عن الصلة الحميمة بينها وبين المعنى الأم المتمثل في تعيين الوجهة الإسلامية  
وتثبيتها والتي هي أسس الخيرات وسنامها: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾  
148 .

وهذه التكرارات الثلاثة تنسجم تماما مع أفكار ثلاثية تترأى لك ضمن هذا  
النص الذي سمته البارزة - كما أشرنا - تحديداً القبلة . ومن هذه المعاني:

## الحكمة من تعيين القبلة:

اقترانها جميعا باللام التعليلية	1- لئلا يكون للناس عليكم حجة
	2- ولأتم نعمتي عليكم
	3- ولعلكم تهتدون

الإشارة إلى المشاغبين المشاكسين حول تحويل القبلة ضمن لفظ الناس ﴿سيقول السفهاء من الناس ..﴾ ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة..﴾ وهم ثلاثة أصناف:

1- أهل الكتاب (اليهود)

2- المشركون

3- المنافقون

فكلهم قالوا، ولذا عبر عنهم بالمعنى الجامع " الناس " وبالوصف المخصص " السفهاء - الذين ظلموا "

ويلاحظ أنه وقع في طيات هذا النص تكرير لـ " الحق " منسوبا إلى مصدره:

- ﴿.. ليعلمون أنه الحق من ربهم﴾ ﴿ليكتنمون الحق وهم يعلمون﴾ إخبار ذم وتقبيح.

- ﴿الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ بيان وتحذير وتنبية .

- ﴿وإنه للحق من ربك﴾ تقرير وإلزام. فلا يُرَدُّ لِسْمُو نِسْبَتِهِ.

وذلك إشعارا بما للحق من قيمة في الشريعة ودور في الاستقامة، وأثر على

التطبيق .

وبند الأهواء وقهر الشهوات، فإن مصدر الحق ونسبته ربانية، وليست نسبة

بشرية.

- ﴿الحق من ربهم﴾ ﴿والحق من ربك﴾ فهو الأولى بالإتباع " الحق أحق أن يتبع ".

ولقد تردد هذا المعنى بين يدي آيات القبلية المكررة، ليكشف عن السر الذي أوقع من قبلنا في الزلل والضلال والانحراف، والمتمثل في عدم الانقياد للحق الذي تيقنوه فبدلوا وحرفوا وكتموا:

- ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ﴿١﴾ بيان وإخبار وتعريض

- ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢﴾ ذم وتقبيح

وسبب هذا السلوك الغريب هو الاستسلام للأهواء الصارفة عن الحق، فهم لا يدعون للحق ولا يتبعونه إلا إذا تخلصوا من سلطانها مهما كانت حجة الحق ناصعة .

- ﴿وَلَئِنْ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ ﴿٣﴾ بسبب الهوى .

- ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ ﴿٤﴾

ويكاد يكون الهوى النقيض المعادي للحق:

- ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ ﴿٥﴾ المؤمنون 72

- ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿٦﴾ سورة ص: 26، ولهذا لا مناص لمتبع الحق من مغالبة الهوى وقهره.

وإن البيت الحرام هو الوجهة الحقة قطعاً:

- ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ ﴿٧﴾

ووصفه التوجه قبل المسجد الحرام بأنه الحق، وتأكيد ذلك وتكريره دليل على ثبات هذه الوجهة ثبات الحق فلا يعترضها تبديل ولا تغيير بعد اليوم، ولا يصيبها نسخ مطلقاً .

كما أن ورود الحق مُعَرَّفًا بالألف واللام منسوبا إلى الله عز وجل ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ ﴿٨﴾ ناهيك عما فيه من إشادة بالحق وتنويه، فضلا عن تأكيده "بأن" و"اللام" وتكريره وكل ذلك بيان يتعلق بالوجهة المصطفاة .

فقد قيل إنّ الألف واللام « إذا دخلت على اسم موصوف اقتضت أنّه أحقّ بتلك الصفة من غيره ... ألا ترى إلى قوله ﷺ: « أنت الحقّ ووعدك الحقّ وقولك الحقّ » ثم قال: « ولقاءك حقّ والجنة حقّ والنار حقّ » فلم يدخل الألف واللام على الأسماء المحدثه، وأدخلها على اسم الربّ تعالى ووعدته وكلامه « (1) .

وعلى هذا فمتى تعيّن الحقّ وجب التشبث به وعدم الالتفات إلى الأراجيف المضلّة، والأباطيل المغرضة والتأويلات المشككة، فإدّمت كذلك ﴿ فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ .

هذا جزء مما أوحى به تكرارُ القبلة وما ارتبط به من معان فهي نقطة استقطاب يومية في الصلوات الخمس حيث يلتقي المسلمون في الوجهة، مهوى الأفتدة سنويا في موسم الحج والعمرة .

وتلك من أبرز خصائص الأمة التي أجمعوا عليها إذ لم يخالف أحدٌ منهم في أمر القبلة.

1- بدائع التفسير ج 1 ص 227 .

## ملاحح السورة في التذييل المكرر:

وإن من الصور التكرارية التي تعكس جانباً من جوانب شخصية السورة، ما يتكرر فيها من تذييلات؛ إذ التذييلات أحكام ومعان حاسمة ترتبط بما تردّد في السورة من موضوعات، وما تعالجه من قضايا فالمُتَّفَحِّصُ فيها يستطيع أن يُشخِّص ملاحح السورة، ويحدّد أبعادها، ويُعَيِّن أغراضها.

فتأمل بعض ما تكرر في سورة البقرة من تذييلات:

- تكرر قول الله عز وجل ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تذييلاً في الآيات: 74-85-140-144-149.

وَرَدَتْ ضمنها ﴿ يعملون ﴾ بأسلوب الغيبة، المتحدّث عنهم في الآية: 144، في رواية حفص وورش، وَوَرَدَتْ أيضاً بالغيبة في الآية: 85، لكن برواية ورش فقط. وهي في المواطن الثلاثة الباقية بأسلوب الخطاب المتحدّث إليهم. واجتمعت صورتان بالغيبة والخطاب في آية القبلة في الروايتين؛ حيث خاطب بها المؤمنين، وتحدّث عن أهل الكتاب بعد أن كانوا مخاطبين بها في الآيات السابقة على وجه التقريع لغفلتهم عن الرقابة الربانية، وسُلوكلهم سُلوكل مَنْ لا يُحاسب عمّا يفعل، وتماديهم في ذلك. وهو خُلُقٌ فاش في بني إسرائيل على الخصوص، وهو في أيامنا هذه حديث العام والخاص. وفيه تعريض بِمَنْ تشبّه بهم من هذه الأمة على العموم. وهي بعد ذلك إبلاغ عام للناس جميعاً ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ﴾ إبراهيم: 42. وهو معنى يوحى به ختام السورة: ﴿ ليجزي الله كلّ نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب ﴾ (51) هذا بلاغ للناس ولينذروا به (52) ﴿ إبراهيم. وذلك أنّ في سورة البقرة إشاراتٍ إلى جملة من التصرفات المنحرفة، سببها عدمُ رعاية هذه التوجيهات، و الإخلالُ بها.

- وتكرّرت ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ في الآيات: 247-261-268 ووردت مرة بالتوكيد ﴿ إن الله واسع عليم ﴾ في الآية: 115، في مقام تَوَلِّيَّة الوجوه إليه سبحانه وتعالى. والآيات الأخرى في مقامات التفضّل والتكريم على الخلق فهو واسع الإفضال والإنعام.

- وتكررت ﴿التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ أربع مرات على الترتيب الآتي:

- ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ تكررت في الآيتين: 37-54.

- ﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ في الآية: 128.

- ﴿وَأَنَا التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ في الآية: 160.

فهذه التذييلات تملأ مساحة من السورة توبةً ورحمةً، كما تُلوّن الآيتان الآتيتان مساحةً أخرى، غفرانًا وجمالًا:

- ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ الآية: 225 - ﴿أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ الآية: 235

- وتكررت ﴿لَا عَلَيْهِمْ حَوْفٌ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآيات: 38-62-112-262-274-

277 حيث يَشعُ في تلك المواطن الأمن والأمان والفرح والابتهاج، وينتفي خوف والحزن وهو شعورٌ يُطالِعُك في البدايات ويُصاحبك إلى النهايات (من الآية: 38- إلى الآية: 277)

- ومن هذه التذييلات المكررة ما يُنبئُ إلى بعض السلوكات المتناقضة بسبب الجهل بالعواقب، وسوء تقدير المآلات، وعدم التسليم والتفويض:

- ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ تكررت في الآيتين: 216-232

أو بسبب العناد المركب في النفس، حين يُخالف على علمٍ وقصد:

- ﴿وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾ تكررت في الآيات: 42-188

- ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تكررت في الآيات: 74-146

- ومنها ما يُنكر على المخاطبين تصرفاتٍ تُجافي العقل السليم، وهي أقرب إلى سلوك المجانين:

- ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ تكررت في الآيات: 44-76

- ﴿ صُمْ بِكُمْ عُمَىٰ فَهَمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ الآية: 171

- وأخرى تعمل على إصحاح العقل وإيقاظه :

- ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ تكررت في الآيات: 73-242

- ﴿ لَأَيَّتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ تكررت في الآيات: 164

- وتذييلات تُشيد بالتقوى والملتقين:

- ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ تكررت في الآيتين: 179-183

- ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الآية: 187

- ﴿ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ تكررت في الآيتين: 180-241

- وتكررت: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ في الآيات: 93-91-284-278 وهي تنبئ عن مواقف خولف فيها مقتضى الإيمان والعمل به.

وإذا وقع تكرار التذييل في فاصلتين متواليتين، فذاك تأكيد وإلحاح للاستشعار بذلك المعنى: على نحو ما جاء في سورة البقرة في الآيات الآتية:

- ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ إذ تَوَالَتْ في الآيتين: 102-103. وإنما يؤتى

الإنسان من الجهل وقلة العلم.

- وتكرر في الآيتين: 81-82 مع اختلاف يسير ﴿ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ (81) ﴾ و ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (82) ﴾.

لتكشف عن المصير الحتمي والمستقر النهائي الذي ينتظر الخلق، وهم عنه غافلون .

- ﴿ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ في الآية 132.

- ﴿ وَخَنُّ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ في الآية 133.

ومجموع هذه التذييلات يُقَدِّمُ لك تَصَوُّراً عامًّا مُركِّزاً عن السورة، ويضع ملامحها بين يديك، فتتفرَّس في إحكام البناء، وتلاحم الأجزاء، وترابط المفاصل. فقد قيل عن هذه السورة إنها سورة بني إسرائيل الكبرى، وقيل سورة المتقين. وقد تبيَّن لنا من خلال ما تكرر فيها من تذييلات، أنها أيضا سورة العلم والتعليم حقا، حيث افتتحت السورة بالكتاب، ثم بتعليم آدم الأسماء كلها، بالإضافة إلى تلك التذييلات التي أشرنا إليها قريبا في العلم، ثم الإشارات إلى مِنَّة الله علينا بالعلم والفهم، في نحو قوله تعالى: - ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة الآية: 151.

- ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: 239

- ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ البقرة: 182.

ما أحوج هذه النعمة إلى الذكر والشكر! إِنَّ نعمة الفهم قليل من يقدرها فيشكرها. ولقد فطن الإمام السهيلي إلى عظيم هذه النعمة حين قال في ختام مسألة: «فإذا فهمتَ فَرَقَ ما بينهما، بعد تأمل هذه الفصول وتدبرها، ثم لم تعدل عندك هذه الفائدةُ جميعَ الدنيا بأسرها، فما قدرتها حق قدرها، والله المستعان على واجب شكرها»<sup>1</sup>. ثم تأتي تبعه العلم و الفهم فلا يُخالف ما علَّمه، ولا يَجحدُه، ولا يقول بغير علم وإلا طالتهُ سياطُ التَّوْبِيخِ المَوْجِعَةُ: - ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تكرر في الآيات: 42-188

- ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تكرر في الآيات: 74-146

- ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٣﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ

ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ البقرة 102 و 103

- ﴿يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: 169

1- أبو الحسين بن الطراوة وأثره في النحو (528هـ) دراسة: دكتور محمد إبراهيم البنا . ص44، 45 ط1: 1400هـ- 1980م. دار بو سلامة للطباعة. تونس.

وإنما يَنْتَفِعُ بالعلم أولوا الألباب من قبله وعمل بِمُقْتَضَاهُ: ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ

لَكُمْ ۗ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ البقرة 184

- ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ البقرة: 230.

- كما قد يكون تركيب آية علماً على سورة معينة دون السور الأخرى. وكيف بهذا التركيب إذا تكرر في السورة نفسها. فذاك إيدان بالمعاني المهيمنة على السورة والتي تتردد كثيراً في أعماقها. وأقرب شاهد على ذلك، ما يُشْعِرُكُ به تكرار الآية ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۗ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ ۗ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ (134 و141) في واسطة البقرة، أنه سمة خاصة لها دون غيرها من سور القرآن، معني وتركيباً. والله أعلم.

## ملاحح السورة في بعض ما تكرر من حروف المعاني ( حرف المهلة ثم ) :

- كما قد يكون لُوْرُودِ بعض الحروف فيما تَكَرَّرَ صِلَةً بشخصية السورة أيضا؛ ذلك أنه قد يتبادر إلى ذوي النظرات العجلى، أنّ بعض الحروف قد تتساوى وتتعاذل في الدلالة، فيستعمل هذا مكان ذاك على حد سواء، دون أن يتبعه أثر في المعنى. ويقررون هذا شبه قاعدة لا تعرف الاستثناء لديهم. وهي في الحقيقة نظرة المستعجل، تُقَرَّرُ القواعد قبل التروى والاستقصاء، والفحص الدقيق، والتبصُّر العميق.

فوجدنا من يزعم أن الفاء تُؤَوَّلُ بالواو في مثل قوله تعالى : ﴿ فكلّا من حيث شئتما ﴾ الأعراف:19، اعتمادا على شبيهاها: ﴿ وكلا منها رغدا حيث شئتما ﴾ 35 في البقرة، وليس بعد ذلك من معنى إلا ذاك، متجاهلا بدائع المعاني التي تكشف عنها دقائق مواقع (الواو والفاء وثم)، وروائع رعاية المواضع المناسبة لكلّ منها.

وَلِلطَّافَةِ المسلك فيما تبادلت فيه هذه الحروف المواقع، من مشتبه النظم الحكيم، وَلِخَفَاءِ الأسرار، سَلَّمَ الباحثون في معاني الحروف إلى القول بتبادل الحروف مواضعها؛ معللين ذلك بأن المعطوف الممتدّ زمانه إذا نُظِرَ إلى ابتدائه قصر الزمان بينه وبين ما عطف عليه، فاستحقَّ حَرْفَ التعقيب (وهو الفاء)، وإذا نُظِرَ إلى انتهائه طال الزمان، فاستوجب حَرْفَ المهلة (وهو ثم). ورائد هذا القول الرضي الإستراباذي. وتلقفه كثير من المفسرين من بعده ورأوه تعليلا وحلاّ لِمَا التَّبَسَّ عليهم أمره فيما تبادل الحرفان فيه مكانيهما.<sup>1</sup>

فتأمل إن شئت تعجيل الأمر بالنظر وتأجيله باستخدام حَرْفِي التعقيب و المهلة (الفاء، ثم) في الآيات الآتية:

﴿ فسيرُوا في الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ آل عمران: 137.

﴿ فسيرُوا في الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ النحل 36.

1- أنظر من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم (الفاء- ثم) الدكتور محمد الأمين الخصري- ص 267. ط2: 2007م. مكتبة وهبة- عابدين- القاهرة. مصر.

- ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ النمل:69.

- ﴿ قُلْ فِي سِيرُوا الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ الأنعام:11.

يلاحظ المتأمل في القرآن الكريم أن الأمر بالنظر في العواقب، ورد في سياق الاستفهام المعطوف بالفاء (أفلم يسيروا) في ثلاث آيات: في يوسف : 109، وغافر:82، و محمد:10.

وفي سياق المعطوف بالواو (أولم يسيروا) في ثلاثة مواطن أيضا: في الروم:9، وفاطر:44، وغافر:21.

وفي سياق الأمر في أربعة مواطن: في آل عمران:137، والنحل:36، والنمل:69، والأنعام:11.

ولم يُعْطَفَ الأَمْرُ بالنظر- في هذه الآيات العشر- بـ(ثم) إلا مرة واحدة في سورة الأنعام11.وَعُطِفَ في التَّسْعِ الباقية بالفاء.

إنَّ هذا الاستثناء في سورة الأنعام هو الذي يُوقِفُك على ملامح شخصية السورة. فمع شدة تماثل الآيات السابقة، وتشابه سياقاتها، فإنَّ آية الأنعام انفردت من بين أخواتها

بحرف المهلة (ثم) لمناسبتها للمعاني التي تنتظم عليها السورة؛ وهو مفتاح السرِّ لتفسير سبب مخالفة بعض متشابه سورة الأنعام لمثيله، مما ظاهره العطف بالواو أو بالفاء، إلى العطف بـ(ثم) .

فهناك من المتشابه في سورة الأنعام، ما يكاد يَبْلُغُ فيه التَّمَاثُلُ درجة التطابق مع شبيهه في سُورٍ أُخرى؛ غيرَ أَنَّهُ يُبَيِّنُ مَثْبَلَهُ في إِثَارِ حرف المهلة والتراخي والمطل، على حرف التعقيب والفور والسرعة. كالأية الحادية عشرة من السورة، والمشار إليها آنفا. ونحو قوله تعالى: ﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ في الأنعام: 62 بحرف المهلة (ثم)،

بينما جاءت بـ(الواو) في سورة يونس: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ﴾ الآية:30. فاختيار المهلة من سمات سورة الأنعام.

فإذا كانت الفاء اختيار سورتي الزخرف(83)، والمعارج(42) في قوله تعالى: ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا..﴾ فَإِنَّ (ثُمَّ) اختيار(الأنعام91): ﴿...ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ ذلك أنها وردت في السورة، في أكثر من عشرين<sup>1</sup> موضعا. وهي على النحو الآتي، من المطالع حتى الختام:

﴿...ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ الآية 1.

﴿...ثُمَّ هُوَ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ۗ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ الآية 2.

﴿...ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ الآية 8.

﴿...ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ الآية 11.

﴿... ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا...﴾ الآية 22.

﴿... ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَّتُهُمْ...﴾ الآية 23.

﴿... ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ الآية 36.

﴿... ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ الآية 38.

﴿... أَنْظَرَ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ الآية 46.

﴿... ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ ۗ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ الآية 54.

1- مع العلم أنها وردت في 335 موضعا في القرآن الكريم. أنظر: معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم- د. إسماعيل أحمد عمايرة. ود. عبد الحميد مصطفى السيد- مؤسسة الرسالة.- ط1: 1407هـ- 1986م. ص222.

﴿... وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ط ثُمَّ إِلَيْهِ

مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦﴾ الآية 60.

﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ...﴾ الآية 62. ﴿... وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ

الْحَقَّ﴾ يونس 30.

﴿... ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١١﴾﴾ الأنعام 91.

﴿... ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ الأنعام 108.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ...﴾ الأنعام 154.

﴿... ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ الأنعام 159.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ الأنعام 164.

ويجسُن هنا أن نُذكر أن حرف المهلة (ثم) قد استعمل في السورة لدلالات مختلفة حسب السياق، فمن معانيه الحقيقية إلى المجازية، ومن التراخي الزمني الذي يوحى أن بين المتعاطفين فترة وطول مدة، وبعده مهلة، ورثًا وانتظاراً يتيح فرصة النظر والاستبصار، أو انفصلاً وانقطاعاً... إلى التراخي الرتبي حين يكون بين المتعاطفين تفاضل ورُتب ودرجات، وتباين في الأحوال والصفات، من غير قصد مهلة زمانية. وقد يكون ترتيب إخبار، لا ترتيب أخبار وأحداث، في نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ...﴾ الأنعام 154، وردت مباشرة، بعد خطابات موجهة إلى هذه الأمة.

وقد يكون التراخي لاستبعاد مضمون ما بعد (ثم) عن مضمون ما قبلها. وهو على

ضربين:

1 - استبعاد تكديبي فيما استبعد فيه وقوع المعطوف، أو استحالة ترتبه على ما قبله، تشبيهاً لبعده الوقوع ببعده الزمان، تجسيداً للتنافر والتناقض بين المتعاطفين، وإبرازاً لما بين الحقائق والأوهام من افتراق.

2 - واستبعاد توبيخي: إذا استُنكر وقوع الفعل، كما هو الحال في الآيتين: ﴿...ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ الآية: 1...﴿...أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ الآية: 46. وما أظهر الاستنكار والتوبيخ في قوله تعالى من سورة البقرة ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده وأتم ظالمون﴾ الآية: 92/51.

وتلك المعاني وليدة النظر في السياق، ومراعاة المقام. فإذا تأملت - مثلاً - حرف المهلة والتراخي، في قوله تعالى ﴿...ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ الآية 8، والذي يفيد في الأصل، الفسحة في الزمن، وإتاحة الفرصة للنظر، وهو ما يُعرف بالتراخي الزمني؛ لكنّه هنا مُستبعدٌ، ينفيه عدم الإنظار المصرح به في الآية ﴿...لا يُنظَرُونَ﴾.

وعليه فلا بدّ « من حمّله على التراخي الرتبي، وبه تصوير المفاجأة بالعذاب لونا آخر من التعذيب، أشدّ، وأقسى من القضاء بالعذاب، وهو في مجال التهديد أقسى إيجاعاً مما لو دخلت الفاء المناسبة لعدم الإنظار، إذ لو قيل: "فَلَا يُنظَرُونَ"، لجعلته عقاباً واحداً معجلاً»<sup>1</sup>.

ويلاحظ التنوع في هذه الحروف الرابطة لعري الجمل المكررة، بما قبلها، أو فيما بينها، في النص الواحد أو السورة الواحدة، حسب ما يقتضيه المقام والأغراض:

- فتأتي الجمل المكررة أحياناً موصولة بما قبلها بالواو، نحو قوله تعالى:

﴿ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام... (149) ومن حيث خرجت فولّ... وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره... (150)﴾.

- وأحياناً أخرى بالفاء، كما في قوله تعالى: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ في سورة الرحمن، وقوله في سورة القمر: ﴿فكيف كان عذابي ونذري﴾.

1- من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم .د.محمد الأمين الخضري .ص.234.

- وثالثة بـ(ثم) فيما بينها، مثل الآيات الآتية: ﴿ و ما أدراك ما يوم الدين(17) ثم ما أدراك ما يوم الدين(18)﴾ و﴿ كلا سيعلمون(4) ثم كلا سيعلمون(5) ﴾، و﴿ كلا سوف تعلمون(3) ثم كلا سوف تعلمون(4)﴾.

- ورابعة ما تُركَّ العطفُ فيه، لكمال الاتصال، نحو قوله تعالى: ﴿ ويلٌ يومئذٍ للمكذِبين﴾ المرسلات:15، 19، 24، 28، 34، 37، 40، 45، 47، 49. وقوله تعالى في سورة الشعراء﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين(8) وإن ربك لهو العزيز الرحيم(9) ﴾ تكرر هذا المَرْكَبُ في السورة، في الآيات الآتية:(67- 68) و(103- 104) و(121- 122) و(139- 140) و(158- 159) و(174- 175) و(190- 191).  
- وخامسه ما تُركَّ عطفه على السابق، وعُطِفَ فيما بيْنَهُ بالفاء وثمَّ؛ وذلك في قوله تعالى:

﴿أولى لك فأولى(34) ثُمَّ أولى لك فأولى(35)﴾ القيامة.

وقد يُعْطَفُ على ما قبله بالفاء، وفيما بينه بـثمَّ نحو قوله تعالى: ﴿فقتل كيف قدر(19) ثم قتل كيف قدر(20)﴾ المدثر.

ولكل هذه التنوعات في الروابط اللفظية، أثر في المعنى، وانعكاس في الدلالة، يتناسب والموقع الجديد، والسمات العامة للسورة.

# الفصل السادس

أغراض التكرار وأساراه  
والقصص القرآني وأغراضه

## أغراض التكرار وأساراه

هناك أغراض عامة للتكرار تستقطب طائفة عريضة من المعاني المختلفة كغرض التوكيد والتقريب والتفريع والتنبيه. وتندرج ضمن كل غرض منها، أغراض فرعية. ولكل غرض منها أسرار خاصة يكشف عنها المقام والسياق.

وبينا أنا على وشك طبع النسخ التي أقدمها للقراءة و المناقشة؛ إذ وفاني أحد الأساتذة المقربين إلى نفسي، بمخطوطة صغيرة (ذات ست صفحات) موسومة بـ «الجواب في التكرار الواقع في القرآن الكريم». للشيخ محمد عمر بن عبد الغني الغزّي العامري مفتي الشافعية بدمشق.

وهي عبارة عن جوابٍ سائلٍ عن الحكمة من ورود التكرار في القرآن، مع أنه « في غير القرآن منافٍ للفصاحة ومُباينٌ للبلاغة وأن القرآن العظيم معجز بفصاحته ومفحم ببلاغته. فما وجه التكرار مع ذلك؟ وما الحكمة فيما هنالك؟ فأجبت السائل لما هو طالب<sup>1</sup>»

فيجيب بأن التكرار في القرآن هو عين البلاغة منطلقاً مما قرره السكاكي في المفتاح والسعد التفتازاني في المطول، وغيرها ممن أجمعوا على أن البلاغة في الكلام مطابقتها لمقتضى الحال مع فصاحته.

وأن التكرار من حيث أنه تكرر من عيوب الكلام وبه عابوا قول العرب «القتل أنفى للقتل» ونزهوا قوله تعالى «ولكم في القصص حياة» عن نقيصة التكرار.

ثم يقول الغزّي «إن التكرار الواقع في بعض الآيات الكريمة إنما هو على حسب مقتضى الحال وقد بين الله سبحانه حكمة التكرار و فوائده في قول تعالى ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق و موعظة و ذكرى للمؤمنين﴾ فكلما اعتبر به ما اقتضاه الحال كان الكلام به بليغاً لحصول المعنى بوجوده وظهور الفائدة بذكره. ثم أعلم أن القرآن الحكيم على أربعة أنواع: أحكام و قصص و مواعظ و متشابه. فإن وقع التكرار في الأحكام كان تأكيداً واستظهاراً في الموافق و ناسخاً

1- مخطوطة جامعة هارفرد (كومبردج) ص 1. وقد أرخها ناسخها في 22 محرم 1269هـ.

ومنسوخا في المغاير كآية العدة في المتوفى عنها زوجها لسنة فانسخت بأربعة أشهر وعشرا. وكآيات الجهاد وغير ذلك وإن وقع التكرار في المواضع فقد يكون ذلك لنكتة كتعداد النعم المستفادة من اسم الرحمن وهو المنعم بجلائل النعم كما في سورة الرحمن وعند ذكر كل نعمة. والآلاء هي النعم. فجاء قوله تعالى فباي آلاء ربكما تكذبان، والخطاب للجن والإنس»<sup>1</sup>.

ثم يشير الغزبي إلى أغراض وفوائد بعض الآيات، نفلا عن السكاكي والسعد؛ منها الردع والتخويف وتأكيد الإنذار فيما تكرر في سورة التكاثر وفي آخر الانفطار، أو كان للتعطف كتكرار (ياقوم)، أو كان لتذكّر ما بعد بسبب طول الكلام. وإن أغلب فوائد تكرار القصص، يرجع إلى تثبيت فؤاد النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وإبراز بعض الأحكام، وبيان بعض آيات والمعجزات، وحكم الله تعالى وأسراره في الخلق والتقدير، وارتباط القصص بالأحكام قبلها وبعدها.

ثم يشير في الأخير إلى أنّ تكرار الحروف والكلمات المتشابهة في أوائل السور مثل (حم وطس...) هو من المتشابه لفظا ومعنى، والمفوض علمه إلى الله تعالى<sup>2</sup>.

ومع ذلك فأغراض التكرار عديدة متنوعة، لاتكاد تحصر، لدخول عدة اعتبارات في تحديدها، ولتداخل بعض الأغراض أحيانا، واشتراك بعض النماذج والشواهد في غرضين أو أكثر، فضلا عن كونها صورة من التفسير والتأويل المفتوح.. ولذلك نجد اتفاقا في بعضها لدى بعض الدارسين، وهذا أغلبه مما ينقله بعضهم عن بعض. كما نجد اختلافا بينا في البعض الآخر، وهذا مرده إلى الاجتهاد الشخصي.

ولقد تأملت أغراض التكرار عند ابن قتيبة والزمخشري، وابن الأثير والزرکشي والسيوطي، وعند بعض المفسرين، ومن تناول أغراضه من المحدثين، حسب ما تيسر لي. فانتيقث وهذبْتُ، واجتهدتُ وأضفتُ. وأجملته في الأغراض الآتية:

1- نفسها ص 2 و 3.

2- أنظر المخطوطة السابقة ص 3- 6 .

1- غرض التنبيه على ما ينفي التهمة، وذلك حين يُكرَّرُ المُخَاطَبُ ما بُنِّتُ صِلَتُهُ بالمتحدِّثِ إليهم، وَيُشْعِرُ بقربه منهم؛ كتنكرار (يا قومي) المشعرِ بالانتماء إليهم في قوله تعالى:

﴿ وقال الذي آمن يا قوم اتبعوني أهدم سبيل الرشاد (38) ﴾ حيث تكررت ﴿ يا قوم ﴾ في السورة ستَّ مرات (29، 30، 32، 38، 39، 41).

أو تكرار خطابِ الأبوة ﴿ يا أبتِ ﴾ الذي يفيض عطفًا وحنانًا، وصدقًا وإخلاصًا، فلا محل للتهمة فيه. وذلك في خطاب إبراهيم - عليه السلام - لأبيه في سورة مريم، عليها السلام:

﴿ إذ قال لأبيه يا أبتِ لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً (42) يا أبتِ إني قد جاءني من العلم ما لم ياتك... (43) يا أبتِ لا تعبد الشيطان... (44) يا أبتِ إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً (45) ﴾.

حتى إذا جاء خطابُ البُؤَّةِ (يَابِيَّ) كان الأمرُ أبعدَ ما يكون عن التهمة. كالذي يوحى به تكرار (يابني) في خطابِ لقمان لابنه: ﴿... يابني لا تشرك بالله إنَّ الشرك لظلم عظيم (13)... (14)... (15) يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردل... (16) يابني أم الصلاة وامر بالمعروف وانه عن المنكر... (17) ﴾. ومع ما يحمل هذا النوع من الخطاب من شحنة عاطفية، وشفقة أبوية، فقد لا تجد صدَى ولا استجابةً عند القلوبِ المُقفلَّة، والأفئدةِ الموصدةِ التي قد طُبِعَ عليها، كقلب ابن نوح عليه السلام ﴿ونادى نوحُ ابته وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين (42) ﴾ هود. أو كفؤادِ آزر أبي إبراهيم عليه السلام، الذي كان قراره الأخير ﴿... يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً (46) ﴾ فانظر إلى خطاب الجفاء والقطيعة والإيحاء؛ إذ خاطبه بـ (يا إبراهيم) دون (يا بني)؛ بينما كان خطاب إبراهيم، عليه السلام، خطابَ إشفاقٍ وِبرٍّ وإيناسٍ؛ إذ قال (يا أبت) ولم يقل (يا آزر).

2- وهناك من التكرار ما جاء لتطرية الذهن، وإنعاشاً للذاكرة، وتجديداً للعهد، إذا طال الفصل وخشي تناسي الكلام الأول، فيعاد ثانية. ونماذجه أشرنا إليها في محالها.

3- وغرض التهويل والتعظيم: كتكرير ﴿ أصحاب اليمين، ما أصحاب اليمين(27) ﴾، و﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾، و﴿ وما أدراك ما يوم الدين(17) ﴾ ثم ما أدراك ما يوم الدين(18) ﴾، و﴿ القارعة(1) ما القارعة(2) وما أدراك ما القارعة(3) ﴾.

4- ومن التكرار ما جاء لتأكيد الردع والإنذار، ومضاعفة التهديد والوعيد، في مثل قوله تعالى: ﴿ كلا سيعلمون(4) ﴾ ثم كلا سيعلمون(5) ﴿ النبأ.

وقوله: ﴿ كلا سوف تعلمون(3) ﴾ ثم كلا سوف تعلمون(4) ﴿ التكاثر.

5- ومنه جاء للتعجب من الموقف، والتنبية على غرابته. نحو قوله عز وجل: ﴿ فقتل كيف قدر(19) ﴾ ثم قتل كيف قدر(20) ﴿ المدثر.

6- وقد يكون التكرار لتعدد المتعلق، وهو خاص بما تكرر عدة مرات، في السورة الواحدة، بحيث يكون كلُّ مُكْرَرٍ متعلقًا بغير ما تعلق به سابقه أو لاحقاً. فكل تكريرة تضيف معنىً جديداً، كالحزام الذي تَوَشَّحَتْ به سورة الرحمن (31 مرة) أو الذي اصطبغت به سورة المرسلات (10 مرات) أو الذي أزيئت به سورة الشعراء (8 مرات).

7- وقد يكون التكرير بقصد التحقق والتمكّن، والاستيعاب والتثبيت. كما في قوله تعالى في سورة الملك: ﴿ فارجع البصر هل ترى من فطور(3) ﴾ ثم ارجعي البصر كَرَّتَيْنِ..(4) ﴿

8- وقد يكون للدلالة على الإبطاء في الفعل والمهلة فيه. وهذا الغرض أشار إليه ضياء الدين بن الأثير (637هـ)، بعد تنقيبٍ وتثقيبٍ، وبحثٍ طويلٍ، إثر مُفاوِضَةٍ جَرَتْ بينه وبين رجل من النحويين، يرى زيادة (أَنْ) الواقعة بين (لماً) و الفعل، وابن الأثير ينكر القول بالزيادة بلا إفادة في القرآن الكريم؛ وذلك في قوله تعالى في سورة القصص: ﴿ فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما... (19) ﴾ وَ قَوْلُهُ فِي سُورَةِ يُوسُفَ: ﴿ فلما أن جاء البشيرُ ألقاه على وجهه فارتدَّ بصيراً... (96) ﴾. يقول ابن الأثير عن ذلك: «ولمَّا نظرتُ أنا في هذه الآية وجدتُ لفظة (أَنْ) الواردة بعد (لماً) وقبل الفعل

دالةً على معنى<sup>1</sup> «ويوضح ذلك في آية القصص فيقول: «فقوله تعالى ﴿ فلما أن أراد أن يبطش ﴾ بتكرير (أن) مرتين دليل على أن موسى - عليه السلام - لم تكن مسارعتة إلى قتل الثاني كما كانت مسارعتة إلى قتل الأول، بل كان عنه إبطاءً في بسط يده إليه، فعبر القرآن عن ذلك في قوله تعالى: ﴿ فلما أراد أن يبطش ﴾.<sup>2</sup>

ثم يشير إلى هذا الإبطاء في آية يوسف قائلا « وأما قوله تعالى: ﴿ فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه ﴾ فإنه إذا نُظِرَ في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته منذ ألقاه في الجب إلى أن جاء البشير إلى أبيه عليه السلام، وُجِدَ أنه كان ثمَّ إبطاءً بعيداً، وقد اختلف المفسرون في طول تلك المدة، ولو لم يكن ثمَّ مدةً بعيدةً وأمدَّ مُتَطَاوِلٌ لَمَا جِيَءَ بِأَنْ بَعْدَ «لَمَّا» وَقَبْلَ الْفِعْلِ، بل كانت تكون الآية: فلما جاء البشير ألقاه على وجهه.<sup>3</sup>

9- أو يكون بغرض تثبيت المكرر في النفس، والإلحاح عليه، لِنَفَاسَتِهِ وَشِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ. كالأمر بالتقوى في قوله تعالى: ﴿ اتقوا الله ولننظر نفس ما قدمت إغداً واتقوا الله... (18) ﴾ الحشر.

10- الإشعار بقيمة المكرر وعظيم قدره، كتكرار (ليلة القدر) ثلاث مرات متوالية.

11- أو بغرض تقرير المعنى في القلب، وتمكينه في النفس، لتأنس به في الوحشة، وتستروح إليه في الشدة. فهو بمثابة تعجيل البشارة للمهمومين. كالذي نلمسه، في تكرار الجملة في قوله تعالى ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) ﴾ الشرح.

12- تكرير للتخويف من سوء المصير، وتصعيد الشعور بالرهبة من الوصف، في صور منوعة باعتبار تعدد المتعلق. يتجلى ذلك في تكرار ﴿ويل يومئذ للمكذبين ﴾ في سورة المرسلات .

1- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - لضياء الدين ابن الأثير - قدمه وجقته وعلق عليه: د/ أحمد الحوفي - و د/ بدوي طبانة. - القسم الثالث - ص 14 ط 1: 1381هـ - 1962م. مكتبة نهضة مصر بالفجالة.

2- نفس المصدر. ص 13

3- نفسه ص 14.

13- للتحذير من الفعل ، والتنفير من الوصف ، نحو قوله تعالى في البقرة ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ (79) .

14- تكرير بغرض تنبيه المتلقى المخاطب أو السامع، إلى خصوصية الوصف الذي نُبِّهَ به وإلى مدى مناسبته لِمَا يلقى عليه من الأوامر والنواهي، عند كل تَكْرِيرَةٍ تتجدد ؛ كتخصيص المخاطبين في سورة الحجرات، بـ ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ دون سائر الناس، في خمس مَحَطَّاتٍ تنتظم فيها العلاقات الاجتماعية، على أساس من الإيمان الذي خالط بشاشة القلوب، فنودوا به.

وقال الزمخشري عن هذا النداء المحبَّب المشرفِ المُكَلِّفِ «إعادة النداء عليهم استدعاءً منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطابٍ واردٍ، وتطرية الإنصات لكلِّ حُكْمٍ نازلٍ...، لئلا يفترؤا ويغفلوا عن تأملهم»<sup>1</sup>.

15- تعظيم شأن المكرر من المشار إليه، والإهتمام به، بتكرار ذكره، في مواضع متقاربة كقوله تعالى في البقرة: ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ (5) ﴿وقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ البقرة 157

وقوله تعالى في سورة الزمر: ﴿...فَبَشِّرْ عِبَادِ (17) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْأُولَاءُ (18)﴾  
و منه ما جاء في الحديث الشريف: "ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يضي ثلث الليل الأول، فيقول: أنا الملك، أنا الملك، من ذا الذي يدعوني فاستجب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يستغفرنى فأغفر له؟ فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر."<sup>2</sup>

1- تفسير الكشاف : 554/3

2- رواه مسلم.

16- وعلى العكس من هذا الغرض، غرض تقييح حال القوم والتشجيع بهم، قصد التنفير مما دأبوا عليه؛ كالذين صار أمرهم ظلماً لأنفسهم، من قوم موسى عليه السلام. أو الذين أصبح دأبهم التكذيب، من قوم شعيب عليه السلام:

- ﴿ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ البقرة: 59.

- ﴿الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين﴾ الأعراف: 92.

17- تشديد الإنذار، و تأكيد الإنكار، كما في قوله عزَّوَجَلَّ في الأعراف ﴿أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (97) وَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضَحَى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98) .

18- غرض الابتهاال: وهو التضرع في الدعاء مع الإلحاح و الاسترسال فيه، ويتجلى في حرارة تكرار النداء، و هو سرُّ إجابة الدعاء: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾<sup>1</sup>، في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (١٢١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ<sup>٢</sup> وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (١٢٢) رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ (١٢٣) رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ<sup>٣</sup> إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (١٢٤) الآيات:

191، 192، 193، 194. من سورة آل عمران؛ حتى قال جعفر الصادق، رحمه الله، مُتَأَوِّلاً تَكَرَّرَ (رَبَّنَا) فِي هَذِهِ الْآيَاتِ «مَنْ حَزَبَهُ أَمْرٌ فَقَالَ، خَمْسَ مَرَّاتٍ،: (رَبَّنَا) أَنْجَاهُ اللَّهُ مِمَّا يَخَافُ، وَأَعْطَاهُ مَا أَرَادَ»<sup>2</sup> وقد سبق إلى نحو ذلك، الحسنُ البصريُّ، رحمه الله، حين قال عن الدَّاعِينَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ: «حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ

1- من الآية: 195 من سورة آل عمران.

2- تفسير الفرطبي: 318/4.

قالوا خمس مَرَّات رَبَّنَا، ثم أخبر أنه استجاب لهم، إلا أنه أتبع ذلك رافع الدعاء وما يستجاب به، فلا بدَّ من تقديمه بين يدي الدعاء.<sup>1</sup> «

ويقول الزمخشري عن غرض هذا التكرار «وتكرير رَبَّنَا من باب الابتهاال وإعلام بما يُوجِبُ حُسْنَ الإجابة وحسن الإثابة»<sup>2</sup>.

ومن هذا الباب دعاء سيّدنا إبراهيم عليه السلام في سورتي البقرة وإبراهيم :

- ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا.....(126)﴾

- رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127)

- رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ.....(128)

- رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ.....(129). ﴿

وفي سورة إبراهيم:

- ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا.....(35)﴾

رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ.....(36)

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمَ

الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ.....(37)

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نَخْفِي وَمَا نَعْلُنُ.....(38).....(39)

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دَعَاءِي(40)

رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿ (41)﴾

ومن هذا الواد أيضا ابتهاال زكريا عليه السلام بالدعاء: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهِنَ

العَظْمِ مَنِي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدَعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا(4).... (5) ..... واجعله

رَبِّ رَضِيًّا(6)﴾.

1- تفسير الكشاف: 1/490.

2- نفس المصدر.

ومن أسباب تحقيق الإجابة ،فضلا عن حرارة الدعاء بالابتهاال وتكرير النداء، حُسْنُ الظن بالله ،والإيقان بالإجابة.وقد تَحَقَّقَ هذا الشرط في الأدعية السابقة صريحا أو بالتضمن. فتأمله فيها.

19- ومن الأغراض التي غُفِلَ عنها ولا يَكَادُ يُتَعَرَّضُ لها، الإِطْلَاعُ على دقة الاستعمال، وتَقْرِيرُ صِحَّتِهِ. وذلك كَأَنَّ يَرِدَ اللفظُ على خلاف ما وضع له في الظاهر، فيُرَدُّ إلى الأصل المتبادرِ إلى الذهن. والأَسْمُ حمله على ظاهره.

ومن أقرب الشواهد على هذا، ما تكرر من التركيب في الآيتين:

- ﴿ يا ويلنا قد كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾. الأنبياء: 97.

- ﴿ لَقَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ سورة ق: 22 .

تجدُّ جُلًّا مَنْ تَعَرَّضَ لِمَعَانِي "مِنَ" الْجَارَةِ يَشِيرُ إِلَى أَنَّهَا تَأْتِي لِلْمَزَاوَلَةِ وَالْمَجَاوَزَةِ بِمَعْنَى "عَنْ" ؛ وَسُنْدُهُ فِي ذَلِكَ صِحَّةٌ تَفْسِيرٌ "مِنْ" بِـ "عَنْ" فِي مَوَاضِعَ مَعْدُودَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَهِيَ عَلَى التَّوَالِي :

– الموضعان السابقان المشار إليهما من سورة الأنبياء وسورة ق.

– ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا... ﴾ القصص : 15

– ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الزمر: 22.

– ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ قريش: 4.

والحاملُ على هذا التخريج، تسويغُ تَعَلُّقِ هذا الحرفِ (مِنْ) بِالْحَدَثِ (غَفْلَةٍ - القاسية - أطعمهم.).

يشيرُ القراءُ (207هـ) في وقت مبكر إلى صحة حمل هذا الحرف على المعنيين (من، وعن) في آية الزمر. فكلاهما صواب. فكأنَّ « قوله: قست من ذكره أنهم

جعلوه كذبا فأقسى قلوبهم: زادها قسوة. وكان من قال: قسّث عنه، يريد: أعرّضت عنه.<sup>1</sup> «

ويُورِدُ صاحب رصف المباني أحمد بن عبد النور (702هـ)، هذا المعنى لـ "من" في الموضوع الخامس، وهو أن تكون للمزاولة بمعنى "عن". ويمثل لها بآية قريش.<sup>2</sup>

ويذكره ابن هشام صاحب المغني (761هـ) في المعنى السادس لـ "من" وأنها مرادفة لـ "عن" ويستشهد لها بآية الزمر، وآية الأنبياء.<sup>3</sup>

وعنه أخذ مصطفى الغلاييني غير أنه جعله المعنى الثامن والأخير من معاني "من".<sup>4</sup>

وجعله صاحب "أثر اللغة في اختلاف المجتهدين" المعنى الثاني عشر، وهو المعنى الأخير لـ "من".<sup>5</sup>

ويستدلون على صحة معنى المجاوزة لـ "من" بقوله تعالى: ﴿يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين﴾. الأنبياء: 97. لأنَّ "غفل" تتعدى بـ "عن" وليس بـ "من" كما هو في الآية. فليس لها - حسب زعمهم - إلا أن تفسر بـ (عن) رداً إلى الأصل، وتخلصاً من الإشكال. وجعلوا تكرر هذا الاستعمال، وهو تعدية (غفل) بـ (من)، دليلاً آخر على معنى المزاولة فيها.

والصواب في عكس ما ذهبوا إليه؛ فتكرر هذا الاستعمال، دليل على أنه مراد بعينه، فلا يحول إلى غيره.

1- معاني القرآن للفراء. 418/2.

2- أنظر رصف المباني. للمالقي. 389.

3- أنظر المغني لابن هشام. 423.

4- أنظر جامع الدروس العربية. للغلاييني. 173/3.

5- أنظر أثر اللغة في اختلاف المجتهدين. عبد الوهاب عبد السلام طويلة: 224.

فدلَّ هذا التكرار على أنَّ هناك: (غفل عن) وهو الأصل المشهور الذي جاء به القرآن: ﴿وَأْتَمَّ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾، ﴿لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ﴾، ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾، ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وهناك (غفل من) وهو معنى غير المزاولة، يستدعي التريث ومزيديا من التأمل لتكرار وروده في آي الذكر الحكيم :- ﴿قد كنا في غفلة من هذا...﴾ - ﴿لقد كنْت في غفلة من هذا...﴾

- ﴿...على حين غفلة من أهلها...﴾ وإن كانت هذه الأخيرة من واد آخر.

ويُلحَق بهذه الشواهد التي فسّرت فيها (من) بـ(عن) قوله تعالى: ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾. الزمر: 22.

ومما يدل على إقام هذا المعنى لـ(من) وتكلفه لها، أنَّ بعض الأئمة العلماء لم يكثرثوا بتأويل مَنْ سَبَقَهُمْ ، لها بـ(عن) ؛ وإنما حملوها على ظاهرها: فاعتبروا وجودها، ولم يهملوا دلالتها. فترى جامع العلوم أبا الحسن الباقولي (543هـ) يُؤوّل آية الزمر السابقة دون أن يغيّر من دلالة "من" أو يحاول إهمالها، ولو اضطره ذلك إلى أن يُقدّر ، محذوقاً مجروراً بـ"من" مضافاً إلى ما بعدها؛ فيقول عن الآية ﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ﴾: « أي من ترك ذكر الله، لأنَّ القلب يقسو من ترك ذكره . ويجوز أن يكون كقوله ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمازت﴾ لما كانت تشمئز عند ذكر الله ، جاز أن يقال: قست من ذكر الله ، أي من ذكر الناس الله. »<sup>1</sup>.

وقال صاحب البحر المحيط (754هـ) مفسراً "من" في هذه الآية: «أي من أجل ذكره، أي إذا ذكر الله عندهم قست قلوبهم. وقال مالك بن دينار: ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة قلب»<sup>2</sup> فهي هنا- عنده للتعليل. وبه فسرها أيضاً، في الآية الأخرى من سورة (ق): ﴿لقد كنت في غفلة من هذا﴾، أي من عاقبة الكفر<sup>3</sup>.

1- كشف المشكلات وإيضاح المعضلات. صنعة جامع العلوم أبي الحسن الباقولي. 1162/2.

2- البحر المحيط لأبي حيان 194/9

3- نفسه ص 536

وَرُبَّمَا يُسَوِّغُ هَذَا التَّخْرِيجَ، مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْمَبْرَدُ مِنْ أَنَّ الْعَرَبَ « تُشِيرُ بِ  
(هذا) إِلَى الْغَائِبِ »<sup>1</sup>. وَاسْتَشْهَدَ بَيْتَ جَرِيرِ:

هَذَا ابْنِ عَمِي فِي دِمَشْقٍ خَلِيفَةٌ      لَوْ شِئْتُ سَأَقُكُمْ إِلَيَّ قَطِيئًا  
وَذَلِكَ لِرَفْعِ إِشْكَالِ الْإِشَارَةِ .

وَوَجَدْنَا ابْنَ هِشَامٍ يُقَرِّرُ مَعْنَى "مِنْ" وَلَا يَلْغِيهِ، فَيَقُولُ عَنْهَا فِي الْآيَةِ ﴿ يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا  
فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ﴾: « وَقِيلَ: هِيَ فِي هَذِهِ لِلْإِبْتِدَاءِ لِتَفِيدَ أَنَّ مَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْعَذَابِ  
أَشَدُّ، وَكَأَنَّ هَذَا الْقَائِلَ يَعْطِقُ مَعْنَاهَا بِوَيْلٍ مِثْلَ ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ ق: 27،  
وَلَا يَصِحُّ كَوْنُهُ تَعْلِيْقًا صِنَاعِيًّا لِلْفَصْلِ بِالْحَبْرِ »<sup>2</sup>. ثُمَّ يَقُولُ عَنْهَا وَعَنْ آيَةِ الزَّمْرِ قَبْلُهَا :  
« وَقِيلَ: هِيَ فِيهَا لِلْإِبْتِدَاءِ، أَوْ هِيَ فِي الْأَوَّلَى لِلتَّعْلِيلِ، أَيُّ مِنْ أَجْلِ ذِكْرِ اللَّهِ، لِأَنَّهُ إِذَا ذَكَرَ  
قَسَتْ قُلُوبَهُمْ. »<sup>3</sup>.

وَبِنَاءِ عَلَى مَا سَبَقَ فَإِنَّهُ مِنَ الْخَطَأِ الْمُنْهَجِيِّ أَنْ يُتَصَوَّرَ مَعْنَى الْمَجَاوِزَةِ فِي (مِنْ)  
لِتَفْسِيرِ التَّرْكِيبِ (فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا). حَتَّى إِذَا تَكَرَّرَ هَذَا التَّرْكِيبُ فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى،  
اعْتَبَرْنَاهُ دَلِيلًا عَلَى صِحَّةِ تَصَوُّرِنَا وَافْتِرَاضِنَا. وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ دَلِيلٌ عَلَى تَوْهَمٍ خَاطِئٍ؛ إِذْ  
تَكَرَّرَ وَرُودِهِ، إِقْرَارُ لَذَلِكَ التَّرْكِيبِ، وَتَنْبِيهِ إِلَى صِحَّةِ الْإِسْتِعْمَالِ، وَدَقَّةِ الْعِبَارَةِ. وَهُوَ  
غَرَضٌ مِنْ أَعْرَاضِ تِكْرَارِ مِثْلِ هَذِهِ التَّرَاكِيْبِ الَّتِي جَاءَ ظَاهِرُهَا عَلَى غَيْرِ الْأَصْلِ الَّتِي  
قَرَّرَهُ النَّحَاةُ، إِقْرَارًا لِذَلِكَ الظَّاهِرِ، وَتَنْبِيْهَا لِمَعْنَاهِ الَّذِي أَهْمَلُوهُ وَغَفَلُوا عَنْهُ، وَلَيْسَ إِقْرَارًا  
لِتَقْدِيرِهِمْ وَلَا تَصْدِيقًا لِتَخْرِيجِهِمْ، كَمَا يَتَوَهَّمُونَ.

20- وَهَنَّاكَ تِكْرَارًا بِغَرَضِ تَعَدُّدِ الْمُرَادِ مِنَ اللَّفْظِ الْمَكْرَّرِ الدَّالِّ عَلَى الْمَعْنَى الْوَاحِدِ. يَظْهَرُ  
لَكَ ذَلِكَ، عِنْدَ التَّمَعُّنِ فِيهِ؛ كَالَّذِي نَجَدَهُ فِي الْآيَاتِ الْآتِيَةِ :

1- البحر المحيط: 292/8

2- المغني لابن هشام. ص: 423.

3- نفسه .

1 - «... لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها...» البقرة: 48 و 123. فالنفس الأولى، غير الثانية في الآيتين، فيصِرْنَ فيها أَنْفُسًا: النفس الهالكة والنفس الناجية والنفس التي تتوسَّط بالشفاعة، والتي تتوسط بدفع العدل.

يقول بدر الدين بن جماعة (733هـ) عن هذه الآية «الضمير في (منها) راجع في الأولى إلى النفس الأولى، وفي الثانية راجع إلى النفس الثانية. كأنه بيّن في الآية الأولى أنّ النفس الشافعة الجازية عن غيرها، لا تُقبَلُ منها شفاعةٌ، ولا يُؤخذُ منها عدلٌ؛ ولأنّ الشافعَ يقدّمُ الشفاعةَ على بذل العدل عنها، وبيّن في الآية الثانية أن النفس المطلوبة بِجُرمِها لا يُقبَلُ منها عدل عن نفسها، ولا تنفعها شفاعة شافع فيها، وقدم بدل العدل لحاجته إلى الشافعة عند رده؛ فلذلك قال في الأولى: «لا يقبل منها شفاعة» وفي الثانية «ولا تنفعها شفاعة»؛ لأنّ الشفاعة إنما تقبل من الشافع، وإنما تنفع المشفوع له»<sup>1</sup>.

2- «وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو» البقرة: 36. «قلنا اهبطوا منها جميعا» البقرة: 38. قيل: هما هبوطان.

3- «وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهنّ فأمسكهن بمعروفٍ أو سرحوهن بمعروف.» البقرة: 231.

- «وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهنّ فلا تعضلوهنّ أن ينكحن أزواجهن...» البقرة: 232.  
- «.. فإذا بلغن أجلهنّ فلا جناح عليكم فيما فعلنا في أنفسهن بالمعروف...» البقرة: 234. فبلوغ الأجل هنا بلوغان على أقل تقدير.

4- «فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم..» البقرة: 198.

- «فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا...» البقرة: 200.

- «واذكروا الله في أيام معدودات...» البقرة: 203.

1- كشف المعاني في مثابه المثاني . بدر الدين بن جماعة- حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور محمد محمد داود. ص58. دار المنار للطبع والنشر- الطبعة الأولى 1418هـ 1998م.

إنها أذكار مخصوصة لمقامات مخصوصة في أوقات معلومة. فهناك ذكر في مزدلفة عند المشعر الحرام (جبل قزح)، وذكر بعد رمي جمرة العقبة، وذكر رمي أيام التشريق، وأذكار أخرى كثيرة ضمن أعمال الحج موصولة لا تنقطع.

5 - ﴿الذين قال لهم الناس إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ آل عمران: 173. فالتاس الأولى غير الناس الثانية بقريظة السياق والمقام.

6 - ﴿وحسبوا ألا تكون فتنةً فعَمُوا وَصَمُوا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم...﴾ المائدة: 71. فالعمى والصمم الثاني غير الأول، وقع بعد توبة من الأول، وهو أشنع وأزدي.

7- ﴿ويريد الله أن يُحِقَّ الحَقَّ بكلماته وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكافرين (7) لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبْطِلَ الباطلَ ولو كره المجرمون (8)﴾ الأنفال. (أن يُحِقَّ الحَقَّ) الأولى، بيان لإرادة الله تعالى. و(لِيُحِقَّ الحَقَّ) الثانية، بيان إنجاز وعده بقطع دابر الكافرين، ونصر المؤمنين.

8 - ﴿...اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله﴾ الحشر: 18. قيل: إنَّ المأمور فيها واحد . « ورجحوا ذلك على احتمال أن تكون التقوى الأولى مصروفة لشيء غير (التقوى) الثانية، مع شأن إرادته. »<sup>1</sup>.

21 - ومن أغراض التكرار ما كان للتنبيه على خصوصية من خصوصيات السورة، وملح من شخصيتها؛ وذلك في ما اختلف التشابه فيه، في لفظة هي محلُّ التميُّز والخصوصية. نحو ما تلمسه بين قوله تعالى في سورة الحج:

﴿وترى الأرض هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج (5) ذلك بأنَّ الله هو الحقُّ وأنه يجي الموتى وأنه على كل شيء قدير (6)﴾  
وبين قوله تعالى في سورة فصلت:

1- البرهان في علوم القرآن. للزركشي. 12/3.

﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحيها لمُحيي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ الآية: 39.

فسورة الحج يناسبها (هامدة) لِتَنْتَظِمَ في سياقها مَعَ السَّبَاقِ وَاللَّحَاقِ، فهي بمثابة المفتاح والإقليد للوقوف على السَّماتِ وَالْخِصَائِصِ الممتدَّة في فضاء السورة. ف(هامدة) توحى بالخمود والخمول والجمود والسكون وعدم الحراك الذي هو شبيهه بالموات؛ لكنه يتبياً لتدب فيه الحياة وينشر من جديد، وفيه دليل ساطع على البعث والنشور بعد الموت، وهذا يتناغم مع ما ورد قبله من الحديث عن خلق الإنسان من تراب مَيَّت ثم من نطفة هامدة إلى مضغة خامدة إلى أَنْ يُخْرِجَهَا طِفْلاً بَشَرًا يَنْتَشِرُ... : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة... ثم نخرجكم طفلاً.. ﴾ الحج: 5. ويتجلى مضمونها فيما جاء بعدها : ﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾ الحج: 7. ف ( هامدة) إشارة إلى حال الأرض بين يدي إحيائها، لِيُسْتَدَلَّ بها على الخالق سبحانه وتعالى: ﴿ ذلك بأن الله هو الحقُّ وأنه يحيي الموتى ﴾ الحج: 6. ويدلُّك على أن هذا من أغراض السورة، أنه يتجدد في نهاياتها، حيث يُصَحِّبُكَ هناك في مَثَلٍ آخَرَ، يُثَبِّتُ أَنَّهُ - سبحانه - وَحْدَهُ الخَالِقُ القَادِرُ على الخلق: ﴿ يا أيها الناس ضُربَ مَثَلٍ فاستمعوا له إنَّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ... ﴾ الحج: 73.

وبين ذاك المطلع وهذا الحتام، تستوقفك محطَّات تحيا بها القلوب، تَوْقِظُ شُعُورَ الخامل، وتُثَبِّتُهُ الغافل، ليعلم أنَّ قدرة الله وراء كلِّ حركةٍ وسكونٍ، تقديراً و تسخيراً: - ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها... ﴾ الحج: 46.

- ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مُخْضَرَّةً... ﴾ الحج: 63.

- ﴿ ألم تر أن الله سَخَّرَ لَكُمْ ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره... ﴾ الحج: 65.

بينما آثرت سورة (فصلت) لفظة "خاشعة" لِتُلَبِّسَ ذاك السكونَ والهمودَ ثَوْبَ الخشوع والخضوع والخشية والهيبة لجلال الله وعظمته، وهي وصف يُعَمُّ جميع

المخلوقات ماعدا قبيلاً من العقلاء تَمَرَّدَ وَتَجَبَّرَ، عناداً واستكباراً. وهو مَوْقِفٌ مُجَافٍ للصواب، لا يليق بأولي الألباب. فترى السورة تَعْرِضُ أَلْوَانًا من هذا الطَّيفِ، قبل هذه الآية وبعدها:

فَمِمَّا يُنَاسِبُ "خَاشِعَةً" مما قبلها من الآيات، خضوعُ السماء والأرض وانقيادهما ﴿قالتا أتينا طائعين﴾ فصلت:11. وتصور أبو نصر السكسكي أنَّ الناطق هنا من الأرض، موضع الكعبة، وأنَّ الناطق من السماء، ما بِجِئَالِ الكعبة. فلذلك جعل الله لهما حرمة.<sup>1</sup>

كما تتناسبُ مع السجودِ والتسبيحِ؛ إذ وقعت الآية مباشرةً بعد سجود تلاوة<sup>2</sup> ﴿..واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون (37) فإن استكبروا فالذين عند ربك يُسَبِّحُونَ له بالليل والنهار وهم لا يسأمون (38)﴾ فصلت.

وكذلك خضوعُ الجوارحِ لِذِي خلقهن، فيشْهَدْنَ على أصحابهن ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فصلت:20. وَ هُنَّ يَعْجَبْنَ مِنْ إِنْكَارِ أَصْحَابِهِنَّ فيقلن لهم :

﴿ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾ فصلت:21. والملاحظ أنه جاء التعبير عن تلك الجوارح بجماعة العقلاء (قَالُوا)، إِيْمَاءً إِلَى أَنَّ مَوْقِفَهُمْ هَذَا، هُوَ مَوْقِفُ أُولِي الألبابِ حَقًّا. والله أعلم.

وفي المُقَابِلِ تَجَدُّ مَوْقِفَ ذَوِي القلوب الماردة، والنفوس العاندة، والطباع الشاردة، بين الأقسام عبر الأزمان. فَتَأَمَّلْ هذه النماذج وَتَدَبَّرْ:

— ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ...﴾ فصلت:15.

— ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا العَمَى عَلَى الهُدَى...﴾ فصلت:17.

— ﴿ وَفَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا القُرْآنِ وَالعِغْوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ...﴾ فصلت:26.

ثم تأتي آية السجدة لِتُوثِقَ الصَّلَاةَ بَيْنَ هَذَا الصَّنْفِ وَآيَةِ الأَرْضِ الخَاشِعَةِ:

1- أنظر تفسير القرطبي:344/15

2- السجدة عند رأس الآية:38 حسب قراءة حفص. وعند رأس الآية:37 وفق قراءة نافع.

﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يَسْبَحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (38) ﴾  
ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت... (39) ﴿  
فصلت.

ذلك ملمح من ملامح شخصية سورة فصلت و سورة الحج التي قيل عنها: إنها «  
من أعاجيب السور، نزلت ليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً، مكياً ومدنيّاً، سلماً وحزباً، ناسخاً  
ومنسوخاً، مُحكماً ومُنشأها»<sup>1</sup> وفيها سجدتان مختلفتان في سُجُودِ الثَّانِيَةِ مِنْهَا. وليس هذا إلا  
لسورة الحج.

22 - وهناك غرض التنبيه إلى وجوب التمييز بين المترادفات. وذلك إذا حُصَّ مَوْضِعُ  
بِمُرَادِفِ لَفْظَةٍ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، فِيمَا تَكَرَّرَ مِنَ الْجُمْلِ وَالْعِبَارَاتِ. كَالَّذِي نَلْحِظُهُ فِي الْآيَاتِ  
الآتية:

أ - ﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل  
منها ﴾ النساء: 85.

ب - ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون (22)...إلا قال  
مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون (23) ﴾ الزخرف.

ج - ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا... ﴾  
البقرة: 170.

- ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا... ﴾ لقمان: 21.

د - ﴿...قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون (97) ... قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون (98) ﴾  
الأنعام.

هذا في شأن أولي الألباب. وقال في سمة المنافقين:

- ﴿...ولكن المنافقين لا يفقهون (7)...ولكن المنافقين لا يعلمون (8) ﴾ المنافقون.

وقال في حقيقة اليهود:

1- تفسير القرطبي: 12/ص 1.

- «...ذلك بأنهم قوم لا يفقهون(13)... ذلك بأنهم قوم لا يعقلون(14)» الحشر.

فلا مناص، لِمَنْ رَامَ الوقوف على بعض أسرارِ مناسبةِ اللفظ لموضِعِهِ، من التمييز بين المترادفين في الآيات السابقة: بين النصيب والكفل، والاهتداء والافتداء، وَالْفَنَى وَوَجَدَ، والعلم والفقهِ .

وفي الأخير أُذَكِّرُ أَنَّ الدواعي الخاصة للتكرار والأسرار قد تتعدد وتتداخل، حسب الرؤى وما يُخْتَرَنُ في السياق؛ غير أَنَّ معنى التوكيد لا ينفك عنها جميعاً؛ إذ يوحي به مجردُ التكرار والإعادة. ولهذا كان الشيخ حَبَنَكَةَ يقول «ومهما أمكن استبعادُ فكرة التكرير لمجرد التأكيد كان ذلك أولى»<sup>1</sup>. بيد أنه قد يكون التوكيد غرضاً أساساً للتكرار في العبارة إذا كان مجرد تقوية المعنى وتقريره في النفوس، أو لتأكيد الموقف الذي لا يُعَدَلُ عنه، كقول النبي صلى الله عليه وسلم في مَنْ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقِهِ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن»، والله لا يؤمن...<sup>2</sup>.

أو قوله عليه الصلاة والسلام، لما استأذنه بنو هشام أَنْ يُنَكِحُوا ابْنَتَهُمَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طالب على فاطمة، رضي الله عنها: «فَلَا آذِنُ لَهُمْ، ثُمَّ لَا آذِنُ لَهُمْ، ثُمَّ لَا آذِنُ لَهُمْ...»<sup>3</sup>  
قال ابن حجر العسقلاني: «كَرَّرَ ذلك تأكيداً، وفيه إشارة على تأييدِ مُدَّةِ مَنَعِ الإذن، وكأَنَّهُ أراد رفع المجاز لِإِحْتِمَالِ أَنْ يُحْمَلَ النفي على مدة بعينها، فقال ثُمَّ لَا آذِنُ»<sup>4</sup>.  
وكما قَدْ يَتَّوَى معنى التوكيد في بعض الأغراض، فَإِنَّهُ قد يضعف أيضاً في بعضها الآخر، وذلك كَأَنَّ يكون التكرار لغرض الإبلاغ كما هو الحال في الأذان أو للتشويب كما هو في الإقامة.

1- قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزوجل . عبد الرحمن حسن حبنكة. ص108. ط1: 1400هـ- 1980م دار القلم (دمشق، بيروت).

2- جواهر البخاري، وشرح القسطلاني (700حديث). تأليف مصطفى محمد عمارة، ص481. دار الفكر- بيروت.

3- رواه أصحاب الكتب الستة. أنظر: تراجم سيّدات بيت النبوة . د. عائشة عبد الرحمن ( بنت الشاطي). ص591- ط1: 1387هـ- 1967م. دار الكتاب العربي بيروت.

4- التكرار الأسلوبى . د/ السيد خضر. ص:78.

والملاحظ في غير القرآن الكريم، أنّ أولى الأغراض بالتكرارِ باب الرثاء والتوجع، لِمَكَانِ الفجیعةِ وشدةِ القرحةِ، كما يقول ابن رشيق<sup>1</sup>. ولهذا كاد يُقتصر على نماذجه، عند الاستشهاد والتمثيل لظاهرة التكرار في الأدب القديم.

وقد أورد الشريف المرتضى في أماليه طائفةً من أشعار العرب التي اشتملت على مقاطع مكررة في باب الرثاء<sup>2</sup>؛ كرثاء مهلهل بن ربيعة أخاه كليباً:

على أن ليس عدلاً من كليب إذا طرد اليتيم عن الجزور  
على أن ليس عدلاً من كليب إذا ماضيم جيران المجير  
وقد تكرر الشطر الأول ثماني مرات.

وكرر الحارث بن عباد (قرباً مربوط النعامه مني) مرات كثيرة، في قصيدة يرثي فيها ابنه، ويتوعد المهلهل بن ربيعة، قاتل ولده:

قرباً مربوط النعامه مني لِقَحْتُ حَرْبٍ وائل عن حيال  
وكررت الخنساء (وإنّ صخرًا) خمس مرات في ثلاثة أبيات متواليات:

وإن صخرًا لوالينا وسيدنا وإن صخرًا إذا نشتو لنحار  
وإن صخرًا لمقدام إذا ركبوا وإن صخرًا إذا جاعوا لعقار  
وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار<sup>3</sup>.

ونجد ليلي الأخيلية تخلد إلى التكرار لتسكين عواطفها الملتببة، وهي ترثي توبة

بن الحمير، فتوالي بين مقاطع مختلفة تكررهما، على النحو التالي:

1- أنظر المرجع السابق ص 95.

2- أنظر ذلك في: أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) لشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي (355هـ - 436هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. مج 1 ص 124 و 125. دار الكتاب العربي بيروت. ط 2: 1387-1967م. وأنظر إجاز القرآن الكريم د. محمد صادق درويش ص 431 والتكرار الأسلوبى د. السيد خضر ص 85 و 95.

3- ديوان الخنساء صفحة 48 و 49. دار بيروت للطباعة والنشر 1398هـ - 1978م.

- كُرِّثَ (وَلَنِعَمَ الْفَتَى يَا تَوْبَ كُنْتُ) أربع مرات متواليات في صدور الأبيات ابتداءً  
بالبيت:

ولنعَمَ الفتى يا توب كنت إذا التقتُ      صدورُ الأعالي واستشال الأسافلُ  
- ثم كررت الجملة الأولى من صدر البيت الآتي أربع مرات أيضاً:  
لَعْمَرِي لَأَنْتَ الْمَرْءُ أَبْيَ لَفَقْدِهِ      بَجْدٌ، وَلَوْ لَامَتْ عَلَيْهِ الْأَعَاذِلُ  
- وأعدت الشطر الأول من الأبيات التي بعدها مرتين:

أَبَى لَكَ ذَمَّ النَّاسِ يَا تَوْبَ كَلِمَا      ذُكِرْتَ، أُمُورٌ مُحْكَمَاتٌ كَوَامِلُ  
- ثم صدر البيت الذي بعدها، ثلاث مرات وهو:

فَلَا يُبْعِدَنَّكَ اللَّهُ يَا تَوْبَ إِنَّمَا      لَقِيَتْ حَمَامَ الْمَوْتِ، وَالْمَوْتُ عَاجِلُ  
يعلق الشريف المرتضى على هذه التكرارات فيقول: «فَخَرَجَتْ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ  
من تكرار إلى تكرار لاختلاف المعاني التي عدناها»<sup>1</sup>

كما أنه وقع في أغراض أخرى بِنَسَبٍ متفاوطة، لكنها جميعها لا تبلغ حظَّ الرثاء  
ونصيبه.

وختاماً أذكرُ أَنَّ الأسرارَ لا تكاد تحصر؛ لأنها تتعلق بالغرض الخاص لكل شاهد  
أوردناه، وهي مبثوثة في غضون البحث وثناياه، تُطَالِعُكَ فِي كُلِّ تَحْلِيلٍ يَسْتَوْفِقُكَ؛ إِذْ  
عليها مدار البحث، ولكل آية تُعْرَضُ خُصُوصِيَّةً وَسِرًّا.

1- أمالي المرتضى ج1 صفحة 125.

## القصص القرآني وأغراضه:

يجسن أن نُذكر هنا أنه يمكن أن يقسم التكرار، باعتبار المكرر، إلى تكرر المفردة في السياق الواحد. وإلى تكرر الجملة أو الجمل في سياق واحد، أو في سياقات مختلفة، في السورة الواحدة أو بين السُور وإلى تكرر اللّازمة: وهي خاصة بما تكرر من جمل أو آياتٍ لفظاً ومعنى، مراتٍ عديدةً في السورة الواحدة وهناك تكرر القصص، وتقصد به تكرر مشهدٍ مُعيّن، من قصة معينة، في موقع آخر، بألفاظه وعباراته وإن وقع فيها تصرفٌ يسير وقد تناولنا هذه الأنواع جميعاً ما عدا النوع الأخير، وهو تكرر القصص؛ لأنه جدير - في رأيي - ببحث خاص، لسعة أقطاره، وتشعب مسالكه، وتشابك فروع وأغراضه؛ وذلك أن القصة شغلت « حيزاً كبيراً في القرآن الكريم زاد عن ثلاثين بالمئة من حجم القرآن، في حين كانت آيات الأحكام حوالي خمسة بالمئة»<sup>1</sup> وتوظيف القرآن للأسلوب القصصي بهذه النسبة العالية، يدل دلالة واضحة على الأثر البالغ لهذا الأسلوب في النفوس، وتأثيره العميق على القلوب، وذلك لكون المتحدث عنه، أحداثاً واقعة، وحقائق مُجرّبة، لها سلطان في تحرير العقول من الأوهام والخرافات، وتخليصها من التجريد والتخييلات؛ إذ هي وقائع وحقائق عيشت مُجسّدة ﴿ ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ يوسف:111.

هذا، وإنّ الأنواع الأخرى التي أشرنا إليها سوى تكرر القصص، تُوجد طائفة كبيرة منها ضمن القصص؛ غير أنّهما يفترقان في طريقة التحليل والتناول. ولذلك قد تلاحظ تداخلاً بين تلك الأنواع، في الأغراض والأهداف والفوائد، وإن كانت هذه الأخيرة لا تكاد تحصر، لاختلاف المنظور الذي ينطلق منه الدارس، والهدف الذي ينشده الباحث، فضلاً عن الثراء الكامن في الآيات، والاختزان المحبوء في الألفاظ والعبارات، والممدد الذي لا يُنفد على كثرة العطاء والأخذ؛ إذ يجد المتأمل في الذكر الحكيم نفسه حياً مهيّجاً لأحب،

1- دراسات في القرآن الكريم د/أحمد زكريا ياسوف، ص189. منشورات جامعة حلب: 1425هـ- 2004م

ومحيط بعيد الغور. وقد كان لهذا الإمداد مع بعض العلماء المفسرين حديثٌ عجيب في بعض الآيات والسور فهذا الإمام الرازي يذكر أنه استنبط عشرة آلاف مسألة من سورة الفاتحة، ولا غرابة؛ فهي أم الكتاب حقا. واستنبط ابن القيم من ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ عشرين مسألة. وفسّر ابن تيمية سورة الإخلاص في أكثر من أربعمئة صفحة. ولا عجب، فهي ثلث القرآن. وذكر الذهبي أنّ ابن تيمية «بقي يُفسّر سورة نوح عدّة سنين أيام الجمع بالمسجد»<sup>1</sup>. فكلُّ يستقي من هذا المحيط الزاخر الذي لا ساحل له، على قدر دَلْوِهِ، وحسب إنائه، وماخصّه الله به من توفيق.

فأنظُر - مثلا- إلى الدكتور فضل حسن عباس، فإنّه يُجملُ أغراض القصص القرآنيّ على العموم، في الأغراض والأهداف الآتية:

1. تعميق العقيدة في النفوس، بإحياء القلوب، وتبصير العقول، والتركيز على أصول القضايا الكبرى: الألوهية، والرسالة، واليوم الآخر: يوم الجزاء والحساب .
2. السُمُوّ بهذا الإنسان روحيا وخلقيا ونفسيا و اجتماعيا
3. السعي إلى التوازن بين القوة المعنوية والمادية، باعتباره أهمّ أسباب الرقي والتحضّر؛ إذ المادة عنصر أساسي في المقومات الإنسانية.
4. العناية الخاصة بإبراز أسباب هلاك الأمم وزوال الدول: بالترف والطغيان والظلم والبطر.
5. إقرار أنّ التدين الحق لا ينفصل عن الحياة العملية ولا ينفصم عن الواقع.
6. تبين أسباب السعادة الروحية والرقي المادي.
7. إيراد كثير من الحقائق العلمية المتعلقة بالكون والإنسان والأحياء.
8. هذا فضلا عمّا في القصة من رائق الأسلوب وبديع النظم وجمال الصورة وغير ذلك من الأغراض الأدبية والفنية<sup>2</sup>.

1- التفسير الكبير. لابن تيمية. 63/1.

2- أنظر القصص القرآني إبحاؤه ونفحاته د/ فضل حسن عباس ص 10-11. شركة الشهاب- باب الواد- الجزائر .

بينما يذكر منها الإمام ابن تيمية، وشارح أصوله في التفسير، الشيخ ابن صالح العثيمين، الأغراض والفوائد الآتية:

1. بيان حكمة الله عز وجل فيما تضمنته هذه القصص: « ولقد جاءكم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغني النذر » القمر: 4- 5
2. بيان عدله سبحانه بعقوبة المكذبين.
3. بيان فضله تعالى بمثوبة المؤمنين.
4. تسلية النبي صلى الله عليه وسلم عما أصابه من المكذبين الجاحدين.
5. ترغيب المؤمنين في الثبات على الإيمان وحثهم عليه.
6. تحذير الكافرين من مغبة ما هم عليه من التكذيب والكفر.
7. إثبات صدق الرسالة، بإطلاعهم على الغيب من أنباء ما قد سبق<sup>1</sup> ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ هود/49.

ويحصرها الدكتور أحمد زكريا ياسوف في سبعة أغراض أيضا وهي على التوالي:

- 1- مصداقية الوحي القرآني، وأنه الدين الحق .
- 2- وحدانية الدين.
- 3- وحدة الوسائل الدعوية.
- 4- التبشير بالنصر: لشدّ أزر المؤمنين، وتثبيتهم على الصراط المستقيم.
- 5- صدق الترغيب والترهيب: فإن مآلات ذلك حتمية قدرية، وسنة كونية.
- 6- إبراز نعم الله على أصفياه وأوليائه: من الأنبياء والصالحين من عباده.
- 7- إبراز عداوة الشيطان لبني آدم.<sup>2</sup>

1- أنظر هذه الأغراض في: شرح أصول في التفسير وشرح مقدمة التفسير. العلامة محمد بن صالح العثيمين. ص. (197- 202). ط: 1: 1426هـ- 2006م المكتبة الإسلامية. القاهرة.

2- أنظر: دراسات في القرآن الكريم الدكتور أحمد زكريا ياسوف. ص. 191- 193. منشورات جامعة حلب: 1425هـ- 2004م.

فأنت تلاحظ أنها أغراض أخرى، ويُضَيَّفُ غيرُهم أغراضًا وحِكْمًا أخرى،  
وهكذا دواليك .

هذا فيما يتعلق بالقصص القرآني على وجه العموم.

### أغراض وفوائد تكرار القصة في القرآن:

أما فيما يتعلق بالحكمة من تكرار القصص وأغراضه على الخصوص، وفائدة  
إعادته، فنورده ملخصًا من تفسير ابن عاشور الذي يقول: « وفوائد القصص تجتليها  
المناسبات، فتذكر القصة كالبرهان على الغرض المسوقة هي معه، فلا يُعَدُّ ذكرها مع  
غرضها تكريرا لها، لأنَّ سبقَ ذكرها، إنما كان في مناسبات أخرى»<sup>1</sup>.

ثم يشير إلى أنه قد تحصل مع تكرير كل قصة مقاصد وفوائد أخرى تتلخص في  
الأمور الآتية:

- أولا: رسوخ القصة في الأذهان بتكريرها.
- ثانيا: ظهور البلاغة، لأن تكرير الكلام في الغرض الواحد من شأنه أن يثقل على  
البلغ فإذا جاء اللاحق منه إثر السابق مع تَقْنُن في المعاني باختلاف طرق أدائها من  
مجاز أو استعارات أو كناية، وتفنن الألفاظ وتراكيبها بما تقتضيه الفصاحة وسعة اللغة  
باستعمال المترادفات مثل: ﴿وَلَيْنَ رُدِدْتُ﴾ الكهف 36، ﴿وَلَيْنَ رُجِعْتُ﴾ فصلت 50،  
وتفنن المحسنات البديعية فذلك وجه من وجوه الإعجاز.
- ثالثا: أن يسمع من فائته قصة في الأول ذكرا لها في الثانية لتأخر إسلام، أو لغياب؛  
فإن تلقي القرآن عند نزوله أوقع في النفوس من تطلبه من حافظيه.
- رابعا: لم يكن جميع المؤمنين يحفظون جميع القرآن فيكون الذي حفظ إحدى السور  
التي ذكرت فيها قصة معينة عالما بتلك القصة، كعلم من حفظ سورة أخرى ذكرت فيها  
تلك القصة.

1- تفسير التحرير و التنوير للعلامة محمد الطاهر بن عاشور. ج 68/1.

قلت: هذا الغرض الرابع يبرز ما للقصص في القرآن من أهمية قصوى، حتى كأنه لأبَدُّ لمن يحفظ نصيباً من القرآن، أن يكون له حظٌّ من القصص.

- خامساً: تختلف أساليب القصة الواحدة، وقد يذكر في بعضها ما لم يذكر في شبيبتها وذلك لأسباب:

1. منها تجنب التطويل في الحكاية الواحدة فيُتَصَرَّ على موضع العبرة في موضع، وعلى آخر من موضع آخر فيحصل من متفرق مواضعها كمال القصة أو كمال المقصود منها، وبعضها شرح لبعض.

2. و منها مناسبة حال سامعيها، فتجد ذكراً لبعض القصة في موضع وتجد ذكراً لبعض آخر منها في موضع آخر فتارة تُساق إلى المشركين، وتارة إلى أهل الكتاب، وتارة تُساق إلى المؤمنين، وتارة إلى كليهما، وقد تساق للطائفة من هؤلاء في حالة خاصة، ثم تساق إليها في حالة أخرى وبذلك تتفاوت بالإطناب والإيجاز على حسب المقامات، ألا ترى قصة بعث موسى كيف بسطت في سورة طه وسورة الشعراء، وكيف أوجزت في آيتين في سورة الفرقان: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ﴿٢٥﴾ فَقُلْنَا أذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

3. ومنها أنه قد يقصد تارة التنبيه على خطأ المخاطبين فيما ينقلونه من تلك القصة، وتارة لا يقصد ذلك.

وهذه التحقيقات ربما استوحى ابنُ عاشور بعض معانيها من كلام السابقين، كما صرَّح هو بذلك<sup>1</sup>.

إن هذه الأغراض التي تصاحب كل تكرار، وتلقي بظلالها الوارفة على الأحداث، تعطي هذا الأسلوب رونقا وبهجة، وتجعل كل تكرار في القصة مُسْتَعْنِيًّا في

1- أنظر تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور. 1/68-69.

سياقه، مفتقراً إلى شبيهه عند الحاجة لاستكمال جوانب المشهد والصورة في القصة. ولهذا قال عبد الوهاب حمودة ومحمد عثمان نجاتي عن تكرار القصص:

« وليس تكرار القصص في القرآن تكراراً تاماً، وإنما كان القرآن يذكر من القصة الأحداث التي تتفق مع سياق المعاني الواردة في السورة، وإذا كرر القرآن حلقة من القصص، فإنه عادة ما يورد فيها شيئاً جديداً لم يذكره من قبل، ويحدث في ألفاظها بعض التعديل، وتقديم وتأخير مما تتطلبه العبرة المقصودة من ذكر القصة.

فالقرآن لا يسرد قصص الأنبياء باعتبارها تاريخاً يراعي فيه الترتيب الزمني للوقائع، وإنما هو يذكرها لما في أحداثها من عبر وعظات ولذلك فهو يذكر من وقائع القصة ما يناسب العبرة التي يريد أن يبثها في الناس»<sup>1</sup>.

وقال عنها محمد قطب: « إن التنوع لا التكرار هو الظاهرة الحقيقية في القرآن وإنه لمن إعجاز هذا الكتاب أن يعرض الموضوعات التي يكرّر ذكرها للتذكير والترية والتوجيه، بهذا القدر المعجز من التنوع بحيث لا تتكرر صورتان متماثلتان أبداً. وإنّ في ذلك لحكمة بالغة بالنسبة لكتاب نزل لكي يُقرأ على الدوام وإنّ التنوع ذاته لجمالٌ فوق أنه يُذهب عن النفس الملل ! »<sup>2</sup>.

وعلى كل حال، فإن كل سورة تختص بما يتوافق و غرضها، ويتسق مع موضوعها، من أحداث القصة ومشاهدها، وما يناسبها من تراكيب وألفاظ.

---

1- أنظر القرآن وعلم النفس. عبد الوهاب حمودة/103 و105. دار القلم: 1962- القاهرة. وأنظر أيضا

القرآن وعلم النفس. د/محمد عثمان نجاتي ص: 162. ط1: 1402هـ- 1982م. دار الشروق،

2- دراسات قرآنية. محمد قطب. ص261. ط5: 1408هـ- 1988م. دار الشروق. القاهرة- بيروت .

# الغائمة

## الخاتمة

وخلاصة البحث أننا آثرنا مصطلح التكرار بالكسر لخصه للاسمية باتفاق أهل اللغة وتمحّض صنويّه التّفعيل والتّفعال للمصدرية والوصف.

ثمّ إنّ التّأليف في المتشابه وتوجيهه لم يُعنَ به أكثر المفسرين لأنّ التفسير كان منصباً على العقيدة الإسلامية والأحكام الشرعية التي تتناول الحق والباطل، والحلال والحرام، وبيان القصص والعبر وليس لإظهار جوانب الإعجاز فيه، ويلمح ذلك بخاصة في التفسير بالمأثور. ولم يظهر التّصنيف في بيان الإعجاز إلّا حين ظهر المعارضون والمبطلون للإعجاز والطّاعنين في القرآن فوجدنا ابن قتيبة ينبري للردّ على هؤلاء في كتابه "تأويل مشكل القرآن" ويشير إلى ظاهرة التكرار في القرآن وأنّه جاء على مذهب القوم؛ إذ يُوردونه بغية التوكيد والإفهام إلى أن وجدنا من يحاول استقصاء ما ورد في القرآن الكريم من تكرار بغية إبراز جوانب الإعجاز فيه. وهو الخطيب الاسكافي (المتوفى سنة 420 هـ).

ويحذو حذوه تاج القراء محمود بن حمزة الكرمانى وكان جمعه مختصراً مفيداً وأفاد منه أحمد بن الزبير الغرناطى في ملاك التأويل وأضاف فوائد جمّة، وكان هدفه إجماع الخصوم من ذوي الأحاد على الطاعنين في الكتاب العزيز.

و هناك محاولات أخرى في جمع متشابه الآيات المكررة بقصد ضبط الحفظ والمهارة بالقرآن بغية نيل شرف من أشار إليهم الحديث الصحيح:  
« الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة »<sup>1</sup>

1- متفق عليه وهذه راوية مسلم، وانظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان. وضعه محمد فؤاد عبد الباقي. ج1/154. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة. مصر.

ولعل أول منظومة لهذا الغرض، كانت في القرن السابع الهجري وهي:  
هداية المرتاب وغاية الحفاظ والطلاب في تبيين متشابه الكتاب) لشيخ الإقراء  
بالشام علم الدين السخاوي ( 558\_ 643 هـ).

وإن أصول تفسير المتشابه اللفظي - في رأيي - ترجع إلى تفسير الرسول ﷺ لما  
تكرر في سورة الانشراح حين تبه إلى أنه ليس بتكرار محض على شدة التطابق بين  
الآيتين (العبارتين)، مع التجاور، فاشتراكهما في اللفظ والموقع والموضع؛ ومع ذلك أدى  
اجتماعهما إلى معنى لا يتم إلا بهما معا... فما بالك بما اختلف فيه الموقع وتغاير في اللفظ  
وعُدَّ من المتشابه. وكذلك ما كان المكرر فيه بسبب النزول على فترتين وإن تجاورا في  
الموقع، كالذي وقع في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿فمن كان منكم مريضا أو على سفر  
فعدة من أيام أخر.....﴾... ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴿  
البقرة: 184-185. حيث كان النزول على فترتين، فهاتان الآيتان على تجاور منهما، فقد  
نزلت الأولى ثم نزلت الثانية، فنسخت بعض الأحكام وأقرت أخرى. وذلك أنه لما  
فُرض صيام الشهر دفعة واحدة، في أول الأمر، من غير تدرج سابق، رُخص لهم في  
التخيير بين الصيام والفدية. ثم نزلت أختها فنسخت رخصة الاختيار، وأبقتها في حق  
العاجزين عن الصيام لكبير أو حملٍ...

وهناك من رأى هذا النسخ تخصيصا. وخالف ابن عباس رضي الله عنهما، فقال  
عن هذه الآية: «إنها ليست بمنسوخة، وأنها محكمة في حق من ذكر»<sup>1</sup>، وكل ذلك  
ينبئ عن تعدد في النزول بين بعض المتجاور من الآيات.

وفي سورة النساء: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر  
والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة وكلا  
وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيماً﴾<sup>95</sup>.

1- تفسير القرطبي ج 2/388.

فالمراد بالترفضيل الأول، تفضيل المجاهدين على القاعدين بعذر» فإن لهم فضلا لكونهم مع الغزاة بالهمة والعزيمة، والقصد الصالح، ولهذا قال: ﴿وكلا وعد الله الحسنى﴾<sup>1</sup>.

ولعل تفضيلهم بدرجة هو بسبب ما بذل المجاهدون من أموالهم وأنفسهم؛ إذ يمكن أن يتعلّق الجار والمجرور (بأموالهم وأنفسهم) بالوصف (المجاهدين) بأموالهم وأنفسهم كما جَوَّزُوا أن يقدَّرَ محذوف: والمجاهدون في نصرة سبيل الله ببذل أموالهم وأنفسهم<sup>2</sup>.

والمراد بالترفضيل الثاني، تفضيل المجاهدين على القاعدين بغير عذر، فظهر فضل الغزاة عليهم بدرجات وأجر عظيم<sup>3</sup>. فالمجاهدون في النص صنف واحد، والقاعدون صنفان، مُعذِرٌ ومُعذَّرٌ.

أي أنّ المفضّل عليهم أوّلاً، غير المفضّل عليهم ثانياً، فالأوائل هم القاعدون بعذر، وبينهم وبين من سبقهم درجة واحدة. والآخرين هم القاعدون بغير عذر، وبينهم وبين من فضّل عليهم درجات<sup>4</sup>.

وهاتان الآيتان على تجاورهما نزلتا على فترتين؛ فقد روي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، أنّ هذه الآية نزلت، وهو إلى جنب رسول الله ﷺ فحذه تحت فحذه، فغشيتته السكينة، «فما وجدت ثقل شيء أثقل من فخذ رسول الله ﷺ ثم سري عنه فقال: «اكتب» فكتبت في كتف ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله﴾ إلى آخر الآية؛ فقام ابن أم مكتوم- وكان رجلاً أعمى- لما سمع فضيلة المجاهدين فقال يا رسول الله، فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين؟ فلما قضى كلامه، غشيت رسول الله ﷺ السكينة فوقع فحذه على فحذي، ووجدت من ثقلها

1- أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها- عبد القادر الرازي - ص: 57.

2- أنظر: الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز. الإمام أبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام. تحقيق محمد بن الحسن بن إسماعيل - ص: 222. ط 1 / 1416 هـ - 1995 م - دار الكتب العلمية - بيروت. لبنان.

3- أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها. عبد القادر الرازي. ص: 58.

4- أنظر: البحر المحيط 37/4. والقرطبي 344/15.

كما وجدت في المرة الأولى، ثم سُري عن رسول الله ﷺ فقال: " اقرأ يا زيد " فقرأت ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين ﴾ فقال رسول الله ﷺ ﴿ غير أولي الضر ﴾ الآية كلها. قال زيد: فأنزلها الله وحدها فألحقها؛ والذي نفسي بيده لكأني أنظر مُلحقتها عند صدعٍ في كتفٍ<sup>1</sup>.

وعندي، أنّ تعدد النزول بين المتجاورات، ليس بمسوّغ للتكرار؛ لأنّه لا يلحظ ذلك التراخي في العبارة؛ وإنما قد يتوصل به إلى كشف أسرار أخرى خفية، وليس لتبرير التكرار والتسامح فيه؛ فحسبنا أن السياق جمع بين النزولين، وجعلها في أسلوب واحد، قوّي التضام، شديد الأسر، متين العرى.

❖ وإن الأصل في التكرار، إذا كان تطويلاً وإطناباً، غير مستساغ، ما لم يؤدّ معنى مقصوداً، وغرضاً مطلوباً، يغيض إذا أُعرض عن التكرار ويغيب.. فإذا أدّى المعنى دون أن يُلجأ إلى تكرار؛ فذاك هو المراد... حتى إذا اجتمعت دواعي التكرار، فلا ينوب عنه غيره، ويضحي لزومه واجباً..

❖ وفضلاً عن مدى رعاية ما تكرر ومناسبته للمقام والسياق، فقد يحمل المكرر في تركيبه دقائق أسلوبية أخرى، فضلاً عن كونه تكراراً؛ كتقديم لفظ أو تأخيرها أو في تعلق حرف، أو في زيادة لفظ أو حذفه، لدواعٍ بيانية أو فنية أسلوبية... وقد اجتمعت جملة من هذه الاعتبارات في تكرار عبارة ثلاث مرات في آية كفارة قتل الخطأ، في سورة النساء، في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا ۗ فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ۗ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

1- تفسير القرطبي الجزء الخامس/341 و342.

مُؤْمِنَةٍ طَمَن لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا  
حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ النساء 92.

فتأمل تصاريف القول في هذه الآية:

1- المكرر الأول: ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا ﴾ وهو المكرر الجامع لألفاظ ما تكرر.

2- المكرر الثاني: ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ اختفت الدية هنا؛ لأن المقتول من قوم أعداء محاربين، فليس من الحكمة أن نعينهم على أنفسنا ونقويهم ﴿ مِنْ قَوْمٍ عَدُوِّكُمْ ﴾.

وهناك من زعم أن الدية واجبة هنا لبيت المال. ولكن الآية أغنت عن هذا التأويل فقد ألغيت الدية وما يتعلق بها من القول في الآية.

3- المكرر الثالث: ﴿ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ حذف هنا الاستثناء ﴿ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا ﴾ وقدمت الدية على تحرير رقبة.

وذلك لأن هذا الحكم في حق من كان بيننا وبينهم ميثاق وعهود، فأوجب الله تعالى في قتل المعاهد ما أوجبه في قتل المسلم، من الدية وتحرير الرقبة المؤمنة.

ولم يذكر هنا القيد وهو أن يكون المقتول مؤمناً، فلم يشترط فيه الإيمان، كما اشترطه في الحكمين السابقين. وهناك من اشترط أن يكون القتيل مسلماً<sup>1</sup>. وهو تكلف وخروج عن دقائق النص.

والملاحظ هنا، أن كل عبارة من هذه المكررات تختص بحكم لا يغني فيها أحدها عن الآخر.

1- أنظر تفسير آيات الأحكام- إشراف وتنقيح الشيخ محمد علي السائس- ص125. من مقرر كلية الشريعة الإسلامية 1373هـ/ 1953م. مطبعة محمد علي صبيح. ميدان الأزهر؛ القاهرة.

أما الاستثناء في الدية في الحكم الأول: ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ فهو ترغيب في العفو والتجاوز، والميل إلى كريم الأخلاق وما يليق بين الإخوة في الإيمان ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾.

بيد أن هذا الاستثناء في الدية لم يرد في الحكم الثالث لأن أهل القتل غير مسلمين، فيجب أن تُدفع لهم حقوقهم كاملة... وأي صدقة تقبل منهم أو تنتظر، حتى يرغبوا فيها.

وكذلك يلاحظ تقديم تحرير الرقبة على الدية في الحكم الأول، وفي ذلك إشارة إلى أن حق الله تعالى في معاملة المؤمنين، مقدم على حقوقهم، بينما غيرهم يقدمون حقوقهم عليه.

وهناك مسوغ لفظي فني في تأخير الدية في الآية الأولى، يقول عنه الشيخ محمد عبده « ومن محاسن نظم الكلام وتأليفه أن يؤخر المعطوف الذي له متعلق على ما ليس له متعلق، وما متعلقاته أكثر على ما متعلقات أقل. وهذه نكتة لفظية لتأخير ذكر الدية في حق المؤمن إذ تعلق بها الوصف وهو قوله ﴿مُسَلِّمَةً إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ والاستثناء وهو قوله ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾»<sup>1</sup>

❖ وكذلك إنَّ بعض الأحكام لا تدرك إلاَّ بطول الممارسة والتدبر في أفانين القول فمن ذلك: إبدال المظهر بالمضمر، أو عكس ذلك، أو وصف المضمر بالظاهر، كقولنا: "لغة الشعوب المتخلفة" فإن لفظة (المتخلفة) تحتمل أن تكون صفة للغة. كما تحتمل أن تكون صفة للشعوب.

بينما إذا أضمرنا فقلنا: "لغتهم المتخلفة": فإنها لا تحتمل إلاَّ وجهاً واحداً، وهو أن تكون صفة للغة.

فوضع المظهر موضع المضمر له عدّة وظائف، ومن هذه الوظائف التي تحتاج إلى تيقُّظ وتفطُّن: أن يرفع الإظهار الاحتمال في المعنى، فتصبح الدلالة نصاً لا يحتمل التأويل،

1- تفسير المنار ج5/335.

كالذي في قوله تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا موسى... إلى فرعون وملئه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد ﴾ هود: 97؛ وذلك إذا سبق الضمير بأسماء أو صفات تصح عودته عليها جميعاً.. وكان أقربها من الضمير غير مُرادٍ؛ فالإظهار يحسبُ ويقطع الاحتمال.

❖ كما قد يدخل الإظهار الاحتمالَ، في سياقٍ يرفعُ الإضمار فيه الاحتمال. وعلى العكس من ذلك فهناك سياقات يُدخل فيها الإظهار الاحتمالَ؛ بينما الإضمار يرفعه، كالذي رأيناه في تكرار «إحداهما» في سورة البقرة:

« فنذكر إحداها الأخرى ← ف«إحداهما» تحتمل المرأتين، وهي هنا فاعل. كما تحتمل أن تكون مفعولاً به على الأرجح؛ بينما لو أضمرنا فقلنا: (فنذكرها الأخرى) لتعيّنت المرأة التاسعة التي ضلّت وهي هنا مفعول به ليس إلّا. فتعدّد الاحتمالات هنا هو المقصود بسبب الإظهار.

وتأمل ﴿ قالت إحداها ﴾ في قصة ابنتي شعيب.. فإن إعادة الاسم الظاهر يجعلك تتردد بين المرادة من المرأتين.. هل هي واحدة؟ أم هما اثنتان؟ والسياق هنا أخرجها مخرج الاحتمال.. بدليل أن الرسول ﷺ حين قال: «إن سئلت أي الأجلين قضى موسى فقل خيرهما وأوفاهما، وإن سئلت أي المرأتين تزوج فقل الصغرى وهي التي جاءت خلفه وهي التي قالت: ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِي الْأَمِينُ ﴾ 26/ القصص

فهذا القول منه ﷺ صريح في أن السياق فيه إبهام. غير أن رسول الله ﷺ فسره بالحمل على أحسن الوجهين تقديراً لمنزلة موسى عليه السلام فجعل ذينك الخلقين من نصيب زوج موسى إكراماً وتقديراً له.

والسياق لا ينفي عن الأخرى ذينك الخلقين، بل أوردهما في لفظ مستور (إحداهما).

وفي هذا إيماء منه ﷺ وإرشاد إلى وجوب تفسير المبهم من الكلام، على أحسن وجوهه التي تليق بالمتحدث عنه، وهو وجه من تطبيق الآية الكريمة

﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ أحسنه من جهة المضامين، وأحسنه من جهة التفسير ﴿ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ وهو متضمن في الأمر؛ ﴿ قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ﴾

كما يظهر لك السلوك العالي، والمنهج السامي في تفسيره ﷺ لتكرار ﴿ فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً ﴾. فلم يجعله توكيداً لمعنى العبارة فحسب، وإنما جعله تأسيساً لمعنى يدخل الهجة على النفوس الكئيبة، والسرور على القلوب الحزينة، ويبشرها بالفرج القريب «لن يغلب عسرٌ يسرين» وكان ﷺ يعجبه الفأل فضلاً عما تفيدته العبارة بأن العسر يحمل في طياته يسراً يصاحبه أينما حلّ، وحيثما توجه، وهو ما يفيد حرفة المعية (مع). فكيف به وأنّ مع كل عسرٍ يسرين.  
وقد باح بهذا السر من ظفر به وعاشه واقعاً.<sup>1</sup>

وإني لأعسر - أحياناً - فتدركي بشرى من الله أنّ العسر قد زال  
يقول خير الورى في سنة ثبتت أنفق ولا تحش من ذي العرش إقلالا  
❖ وضابط التكرار على العموم أن يكون اختياراً، لا اضطراراً وعجزاً في التعبير، وإنما احتيج إليه لداع أدبي أو دواعٍ تربوية، أو نفسية، أو اجتماعية، أو فنية، أو دلالية وما إليها... وذلك حين يحدث التخلُّص من المكرر خلافاً، أو حرجاً ما، أو كان عدم التكرار يفتح المعنى على فضاء غير مراد.. وكل ذلك بحسب نوع التكرار .

❖ ولا يخرج التكرار عن القاعدة الكلية " لكل مقام مقال " بل هي في حق التكرار أوكد، فقد يكون التكرار من باب الإطناب والتفصيل وهو الأشهر والأكثر، كما يكون من باب الإيجاز وهو الخفي الأغمض، كالذي سبق أن نوهنا به في سورة الكافرون أو تلحظه في آية كفارة القتل الخطأ وغيرها.

ذلك أن حاجة الكلام إلى التفصيل والتطويل، كحاجته إلى الإيجاز والإجمال؛ فعن أبي عمرو بن العلاء: أن العرب كانت تطيل لتبليغ، وتوجز ليحفظ عنها.<sup>1</sup>

1- أنظر بغية الوعاة 1/ 276

- ذلك أنه « ليس المعتبر هو بتكرار اللفظ، لأننا نعلم: أن الحروف والكلمات متكررة في كل الكلام، وإنما المعتبر هو الأغراض والمقاصد. فرمما كان المشتبه في اللفظ غير مكرر في المعنى، وربما كان المتباين في اللفظ متكررا في المعنى»<sup>2</sup>

❖ وللموقع والمقام أثر بالغ في الحُسن والقُبْح؛ فقد يبلغ بالتكرار قمة الاستحسان إذا وَقَعَ في موطنه وأصاب موقعه، وقديما قالت الخنساء:

إذا قبح البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسن الجميلا  
يقول ابن سنان: « وما أعرف شيئا يقدر في الفصاحة، ويغض من طُلاوتها أظهر من التكرار لمن يُؤثر تجنُّبه، ولصيانة نسجه عنه»<sup>3</sup>.

❖ وحدُّ التكرار المقبول وغير المكروه عنده: أن يكون المعنى فيه مبنيا عليه، ومقصورا على إعادة اللفظ بعينه وهذا حد يجب أن تراعيه في التكرار.

ويقول عبد الكريم الخطيب، عن سر استئثار التكرار: « ذلك أن كل كلام يتكرر يثقل، ويسمج، ويسقط»<sup>4</sup>.

ويقول أيضا: « لأن الوزن والقافية يعملان عملهما في تلطيف غثاثة التكرار، أو تخفيف ثقله. أما إذا وقع التكرار في النثر... فإنه يسقط الكلام ويذهب به فلا يحسب في الأدب ولا يضاف إليه»<sup>5</sup>

ويقول أيضا: « فالمعروف عن التكرار أنه إذا وقع في كلام الناس نزل بالكلام عن درجة البلاغة، وأخل بمقتضيات الفصاحة، وكسا الكلام برودة وسماجة»<sup>6</sup> وعلى قدر

1- أنظر: الخصائص لابن جني ج1 ص 83

2- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز. للإمام فخر الدين الرازي. ص 282. تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا الطبعة الأولى 1412هـ / 1992م. دار الجيل بيروت. المكتب الثقافي القاهرة.

3- سر الفصاحة لابن سنان / 106.

4- الإعجاز في دراسات السابقين / 395.

5- نفس المرجع / 413.

6- نفسه.

هذه السماجة في التكرار، تنكشف لك قمة الإعجاز؛ حين لا يحصل " مع ذكر التكرار هجئة في اللفظ ولا ملل".<sup>1</sup>

❖ ويحسن أن ننبه هنا إلى أن مصطلح التكرار قد يطلق على صور لاعلاقة لها بالتعبير والأسلوب فمن ذلك:

- التكرار لتأكيد صياغة العبارة، عند عرضها وحفظها أو إملائها، بقصد التأكد من ألفاظها.

- والتكرار لتأكيد المعنى والتنبيه على صحته..

- وتكرير العبارة أو السورة، لغرض خارج عن أسلوبها وتعبيرها، كقراءة سورة الإخلاص والمعوذتين ثلاثا لغرض تعبدي.

وكتكرير الرسول ﷺ للحديث ثلاثا وذلك لغرض تربوي تبليغي. فمثل هذا التكرار المحض لا يعيننا في دراستنا هذه؛ لأنه لاعلاقة له بالأسلوب والعبارة.

ولهذا قد يخطئ الصواب من يكرر بعض الآيات وهي ضمن سياق معين، حين يمر بها، فيوهم المكرر السامع أنّ ما يُكرّرهُ من أصل العبارة، فيضفي ذلك معاني وأغراضا. وهو، عندي، اعتداء في أصل العبارة؛ كتكرير آخر سورة العصر، وآخر سورة قريش؛ فإنه لا يصح إدخال التكرار في عبارات السورة إلا بما صحَّ وأثر عن النبي ﷺ، فيما يُتعبّد بألفاظه. والله أعلم.

❖ ومن وظائف التكرار: إنعاش الذاكرة من جديد، بإعادة ذكر اللفظ لتحقيق الربط، وذلك إذا طال الكلام، وخشي تناسي الأول، أُعيد ثانية تطرية وتجديدا لعهد كما يقول الزركشي.<sup>2</sup>

1- معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي تحقيق محمد علي البجاوي دار الفكر العربي بالقاهرة.

(د.ت.ط)

2- أنظر البرهان: 16/3

وفي طيات هذا التكرار المنعش للذاكرة تختزن أغراض أخرى وأسرار حسب السياق، فتأمله في الآيات الآتية:

01- ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۗ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ البقرة: 89.

يوحى تكرر مجيء الكتاب بموقفين متناقضين للقوم مجيء منتظر رأوا فيه الحق المصدق لما في كتبهم إلى درجة أنهم كانوا يستفتحون على العرب بهذا الحق الذي حلّ أوانه، بينما المجيء الثاني هو المجيء الفعلي الذي كان منتظرا كفروا به عنادا وحسدا طارئا، لما عاينوا الحق الذي عندهم. لذلك حلت عليهم اللعنة الله.

02- ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَتُحِبُّونَ أَن تَحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ۗ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ آل عمران: 188.

وقرأ ورش رحمه الله: ﴿ لا يحسبنّ الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ﴾ آل عمران: 188، فأنت تلاحظ، وإن تكرر الفعل، أنه يختزن معاني أخرى فضلا عن وظيفة الربط، فالفعل الأول "يحسبن" أسند إلى المنافقين، وقيل إلى أهل الكتاب. بينما أسند الفعل "تحسبنهم" إلى المخاطب. وذكر المفعولين هنا متضمن لمفعولي "يحسبن" المحذوفين وفي ذلك طي وإيجاز.

03- ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يوسف: 46.

﴿ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَعْتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ يوسف: 62.

تكررت "لعل" في الموضوعين لتنفيذ رجاءين رجاء المعرفة والعلم، ورجاء الانقلاب والرجوع، فضلا عن وظيفة الربط والاختزال.

04- ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ النحل: 119.

فيه ربط الأول بالآخر من جهة التعبير والأسلوب وفيه غرض بياني يجدد الرجاء وينشر الرحمة والمغفرة؛ إذ تكرر لفظ الربوبية الذي كله رحمة مضافا إليك أيها المخاطب بالإضافة إلى الخبر المؤكد باللام بعد إن: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ النحل: 119.

05- ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ الروم: 49.

تكرر الظرف المجرور "من قبل" قيل إن القبليّة هنا قبلتان الأولى قبيل نزول الغيث وبين يديه. والقبليّة الثانية من قبل هذا القبل مما يوحي بتمكن اليأس منهم وامتداده فيهم؛ فقد استمر وهم يعاينون برقه ويسمعون رعدده.

06- ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٢﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَخُنُّنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ الواقعة: 86-83.

تكررت "لولا" في السياق، فجمعت الثانية منها شرطين "إذا" و"إن" وفعلهما ووحّدت جوابهما.

❖ وأحيانا يتجنب تكرار اللفظ حين يتسبب في اللبس؛ حيث يجب الربط بالضمير بدل الاسم الظاهر؛ لأن إعادة الاسم الظاهر توهم التعدد نحو ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾ فلو أظهرنا الضمير في (ابنه) فقلنا: (ونادى نوح ابن نوح) لتغير المعنى المراد.

وقد تتكرر لفظة ما كثيرا، في نص أو سورة لغرض التلاذذ بذكرها واستعذاب ترديدها، وقد أشار المتنبي إلى هذا المعنى في مديحة له إذ يقول:

أساميا لم تزده معرفة وإنما لذة ذكرناها

وكتريديد مالك بن الريب لشجر الغضا في مرثيته الشهيرة:<sup>1</sup>

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة  
فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه  
لقد كان في أهل الغضا لو دنا الغضا  
وكتقول الحطيئة:

ألا طرقتنا بعدما هجموا هند  
ألا حبذا هند وأرض بها هند  
وقد سرنا خمسا واتلأب بنا نجد  
وهند أتى من دونها النأي والبعث

تكرر لفظة "الحق" في سورة يونس التي حظيت بأعلى نسبة بين سور القرآن؛ إذ تردد فيها 17 مرة، ترديد للتعظيم والتقدير والإجلال، والتلاذذ بذكره وترديد لفظه. فتدبر قوله تعالى فيها وتلاذذ: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ الآية 35.

❖ وللموقع أثره البالغ في توجيه معاني المكررات، فهو أصل التميز والتجدد والاستقلال الدلالي، فكل موقع أثر في خصوصية المعنى تماما كما هو ملحوظ في الكون المرئي، فكما جعل الله للشمس في السماء بروجها، وللقمر منازل، وللنجوم مواقع؛ لكل موقع منها أثر في تجديد الحياة وتميزها، فكذلك جعل للكلم مواضع يجب أن تعتبر وتقدر

1- الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق مفيد قمحة /166. الطبعة الأولى 1401هـ/ 1981م. دار الكتب العلمية بيروت. وأنظر جمهرة أشعار العرب. لأبي زيد القرشي/269. الطبعة 1398هـ/ 1978م. دار بيروت للطباعة.

والإكان الزلل والانحراف وقد ذم الله قوما ﴿يَحْرَفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ النساء 46 والمائدة 13 وفي آية أخرى ﴿يَحْرَفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ المائدة 41، 43. وأسفر البحث في مبحث التذكير والتأنيث أن تأنيث الفعل المسند إلى فاعل مذكر، يحمل غرضاً بلاغياً؛ حين يدل على كثرة الفاعلين كالذي رأيناه في قوله تعالى:

- ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ الحجرات الآية: 14

وقوله تعالى:

- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ الشعراء الآية: 105.

❖ ولقد تبين لنا من خلال تتبع تكرار (لا) في السياق الواحد، أن تكرارها متنوع الصور والمظاهر.

ومن الخطأ المنهجي أن نعامل تلك النماذج على أنها صورة واحدة تكررت فيها (لا) لتوكيد المعاني والأحداث والذوات.

وعلى سبيل التمثيل والتوضيح فهناك صور عديدة لتكرار (لا) في سياق العطف نجملها فيما يلي:

1- استقصاء المعنى من كل الجوانب، كما في قوله تعالى:

- ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ وَإِنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿طه 118، 119.

- ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ فصلت 34.

- ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة 38 و62 و112 و262 و274 و277.

2- نفي المعنى وضده، والمراد المعنى الحاصل من اجتماع الصفتين، ولا يُستغنى بواحدة منهما عن الأخرى، وهو شبيه بما يُسميه ابن فارس: "من سنن العرب" أن تنفي الشيء والغرض إثباته، وفي نحو قوله تعالى:

- ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا﴾ الأعلى: 3 وطه: 74. فالمقصود: المعنى الناتج من اجتماعها أو هو صفة بين الوصفين.

- ﴿لَا شَرِيفَةً وَلَا غَرِيْبَةً﴾ النور: 35.

3- تأكيد المعنى والإلحاح عليه بنفي مُرادفه إيفالاً واستقصاءً. سواءً كان المنفي حدثاً في مثل قوله تعالى:

- ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ المدثر: 28.

- ﴿لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى﴾ طه: 77.

أو كان المنفي اسماً أو وصفاً، كما في قوله تعالى:

- ﴿لَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ طه: 112.

- ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ البقرة: 255.

- ﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ الواقعة: 44.

فالمعنى الثاني في الأمثلة الآنفه، وإن كان مؤكّداً للمعنى السابق، فإنّه يشتمل على زيادة معنى، وتحقيق انسجام في النظم والمبنى، وهذا على اعتبار أنه لا ترادف حقيقياً بين اللفظين. بل على اعتبار التغير بين المترادفين مما يستدعي وجوب التمييز بينهما، واستجلاء ملامح الفروق بين: تُبْقِي وتذر، وتَخَاف وتخشى، والظلم والهضم.

وقد يكون الجمع بينهما ضرورياً، حين لا يكتمل المعنى إلا بهما، ويتنامى ويشتدّ ويمتد، فيما يليه من مرادفات معنوية، كالذي لمسناه في سورة القيامة في الآية: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ التي قال عنها السامرائي: «آية التوكيد أشد من الآية المؤكّدة»<sup>1</sup>.

حيث ارتبط بتكرار النفي، ما بعده ارتباطاً عضوياً يتنامى فيه المعنى فترى المكرّر المنفي: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ يُوكّد بتكرار معناه: (كَذَّبَ وَتَوَلَّى).

وهذه اللفظة الأخيرة تهيء الأذن لجرسها لاستقبال جملة الدعاء المكرّرة بعدها بسبب الاشتراك في المادة اللفظية من (تَوَلَّى) إلى (فَأُولَى) التي تتكرر أربع مرات:

- ﴿أُولَى لَكَ فَأُولَى ثُمَّ أُولَى لَكَ فَأُولَى﴾ القيامة: .

1- لمسات بيانية- للسامرائي ص 231.

كما أن اختيار النفي بـ (لا) دون (ما) النافية له مواظنه ومُناسباته وإن بدا في الظاهر ولأول وهلة أن التعبير بأيّ منهما يُحقّق الغرض سواءً بسواء.

فلا يفرّق بين: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ :

- و (ما زاع البصر ولا طغى) .

- و (لا زاع البصر ولا طغى) .

ولا بين: ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَلَا أَنتُمْ بِمُصْرِحِي ﴾ إبراهيم 22،

- وقولك: لا أنا بِمُصْرِحِكُمْ ولا أنتم بمصرخي .

- و: ما أنا بِمُصْرِحِكُمْ وما أنتم بمصرخي .

تلك مواظن دقيقة لاستعمالات (لا) و(ما) تحتاج إلى مزيد من التأمل وفضل من التدبّر فمّمّا لا شك فيه أن السياق في الآيات التي نحن بصدد دراسة تكرر النفي فيها قد آثرت (لا) عن (ما) لاعتبارات لغوية وبلاغية عامة تتعلق بدرجة النفي وقوته واعتبارات خاصّة دلالية تختلف باختلاف السياق والمقام.

❖ وتبين لنا أنّ النفي بـ (لا) آصلٌ مِنَ النَّفْيِ بـ (ما) وأكد وأبلغ لأنها - كما يقول عنها برجشتراسر أقدم حروف النَّفْيِ في العربية<sup>1</sup> . ثم إنّها متمحّضة في الدلالة على النَّفْيِ في جميع استعمالاتها؛ بينما (ما) تتجاذبا عدة وظائف أخرى.

وأنها تتقارض مع أخواتها من أدوات النفي (لن- لم - ما- ليس- غير ) وأنها أكد في النفي منهن.

❖ أنها أوسع استعمالاً منهن في الدلالة على التّقي؛ إذ تدخل على الأسماء والأفعال وتدخل على المعارف والتّكرات، وتدخل على الجمل والمفردات. وهذه الخصوصية تفسّر علّة التقارض في بعض النماذج السابقة.

❖ كما أنها تختص بمواضع دون أخواتها من حروف النَّفْيِ فتكون عاطفةً .

1- التطور النحوي- للأستاذ برجشتراسر- طبعها حمد حمدي البكري 1929- ص 115- عن معاني النحو ص 175.

ويُستحسن أن نُنبّه هنا إلى أن تكررَ في المواقع الثلاثة الأخيرة هو على وجه

تتكرر فيه (لا) على سبيل الوجوب. حين يُراد بها نفي أكثر من خبر أو نعتٍ أو حالٍ. أما إذا أُريد نفي واحد منها فقط جيءَ بـ (غير) دون (لا).

❖ أنَّ (لا) لا تقتصر على زمان دون آخر، وإنما ترتبط بأطواره جميعًا فتدخل على المضارع فيفيد الحال، أو يفيد الاستقبال أو يفيد الاستمرار.

وتدخل على الماضي قليلا فيجب تكرارها على القول الأشهر كما في آية سورة القيامة (فلا صدق ولا صلى).

وقد سبقت الإشارة إلى أن هذه من المواقع الخاصة بـ (لا) دون أخواتها في التَّفي.

❖ أو دخلت على جملة فعلية فعلها ماض لفظًا ومعنى كقولنا: لا راح ولا غدا، لا قام ولا قعد. ونحو قوله تعالى: ﴿فلا صدق ولا صلى﴾.

وهذا القيد حملَ جُلَّ المفسرين والنُّحاة منهم على الخصوص، على تقدير تكرير (لا) في قوله تعالى: ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ أو بتأويل الفعل الماضي بالدلالة على الاستقبال.. أو بتأويل المعنى بدلالة آخر الكلام: ﴿ثمَّ كانَ من الذين آمنوا...﴾ الذي أغنى عن تكرارها وقام مقام التكرير كأنه قال: فلا اقتحم العقبة ولا آمن<sup>1</sup>. قاله الفراء والزجاج وتلقفها الزمخشري فقال عن (لا) في الآية: (هي متكررة في المعنى؛ لأنَّ معنى ﴿فلا اقتحم العقبة﴾: فلا فكَّ رقبة، ولا أطعم مسكينا؛ ألا ترى أنه فسّر اقتحام العقبة بذلك)<sup>2</sup>.

ومن لم يُقدِّر تكريرًا، حملَ الفعلَ على الاستقبال أو انه للدعاء تخلُّصًا من تقدير مكرر.

1- أنظر: البحر المحيط 482 / 10. وانظر: الجنى الداني ص 289.

2- الكشاف: 256 / 4.

وذهب بعضهم إلى أنّ (لا) للتحضيض بمثابة (ألا).  
و تدلُّ هذه التخريجات المختلفة على وجوب تكرارها عندهم إذا دخلت على الماضي لفظاً ومعنى ولا يجوز أن تسقط من اللفظ.  
ومن الطريف أن هناك مواضع بالمقابل، تتكرر فيها (لا) ويجوز حذفها أو تأويلها. أو يحكم عليها بالزيادة، فقد تتكرر (لا) قبل القسم توطئةً للجواب في نحو قولك: لا والله لا يقوم زيد. وقيل: إن من هذا الباب قوله تعالى:

﴿ فلا وربك لا يؤمنون ﴾ و ﴿ لا أقسمُ بيوم القيامة ولا أقسمُ بالنفس اللوامة ﴾  
وربما قالوا: إن (لا) الأولى زائدة؛ غير أن تخريجها أولى من جعلها زائدة في أول الكلام ومفتحة، إذ الزيادة مع التقديم متناقضتان<sup>1</sup>؛ لأن التقديم والصدارة اعتناء، وأن الحذف والزيادة استغناء.

ومن أعدل الأقوال في هذا الباب أن (لا) النافية التي تصدرت القسم نابت (مناب كلامٍ متقدمٍ عليها تقتضي نفيه مُقدِّراً، لدلالة ما بعده عليه)<sup>2</sup>.  
وكأنَّ المعنى: ليس كما تقولون، ثم أقسمَ بعد ذلك.  
أو هي على ظاهرها نافية لما بعدها، وأنَّ منفيها (أقسمُ) وكأنَّ المقامَ إعظاماً فوق الإقسام.

ومن المواطن التي يجوز إعادة (لا) من الوجهة التركيبية لا البلاغية البيانية ما عطفَ به (لا) على واو المعية أو واو الصرف كما يُسميها الكوفيون في مثل قوله أبي الأسود الدؤلي:

لا تته عن خلقٍ وتأتي مثلهُ عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ  
يقول الفراء: (ألا ترى أنه لا يجوز إعادة (لا) في "تأتي مثله" فلذلك سُمِّيَ صرفاً إذ كان معطوفاً ولم يستقم أن يُعادَ فيه الحادث الذي قبله)<sup>1</sup>.

1- أنظر: رصف المباني ص 332.

2- أنظر المصدر السابق.

لأنّ إعادتها هنا يجعل الواو حرفَ عطْفٍ على المجزوم (لا تنه) وهي هنا في موضع نصبٍ (وتأتي).

ونشيرُ بالمناسبة إلى أن المواضع التي تحملُ على التأمل وإعمال الفكر في تخرِجِ (لا) هي المواضع التي تحملُ ذكر (لا) وحذفها؛ لأن ذلك جائز من جهة التركيب.

بيد أنك ترى كثيرا من الباحثين يقتصر في التحليل على التعليق عليها بتقدير (لا) إنْ حُذفت وبالإشارة إلى جواز حذفها إنْ ذكُرَتْ، ولا يتعنّى استخراج المعاني التي أضفاها حضور (لا) في السياق، ولا المعاني التي تغيض إذا غابت وحُذفت.

وأنكر من هذا - في تقديري - دعوى زيادة (لا) لفظًا ومعنى، لحل مُعضلة المعنى حينَ يستغلقُ الفهم، ويستعصي إجراء المعنى على ظاهر اللفظ. وهو إغفال تام للقاعدة الأصولية في اللغة: إنَّ الأصل مُطابقة المعنى للفظ، وتكثيرُ اللفظ بتكثير المعنى.

❖ ومن نتائج المبحث الخاص بلفظة فرعون أنه مكننا من الوقوف على بعض الفوائد وكشف بعض الحَبَايا منها:

- ورود لفظه (فرعون) في القرآن الكريم أربعًا وسبعين مرَّةً (74) في سبع وعشرين سورة (27). أربعٌ منها مدنيَّة، والباقي منها مكِّي.

- فقد جاء ذكر (فرعون) في أربع وعشرين (24) سورة مكية تردَّد فيها لفظه سنًّا وستين (66) مرَّة، وفُصِّلَ القولُ في بعضها تفصيلًا فقِصَّة فرعون وقومه هي أكثر قصص القرآن تكررًا ودورًا.

وقد يتعجَّب المتدبِّر في عدد ورود الألفاظ في القرآن الكريم، حين يجد أنَّ فرعون ذكر في القرآن أكثر مما ذكر إبراهيم عليه السلام وهارون عليه السلام؛ إذ ذكر فرعون 74 مرَّةً بينما ذكر إبراهيم 69 مرة وهارون 20 مرة.

أو حين يُلاحظ أنّ أوّل هؤلاء ذكرا في القرآن من جهة النزول ومن جهة ترتيب المصحف هو فرعون. فأوّل ما ذُكر، ذكر في سورة المزمل وهي ثالث سورة نُزولاً. وأوّل ما وردَ ذكر له حسب ترتيب المصحف كان في الآية 49 و50 من سورة البقرة.

وورد أوّل ذكر لموسى عليه السلام في آخر سورة الأعلى وهي الثامنة نُزولاً وورد أوّل ذكر له في ترتيب المصحف في سورة البقرة في الآية 51، بعد ذكر فرعون. وكذلك ورد أوّل ذكر لإبراهيم عليه السلام في آخر سورة الأعلى وورد أوّل ذكر له من جهة ترتيب المصحف في الآية 124 من سورة البقرة.

وأوّل ما ذكر هارون عليه السلام ذكر في سورة الأعراف وهي التاسعة والثلاثون (39) نزولاً.

وأوّل ما ذكر في المصحف ذكر في الآية 248 من سورة البقرة.

وقد لاحظت أنّ أوّل ذكر لموسى هو أوّل ذكر لإبراهيم من جهة النزول وأنّ ثاني ذكر له هو ثاني ذكر لإبراهيم كذلك. هذا وإنّ بين الذكر الأول والثاني نزلت 14 سورة، ومع ذلك تشابه المعنَيان في الموقعين، فالذكر الأول لهما في سورة الأعلى:

- ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (19)﴾.

والذكر الثاني في سورة النجم:

- ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37)﴾.

وفي هذين الموقعين تشابه في الفاصلة واختلاف في تقديم الاسمين وتأخيرهما.

والسر في تبوّء تلك اللفظة هذه المساحة المعتبرة من آي الذكر الحكيم، فيما يبدو لي، يعود إلى ارتباطها الوثيق بقصة موسى عليه السلام التي وردت في أكثر من ثلاثين موضعاً<sup>1</sup> من القرآن، وهو أمرٌ لم تبلغه قصة أخرى؛ وذلك لما في سيرة بني إسرائيل من عبر ودروس، غدتّ قوانين تاريخية وسُنناً اجتماعية، تتكرّر عبر العصور، وفي الأمم اللاحقة، حتى قال عنها النبي ﷺ مخاطباً أصحابه وأتباعه: (الله أكبر إنَّها السنن) أي

1- ذُكرَ موسى 136 مرة في 35 سورة من القرآن.

أنها قاعدة عامة ثم أخبر: (لَتَتَّبِعَنَّ سِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقَدَّةِ بِالْقَدَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ) قالوا: يا رسول الله: اليهود والنصارى ؟ قال: فمن ؟) وفي رواية: (وَمَنْ النَّاسُ إِلَّا أَوْلَاكَ ؟)<sup>1</sup>.

وهو إخبار يحمل الذم ويتضمن النهي عن التشبه باليهود والنصارى.

وعلى قاعدة السنن والتشابه قال سفيان بن عيينة ت 198هـ:

(مَنْ فَسَدَ مِنْ عِلْمَانَا فِيهِ شَبَهُ مِنَ الْيَهُودِ، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عِبَادِنَا فِيهِ شَبَهُ  
بِالنَّصَارَى)<sup>2</sup>.

فاقترنت أخبار موسى وقومه في المراحل الأولى من دَعْوَتِهِ بفرعون اقتراً مِخْورِيًّا وتردّد ذكره تبعاً لذلك، فما من حَدَثٍ فِي أَخْبَارِهِمْ إِلَّا وَهْ صِلَةٌ بفرعون ولم ينقطع ذكره إلا بعد غَرْقِهِ، فيتحول الحديث إلى موسى وقومه صرفاً خالصاً. فتري في سورة الأعراف الحديث عن موسى وفرعون يبدأ من الآية (103) إلى غاية (141) حيث يُغْرَقُ فرعونُ فلا يُسْمَعُ لَهُ حَسِيْسٌ وَلَا رِكْزٌ بَعْدَهَا، وَلَا يَرِدُ لَهُ اسْمٌ حَتَّى تَنْتَهِيَ قِصَّةُ موسى عبر آية 30 عند الآية (171) من سورة الأعراف. والله أعلم.

- كما أثار التأمل في لفظة فرعون بحثَ قضية في تاريخ الأدب العربي، يرجع إليها في مَصَانِئِهَا مِنْ هَذَا الْمَبْحَثِ.

❖ وَ أَوْقَفْنَا التَّأْمَلَ فِي سَوْرَتِي الْبَلَدِ وَالنَّاسِ عَلَى بَعْضِ مَسْوَغَاتِ تَكَرُّرِ الْفِظَةِ تَكَرُّرِ الْفِظَةِ عَنْ قَرَبٍ، نَجْمَلُهَا فِيمَا يَأْتِي:

1 - إن انفصال الجمل يسوغ تكرار اللفظ بدل إضماره، حيث يبدو التكرار فيه كأنه وقع في موضعين متباعدين، وذلك كأن يقع اللفظ المكرر في جملتين إحداهما جملة اعتراضية، والتي كأنها جملة أجنبية معترضة في الكلام جيء بها لغرض ما، كالذي وقع في تكرار « البلد » في سورة البلد.

1- أنظر نص الحديث في فتح المجيد- تأليف العلامة الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ- تحقيق محمد حامد الفقي- ص 140 و 267.

2- بدائع التفسير- لابن القيم- 1/ 247. وانظر: فتح المجيد هامش ص 267.

﴿ لا أقسم بهذا البلد - وأنت حل بهذا البلد - ووالد وما ولد ﴾

2- أو يقع التكرار بين جملتين ليس بينهما شائكة لفظية من حروف العطف وإن كانت بينهما صلة عطف البيان، فنكون اللفظة المكررة جاءت بناء على استقلالية الجملة وتحررها، أو لتحقيق رباط لفظي بتكرير اللفظ: لأنه عامل مشترك بين الجملتين. وكلا الأمرين مسوّغ لتكرار اللفظ، وقد سبق شرحه في سورة الناس.

3- كما أن مجرد تكرير لفظة في جملتين مبرر يميز تكرارها، فهذا سيبيويه يستحسن وضع الظاهر موضع المضمّر، إذا كان في جملة أخرى غير الجملة المذكور فيها الاسم السابق، ولا يستحسن وضع الظاهر موضع المضمّر إذا كان في جملة واحدة، إذ لا مبرر يدعو إلى هذا العدول<sup>1</sup>.

وبهذا الضابط أو المسوغ علل تكرار لفظ الجلالة (الله) في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ ﴾ الأنعام: 124. لوقوع ذلك في جملتين.

وهناك من يرجع علة استقباح تكرار اللفظة في الجملة الواحدة إلى كونه قد يوهّم السامع أن المراد باللفظ غيره.

وهذا التعليل يصح في سياق ولا يصح تعليلا لكل سياق.

4- ولتكرار اللفظ مزية أخرى، إذ يحلّ الاسم محلّ الضمير - الذي يربط بين الجمل ربطاً مُحكماً لا يحتمل الانفصال - فيجيء اللفظ المكرر ويحلّ مكان الضمير، فيعطي للجمل شبه انفصال واستقلالية، تحرّر المعاني من الانغمار في غيرها، والافتقار إلى ما قبلها.

وهذا الاعتناق يسوّغ تكرار ذلك اللفظ ويكسر من سؤره إعادته ويخفف من عبء تحمله، وهو أمر تنبّه إليه حازم القرطاجني فأشار إلى هذه الصلة وهو بصدد الحديث عما يجب في القوافي من جهة كونها مستقلة منفصلة عما بعدها أو متصلة به،

1- أنظر: الكتاب لسبيويه - تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون - دار الكتب العلمية بيروت - مطبعة المدني - القاهرة - ج1/ 62 وأنظر: أثر النحاة في البحث البلاغي - د عبد القادر حسين - ص 108.

فبيّن ما للإظهار من اثر في الاتصال والانفصال فيقول: « ولكون إظهار المضمر يُصير الكلام مستقلاً غير مفتقر إلى ما قبله قد يحتملون ما في التكرار من ثقل»<sup>1</sup> ، وذلك مثل قول الخنساء:

وَإِنَّ صَخْرًا لَوَالَيْنَا وَسَيِّدُنَا      وَإِنَّ صَخْرًا إِذَا نَشْتُو لَنَحَّارُ  
وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُّهُدَاةً بِهِ      كَأَنَّهُ عَالِمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ<sup>2</sup>

5- غير أن إعادة اللفظ تجوز بل تحسن على الإطلاق في مقام التفخيم والتعظيم والشاهد القوي على هذا قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ و﴿ الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ و﴿ الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ وعليه اعتمد ابن جني في تعليل إعادة اللفظ في بيت ذي الرمة:

وَلَا الْخَرْقَ مِنْهُ يَرْهَبُونَ وَلَا الْخَنَّا      عَلَيْهِمْ وَلَكِنْ هَيْبَةٌ هِيَ مَا هِيَ<sup>3</sup>

فراه يقول: « لأنه إنما يعاد لفظ الأول في مواضع التعظيم والتفخيم، وهذا من مظانه، لأنه في مدحه وتعظيم أمره »<sup>4</sup> أي في مدح بلال بن أبي بردة.

❖ وإن لوقع التكرار الذي تردد صداه في أرجاء سورة الكافرون، أثرا واضحا في تلوين جوها العام، حتى إنك لتشعر وكأن السورة تكرر لأصوات، وترديد لكلمات، وإعادة لعبارات، ولا تُتجاوَر. فيتناغم هذا الترديد مع صلابة الموقف الذي تحكيه السورة وتجهر به: من إصرار لا يلين، وثبات لا يريم، وحسم لكل مطمع فيه، وتأسيس لهم مما أرادوه منه. وهذا الجو الذي أثاره ما تكرر من أصوات وألفاظ حتى اصطبغت به السورة، ترديد متواصل يحاكي حال المصّر على المبدأ أو الفكرة. فجميع ما تكرر من الملفوظ فيها موصول بقطب المعنى المتمثل في التمسك بالتوحيد ونبد

1- منهاج البلغاء وسراج الأدباء: حازم القرطاجني ص277.

2- ديوان الخنساء، دار بيروت- بيروت، 1398هـ - 1978م ص: 48، 49.

3- في الديوان: (وَلَا الْفُحْشَ) بدل (وَلَا الْخَرْقَ)، أنظر: ديوان شعر ذي الرمة، عني بتصحيحه وتنقيحه:

كارليل هنري هيس مكارنتي، مطبعة كلية كامبريج 1337هـ - 1919م ص 655.

4- الخصائص - ابن جني - تحقيق محمد علي النجار - دار الكتاب العربي - بيروت - 3/ 54

الكفر والبراءة من الشرك، وهو سرُّ تَبَوُّءِ هذه السورة المقام الأسنى، والسنام الأعلى بين السور فسميت سورة البراءة الصغرى . فقد أوصى رسول الله ﷺ ذلك الذي جاءه يسأله أن يعلمه شيئاً يقوله عند منامه فقال له: « إذا أخذت مضجعتك فاقراً ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ثم نم على خاتمها، براءة من الشرك»<sup>1</sup> حيث الإصرار يبلغ آخر مطاف كل يوم إلى غاية إطباق الأجنان عليه.

وتجد التناسب بين المفتح وواسطة السورة يتوثق ويتوغل حتى يبلغ نهاية السورة، فتشهد تعانق المفتح والمختم حتى ليخيلُ إليك أن وصلهما إجمال للسورة، وخلاصة للغاية التي آل إليها الحوار فتأمل.

والملاحظُ بعد ذلك كله أنه على الرغم من تأسس السورة على عبارات وألفاظ مكررة أنشئت من مادة واحدة: أعبد - تعبدون - عابدون - اعبد - عابد - عبدتم - عابدون - أعبد . جاءت في غاية التنوع والتصرف.

فهل هناك بعد هذا، إعجاز أبلغ من هذا الإعجاز في البيان وثبات المواقف وتعانق المطالع والأوساط والختام، فضلاً عن الكشف عن حجب الغيب. وإخراج التكرار في ثوب الإيجاز الذي لا يدرك إلا بعمق الفهم ودقة الفقه.

وختاماً، بدا لي أن الآيات التي وقع في حيزها التكرار واختيرت من بين آلاف الآيات والعبارات.. أن فيها رعاية خاصة، لأهميتها وخطورة شأنها، لتتوزع بين التالين لكتاب الله والحافظين لأجزاء منه، ويكون نصيبُ التزود منها بينهم، أكثر من غيرها.. وليس هذا إلا للمكرر؛ فتكون هي أكثر الآيات في الصدور، وأكثرها دوراناً عند تلاوة السطور..

- وكذلك الآيات التي تكررت يستدل أحياناً بواسطتها على أسلوب السورة العام: هل هو في معرض الإيجاز والإجمال، والإشارة الخاطفة، والصورة العابرة؟ أو العكس: كالمثل الذي ضربه الله للحياة الدنيا في الآيات الآتية: في سورة الكهف

1- التفسير الكبير - ابن تيمية 7 / 58 وانظر: القرطبي 20 / 225.

﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾

وفي سورة يونس: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتْنَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ۗ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

وفي سورة الحديد: ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ ۗ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۗ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ۗ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمْتَعٌ الْغُرُورِ ﴿٤٧﴾ ﴾

فتصوير الحياة في آية الكهف في إيجاز شديد، وفي الحديد إطناب وتفصيل، وهي في مقام بين ذلك في سورة يونس.. وعلى ضوء ذلك تحلل الآيات في كل سورة إلا فيما استثنيتي أو خصص لعله وغرض..

- وبناء على كثرة الإيجاز والتركيز قد تكون السورة الطويلة قصيرة والقصيرة طويلة باعتبار المعاني التي احتشدت بين جنبها واختزنت في أحشائها.

وتكشف هذه الدراسة عن الأسلوب المتميز للغة العربية من خلال الأساليب المختلفة للآيات المكررة والتي يستحيل أن تكافئها ترجمات القرآن باللغات الأجنبية فقد تتأمل عبارة من المكرر المترجم فلا تجد فيها أثرا للمعاني البلاغية التي أضفتها الصورة التكرارية على الأسلوب فمثلا لا تراهم يفرقون في الترجمة بين العبارتين ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ الأعراف / 158. وقولنا: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي إِلَيْكُمْ جَمِيعًا

رسول الله". فقد لاحظ دارس لترجمات القرآن في الفرنسية والإسبانية أن الترجمتين فيها « أشرت رسول الله وهذا معناه كما يرى الباحث أنهما لم تهتما بشأن المؤخر، وهو رسول الله»<sup>1</sup>

ويعلق الدكتور منير المسيري « وهذا قصور في التعبير ومأخذ يؤخذ عليه، ونضيف إلى ذلك أن في الترجمتين.. عيب آخر.. وهو اشتغال العبارة على الفصل بين اسم "إن" وخبرها (رسول الله) بكلام أجنبي لم تدع إلى هذا التقديم علة بيانية.»<sup>2</sup>

فما بالك بما اشتملت عبارته على حذف وتقدير أو تأويل وتضمنين، وغير ذلك من دقائق الأساليب.

فهل يأتي يوم ترتقي الترجمة فيه إلى الجمع بين الترجمة والتفسير، إلى جانب التعبير عن جمال التركيب وعظمة الأسلوب؟!.

---

1- دلالات التقديم والتأخير لمنير محمود المسيري /6.

2- المرجع السابق.



**قائمة**

**المصادر والمراجع**

## قائمة المصادر والمراجع

❁ القرآن الكريم: برواية حفص

1. أبو الحسين بن الطراوة وأثره في النحو (528هـ) دراسة: دكتور محمد إبراهيم البناء، ط1: 1400هـ - 1980م. دار بو سلامة للطباعة.تونس.
2. الإتيان في علوم القرآن: للإمام السيوطي، ( د.ط )، 1973م، المكتبة الثقافية، بيروت- لبنان.
3. أثر اللغة في اختلاف المجتهدين.عبد الوهاب عبد السلام طويلة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1420هـ/2000م.
4. أثر النحاة في البحث البلاغي، للدكتور عبد القادر حسين. "د.ط.ت" مطبعة نهضة مصر الفجالة القاهرة.
5. اجتهادات لغوية: الدكتور تمام حسان. ط1، 1428هـ/ 2007، عالم الكتب. القاهرة. مصر.
6. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم- المشهور بتفسير أبي السعود: لمحمد بن محمد أبي السعود ألعادي 982هـ. ط2 : 1990م. دار إحياء التراث العربي بيروت.
7. أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها من غرائب آي التنزيل- لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي - اعتنى به وراجعته نجيب ماجدي - ( د.ط ) 1430هـ/ 2009م. المطبعة العصرية - صيدا - لبنان .
8. أساليب النفي في القرآن- أحمد ماهر محمود فهمي البقري- دار النشر والثقافة- الإسكندرية. 1970م.
9. أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن محمد السيد شيخون .ط1 : 1403هـ - 1983 م .مكتبة الكليات الأزهرية .القاهرة.

10. أسرار التكرار في القرآن: الكرمانى - دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا - ط 1، 1983، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع - تونس.
11. أسرار التكرار في لغة القرآن: الدكتور محمود السيد شيخون (د.ط.ت) دار الهداية.
12. أسرار العربية- للشيخ كمال الدين أبي البركات ابن الأنباري- تحقيق بركات يوسف هبؤد- ط 1، 1420هـ / 1999م- دار الأرقم بن أبي الأرقم- بيروت- لبنان.
13. أسرار ترتيب القرآن: الإمام السيوطي، دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا ومرزوق علي إبراهيم، (د.ط.ت)، دار الفضيلة - القاهرة.
14. أسلوب الالتفات في القرآن الكريم وأسراره: الأستاذ مصطفى شريقن - ط 1، 1430هـ/ 2009 - دار الخلدونية للنشر والتوزيع- الجزائر.
15. الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة - ركن الدين محمد بن علي بن محمد الجرجاني - تعليق إبراهيم شمس الدين - ط 1 - 1423هـ / 2002م - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
16. الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز: الإمام أبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام. تحقيق محمد بن الحسن بن إسماعيل - ط 1 / 1416 هـ - 1995 م - دار الكتب العلمية- بيروت. لبنان.
17. الأشباه والنظائر في النحو: الإمام السيوطي، راجعه وقدم له الدكتور فائز ترحيني، ط 1، 1404هـ/ 1984م، دار الكتاب العربي- بيروت.
18. الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني - (د.ط.ت)، دار الكتاب العربي- بيروت.
19. أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية: لمحمد الشاوش، (د.ط.)، 2001، المؤسسة العربية للتوزيع- تونس.

20. أضواء على متشابهات القرآن: للشيخ خليل ياسين، (د.ط.ت)، دار ومكتبة الهلال - بيروت.
21. الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم: الدكتور عبد الحميد يوسف هندراوي، (د.ط.)، 1423هـ / 2002م. - المكتبة العصرية- لبنان.
22. إعجاز القرآن الكريم: الدكتور محمد صادق درويش، ط 1، 2009 م، دار الإصلاح، دمشق - سوريا.
23. الإعجاز في دراسات السابقين: عبد الكريم الخطيب، ط 1، 1974م، دار الفكر العربي- لبنان.
24. إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان: الإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي، ج 1، (د.ط.ت)، دار المعرفة - بيروت - لبنان.
25. الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، (د.ط.)، 1390هـ / 1970، عن طبعة بولاق الأصلية، دار الفكر للجميع- بيروت.
26. أمالي المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد: للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي (355-436هـ)، تحقيق محمد أو الفضل إبراهيم، ط 2، 1967م، دار الكتاب العربي، بيروت.
27. أنوار التنزيل وأسرار التأويل: لناصر الدين البيضاوي، بحاشية شهاب الخفاجي، (د.ط.ت)، المكتبة الإسلامية، تركيا.
28. أنوار التبريع في أنواع البديع: السيّد علي صدر الدّين بن معصوم المدني "1052 هـ - 1120هـ" حقه شاعر هادي شكر ط 1: 1389هـ - 1969م مطبعة النعمان النجف الأشرف.
29. أيام العرب في الإسلام: محمد أبو الفضل إبراهيم- علي محمد البجاوي، ط 4، 1394هـ/1974م، منشورات المكتبة العصرية- صيدا - بيروت- لبنان.

30. الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني، تحقيق محمد عبد المنعم الحفاجي، ط 4، 1395هـ/1975م، دار الكتاب اللبناني - بيروت لبنان.
31. البحر المحيط: لأبي حيان، ط: 1412هـ/ 1992 م، دار الفكر بيروت
32. بدائع التفسير: للإمام ابن قيم الجوزية، جمعه ووثق نصوصه وخرّج أحاديثه: يسري السيد محمد، ط1: 1414 هـ/ 1993م، دار ابن الجوزي، م.ع السعودية.
33. بدائع الفوائد: للإمام ابن قيم الجوزية، (د.ط.ت)، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان.
34. البرهان في توجيه متشابه القرآن: تاج القراء محمود بن حمزة الكرمانى، حققه عبد القادر أحمد عطا تحت عنوان "أسرار التكرار في القرآن"، ط 1، 1983، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع - تونس.
35. البرهان في علوم القرآن: للإمام الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، (د.ت) دار المعرفة، بيروت- لبنان.
36. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروز أبادي، تحقيق أ.عبد العليم الطحاوي، (د.ط)، المكتبة العلمية- بيروت.
37. بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: الدكتور فاضل صالح السامرائي، ط2، 1422هـ/2001م - دار عمار-، عمان- الأردن.
38. البيان والتبيين: الجاحظ(أبو عثمان عمرو بن بحر) تحقيق عبد السلام هارون، ط4، 1975م، مكتبة الخانجي، القاهرة- مصر.
39. تاج العروس من جواهر القاموس: السيد محمد مرتضى الحسين الزبيدي، تحقيق إبراهيم التريزي، ط1، 1421هـ/ 2000م، الكويت.
40. تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة (أبي محمد عبد الله بن مسلم).شرحه ونشره: السيّد أحمد صقر. ط3، 1981. المكتبة العلمية.بيروت.لبنان.

41. التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن: لابن الزملاكاني، تحقيق الدكتور احمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي، ط1، 1964، مطبعة العاني، العراق
42. التحليل الألسني للأدب: محمد عزام. (د.ط.)، 1994م. منشورات وزارة الثقافة، دمشق. سوريا.
43. تخلص الشواهد وتلخيص الفوائد: ابن هشام الأنصاري 761هـ تحقيق وتعليق الدكتور عباس مصطفى الصالحي ط1: 1406هـ-1986م دار الكتاب العربي.
44. التذكرة في قواعد الإعراب: محمد خليل الباشا، ط2، 1405 هـ/1985م، عالم الكتب، بيروت .
45. تراجم سيّدات بيت النبوة . د. عائشة عبد الرحمن ( بنت الشاطئ)، ط1: 1387هـ-1967م . دار الكتاب العربي بيروت.
46. التطور النحوي: للأستاذ برجشتراسر - طبعها حمد حمدي البكري 1929-
47. التعبير القرآني: الدكتور فاضل صالح السامرائي. ط 3. 1425هـ- 2004م دار عمار - عمان الأردن.
48. تفسير الإمامين الجليلين: جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، (د.ت.ط.)، المكتبة الشعبية.
49. التفسير البياني للقرآن الكريم: عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، ط8. (د.ت.)، دار المعارف. مصر.
50. تفسير التحرير والتنوير: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، 1984م، الدار التونسية للنشر. تونس
51. تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن): أبي جعفر محمد ابن جرير الطبري، (د.ط.)، 1406هـ/ 1986م، دار المعرفة- بيروت- لبنان.
52. تفسير القرطبي(الجامع لأحكام القرآن): أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، (د.ط.)، 1405هـ/1985، دار إحياء التراث العربي - بيروت- لبنان.

53. التفسير الكبير: لشيخ الإسلام ابن تيمية. تحقيق وتعليق: د. عبد الرحمان عميرة، ط1/1988، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان.
54. التفسير المأثور عن عمر بن الخطاب: جمعه وعلق عليه إبراهيم بن حسن، (د.ط.)، 1985م، الدار العربية للكتاب.
55. تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغي، (د.ت.ط.)، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان.
56. تفسير المنار: الشيخ محمد رشيد رضا، (د.ت.ط.)، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان.
57. تفسير آيات الأحكام: إشراف وتنقيح الشيخ محمد علي السائس. من مقرر كلية الشريعة الإسلامية 1373هـ / 1953م. مطبعة محمد علي صبيح. ميدان الأزهر. القاهرة. مصر.
58. التّقرير في التّكرير: للعلامة السيد محمد أبو الخير عابدين، ط1، 1413هـ/1992م، مطبعة الشام، سوريا.
59. التكرار الأسلوبى فى اللغة العربية: د.السيد خضر، ط1، 1424هـ/ 2003م، دار الوفاء المنصورة، مصر.
60. ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني - (بيان إعجاز القرآن للخطابي). حققها وعلق عليها محمد خلف الله - د/ محمد زغلول سلام . ط2: 1387 هـ - 1968م - دار المعارف بمصر.
61. جامع الترمذي، ضمن الكتب الستة، بإشراف ومراجعة فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ط3، 1421هـ/2000م. دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية.
62. جامع الدروس العربية: الشيخ مصطفى الغلاييني، ط23، 1411هـ/1991م منشورة المكتبة العصرية، بيروت - صيدا - لبنان.

63. جماليات المفردة القرآنية: الدكتور أحمد ياسوف، ط2، 1999م، دار المكتبي، دمشق.
64. جمهرة أشعار العرب: أبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، 1398هـ / 1978م، دار بيروت للطباعة - لبنان.
65. الجنى الداني في حروف المعاني: للحسن بن قاسم المرادي 749 هـ تحقيق د. فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل. ط1: 1413 هـ - 1992م، دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
66. جواهر البخاري، وشرح القسطلاني (700 حديث). تأليف مصطفى محمد عمارة، دار الفكر - بيروت.
67. جوهر الكنز: نجم الدين ابن الأثير: تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام، (د.ت.ط)، منشأة المعارف، الإسكندرية - مصر.
68. الحجة في القراءات السبع: الإمام ابن خالويه، تحقيق وشرح الدكتور عبد العال سالم مكرم، ط2، 1397هـ / 1977م، دار الشروق، القاهرة.
69. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: عبد القادر البغدادي، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط4، 1418هـ / 1997م، مكتبة الخانجي - القاهرة.
70. الخصائص: ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، (د.ت.ط)، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.
71. الدر المنثور في التفسير بالمأثور: الإمام السيوطي، 1403هـ / 1983م، بيروت - لبنان.
72. دراسات في القرآن الكريم الدكتور أحمد زكريا ياسوف. منشورات جامعة حلب 1425هـ - 2004م.
73. دراسات في فقه اللغة: صبحي الصالح، ط2، 1962م، المكتبة الأهلية، بيروت - لبنان.

74. دراسات قرآنية. محمد قطب . ط5: 1408هـ - 1988م . دار الشروق . القاهرة - بيروت.
75. درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز: لأبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الاسكافي(ت 420 هـ)، ط2، 1977م، دار الأفاق الجديدة بيروت - لبنان.
76. دقائق التفسير: الإمام ابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد السيد الجليند، ط1، 1398هـ/1978م، دار الأنصار، مصر.
77. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: أبي بكر أحمد بن حسين البيهقي(ت485هـ). تحقيق الطيب عبد المعطي قلجعي، ط1، 1405هـ/1985م، دار الكتب العلمية.
78. دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم: الدكتور منير محمود المسيري- ط1، 1426هـ/2005م، مكتبة وهبة القاهرة . مصر.
79. ديوان أبي نواس: 1978، دار بيروت للطباعة والنشر.
80. ديوان أبي نواس: شرح محمود واصف. ط1، 1898م، المطبعة العمومية بمصر.
81. ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس: تحقيق د.محمد محمد حسين، ط1، المطبعة النموذجية، نشرة مكتبة الآداب بالجماميز.
82. ديوان الإمام علي: جمعه وضبطه وشرحه الأستاذ نعيم زرزور، ط1، 1421هـ/2000م، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان.
83. ديوان الخنساء: دار بيروت للطباعة والنشر، 1398هـ 1978م، بيروت - لبنان.
84. ديوان ذي الرثمة: عُني بتصحيحه وتنقيحه: كارليل هنري هيس مكارتي، 1337هـ 1919م، مطبعة كلية كامبريدج.
85. رصف المباني: الإمام أحمد بن النور المالقي، تحقيق أ.د أحمد محمد الخراط، ط3، 1422هـ/2002م، دار القلم، دمشق- سوريا.

86. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لشهاب الدين الألوسي، قرأه وصححه محمد حسين العرب، 1994م، دار الفكر.
87. سر الفصاحة: لابن سنان الخفاجي، ط1، 1402هـ/ 1982م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
88. سنن ابن ماجه، ضمن الكتب الستة، بإشراف ومراجعة فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ط3، 1421هـ/ 2000م، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية.
89. سنن أبي داود، ضمن الكتب الستة، بإشراف ومراجعة فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ط3، 1421هـ/ 2000م، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية.
90. سنن النسائي، ضمن الكتب الستة، بإشراف ومراجعة فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ط3، 1421هـ/ 2000م، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية.
91. السيرة النبوية: ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا - إبراهيم الابياري - عبد الحفيظ شلبي، ط3، 1391هـ/ 1971م، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
92. شرح أصول في التفسير وشرح مقدمة التفسير. العلامة محمد بن صالح العثيمين ط1: 1426هـ - 2006م المكتبة الإسلامية. القاهرة.
93. شرح العلامة بخرق اليمنى الكبير على لامية الأفعال لابن مالك، (د.ت.ط)، دار رحاب للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.
94. شرح الكافية البديعية: صفي الدين الحلبي، تحقيق الدكتور نسيب نشاوي، (د.ت.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
95. شرح ديوان المتنبي: وضعه عبد الرحمن البرقوقي، 1407هـ/ 1986م، دار الكتاب العربي. بيروت.

96. شرح التلخيص: التفتازاني- المغربي - السبكي، (د.ت.ط)، دار الإرشاد الإسلامي بيروت.
97. الشعر والشعراء: لابن قتيبة تحقيق مفيد قميحة، ط1، 1401هـ / 1981م. دار الكتب العلمية بيروت.
98. شواهد في إعجاز القرآن: الدكتور عودة أبو عودة، ط1، 1419هـ / 1998م، دار عمار، عمان - الأردن.
99. صحيح البخاري، ضمن الكتب الستة، بإشراف ومراجعة فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ط3، 1421هـ / 2000م، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية.
100. صحيح مسلم، ضمن الكتب الستة، بإشراف ومراجعة فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ط3، 1421هـ / 2000م، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية.
101. الصّرف العربي صياغة جديدة: زين كامل الخويسكي: 1996 دار المعرفة الجامعية الإسكندرية.
102. ظاهرة التكرار في القرآن الكريم: الدكتور عبد المنعم السيد حسن، ط1، 1400هـ / 1980م.
103. ظواهر قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية بين القدماء والمحدثين: الدكتور البدر اوي زهران، ط2، 1993م، دار المعارف، مصر.
104. عجائب علوم القرآن: ابن الجوزي، تحقيق الدكتور عبد الفتاح عاشور، (د.ط.ت)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
105. العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب: الشيخ ناصيف اليازجي، (د.ط.ت).
106. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: بهاء الدين السبكي، تحقيق الدكتور خليل إبراهيم خليل، ط1، 1422هـ / 2001م، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

107. علم الدلالة العربي: الدكتور فايز الداية، (د.ط.ت)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
108. علم الدلالة: لأحمد مختار عمر، ط2، 1988م، عالم الكتب، القاهرة.
109. علم الدلالة: لمنقور عبد الجليل، 2001م، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق- سوريا.
110. غرائب التفسير وعجائب التأويل، للشيخ تاج القراء محمود بن حمزة الكرمانى، تحقيق الدكتور شمران سركال يونس العجلي، دار القبلة للثقافة الإسلامية- جدة، مؤسسة علوم القرآن - بيروت.
111. غرائب القرآن ورغائب الفرقان: نظام الدين القمي النيسابوري، تحقيق ومراجعة إبراهيم عطوة عوض، ط1، 1381هـ/1962م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر.
112. غريب القرآن: لعبد الله بن عباس رضي الله عنه، حققه وقدم له الدكتور أحمد بولوط، ط1، 1413هـ/1993م، مكتبة الزهراء، القاهرة- مصر.
113. غريب القرآن: للسجستاني"المسمى بنزهة القلوب" المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر:1990.
114. غريب القرآن: للسجستاني، تحقيق وتقديم محمد أديب عبد الواحد جمران ط1، 1995، دار قتيبة.
115. فتح الباري شرح صحيح البخاري :للحافظ ابن حجر العسقلاني،1405هـ - 1985م، طبعة دار الكتب العلمية. بيروت.
116. فتح الرحمان بكشف ما يلتبس في القرآن: لشيخ الإسلام الأنصاري، ط2، 1988م، مكتبة رحاب، الجزائر.
117. فتح القدير،الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: للإمام للشوكاني ط3:1393 هـ - 1973م دار الفكر بيروت.

118. فتح المجيد: تأليف العلامة الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، تحقيق محمد حامد الفقي، (د.ط.ت).
119. فرائد الخرائد في الأمثال: أبو يعقوب الخويّ، تحقيق الدكتور عبد الرزاق حسين، (د.ط.ت). دار النفائس - الأردن.
120. الفروق في اللغة: لأبي هلال العسكري، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، ط7، 1411هـ/1991م، دار الآفاق الجديدة، بيروت - لبنان.
121. الفقه الإسلامي وأدلته: الدكتور وهبة الزحيلي، ط2، 1405هـ/1985م، دار الفكر، دمشق - سوريا.
122. فقه السيرة: محمد للغزالي، ط2، 1408هـ/1988م، مكتبة رحاب - الجزائر.
123. فنون الأفنان في عيون علوم القرآن: ابن الجوزي، تحقيق الدكتور حسن ضياء الدين عتر، ط1، 1987م، دار البشائر الإسلامية، بيروت - لبنان.
124. الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ابن النقيب مطبعة السعادة . مصر ط1.(نسب في المطبوعة خطأ إلى ابن القيم)
125. الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان: ابن القيم، (د.ط.ت)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
126. في ظلال القرآن: سيد قطب، ط3، 1397هـ/1977م، دار الشروق، بيروت - لبنان.
127. فيض التقدير شرح الجامع الصغير: للعلامة المناوي، ط2، 1391هـ/1972م، دار المعرفة، بيروت - لبنان.
128. القرآن وعلم النفس. د/محمد عثمان نجاتي . ط1: 1402هـ - 1982م. دار الشروق.
129. القرآن وعلم النفس. عبد الوهاب حمودة . دار القلم: 1962. القاهرة.
130. القصص القرآني إبحاؤه ونفحاته د/ فضل حسن عباس. شركة الشهاب - باب الواد - الجزائر .

131. قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ. عبد الرحمن حسن حبنكة، ط1: 1400هـ - 1980م دار القلم (دمشق، بيروت).
132. كتاب الأسماء والأفعال والحروف: لأبي بكر الزبيدي، تحقيق الدكتور أحمد راتب حموش، 1423هـ/2002م، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
133. الكتاب: لسبويه، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية بيروت، مطبعة المدني، القاهرة.
134. الكشاف: الإمام أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، (د.ط.ت)، انتشارات آفتاب، تهران.
135. كشف المشكلات وإيضاح المعضلات: صنعة جامع العلوم أبي الحسن علي بن الحسين الباقولي، حققه الدكتور محمد أحمد دالي، ط 1، 1415هـ / 1995م، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
136. كشف المعاني في متشابه المثاني: للإمام بدر الدين بن جماعة الشافعي ت733هـ. حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور محمد محمد داود. ط1: 1418هـ - 1998م. دار المنار للنشر والتوزيع .
137. اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان: وضعه محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة. مصر. (د.ت.ط)
138. لسان العرب: ابن منظور، 1388هـ / 1968م، دار صادر للطباعة والنشر - دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت - لبنان.
139. لطائف المتان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن: للدكتور فضل حسن عباس، ط1، 1410هـ/1989م، دار النور للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.
140. اللغة العربية معناها ومبناها: تمام حسان، طبعة الهيئة المصرية للكتاب

141. لمسات بيانية في نصوص من التنزيل: الدكتور فاضل صالح السامرائي، ط 3، 2003/1423، دار عمار، عمان-الأردن.
142. متشابه القرآن العظيم: أبو الحسين أحمد بن جعفر بن المنادي، تحقيق فضيلة الشيخ عبد الله بن محمد الغنيان، ط1، 1408هـ، مطابع الجامعة الإسلامية، المدينة.
143. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - لضياء الدين ابن الأثير - قدمه وحققه وعلق عليه: د. أحمد الحوفي - و- د. بدوي طبانة. - القسم الثالث -، ط1: 1381هـ - 1962م. مكتبة نهضة مصر بالفجالة.
144. مجموع الفتاوى الكبرى: لابن تيمية، جمع وترتيب محمد بن عبد الرحمن بن قاسم ، ط: 1401هـ/1981م ، مكتبة المعارف - مصر.
145. مختار الصحاح: للإمام الرازي، عني بترتيبه محمود خاطر، (د.ط.ت)، دار المعارف، مصر.
146. مدارك التنزيل وحقائق التأويل(تفسير النسفي): للإمام أبي البركات عبد الله بن احمد النسفي 710 هـ دار الكتاب العربي بيروت.
147. المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري: حمد عوض القوزي، الطبعة الأولى بالرياض 1981م - ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1983م.
148. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية: للحافظ ابن حجر العسقلاني، 1414هـ -1993م، دار المعرفة بيروت.
149. معاني القرآن: للفراء، ط 3: 1983، عالم الكتب، بيروت-لبنان.
150. معاني النحو: الدكتور فاضل صالح السامرائي، ط2، 1423هـ/2003م، الناشر شركة العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة.

151. معترك الأقران في إعجاز القرآن: للسيوطي، تحقيق محمد علي البجاوي، (د.ت.ط)، دار الفكر العربي بالقاهرة.
152. معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم: د. إسماعيل أحمد عمارة، ود.عبد الحميد مصطفى السيد، مؤسسة الرسالة، ط1: 1407هـ / 1986م.
153. المعجم الأوسط: للطبراني. دار الفكر - عمان - توزيع دار الكتب العلمية بيروت 1420هـ - 1999م.
154. معجم البلاغة العربية: بدوي طبانة، ط1، 1977، منشورات جامعة طرابلس كلية التربية، لبنان.
155. معجم ألفاظ القرآن الكريم: مجمع اللغة العربية، ط 1390هـ/1970م، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر.
156. معجم المصطلحات النحوية والصرفية: محمد سمير نجيب اللبدي، (د.ط.ت) مؤسسة الرسالة، بيروت، قصر الكتاب، البلدة.الجزائر.
157. المعجم المفصل في الأدب: محمد التونجي . ط2، 1419هـ / 1999م ،دار الكتب العلمية بيروت .
158. معجم دقائق العربية: للأمير أمين آل ناصر الدين، ط1، 1997م، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت- لبنان.
159. معجم مفردات ألفاظ القرآن: للراغب الأصفهاني - تحقيق نديم مرعشلي - دار الكتاب العربي - مطبعة التقدم العربي نوفمبر 1972م.بيروت. لبنان.
160. مُغني اللبيب: لابن هشام، حققه الدكتور: مازن المبارك محمد علي حمد الله- سعيد الأفغاني، ط1، 1412هـ/1992م، دار الفكر للطباعة والتوزيع. بيروت.لبنان.
161. مفاتيح الغيب:(التفسير الكبير ) لفخر الدين الرازي - دار الفكر بيروت

162. مفتاح العلوم: للسكاكي، والإيضاح للقزويني، ط4، 1395هـ / 1975م، دار الكتاب اللبناني، بيروت، وشرح التلخيص، (د.ط) و(د.ت) دار الإرشاد الإسلامي.
163. المفصل في صناعة الإعراب: للزمخشري، قدّم له وبوّبه الدكتور علي بوملحم، ط: 2003م. دار ومكتبة الهلال. بيروت.
164. مقاييس اللغة: ابن فارس. تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون "د.ت.ط" دار الكتب العلمية. اسماعيليان نجفي ايران - قم.
165. مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب لمحمد محمد يونس علي. ط1: (2004م) دار الكتاب الجديد المتحدة. بيروت.
166. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل: أحمد الزبير الغرناطي، تحقيق سعيد الفلاح، ط (1) 1403هـ / 1983م. دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان.
167. من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم (الفاء - ثم) الدكتور محمد الأمين الخضري - ط2: 2007م. مكتبة وهبة - عابدين - القاهرة. مصر.
168. من روائع الإعجاز ( تعبير الحق عن ذاته )، الدكتور عز الدين علي السيّد، ط: 2 / 1997 عالم الكتب، بيروت. لبنان.
169. من نحو المباني إلى نحو المعاني: محمد طاهر الحمصي، ط1، 2003م، دار سعد الدين للطباعة والنشر - دمشق.
170. منهاج البلغاء وسراج الأدباء: حازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، ط 2: 1981، دار الغرب الإسلامي، بيروت. لبنان.
171. منهاج المسلم: أبو بكر جابر الجزائري، ط: 8، 1396هـ / 1976م، دار الفكر.
172. منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم: الدكتور عبد الوهاب فايد (د.ط) منشورات المكتبة العصرية صيدا، بيروت .

173. النحو الوافي: عباس حسن- دار المعارف بمصر- ط 3- (د.ت)
174. نظام الخطاب القرآني: لعبد المالك مرتاض، (د.ط.ت)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.
175. النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ، محمد الصغير بناني، ديوان المطبوعات الجامعية. طبعة 1994
176. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام المفسر برهان الدين بن عمر ألبقاعي. 1969م ، مجلس دائرة المعارف حيدر آباد الهند.
177. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: الإمام فخر الدين الرازي، تحقيق أحمد مجازي السقا، ط 1، 1412هـ / 1992م، دار الجيل، بيروت - لبنان.
178. النهاية في غريب الحديث والأثر: لابن الأثير، تحقيق محمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة - مصر.
179. هداية المرتاب وغاية الحفاظ والطلاب في تبين متشابه الكتاب. الإمام علم الدين أبو الحسن السخاوي. حققه وشرحه وقدم له عبد القادر الخطيب الحسني ط1: 1414 هـ - 1994 م دار الفكر المعاصر بيروت - لبنان

## الدوريات والبحوث والرسائل والمخطوطات:

180. البلاغة في التفسير القرآني الأندلسي في القرنين السابع والثامن (7 و 8): خلدون سعيد صبح، إشراف أسعد أحمد علي، كلية الآداب، جامعة دمشق، سوريا.
181. تحليل الخطاب الشعري، د. نور الدين السد، مجلة اللغة والأدب- جامعة الجزائر، ع 8، س 1996م.
182. لمحات في إعجاز سورة آل عمران: الدكتور محمد حسن باجودة، محاضرات الموسم الثقافي لكلية اللغة العربية 1420هـ/1999م جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
183. مخطوطة جامعة هارفرد (كومبردج)، وقد أرّخها ناسخها في 22 محرم 1269هـ.
184. مدخل لدراسة المؤنثات السماعية: الدكتور حامد القنيبي- بحوث كلية اللغة العربية جامعة أم القرى- مكة المكرمة- العدد الرابع: 1407- 1409 هـ.

# الفهرس

المقدمة..... أ

## المدخل

- 13..... صلتي بكتاب الله
- 15..... ضبط المصطلح وتحديد المفهوم
- 15..... 1- ضبط المصطلح
- 16..... فَعَّلَ بين تَفَعَّلَ وتَفَعَّلَ وتَفَعَّلَ
- 19..... فَعَّلَ بين التَّفَعُّلِ والتَّفَعُّلِ
- 20..... خلاصة ضبط المصطلح
- 21..... 2- تحديد المفهوم
- 23..... المصطلح بين التكرار والمتشابه
- 27..... استخلاص:
- 30..... أهم المصنفات في هذا الفن وتوجيهه
- 35..... مصطلحات لها صلة بالتكرار
- 41..... ظاهرة التكرار بين الكون والقرآن
- 41..... تأمل في سورة الرحمن
- 49..... ما يميز بعض الآي من المتشابه:
- 52..... اللازمة المتكررة في بعض السور: الرحمن - المرسلات - الشعراء
- 53..... اللازمة المتكررة في سورة: القمر
- 56..... استخلاص

## الفصل الأول

### التكرار بين الدراسات الحديثة والتراثية

- 59..... التكرار بين الدراسات الحديثة والتراثية
- 63..... تكرار (البلد) في سورة البلد
- 69..... التكرار في سورة الناس

74	أسرار تكرار اللفظة ومسوغاته
80	( قل يا أيها الكافرون ) في دراسة القدماء والمحدثين
83	( قل يا أيها الكافرون ) في دراسات القدماء
95	( قل يا أيها الكافرون ) في بعض الدراسات الحديثة
100	التحليل المقطعي لألفاظ السورة
109	خلاصة حول سورة الكافرون

## الفصل الثاني

### إيجاءات بعض الألفاظ فيما تكرر من العبارات

121	1- إبليس والشيطان
121	إبليس
125	الشيطان
130	أطوار مرّ بها إبليس
132	الشيطان والسعير
136	من فوائد المبحث
140	2- بين الغلام والولد
144	استنتاج:
148	3- تكرار لفظة فرعون
149	بعض وظائف لفظة فرعون في آية هود:
151	إيجاءات لفظة فرعون في الآيات الأولى نزولاً
157	من نتائج هذا المبحث:
163	4- تكرير لفظة الميزان:
171	5- تكرار لفظة الكذب
173	6- تكرار لفظة الكتاب
177	7- تكرار إحداهما:
177	- في البقرة: فنذكر إحداهما
180	- في القصص: قالت إحداهما

## الفصل الثالث

### ما اختلف من المكرر في تذكير أو تنكير أو تأخير وأسراره

- 183..... أولًا: ما تشابه نظمه واختلف في التأنيث والتذكير
- 184..... بعض الأحكام في التأنيث
- 187..... 1- بين سورة النحل وسورة المؤمنون: (بُطُونَهُ وَبُطُونَهَا):
- 195..... 2- بين سورتي الأنبياء والتحريم: (فَنفَخْنَا فِيهَا، وَنَفَخْنَا فِيهِ)
- 195..... 3- بين سورتي آل عمران والمائدة: (فَأَنْفَخَ فِيهِ، فَتَنَفَخَ فِيهَا)
- 201..... 4- بين ما جاء في بعض السُّور (بَلَدَةٌ مَيِّتًا) و(بَلَدٌ مَيِّتٌ)
- 212... 5- بين سورتي: القمر والحاقة: (أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ) و(أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)
- 218..... ملاحظات واستنتاج
- 222..... ثانيا: ما تشابه لفظه واختلف في التعريف والتنكير
- 223..... 1- تنكير لفظة المعروف وتعريفها في البقرة
- 224..... 2- تنكير لفظة الحق وتعريفها
- 226..... 3- تنكير لفظة البلد وتعريفها:
- 226..... 4- تعريف العزيز الحكيم وتنكيره
- 227..... 5- تعريف السميع العليم وتنكيره
- 229..... 6- تعريف السلام وتنكيره:
- 231..... 7- تكرر لفظتي العسر واليسر معرفة ومنكرة في سورة الشرح
- 233..... - ثالثًا: ما تشابه لفظه واختلف في التقديم والتأخير:
- 233..... 1- تقديم الجار والمجرور وتأخيرهما بين: يس والقصص: (من أقصى المدينة)
- 238..... 2- تقديم الجار والمجرور وتأخيرهما: (به) و(فيه)
- 239..... 1-2- بين الأنفال وآل عمران
- 244..... 2-2- بين البقرة وبين المائدة والأنعام والنحل
- 249..... 3-2- بين النحل وفاطر: (فيه)

## الفصل الرابع

### استعمالات ( لا ) مكررة ومقدرة وأغراضها البلاغية وأسرارها البيانية

- 256 ..... استعمالات ( لا ) مكررة ومقدرة وأغراضها البلاغية
- 259 ..... - تحليل آية الأعراف وتأويلها: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾
- 264 ..... - تحليل آية البقرة: ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾
- 269 ..... - عود إلى تحليل آية الأعراف
- 280 ..... - زيادة ( لا ) في آية الفاتحة
- 284 ..... تكرر ( لا ) في سورة القيامة
- 287 ..... تكرر ( لا ) ذكرا وتقديرا
- 288 ..... تقدير ( لا ) في قوله تعالى: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾
- 290 ..... ( لا ) بين آية البقرة وآية البينة
- 294 ..... ذكر ( لا ) وتكرارها، وحذفها وتقديرها حسب مقتضيات المقام
- 298 ..... تكرر ( لا ) في آية من سورة نوح
- 302 ..... خلاصة عن تكرر ( لا )

## الفصل الخامس

### ملاح شخصية السورة وبعض أسرارها من خلال ما تكرر فيها

- 315 ..... التكرارُ وشخصية السُّور
- 316 ..... 1- التشابه والاختلاف بين السورتين: قصة آدم وإبليس
- 322 ..... 2- التشابه والاختلاف بين السورتين: قصة موسى مع بني إسرائيل
- 327 ..... شخصية السورة من خلال تحليل تكرر آية القبلة
- 341 ..... الحكمة من تعيين القبلة
- 344 ..... ملاح السورة في التذييل المكرر
- 349 ..... ملاح السورة في بعض ما تكرر من حروف المعاني ( حرف المهلة ثم )

## الفصل السادس

### أغراض التكرار وأساراه والقصص القرآني وأغراضه

356 .....	أغراض التكرار وأساراه
376.....	القصص القرآني وأغراضه
379.....	أغراض وفوائد تكرار القصة في القرآن
383 .....	الخاتمة
410 .....	قائمة المصادر والمراجع
428 .....	الفهرس